



مدار الفوضى

تغير المناخ والجغرافيا الجديدة للعنف

تأليف: كريستيان بارينتي
ترجمة: د. سعد الدين خرفان

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

علم للعرف

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود فؤاد زكريا (1927-2010)

مدار الفوضى

تغير المناخ والجغرافيا الجديدة للعنف

تأليف: كريستيان بارينتي
ترجمة: د. سعد الدين خرفان



أبريل 2014

411

علم للعفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

أسبها
أحمد مشاري العدواني
د. فؤاد زكريا

المشرف العام
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير
د. محمد هاتم الرميحي
rumaihim@outlook.com

هيئة التحرير
أ. جاسم خالد السعدون
أ. خليل علي حيدر
د. عبدالله الجسسي
د. علي زيد الزعبي
أ. د. فريدة محمد العوضي
أ. د. ناجي سعود الزيد

مديرة التحرير
شروق عبدالحسن مظفر
a.almarifah@nccalkw.com

سكرتيرة التحرير
عالية مجيد الصراف

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب : 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنفيذ والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 418 - 4

رقم الإيداع (2014/135)

العنوان الأصلي للكتاب

Tropic of Chaos

Climate Change and the New Geography of Violence

By

Christian Parenti

Nation Books, NY 2011

All Rights Reserved. Authorized translation from the English language edition published by Nation Books, a member of the Perseus Books Group. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder, Perseus Book Group.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

جمادى الآخرة 1435 هـ - أبريل 2014

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

8	مقدمة المترجم:
15	الجزء الأول: آخر دعوة للأوهام الفصل الأول:
17	من قتل إيكارو لورومان؟
	الفصل الثاني:
29	المتنبئون العسكريون
	الفصل الثالث:
37	حرب من أجل كوكب صغير: التكيف كأسلوب لمكافحة التمرد
	الجزء الثاني: أفريقيا
55	الفصل الرابع:
57	الجغرافيا السياسية لغارة على قطيع
	الفصل الخامس:
73	الأمطار الموسمية ونقاط التحول
	الفصل السادس:
85	صعود دول أفريقيا الشرقية وسقوطها
	الفصل السابع:
97	النبوءة الصومالية
	الفصل الثامن:
105	تنظير الدول الفاشلة

113	الجزء الثالث: آسيا الفصل التاسع:
115	مخدرات وجفاف وجهاد: التاريخ البيئي للحرب الأفغانية
	الفصل العاشر:
131	حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان
	الفصل الحادي عشر:
141	الهند وباكستان: الجليديات والأنهار والعمل غير المنتهي
	الفصل الثاني عشر:
151	ثوار الجفاف في الهند
173	الجزء الرابع: أمريكا اللاتينية الفصل الثالث عشر:
175	وجع ريو: من طقس عنيف إلى «كوكب من العشوائيات»
	الفصل الرابع عشر:
199	غولفو ثا ميكسيكال: لاجئو المناخ والتجارة الحرة والحرب في الجوار
	الفصل الخامس عشر:
227	جدران وغوغاء أمريكيون
	الفصل السادس عشر:
245	مضامين واحتمالات
265	الهوامش

مقدمة المترجم

يأتي هذا الكتاب بعنوان «مدار الفوضى: الجغرافيا السياسية لتغير المناخ»، كمحاولة لربط موضوع تغير المناخ بالصراع الاجتماعي والعنف السياسي اللذين يتميز بهما العالم اليوم. يقصد الكاتب بـ «مدار الفوضى» جغرافيا ذلك الحزام على طرفي خط الاستواء بين مدار السرطان ومدار الجدي، والذي تشهد دوله صراعات عنيفة وحروباً أهلية وجريمة منظمة. وهو المنطقة نفسها التي يضرب فيها تغير المناخ بقوة من خلال دورات الجفاف، وتكرر الفيضانات. لا يعزو الكاتب هذه المشاكل كلها إلى تغير المناخ وحده، لكنه يرى أنه أصبح عاملاً رئيساً إضافة إلى العوامل الأخرى الموجودة مسبقاً مثل إرث الحرب الباردة، وتبني الاقتصاد الليبرالي الجديد، فيما دعاه ثلاثية التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ.

«نرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يفيدده ويثير فضوله لمعرفة المزيد حول تغير المناخ والقضايا الاجتماعية والسياسية الأخرى المرتبطة به والتي تؤثر فينا وفي الأجيال المقبلة»

المترجم

لحظ العلماء تغيراً في المناخ خلال العقود الأخيرة نجم عن ارتفاع في متوسط درجة حرارة الأرض. ارتبط هذا بازدياد تركيز غازات الدفيئة التي تحبس الإشعاع الحراري المرتد من سطح الأرض. ويأتي في مقدمة هذه الغازات ثاني أكسيد الكربون الذي يأتي معظمه من استعمال الوقود الحفري كالفحم والنفط والغاز في الطاقة والتدفئة والنقل. ازداد تركيز هذا الغاز من 280 جزءاً في المليون (ج. ف. م) قبل الثورة الصناعية إلى 390 (ج. ف. م) الآن. لقد تسبب هذا مسبقاً في رفع درجة حرارة الأرض بحدود 0.6° م خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وسيؤدي في حال استمراره إلى زيادة درجة حرارة الأرض بـ 2 إلى 4 درجات مئوية بحلول منتصف هذا القرن. سينتج عن هذا ذوبان الجليديات والثلوج، وغمر المناطق الساحلية نتيجة ارتفاع سطح البحر، وازدياد تكرار حوادث الطقس العنيفة وشدها، كالجفاف والفيضانات والأعاصير.

يبدأ المؤلف بشرح تأثير تغير المناخ بعرض حادث مقتل راعٍ من التوركانا في شمال كينيا اسمه لوكارنو. ولفهم خلفية هذا الحادث يسافر إلى شمال كينيا حيث يدور الصراع بين قبيلتين على الماشية. قبيلة التوركانا الكبيرة التي تعتمد على الرعي، وقبيلة البوكوت الأصغر لكن الأكثر عنفاً، والتي تقوم بالإغارة على القطيع وسرقته. لقد أدى تغير المناخ في منطقة الساحل الأفريقي إلى ازدياد دورات الجفاف، وتأخر هطول الأمطار، ومجيئها على شكل فيضانات عارمة، في بلد يعتمد سكانه على الزراعة والرعي. لكن تغير المناخ لم يكن العامل الوحيد، إذ ساعده على ذلك انتشار الأسلحة الخفيفة من الدول المجاورة كأوغندا والصومال. ففي أوغندا استولى عيدي أمين على السلطة، وقادت سياساته الفاسدة وتدخله في تنزانيا إلى انهيار الدولة وانتشار الأسلحة والفوضى فيها. وفي الصومال أدت الحرب الباردة إلى نشوء حرب بالوكالة بين الصومال وأثيوبيا على أوغادين، انتهت بالانقلاب على سياد بري، وتفكك الصومال وتحوله إلى دولة فاشلة.

ينتقل الكاتب بنا بعد ذلك من شرق أفريقيا إلى أوسط آسيا، حيث تدور صراعات عنيفة منذ عقود. يرى الكاتب أن الأزمة بدأت في أفغانستان قبل الاجتياح الأمريكي، وحتى قبل تدخل الاتحاد السوفييتي. يعود بالأحداث إلى موجة الجفاف الشديد التي ضربت مقاطعة غور أيام الملك ظاهر شاه عام 1969. أدت هذه الأزمة

إلى انقلاب داود خان في العام 1973، ومن ثم إلى الحكم الشيوعي وتدخل الاتحاد السوفييتي في العام 1979. تضرب أزمة الجفاف اليوم أفغانستان كلها، وهذا يفسر تحول المزارعين إلى زراعة المخدرات. فالمعروف أن نبات الخشخاش يستهلك سدس كمية المياه التي تتطلبها زراعة المساحة نفسها بالقمح. أضف إلى ذلك الفارق بين سعر القمح وسعر المخدرات. أدى هذا كله إلى انتشار هذه الزراعة هناك خاصة مع عدم وجود دعم من الدولة للمزارعين، أو حماية لهم ضد الجفاف. وقد أدى هذا إلى تأييد طالبان التي تحمي هذه الزراعة وتستفيد منها أيضا، ومقاومة الحكومة ومعها الولايات المتحدة التي تحاول القضاء عليها.

كما يتجلى تأثير تغير المناخ في الصراع بين القوتين النوويتين الهند وباكستان بموضوع كشمير. كانت اتفاقية تقسيم الهند تقضي بأن تنضم المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى باكستان، غير أن كشمير التي يمثل المسلمون أكثر من 70 في المائة من سكانها كانت تحكم من مہراجا هندوسي. وعند الاستقلال تذرع بدخول مقاتلين من باكستان وطلب تدخل الهند. احتلت الهند كشمير، وعلى الرغم من أنها وافقت على إجراء استفتاء فيها، فإنها لم تنفذ ذلك قط. تنبع أهمية كشمير من موقعها الإستراتيجي في وسط آسيا، ومن أنها تسيطر على جليديات جبال الهمالايا. تتحكم هذه الجليديات بتدفق مياه الأنهار التي تنبع من هناك، ومنها نهر السند الذي يروي أراضي البنجاب في باكستان، ويعتبر شريان الحياة الرئيس فيها. وقعت الهند وباكستان برعاية البنك الدولي في الخمسينيات على اتفاقية نهر السند بحيث تكون لباكستان حقوق حصرية على كمية المياه، وألا تقوم الهند إلا ببناء سدود لتوليد الطاقة الكهربائية، وبموافقة باكستان. لكن تغير المناخ أدى إلى تقلص هذه الجليديات بشكل كبير، كما أن الهند أقامت عدة سدود على روافد النهر مما أنقص من تدفقه، وخفض مستوى المياه الجوفية في باكستان. ليس لدى باكستان ما ترد به سوى التمسك بحقها في كشمير، وتأييد المعارضة فيها ضد الهند. وما لم يتم تأمين حقوق الباكستان على المياه، فسوف يستمر الصراع هناك.

وفي الهند أكبر دولة ديمقراطية في العالم يدور أقدم صراع مسلح في آسيا بين الثوار الماويين والسلطات في الولايات الجنوبية الشرقية، ومنها أندرا

براديش. وهنا نلمس التجمع الكارثي على شكل تغير مناخي أدى إلى جفاف وفيضانات وهجرات جماعية، تضاف إليها سياسات ليبرالية جديدة خفّضت الدعم للمزارعين، وقلّصت الإنفاق على مشاريع الري. يستعرض الكاتب هنا ما سمي بالثوة الخضراء في الستينيات التي جاءت على شكل زراعة محصول واحد معدل جينيا كالقطن، واستخدام مكثف للأسمدة الصناعية والمبيدات الحشرية. لقد أدى هذا إلى رفع المردود لعدة سنوات، لكنه تسبب بنتائج كارثية على المدى الطويل. فبينما زاد المحصول تناقصت أسعار القطن وقل دخل المزارعين. وبينما تخلت الدولة عن إقراض المزارعين ودعمهم وترميم أنظمة الري القديمة، لجأ المزارعون للاقتراض من مرابين خاصين بفوائد كبيرة لشراء مستلزمات هذه الزراعة وحفر الآبار الجوفية. تناقص مردود الأرض أيضا نظرا إلى زراعة محصول واحد وإزالة الغابات والاعتماد على الأسمدة والمبيدات الذي أدى إلى تدهور التربة. وعند فشل المحصول أو انخفاضه لم يكن أمام المزارعين سوى الانتحار، أو الانضمام إلى صفوف العصابات المسلحة.

يقفز المؤلف بعد ذلك فوق المحيط الهادئ إلى أمريكا اللاتينية. وهناك يطلعنا على مشهد البؤس المتمثل في ضواحي السكن العشوائي أو الفافيلات (*) التي تطل من الأعلى على أحياء الطبقة الغنية الممتدة على طول شاطئ ريو. تكتظ هذه الفافيلات بمهاجرين قدموا من منطقة الشمال الشرقي الزراعية والمكتظة بالسكان، والتي تشهد منذ عقود دورات من الجفاف الشديد. تكيف بعض السكان هناك مع الوضع باحتلال الأراضي، وزراعتها بطرق الزراعة الغابية التي تعتمد على تنويع المحصول، واستخدام تقنيات مبتكرة في الري. أما الكثيرون فقد هاجروا إلى المدن الكبرى ليعيشوا في حزام البؤس المحيط بها. أدت الحرب الباردة والديكتاتورية العسكرية إلى اعتقال النشطاء في المعارضة. وفي السجون تشكلت العصابات التي استفادت من تجربة المنظمات السياسية، وتحولت إلى الجريمة المنظمة وفرض الضرائب وتجارة المخدرات. شجعت السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة التي فرضت من المؤسسات الدولية على الحكومة البرازيلية لتسديد ديونها إلى انتشار هذه العشوائيات. ومع صعود دي سيلفا إلى الحكم

(*) Favelas، هي الكلمة البرتغالية للأحياء العشوائية ذات العش القصدية.

استطاعت البرازيل، عن طريق إعادة توزيع الثروة ودعم برامج التعليم والرعاية الصحية، أن تسدد ديونها وأن تتكيف مع تغير المناخ، وإن لم تقم بشكل مباشر بعملية التخفيف والتكيف اللازمين.

في المكسيك، كما في البرازيل، أدى تغير المناخ المتمثل بالجفاف والازدهار الطحلي في خليج المكسيك إلى هجرة المزارعين والعاطلين عن العمل إلى الشمال بقصد الهجرة إلى أمريكا الشمالية. ساعد على هذا أيضا توجهات الدولة التي تخلت عن سياسة التعاونيات بعد الثورة المكسيكية، وعمدت إلى الاقتراض من المصارف العالمية واستثمارها في التنمية على أمل تسديدها من عوائدها النفطية المتزايدة. لكن أسعار النفط انهارت ووقعت الدولة في قبضة مديونية ضخمة. فرض الدائنون السياسة الليبرالية الجديدة المتمثلة في التقشف وتقليص الإنفاق على الزراعة والخدمات العامة. أدى هذا كله إلى انتشار العنف وجاءت اتفاقية النفط لدول أمريكا الشمالية لتيسر عملية تهريب المخدرات من المكسيك، مما استدعى اتخاذ إجراءات وقائية شديدة في منطقة الحدود.

يستخلص المؤلف أن تغير المناخ أمر واقع، حتى لو توقفنا عن إصدار غازات الدفيئة الآن. ويبقى السؤال: كيف يحصل التكيف مع تغير المناخ. في عالم الجنوب، كما شهدنا، يحصل ذلك عن طريق هجرة السكان إلى المدن، ومن هذه البلدان إلى عالم الشمال. تنتشر الصراعات العرقية والطائفية، وتقوم مكافحة التمرد هناك باستخدام العنف الشديد، وتخريب النسيج الاجتماعي. وبالتالي تتحول الكثير من هذه الدول إلى دول فاشلة أو شبه فاشلة. وفي عالم الشمال يتخذ التكيف شكل قارب نجاة مسلح. يتمثل هذا في تحصين الحدود وزيادة الإنفاق على الأمن وانتشار ثقافة كره الأجانب وتقليص الحريات المدنية وتطوير إستراتيجية مكافحة تمرد تستخدم العنف والاستخبارات والوكلاء المحليين.

يقدم المؤلف الكثير من المعلومات الجديدة والمفيدة والمهمة. وهو يربط بين الأحداث ببراعة مكنته منها مهمته بوصفه صحافيا، وزياراته للعديد من الدول في القارات كلها. وتتفق معه في ضرورة التخفيف الفوري لغازات الدفيئة باستخدام التقنيات النظيفة. ويقع هذا على عاتق الدول الكبرى، خاصة الولايات المتحدة والصين. ولأجل ذلك يجب أن توظف هذه الحكومات في شراء الطاقة النظيفة

وتشجيعها. كما نتفق معه في نظرتة إلى التكيف عن طريق تحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الثروة ضمن كل دولة، وبين دول الشمال والجنوب، وضرورة إعطاء الدول دورا فعالا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. غير أننا نختلف معه في بعض النقاط حول تصوره للعوامل الثقافية والحضارية والتقليل من أهميتها بالمقارنة مع العوامل الاقتصادية والتقنية والاجتماعية.

نرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يفيد ويثير فضوله لمعرفة المزيد حول تغير المناخ والقضايا الاجتماعية والسياسية الأخرى المرتبطة به والتي تؤثر فينا وفي الأجيال المقبلة.

المترجم

د. سعد الدين خرفان

الجزء الأول
آخر دعوة للأوهام

من قتل إيكارو لورومان؟

ما هذه الجذور المتشعبة؟
أي غصون تنمو من هذه النفايات
المتحجرة؟
يا ابن آدم،
لا يمكنك القول، ولا التخمين، لأنك تعرف
فقط كومة من الصور المحطمة،
حيث تضرب الشمس،
والشجرة الميتة لا توفر ملاذا، ولا يعطي
الجندب راحة،
ولا تصدر الصخرة الجافة خرير ماء.
ت. س. إليوت، الأرض اليباب

رقد إيكارو لورومان ميتا تحت شجرة
أكاسيا مسطحة القمة، تلقي أغصانها
المتشابكة ظلا مختلطا ناعما فوق جثته. كان
يضع حلقا فضيا في أذنه، ويلبس بنطالا قصيرا

«لا أعني بالتجمع الكارثي مجرد
حدوث عدة كوارث في الوقت
ذاته، واحدة فوق الأخرى. بل
أحاجج بأن المشاكل تتشابك
ويضخم بعضها بعضا، بحيث تعبر
كل واحدة عن نفسها من خلال
حادثة أخرى»

المؤلف

من الخاكي، ويرقد على جنبه ويده محنية بصعوبة تحته. اختفى الجانب الأيسر من جبهة إيكارو، التي تفجرت أثناء خروج رصاصة منها. شكل دمه بقعة سوداء دهنية على الأرض الصحراوية. سرق حذاؤه وشاله وبنديته.

كان إيكارو راعيا من قبيلة توركانا التي تقطن في شمال غرب كينيا على البراري العشبية القاحلة لوادي ريفت. قتل في اليوم السابق عندما شنت قبيلة البوكوت المجاورة غارة ضخمة على القطيع. رقدت جثة إيكارو هنا على الأرض معرضة لعناصر الطبيعة، حيث ترعى المعز والأغنام بالقرب منها، لأن قبيلة التوركنا لا تدفن الناس الذين يقتلون في الغارات. إنهم يعتقدون أن هذا يجلب لهم الحظ السيئ، وأنه سيستدعي مزيدا من الغارات فقط. لذا فهم يتركون موتاهم ليتحللوا حيث يسقطون. لكن هذه الاحتياطات الخرافية لن توقف أعداءهم، لأن قوى اجتماعية ومناخية تدفعهم إلى المضي في ذلك.

دفعت مجموعة التوركنا التي كنت أزورها نحو الجنوب من جراء جفاف شديد، وكانوا في ذلك الوقت يرعون قطعانهم على حافة حقلهم التقليدي بالقرب جدا من أعدائهم من قبيلة البوكوت. في ممر الرعاة في شرق أفريقيا هناك نمط أساسي واضح: خلال أوقات الجفاف يندر الماء والكلأ، ويمرض القطيع، ويموت الكثير منه. ولتعويض الخسارة يغير الشباب على جيرانهم. يعني بدء التغير المناخي الناجم عن الإنسان أن كينيا ستشهد درجات متزايدة من الحرارة، وموجات أكثر من الجفاف. ومع ذلك فهي تتلقى كميات أكبر من الهطول إجمالا. لكن المشكلة هي أن المطر يسقط الآن بشكل فوضوي، وبهطولات عنيفة ومفاجئة ودفعة واحدة، بدلا من أن يحدث ذلك تدريجيا خلال فصل واحد. وهذا يعني تشكل فيضانات جارفة يتبعها جفاف⁽¹⁾. لقد أصبحت الساعة المطرية التي تعتمد عليها الزراعة والمجتمع في كينيا غير منتظمة بصورة متزايدة.

دلائل حروب المناخ

لماذا مات إيكارو لورومان؟ ما القوى التي دفعت إلى اغتياله؟ كان لإيكارو البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاما تقريبا - العمر عند التوركنا يقدر فقط عادة - ثلاث زوجات وثمانية أطفال وخمسون رأسا من القطيع تقريبا. كان رجلا

من قتل إيكارو لورومان؟

مهما وقويا في مجتمعه: محاربا في عز شبابه، كبيرا بما يكفي ليمتلك الكثير من الخبرة والحكمة، لكنه مازال شابا وقويا بما يكفي للجري والقتال لأيام بقليل من الغذاء والماء. والآن يرقد ميتا.

يمكننا القول إن التقاليد هي التي قتلت إيكارو، وهي العادة القديمة في «سرقة المخزون»، الإغارة على القطيع بين القبائل النيلية (Nilotic) (*) في شرق أفريقيا. أو يمكننا القول إنه اغتيل من قبل رجل معين من البوكوت من جماعة الكاراسوك. أو أنه قتل بسبب الجفاف. فعندما يشتد الجفاف، ترتفع وتيرة الغارات.

أو ربما قتل إيكارو بسبب قوى أكبر من ذلك، وهي قوى تتخطى خصائص هذا الجفاف المحلي، وهذه الغارة، وهذه الجغرافيا، وتقاليد القطيع النيلية. خطر لي بينما كنت أعبّر الصحراء مع محاربي التوركانا لنفتش عن هضاب الكاراسوك من أجل العثور على مجموعة محاربي البوكوت، أن من الواضح أن مقتل إيكارو نجم عن مجموعة من أخطر الحوادث في التاريخ البشري: التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ. وهذا الكتاب هو محاولة لفهم سبب مقتل إيكارو لورومان وآخرين كثيرين جدا مثله من خلال عدسات هذا التجمع الكارثي.

الحقائق

يتخذ الإجماع العلمي حول حالة المناخ أشكالا مؤسسية في هيئة اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC. لا تجري الـ IPCC بحوثا مستقلة، لكنها تعمل بدلا من ذلك مركزا عالميا لتبادل المعلومات، مدعوما من قبل الحكومات والأمم المتحدة. فهي تجمع كل الأدبيات العلمية المنشورة حول المناخ والقضايا المتعلقة به في علوم الأحياء ودورة المياه والمحيطات والغابات والجليديات والعلوم الأخرى وتلخصها، بحيث يمكن للحكومات أن تتفاعل مع قضايا المناخ بناء على بحث علمي موثق.

(*) القبائل النيلية Nilotic هي التي تعيش في وادي النيل. [المترجم].

هوجمت ال IPCC من قبل ناكرين للتغير المناخي على أنها مخطئة ومثيرة للربح بسبب عدد من الأخطاء الصغيرة التي ارتكبتها في تقريرها التقويمي الرابع لعام 2007. لكن معالجة هذه الأخطاء لا تغير من الاستنتاجات العامة للتقرير. في الحقيقة، ولأن ال IPCC تعمل على مبدأ التوافق فإن استنتاجاتها محافظة جداً، وتتخلف تقاريرها سنوات عن التطورات العلمية الأحدث. تمثل ال IPCC القاسم المشترك الأدنى لاستنتاجات مقبولة كلياً من التيار العلمي الرئيس.

استنتجت ال IPCC أن اعتماد الحضارة على حرق الوقود الأحفوري رفع تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو من نحو 280 جزءاً في المليون (ج. ف. م) قبل الثورة الصناعية إلى 390 (ج. ف. م) اليوم. وتظهر تحاليل لب الجليد القديم أن 390 ج.ف.م، هو أعلى تركيز لغاز ثاني أكسيد الكربون في الجو خلال ال 10000 سنة الأخيرة⁽²⁾.

يعمل غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو كعمل ألواح الزجاج في دفيئة زراعية، حيث يسمح لحرارة الشمس بالدخول، لكنه يمنع الكثير منها من الارتداد بالإشعاع إلى الفضاء. نحن بحاجة لغاز ثاني أكسيد الكربون - فلولاها لكانت الأرض صخرة متجلدة باردة لا حياة فيها. لكننا خلال الأعوام المائة والخمسين الأخيرة شحنا السماء بالكثير جداً من غاز ثاني أكسيد الكربون بحيث أصبح الكوكب يزداد سخونة.

وكما يشرح مركز بيو للتغير المناخي العالمي^(*) «ارتفع متوسط درجة حرارة سطح الأرض بـ 1.4° ف (0.8° م) منذ السنوات الأولى للقرن العشرين». وحدثت أشد 11 سنة بحرارة مسجلة (منذ العام 1850) كلها خلال السنوات الـ 13 السابقة. وكانت أشد خمس سنوات حرارة حتى تاريخه هي أعوام 2005 و 1998 و 2002 و 2003 و 2007⁽³⁾.

ربما لا يبدو أن ارتفاعاً أقل من 1° م في درجة الحرارة خلال مائة عام أمر خطير، لكن العلماء يعتقدون أنه كاف ليبدأ في الإخلال بتوازن النظام المناخي. تخلي حلقات التغذية الراجعة السلبية التي تحافظ على استقرار مناخ الأرض الطريق بازدياد لحقات التغذية الراجعة الإيجابية المخلة بالاستقرار، حيث

(*) Pew center on Global Climate Change.

من قتل إيكارو لورومان؟

تتراكم الانحرافات عن المعدل بعضها فوق بعض، بدلا من أن تتلاشى مع الوقت. تذوب صفائح الجليد في غرينلاند والقطب الشمالي - والتي تعكس كميات ضخمة من الإشعاع الشمسي إلى الفضاء، وتنظم تدفق تيارات المحيط - بمعدلات أسرع بكثير مما تنبأ به علماء المناخ منذ سنوات قليلة. ويعني فقد الجليد العاكس امتصاص كمية أكبر من الإشعاع الشمسي، وتسخين الأرض بسرعة أكبر. تذوب جليديات القطب بسرعة ملقية بمليارات الغالونات من الماء العذب الذي يغير من كيمياء المحيطات وتياراتها ويضيف حجما يهدد برفع مستوى سطح البحر حتى 1 متر خلال هذا القرن⁽⁴⁾.

التحدي الاجتماعي

يجري التغير المناخي بسرعة أكبر مما كان متوقعا في البداية، وقد لمسنا تأثيراته علينا مسبقا على شكل حوادث من الطقس العنيف، وتصحر المحيطات وتحمضها وذوبان الجليد، وارتفاع مستوى سطح البحر. يعتقد العلماء الذين يبنون النماذج الحاسوبية التي تحلل بيانات المناخ أنه حتى لو توقفنا عن إطلاق غازات الدفيئة في الجو فإن مستويات غاز ثاني أكسيد الكربون أصبحت مسبقا عالية جدا بحيث إننا حوصرنا ضمن ازدياد مهم في درجات حرارة الأرض. لقد أصبح التغير المناخي المخرب حقيقة مؤكدة، حتى لو أنجزنا التغيير الاقتصادي بعيدا عن الوقود الأحفوري.

بدأ تغير المناخ يعبر عن نفسه مسبقا في مجال السياسة. تسبب حوادث الطقس العنيف وأنماط المناخ السيئة أزمات انسانية أكثر، وتغذي الحروب الأهلية. قدرت الأمم المتحدة أن مناشداتها للمساعدات الانسانية لحالات الطوارئ في العام 2007 جميعها عدا واحدة منها كانت متعلقة بالمناخ. ويؤثر تغير المناخ مسبقا بشكل سلبي على 300 مليون من البشر في العام، مسببا مقتل 300 ألف منهم. وبحلول العام 2030 - مع تحول الفيضانات وحالات الجفاف وحرائق الغابات والأوبئة الجديدة للأسوأ - يمكن أن يقتل 500 ألف من البشر كل عام بسبب التغير المناخي، ويمكن أن تصل الكلفة الاقتصادية لهذه الكوارث إلى 600 مليار دولار كل عام⁽⁵⁾.

سيكون ارتفاع مستوى سطح البحر أعظم هذه المشاكل. تنبأت الـ IPCC في العام 2007 أن يرتفع مستوى سطح البحر بمتوسط 7 إلى 23 بوصة خلال هذا القرن. عدلت هذه الأرقام بسرعة، إذ يعتقد العلماء الآن أن مستوى سطح البحر سيرتفع بمعدل 5 أقدام خلال الـ 90 عاما المقبلة⁽⁶⁾. ستؤدي مثل هذه الارتفاعات إلى انزلاقات ضخمة للسكان. تنبأت دراسة حديثة من مركز شبكة معلومات علوم الأرض الدولية في جامعة كولومبيا أن 700 مليون لاجئ مناخي سيهجرون بحلول العام 2050⁽⁷⁾.

ربما كان أوائل لاجئي المناخ في العصر الحديث هم الـ 500 ألف مواطن من بنغلاديش الذين أصبحوا بلا مأوى عندما غمرت نصف جزيرة بولا بالماء في العام 2005. وفي بنغلاديش سيُجبر 22 مليوناً من البشر على إخلاء منازلهم بحلول العام 2050 بسبب تغير المناخ. تبني الهند مسبقاً سياجا مسلحا على طول حدودها البالغ طولها 2500 ميل مع بنغلاديش، ويضغط الطلاب الناشطون في اليمين الهندوسي في الهند بقوة لترحيل المهاجرين البنغاليين (المسلمين) بشكل جماعي⁽⁸⁾.

وفي أثناء ذلك تخطط 22 دولة من جزر المحيط الهادئ، والتي تؤوي 7 ملايين شخص، لأن تعيد توطين سكانها مع تهديد ارتفاع مستوى سطح البحر لها بالزوال. ما الذي سيحدث عندما ستغمر المياه المدن الصينية؟ وعندما تبدأ المياه بغمر الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة، كيف سيكون رد فعل الناس والمؤسسات؟

التجمع الكارثي

يأتي التغير المناخي إلى عالم مهياً للأزمة. تتقاطع الاختلالات الحالية والمتوقعة الناجمة عن تغير المناخ مع أزمات الفقر والعنف الموجودة مسبقاً. أدعو هذا التلاقح بين الكوارث السياسية والاقتصادية والبيئية بالتجمع الكارثي. لا أعني بالتجمع الكارثي مجرد حدوث عدة كوارث في الوقت ذاته، واحدة فوق الأخرى. بل أحاجج بأن المشاكل تتشابك وتضخم بعضها بعضاً، بحيث تعبر كل واحدة عن نفسها من خلال حادثة أخرى.

من قتل إيكارو لورومان؟

تتعامل المجتمعات، مثل الناس، مع التحديات الجديدة بطرق تتشكل من خبراتها المؤلمة الماضية. لذا فالمجتمعات المتضررة كالناس المتضررين تستجيب غالباً لأزمة جديدة بطرق غير عقلانية وقصيرة النظر ومدمرة. في حالة التغير المناخي، الصدمة المسبقة التي هيأت الطريق لتكيف سيئ واستجابة اجتماعية مخربة، هي العسكرة في مرحلة الحرب الباردة، والمسارات الاقتصادية الليبرالية الجديدة للرأسمالية. خلال السنوات الأربعين السابقة شوهدت كل من القوتين علاقة الدولة بالمجتمع - مزيجة وظائف الدولة الجمعية والتنظيمية وتلك المتعلقة بإعادة توزيع الثروة وناسفة إياها، بينما طورت أكثر قدراتها القمعية والعسكرية. هذا، كما أدعي، يثبط من قدرة المجتمع على تجنب الاختلالات العنيفة مع بدء تأثير التغير المناخي.

في هذا الكتاب أتفحص السوابق التاريخية للكارثة المناخية من أجل تفسير كيف وصل العالم إلى مثل هذا التخبط، وبالتالي كيف أصبح مهياً للاستجابة للتغير المناخي بطرق تفاقم التداعيات الاجتماعية للنطقس العنيف الجديد. في معظم العالم يبدو أن التضامن الوحيد القادم استجابة لتغير المناخ هو القبلية الحصرية، وأن سياسة الدولة الوحيدة المتوافرة تجاهها هي القمع البوليسي. هذا ليس «طبيعياً» وحتمياً لكنه نتيجة تاريخ - وبخاصة تاريخ استغلال عالم الشمال لعالم الجنوب - من تحطيم المؤسسات والتدابير الاجتماعية التي كانت ستسمح باستجابة مختلفة أكثر إنتاجية.

زرعت الحرب الباردة بذور عدم الاستقرار في العالم الثالث، وتركت حروبها العديدة بالوكالة في الدول النامية تراثاً مكوناً من مجموعات مسلحة وأسلحة رخيصة وشبكات تهريب. ودفعت السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة - الخصخصة المتطرفة ورفع التحكم الاقتصادي - التي فرضت من قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي على اقتصادات عديدة في العالم الثالث - أو إذا شئت عالم الجنوب - نحو أزمة دائمة، وعدم مساواة شديدة. في هذه المجتمعات تحولت الدولة إلى صدف فارغة خالية من أي قدرة مؤسساتية هي بحاجة إليها لتوجيه التطور الاقتصادي أو معالجة الأزمات الاجتماعية.

عملت هذه القوى أحيانا مع بعضها بعضا في الوقت ذاته، وكانت في أحيان أخرى مستقلة تماما. على سبيل المثال، حطمت الصومال بالتدخلات العسكرية أثناء الحرب الباردة. أصبحت ساحة معركة كلاسيكية بالوكالة. وعلى الرغم من أنها خضعت لبعض التحرير الاقتصادي المحدود، فإن استخدامها كبيدق على رقعة شطرنج الصراع السياسي العالمي تسبب في انهيارها. ويصدق الشيء نفسه على أفغانستان التي كانت ولا تزال دولة فاشلة. لم تخضع أبدا لتعديل بنيوي، لكنها كانت ساحة حرب بالوكالة. من جهة أخرى لم تكن المكسيك - التي يشهد شمالها الآن أزمة عنف عميقة - دولة مواجهة خلال الحرب الباردة، لكنها خضعت لتحرير اقتصادي جذري.

ينضم تغير المناخ الآن إلى هذه الأزمات، ويعمل كمسرّع لها، ويدعوه البنتاغون بـ «مضاعف التهديد». على مدى الكوكب بأكمله يثير الطقس العنيف وشح المياه صراعات اجتماعية قائمة مسبقا ويسرعها. وجد معهد الأرض في جامعة كولومبيا ومجموعة الأزمات الدولية^(*)، بضم قواعد البيانات حول الحروب الأهلية وتوافر المياه، أنه «عندما يكون هطول الأمطار أقل من المعدل بفارق كبير فإن خطر تطور نزاع بمستوى منخفض إلى حرب أهلية شاملة يعادل ضعفه في السنة التالية تقريبا»⁽⁹⁾. يستشهد التقرير بمثال نيبال حيث كانت الانتفاضة الماوية قوية جدا بعد حالات الجفاف، ولم تكن موجودة تقريبا في مناطق تتمتع بهطول مطري عادي. وفي بعض الحالات عندما يكون الهطول متأخرا أو قليلا أو عندما يأتي كله دفعة واحدة أو في وقت غير مناسب تعود مجموعات مسلحة «شبه متقاعد» للظهور لبدء القتال من جديد.

بين مدار الجدي ومدار السرطان يقع ما أدعوه مدار الفوضى، وهو عبارة عن حزام من دول مستقلة حديثا متأزمة اقتصاديا وسياسيا تطوق خطوط عرض الأرض الوسطى. في هذا الشريط بين المدارين، بدأ تغير المناخ يضرب بقسوة. تعتمد المجتمعات ضمن هذا الشريط بقوة على الزراعة وصيد الأسماك، وبالتالي فهي مهددة جدا بالانزلاقات في أنماط الطقس. كانت هذه المنطقة أيضا على الخطوط الأمامية أثناء الحرب الباردة، وإعادة الهيكلة الاقتصادية على الطريقة

(*) International Crisis Group.

من قتل إيكارو لورومان؟

الليبرالية الجديدة. ونتيجة لذلك نجد في هذا الحزام تجمعا لمعظم الدول الفاشلة أو شبه الفاشلة في العالم النامي.

وبحسب دراسة حكومية سويدية فإن «هناك 46 دولة - موطنا لـ 2.7 مليار إنسان - مهددة بنشوب صراعات عنيفة فيها نتيجة تأثيرات تغير المناخ وتفاعلها مع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»⁽¹⁰⁾. تغطي القائمة في هذه الدراسة المنطقة ذاتها - خطوط العرض المتوسطة التي يتأثر معظمها الآن ببدء تغير المناخ الناجم عن البشر.

يدرك مخططون عسكريون غربيون، إن لم يكن زعماء سياسيون، أخطار تجمع الاضطراب السياسي مع تغير المناخ. وبدلا من القلق حول حروب تقليدية على الغذاء والماء، فهم يرون بروز جغرافيا مكونة من حروب أهلية وتدفق لاجئين ومذابح جماعية وانهيار اجتماعي مدفوعة كلها مناخيا. واستجابة لذلك يتصورون مشروعا مفتوحا لمكافحة التمرد يطبق على المستوى العالمي⁽¹¹⁾.

التخفيف والتكيف

كلمتا السر في النقاش حول المناخ هما التخفيف والتكيف - أي أن علينا أن نخفف من مسببات التغير المناخي وأن نتكيف مع تأثيراته. يعني التخفيف تخفيض إنتاجنا بشكل كبير من غاز ثاني أكسيد الكربون وغازات الدفيئة الأخرى كالميثان والكلوروفلوروكربون التي تمنع حرارة الشمس من الارتداد بالإشعاع إلى الفضاء. ويعني التخفيف التحول إلى مصادر الطاقة النظيفة مثل طاقة الرياح والطاقة الشمسية والطاقة الحرارية الجوفية والطاقة الحركية للمد والجزر. وهو يعني إغلاق محطات الطاقة العاملة بالفحم الحجري، وتحويل اقتصادنا من الاعتماد على النفط، وبناء شبكة كهربائية ذكية، والاستثمار الضخم في تقانات التقاط الكربون وتخزينه.

أما التكيف فيعني التهيؤ للعيش مع التأثيرات الناجمة عن التغير المناخي، التي بدأ بعضها فعلا، بينما سيأتي البعض الآخر حتما. إن التكيف هو تحد تقني وسياسي أيضا.

يعني التكيف التقني تحويل علاقتنا بالطبيعة مع تغير الطبيعة نفسها: تعلم العيش مع الضرر الذي جلبناه على أنفسنا عن طريق بناء جدران صد بحرية حول المدن الساحلية المهددة، وإعادة تهيئة الأرض لنمو أشجار المنغروف والنباتات المائية بحيث تعمل على كسر اندفاعات المد خلال عاصفة ضخمة، وفتح ممرات لهجرة الأحياء البرية لتنتقل شمالاً مع سخونة المناخ، وتطوير أشكال مستدامة من الزراعة، بحيث تعمل على مستو صناعي حتى مع تذبذب واسع لأنماط الطقس.

من جهة أخرى يعني التكيف السياسي تحويل علاقة البشرية بنفسها، وتحويل العلاقات الاجتماعية بين الناس. يعني التكيف السياسي الناجح مع تغير المناخ تطوير أساليب جديدة لاحتواء العنف الذي يتغذى على تغير المناخ وتجنبه وتخفيفه. ويتطلب هذا تنمية اقتصادية وإعادة توزيع للثروة، كما يتطلب أيضاً ديبلوماسية جديدة لبناء السلام.

مع ذلك، يجري بالفعل نوع آخر من التكيف السياسي، يمكن أن يدعى «سياسة زورق النجاة المسلح»، حيث يجري الاستجابة للتغير المناخي بالتسلح والاستبعاد والإهمال والقمع والسيطرة والقتل. يمكن للمرء أن يتصور بروز سلطوية خضراء في الدول الغنية، بينما تدفع الأزمة المناخية العالم الثالث نحو الفوضى. ومسبقاً، بينما يغذي التغير المناخي العنف على شكل جريمة وقمع وعصيان مدني وحرب، وحتى انهيار الدولة في عالم الجنوب، يستجيب الشمال بسلطوية جديدة. يخطط البنتاغون مع حلفائه الغربيين بشكل نشط لتكيف مسلح، يؤكد على احتواء بعيد الأمد ومفتوح لدول فاشلة أو في سبيلها إلى الفشل - أي مكافحة تمرد مستمرة للأبد.

هذا النوع من «الفاشية المناخية»، وهي سياسة مبنية على الاستبعاد والفصل والقمع، سياسة بشعة جداً، ومصيرها الفشل. لا بد من وجود مسار آخر. لا يمكن للدول المتعبة في عالم الجنوب أن تنهار من دون أن تأخذ في النهاية الاقتصادات الغنية معها. وإذا سمح لتغير المناخ بأن يحطم اقتصادات ودولا بأكملها، فلا يمكن لأي كمية من الجدران والمدافع والأسلاك الشائكة وطائرات الدرون المسلحة أو استخدام المرتزقة أن تنقذ بشكل دائم نصف العالم من نصفه الآخر.

الحجة

تقوم الفصول اللاحقة بزيارة إلى مدار الفوضى، وهو ذلك الحزام الفقير من الأرض بين خطوط العرض المتوسطة من الكوكب. لو كنت تتوقع منذ الوهلة الأولى كتابا حول المستقبل، فإنك في الحقيقة تمسك بكتاب حول الماضي. فمن فهم الماضي يمكننا أن نحلل بشكل أفضل كلا من الماضي والمستقبل الخطير الممتد أمامنا. أبدأ بعرض كيف تتحرك قوى الأمن في عالم الشمال نحو اعتناق تكيف مسلح. ثم انظر في تاريخ مكافحة التمرد كأحد التيارات التاريخية التي تقود نحو التجمع الكارثي، وكخاصة مركزية للتكيف المسلح.

ثم أعود إلى مسألة من قتل إيكارو لورومان في سلسلة من الفصول حول تاريخ التغير المناخي وسياسته في شرق أفريقيا. تنتقل القصة بعد ذلك إلى آسيا الوسطى لاستكشاف العناصر المناخية للحرب الأفغانية، والنزاع الهندي - الباكستاني. وبينما نحن في هذه المنطقة نقوم بزيارة فرعية إلى قرغيزستان، لأنها تمثل حالة متطرفة من الانهيار الاجتماعي المدفوع مناخيا. وبالتحرك شرقا نزور أندرا براديش لاستكشاف الروابط بين الليبرالية الجديدة وتغير المناخ، وانتشار رجال العصابات الماويين في شرق الهند. ثم نقفز فوق المحيط الهادئ لنستأنف القصة في البرازيل حيث أربط بين تغير المناخ في الشمال الشرقي Nordeste بالعنف المفرط في فافيلات favelas ريو دي جانيرو. في هذا القسم نرى كيف عمل القمع خلال حقبة الحرب الباردة بالتناغم مع الليبرالية الجديدة. ثم ننتقل شمالا إلى الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة، ونغوص بعمق أكبر في تأثير الليبرالية الاقتصادية الجديدة والتي هي - أكثر بكثير من عنف الحرب الباردة - السبب الرئيس في عدم الاستقرار في المكسيك. ثم نعود إلى الولايات المتحدة ونرى كيف تتشكل عسكرة الحدود والخوف من الأجانب بصورة متزايدة نتيجة الانهيار الحاصل شمال المكسيك.

أخيرا، أستعرض ما الذي يجب عمله. أحاجج بأن الطريقة الأفضل لمعالجة تأثيرات التغير المناخي هي معالجة الأزمات الاقتصادية والسياسية التي جعلتنا معرضين لفوضى محرصة مناخيا في المقام الأول. لكن يبقى التخفيف في نهاية المطاف أهم استراتيجية. التأثيرات الفيزيائية للتغير المناخي - ارتفاع مستوى

سطح البحر والتصحر والعواصف الاستثنائية والفيضانات - مخيفة حقا، لكنها كذلك هي نواحي التكيف الاجتماعي والسياسي الناشئة، التي غالبا ما تتخذ أشكالا مدمرة وقمعية. علينا أن نغير ذلك.

في النهاية، فإن أهم شيء هو التخفيف: علينا أن نزيل كربنة اقتصادنا.

المتنبئون العسكريون

التعامل مع مثل هذه الدول الفاشلة
والمقسمة هو، من نواح عدة، التحدي
الأمني الرئيس في عصرنا.

روبرت غيتس،

وزير الدفاع الأمريكي (*) 2010

يخطط البنتاغون لعالم يعاد تشكيله
بسبب تغير المناخ. يمكنك حتى أن تقول إن
البنتاغون يخطط لمعركة (***) أرمغدون. في
صيف العام 2008 أعطى الدكتور توماس
فينغار نائب مدير المخابرات الوطنية للتحليل
الكونغرس الأمريكي موجزا موثقاً عن التأثيرات
العسكرية لتغير المناخ. «سيشكل تهديد الأمن

(*) الأسبق.

(**) أرمغدون Armageddon (نسبة إلى تل مجيدو) هي المعركة
التي يقول العهد القديم إنها ستجري عند نهاية العالم وظهور المسيح
المنتظر، وهي اسم موقع في منطقة الجليل في فلسطين. [المترجم].

«يبدو أن سياسة قارب النجاة
المسلح هي الرابحة»

المؤلف

الغذائي لأسباب تتعلق بالندرة وعدم القدرة على الشراء قلقا متزايدا في أفريقيا وأنحاء أخرى من العالم. ومن دون المساعدات الغذائية من المحتمل أن تواجه المنطقة مستويات أعلى من عدم الاستقرار - خصوصا على شكل صدمات عرقية على ملكية الأرض».

ويتابع فينغار «وفيما يخصنا، على الولايات المتحدة أن تتوقع ضغوطا أكبر من جراء الهجرة، وأن تخطط لها... ستعرض حوادث الطقس العنيفة والدلائل المتزايدة على الغمر والغرق الكثيرين على الانتقال عاجلا وليس آجلا.. ومع حفز التغير المناخي إسداء معونات إنسانية أكثر، ستعرض قدرة المجتمع الدولي على الاستجابة إلى المزيد من الضغوط»^(١). التخطيط العسكري الذي يفكر فيه كاستجابة للأحداث يشكل هذه الأحداث أيضا. فالتخطيط الجاد جدا للحرب يمكن له أن يعيق السلم. خلقت القدرة الحربية المتطورة جدا للولايات المتحدة وصناعتها الحربية الضخمة مصالح قوية هنا، تعتمد على الحرب وبالتالي تشجعها. لقد انضم إلى المجمع الصناعي العسكري القديم - شركات كجنرال إلكتريك ولوكهيد وريثيون بأنظمة أسلحتها الغالية جدا - سرب كبير من شركات الأمن الصغيرة التي تقدم خدمات هجينة. ويخطر على الذهن شركات مثل بلاك ووتر ودين كورب وغلوبال، لكن شركات السجون الخاصة مثل شركة الإصلاحات الأمريكية، وشركة الإدارة والتدريب، ومجموعة جيو^(*) مشاركة أيضا في هذا المجال. هذا المجمع الأمني الجديد يقدم طيفا من الخدمات داخل البلد وخارجه: مراقبة ومعلومات وأمن حدود واعتقال وبناء تجهيزات وقواعد واستشارات ضد الإرهاب وخدمات لوجستية عسكرية وبوليسية وتحليل بيانات وتخطيط وتدريب وبالطبع الأمن الشخصي.

يمكن مشاهدة خدماته في كل مكان تعرض فيه الولايات المتحدة قوتها: في أفغانستان حيث تدير قوافل الإمداد، وتقدم الطعام، وتزود بالمتربين؛ وفي كولومبيا حيث ترش حقول الكوكا وتدريب الجيش؛ وفي الفلبين حيث تدرب الشرطة؛ وفي المكسيك حيث تحرس رجال الأعمال؛ وعلى طول الحدود المكسيكية - الأمريكية حيث تتعامل مع المهاجرين المحتجزين. يساعد اقتصاد القمع الجديد هذا على نشر عقيدة العدوان وكره الأجانب. وعلى سبيل المثال ضغطت شركات السجون الخاصة بقوة من أجل إصدار القانون القاسي ضد الهجرة في العام 2010⁽²⁾.

(*) Correction Corporation of America, Management and Training Corporation, and The Geo Group.

ومع تطور سياسة التغير المناخي بدأت هذه الشبكة من المصالح الطفيلية تشكل التكيف على شكل إدارة عسكرية للتفكك الحضاري العنيف.

الرؤية الكارثية على الورق

ناقش عدد كبير من التقارير الحكومية المشاكل الاجتماعية والعسكرية التي يحملها التغير المناخي. في العام 2008 أوجب الكونغرس أن تأخذ مراجعة الدفاع الرباعية (كل 4 سنوات) القادمة في العام 2010 - وهي الوثيقة السياسية التي تعرض المبادئ الموجهة للاستراتيجية والعقيدة العسكرية الأمريكية - بعين الاعتبار تأثيرات تغير المناخ على الأمن القومي. ألف أول هذه التحريات التي خرجت للعلن دراسة بعنوان «سيناريو تغير مناخي مفاجئ، وتأثيراته على الأمن القومي الأمريكي»، أعدها بيتر شفارتز وهو مستشار للمخابرات المركزية الأمريكية CIA، ورئيس سابق للتخطيط في شركة رويال دتش/ شل، ودوغ راندول من منظومة غلوبال للأعمال ومقرها كاليفورنيا، وذلك بتكليف من البنتاغون في العام 2004⁽³⁾. أعد التقرير بناء على توصية من منظر عسكري ثمانيني، ومتنبئ امبراطوري يدعى اندرو مارشال. حصل مارشال المعروف لتابعيه باسم يودا، على اسم شخصية القزم المتجعد في مسلسل حرب النجوم الشهير، على فرصته الأولى في شركة راند^(*) في العام 1949 كمتخصص في أرمغدون نووية خلال رئاسة ريتشارد نيكسون، وعمل مع كل رئيس أمريكي منذ ذلك الوقت⁽⁴⁾. (من المثير للاهتمام ملاحظة وجود فيزيائيين من محاربي الحرب الباردة في حقبة القنبلة الذرية بين منكري تغير المناخ والمتكيفين عسكريا معه معا. يعلق جيف غوديل في كتابه «كيف نبرد الكوكب» على إعجاب المجموعة ذاتها بالحلول التقنية العالية التي تعد بها الهندسة الجيولوجية، وبخاصة لويل وود من مختبر لورانس ليفرمور، وهو مريد لإدوارد تيللر^(***)⁽⁵⁾).

يعالج تقرير شفارتز وراندول الاحترار العالمي بشكل صحيح على أنه عملية يمكن أن تكون لا خطية⁽⁶⁾. ويتنبآن بعصور مظلمة جديدة:

قد تبني الدول التي تمتلك الموارد قلاعاً افتراضية حولها، للحفاظ على هذه الموارد لمصلحتها.. ومع اندلاع المجاعات والأوبئة والكوارث المرتبطة بالطقس والناجمة عن التغير المناخي المفاجئ ستتجاوز حاجات العديد من الدول قدرتها

(*) RAND Corporation.

(**) إدوارد تيللر (1908 - 2003)، هو عالم الفيزياء الأمريكي الملقب بأبي القنبلة الهيدروجينية. [المحررة].

على التحمل. سيخلق هذا شعورا باليأس يمكنه أن يقود إلى هجوم عدواني لإعادة التوازن.. ستعاني أوروبا داخليا، حيث تقتحم أعداد كبيرة من اللاجئين شواطئها، وستعاني آسيا من أزمة خطيرة في الغذاء والماء. سيشكل الصراع والقلق خصائص مستوطنة للحياة. مرة أخرى ستحدد الحرب حياة البشر⁽⁷⁾.

في العام 2007 صدرت تقارير أكثر حول المناخ والأمن. أجرى واحد منها - من مجموعة بحث شركة CNA المرتبطة بالبنتاغون - اجتماعا لمجلس استشاري من ضباط عسكريين سابقين برتب عالية لفحص القضايا - كان بينهم الجنرال غوردون سوليفان رئيس الأركان السابق للجيش الأمريكي والأدميرال دونالد بيللنغ نائب رئيس العمليات البحرية سابقا، والأدميرال جوزف بروهير قائد الأركان السابق للبحرية الأمريكية في المحيط الهادي، والجنرال أنتوني زيني وهو متقاعد من القوات البحرية وقائد أركان سابق للقيادة الأمريكية المركزية. يتنبأ التقرير بثورة مضادة مستمرة على المستوى العالمي. وهذا مقتطف بارز منه:

يعمل تغير المناخ كمضاعف للتهديد بعدم الاستقرار في بعض أكثر المناطق اضطرابا في العالم. وصلت العديد من الحكومات في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط مسبقا إلى نهاية قدرتها على تقديم الحاجات الأساسية: الطعام والماء والمأوى والاستقرار. سيفاقم تغير المناخ المتوقع المشاكل في هذه المناطق، ويضيف إلى مشاكل الحكم الفعال. وعلى خلاف معظم التهديدات التقليدية للأمن التي ترتبط بكيان واحد يتصرف بطريقة معينة في أزمنة مختلفة، يمتلك التغير المناخي الإمكانية لإنتاج ظروف عديدة مزمنة تحدث على المستوى العالمي ضمن الإطار الزمني ذاته. ستتدهور الظروف الاقتصادية والبيئية أكثر في هذه المناطق الهشة مسبقا مع تراجع الإنتاج وانتشار الأمراض وازدياد شح المياه وهجرة السكان بحثا عن الموارد. وستبني الحكومات الفاشلة والضعيفة، ذات القابلية المحدودة أصلا للبقاء - هذه الظروف من أجل الصراع الداخلي والتطرف والانتقال إلى سلطوية متزايدة وعقائد أصولية. وربما ستنجر الولايات المتحدة بصورة أكثر إلى هذه الظروف للمساعدة في تقديم العون والإنقاذ والخدمات، أو لتأمين استقرار هذه الظروف قبل نشوب الصراع⁽⁸⁾.

ويلاحظ مقطع آخر:

لا تمتلك الكثير من الدول النامية الحكومات والبنى التحتية الاجتماعية للتعامل مع أنواع الضغوط التي يمكن أن يجلبها تغير المناخ. وعندما لا تستطيع حكومة ما تقديم الخدمات لمواطنيها، وحماية الأمن الداخلي، والدفاع عن حدود

المتنبئون العسكريون

البلد من الغزو، تصبح الظروف ناضجة كي يملأ العنف والتطرف والإرهاب هذا الفراغ.. وسيصبح الهم الأكبر هو انتقال طالبي اللجوء واللاجئين الذين سيصبحون بسبب الدمار البيئي مستوطنين⁽⁹⁾.

في الختام يلاحظ التقرير أن «التغير المناخي المفاجئ يمكنه أن يجعل التكيف في المستقبل صعباً جداً، حتى بالنسبة إلى أكثر الدول تطوراً»⁽¹⁰⁾.

صدر تقرير آخر في العام 2007، يعتبر الأكثر علمية منها كلها، بعنوان «عصر العواقب: تأثيرات التغير المناخي العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي» من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ومركز الأمن الأمريكي الجديد. شملت قائمة المؤلفين البارزين كيرت كامبل نائب مساعد وزير الدفاع سابقاً؛ وليون فيورث مستشار أمن قومي سابق لنائب الرئيس آل غور؛ وجون بوديستا رئيس موظفي الرئيس بيل كلنتون سابقاً؛ وجيمس ووسلي مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية.

يقدم تقرير «عصر العواقب» ثلاثة سيناريوهات معقولة لتغير المناخ، يتعلق كل منها بتغيرات مختلفة لمتوسط درجة الحرارة في العالم. اعتمد المؤلفون على التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC، لكنهم لاحظوا أن: «الملاحظات الحديثة تشير إلى أن تنبؤات النماذج المناخية كانت محافظة جداً، وأن تأثيرات التغير المناخي تتجلى بشكل أسرع وأكثر مأساوية مما كان متوقعاً»⁽¹¹⁾. يتنبأ التقرير بمشاكل في المستقبل ليس على شكل حروب على الموارد بين دول، لكن على شكل انهيار دول بسبب «المرض والهجرة المنفلتة وفشل المحصول، والتي.. تهيمن على الأدوات التقليدية للأمن القومي (الجيش بصورة خاصة)، وعلى عناصر أخرى من قوة الدولة وسلطتها»⁽¹²⁾. ألف جيمس ووسلي الشبح الأخضر السابق المقطع الأخير من التقرير واضعاً سيناريو أسوأ حالة. فكتب ما يلي:

في عالم يشهد ارتفاع مستوى سطح البحر بمقدار مترين، وفيضانات مستمرة في المستقبل، ستحتاج الولايات المتحدة وفي الحقيقة أي دولة أخرى، إلى بذل جهد غير عادي كي تنظر أبعد من مجرد خلاصها. يمكن أن تجتمع الأساليب جميعها التي عالج بها البشر الكوارث الطبيعية في الماضي... في بوتقة واحدة: الغضب من عدم قدرة الحكومة على التعامل مع أزمات مفاجئة وطارئة، والهوس الديني، وربما زيادة كبيرة في الطقوس الألفية لنهاية العالم، والعداء والعنف ضد المهاجرين والأقليات، في عصر يشهد تحولاً ديموغرافياً، وارتفاعاً في وتيرة الهجرة في

العالم، وصراعا بين الدول وضمنها على الموارد، وبخاصة الماء والغذاء. من المحتمل أن يغيب الإيثار والكرم⁽¹³⁾.

الحلفاء

أجرت دول متطورة أخرى دراسات مماثلة معظمها سرية. أنتجت قوى الدفاع الأسترالية ADF تقريراً حول الصراع المناخي في العام 2007، تسرب ملخص عنه بعد عامين: «ستعمل الضغوط البيئية الناجمة عن تغير المناخ وعدد من العوامل الأخرى على مضاعفة الأخطار في دول هشة حول العالم، مما يزيد من احتمال فشلها. ومن المحتمل أن يزيد هذا من الطلب على استخدام الـ ADF من أجل تأمين الاستقرار وإعادة البناء بعد الصراع وتخفيف الكوارث في المستقبل»⁽¹⁴⁾.

تخطط القوى الأوروبية أيضاً للتعامل مع التهديدات الأمنية في عالم يتحول بفعل التغير المناخي. أصدرت اللجنة الأوروبية تقرير الأمن المناخي في العام 2008، ملاحظة أنه «من الصعب تجنب ارتفاع درجة الحرارة حتى 2°م فوق معدلها قبل الثورة الصناعية.. يجب أن يستثمر في التخفيف لتجنب مثل هذه السيناريوهات وفي أساليب التكيف مع العواقب التي لا يمكن تجنبها في الوقت نفسه، مع معالجة التهديدات للأمن العالمي الناجمة عن التغير المناخي والتي يجب النظر إليها كجزء من سياسة الأمن الوقائي».

وبلغة معهودة يلاحظ التقرير أن: «التغير المناخي يهدد بمفاقمة وضع دول ومناطق هشة ومعرضة للنزاع مسبقاً»، مما يؤدي إلى «مخاطر سياسية وأمنية تؤثر مباشرة على المصالح الأوروبية»⁽¹⁵⁾، ويشير أيضاً إلى احتمال الصراع على الموارد بسبب نقص الأراضي الصالحة للزراعة، وندرة المياه والتخريب الاقتصادي للمدن الساحلية والبنى التحتية الحرجة، وبخاصة في المدن العظمى بدول العالم الثالث، والهجرة المدفوعة بيئياً والأصوليات السياسية والدينية والتوتر حول إمدادات الطاقة⁽¹⁶⁾.

جغرافيا التغير المناخي

للحرب جغرافيا غير مستوية تتبع تاريخ الامبريالية والتطور المتفاوت للرأسمالية على المستوى العالمي. بدأ مفكرو الأمن القومي داخل الحكومة وخارجها في تصور الجغرافيا العسكرية للانهيال الاجتماعي على المستوى العالمي؛ واتفقوا حول فكرة

الحرب ومكافحة التمرد المستمرة كإدارة عالمية للأزمة. ويأتي احتواء دول فاشلة والتحكم فيها في صلب هذا المشروع.

بين مجموعة مفكري الأمن نجد توماس بارنيت، وهو فيلسوف حربي كما يصف نفسه، الذي يتركز بحثه في الجغرافيا العالمية للعنف السياسي. ويقدم بارنيت خارطة جديدة للصراع في العالم:

أرني أين تكون العولمة كثيفة باتصالات شبكية وتحويلات مالية وتدفق إعلام حر وأمن جماعي، وسأريك مناطق تظهر فيها حكومات مستقرة ومستويات عالية من المعيشة ووفيات بالانتحار أكثر من القتل. هذه الأجزاء من العالم أدعوها النواة العاملة أو النواة.. لكن أرني أين تكون العولمة منخفضة أو ببساطة غائبة، وسأريك مناطق موبوءة بأنظمة سياسية استبدادية وفقير وأمراض منتشرة واغتيالات روتينية بالجملة، والأكثر أهمية، بالنزاعات المزمنة التي تحتضن الجيل التالي من الإرهابيين الدوليين. هذه الأجزاء من العالم أدعوها بالفجوة غير المتكاملة أو بالفجوة... لذا أين سنبرمج الجولة الثانية من ألعاب الحرب الأمريكية في الخارج؟ يقترح النمط الذي ظهر منذ نهاية الحرب الباردة إجابة بسيطة: في الفجوة⁽¹⁷⁾.

في الواقع هذه الخارطة الجديدة هي الخارطة القديمة نفسها - جغرافيا الامبراطورية. ويبدو بارنيت مشابها إلى حد ما للمؤرخ الاقتصادي ايمانويل والرشتاين باستخدامه مصطلحي «المركز» و«الأطراف»⁽¹⁸⁾. أو انظر كيف وصف جون ستيوارت ميل بصورة مشهورة الجغرافيا الاستعمارية في فجر الرأسمالية التجارية: «لا يمكن اعتبار مستعمراتنا في الهند الغربية كدول لها رأسمال منتج خاص بها... (بدلا من ذلك فإنها) أماكن تجد انجلترا أنها ملائمة لاستمرار إنتاج السكر والبن وعدة بضائع استوائية أخرى»⁽¹⁹⁾.

عملت الرأسمالية دوما على شكل نظام عالمي. ظهرت بدايات هذا الاقتصاد العالمي القوي من روابط امتدت عبر العالم، وشملت تجارة التوابل في الهند الشرقية الهولندية، وتجارة الرقيق عبر الأطلسي، وتدفق الحبوب والعسل والأخشاب من روسيا وبولندا. وربما بدأ الاقتصاد الرأسمالي العالمي في الظهور على غرار هذه الأساليب. لم تستبعد فجوة بارنيت (أو كما يقول «لم تدمج») لأنها استغلت تاريخيا وأخضعت سياسيا. لذا فإن دولها غالبا ضعيفة وفاسدة. إذا أضفت الآن التغير المناخي فإن هذه الجغرافيا -

التي كانت تحقق بعض التقدم بحسب مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية من الثروة الملقاة أساسا بالدخل ومتوسط العمر المتوقع والتعليم - فسوف تغرق في مزيد من البؤس والفوضى العنيفين⁽²⁰⁾.

دولة قوية مقابل دولة فاشلة

يقدم التكيف السياسي خيارات واضحة. هناك خطر حقيقي من خضوع دول قوية ذات اقتصادات متطورة لسياسة تقوم على كره الأجانب والعنصرية والقمع البوليسي والمراقبة والعسكرة، وبالتالي تحول نفسها إلى مجتمعات محصنة بينما ينزلق باقي العالم نحو الانهيار. بهذه الطريقة ستتحوّل الاقتصادات المتطورة إلى جزر للفاشية الجديدة، تتمتع باستقرار نسبي وسط بحر من الفوضى. لكن عالما في حالة انهيار مناخي - يتميز بالجوع والمرض والجريمة والتعصب والانهيار الاجتماعي العنيف - سوف يقهر قارب نجاة مسلحا. وأخيرا سيغرق الجميع في المستنقع نفسه.

مع ذلك توجد إمكانية لطريق آخر. يمكن أن يشمل التكيف السياسي التقدمي - المرتبط بتخفيف فوري وقوي - التحرك نحو تعاون أكبر، وإعادة توزيع اقتصادية ضمن الدول، وبين الشمال والجنوب. سوف ألامس هذه الأفكار في نهاية هذا الكتاب. لسوء الحظ لا توحى المراحل الأولى من التكيف السياسي بالكثير من الثقة. ويبدو أن سياسة قارب النجاة المسلح هي الرابحة.

حرب من أجل كوكب صغير: التكيف كوسيلة لمكافحة التمرد

تمتلك الولايات المتحدة تفوقاً عسكرياً
تقليدياً هائلاً. دفعت هذه المقدرة
أعداءها إلى محاربتها بطرق غير تقليدية
مزجت بين التقنية الحديثة والأساليب
القديمة في التمرد والإرهاب... تشكل
هزيمة مثل هؤلاء الأعداء تحدياً كبيراً
للجيش والقوات البحرية.

ف.م 3-24 الكتيب الحقلي للجيش

الأمريكي حول مكافحة التمرد.

ديسمبر 2006

كانت حرباً صغيرة رائعة في بلد صغير بائس
- حالة كلاسيكية من قديم يواجه الجديد،
جمهورية موز تقابل دولة فاشلة. لم يكن أحد
متأكداً من السبب، لكن المجموعتين العرقيتين
الرئيسيتين كانتا في حرب إحداهما مع الأخرى.
احتاج اللاجئون إلى المساعدة الإنسانية، وكان

«مثل الثورات التي تحاول قمعها،
تهاجم مكافحة التمرد عن قصد
العلاقات الاجتماعية في مكان ما،
وتحاول إعادة صياغتها. لكنها في
أثناء العملية، تساعد في إطلاق
عمليات ذاتية التغذية من التفكك
الاجتماعي»

المؤلف

من الضروري السيطرة على الجماهير الخائفة. المنظمات غير الحكومية NGO وضجيج الصحافيين المزعجين لم يساعد. ولإعادة النظام نزلت القوات البحرية الأمريكية إلى اليابسة.

«ارجعوا إلى الخلف» صاح جندي البحرية الأمريكية الشاب وهو يحاول احتواء المدنيين الذين اندفعوا نحو مركز إطعام أو احتجاز.

«ما الذي يجري؟» قلت سائلاً.

«هؤلاء المدنيون بحاجة إلى مساعدة إنسانية، وعلينا أن نفتشهم، ونتأكد من أنه لا أحد منهم يحمل سلاحاً» أجاب الجندي. حامت مروحية بشكل منخفض فوق الرؤوس. ومن بناء مرتفع بالقرب منا جاء صوت البنادق المتقطع المكبوت.

عندما انتهى جنود البحرية الشباب من تأمين المكان المرتفع، كانوا يلبسون زياً غريباً جديداً، مصنوعاً من قميص مغبر بلون رمادي مزرق على شكل حرف T على هيئة مربعات ومستطيلات وخطوط متقاطعة - كأنه مشهد مدينة مجرد ومخلط. ذكرت الألوان الرمادية بالملابس النازية، والأشكال بشبكة شوارع فوضوية وخطيرة في مدينة ضخمة من مدن العالم الثالث. ربما دعي البلد الصغير المنهار الذي حصل فيه هذا، المقاطعة المنفصلة للامكان الأدنى»، أو جمهورية الفوضى الديمقراطية، لكنه كان في الحقيقة أوكلاند في كاليفورنيا. كانت السنة 1999، وكنت أشهد المستقبل كما تخيلته القوات البحرية الأمريكية، وهي لعبة حربية دعيت بالمحارب المدني جرت على أرض مستشفى مهجور للقوات البحرية الأمريكية.

كان من المتوقع أن تقوم القوات البحرية بالتحرك بسلاسة من تأمين اللاجئين إلى حفظ الأمن بين الفصائل المتحاربة، إلى الهجوم على الميليشيات المتمردة. في العام 1999 دعي هذا المزيج من المهمات بـ «حرب المقاطع الثلاثة». وفي أوقات أخرى دعي بـ «عمليات عسكرية غير الحرب» وهي تعرف الآن بالاسم القديم «مكافحة التمرد» «COIN» (*) التي وصفها نقيب في القوات الأمريكية الخاصة مرة على

(*) COIN مختصر counterinsurgency وتعني مكافحة التمرد. [المترجم].

حرب من أجل كوكب صغير

أنها «حرب شاملة على مستوى القواعد»⁽¹⁾. ادعها ما تشاء - حروباً صغيرة أو حرباً محدودة، أو صراعاً منخفض الشدة - هذا النوع من القتال ينتقل إلى قلب جدول أعمال الجيش الأمريكي في الوقت نفسه الذي يبدأ فيه جدول الأعمال هذا بمعالجة تغير المناخ.

يساعد التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ في تغذية التركيز من جديد على أسلوب الحرب غير النظامية. ضمن كتابات مفكري الأمن حول القضايا المتعلقة بالمناخ هناك دور محوري لمكافحة التمرد. وخلال تقاريرهم هناك سطور مثل «عطلة نهاية الأسبوع والحكومات الفاشلة، بهامش ضيق مسبقاً للبقاء، يتم تبني الظروف للصراع داخلي والتطرف والانتقال إلى سلطوية متزايدة وعقائد أصولية. ربما تجر الولايات المتحدة بصورة متزايدة إلى هذه الأوضاع من أجل المساعدة في تقديم العون والإنقاذ والخدمات، أو لتهدئة الأمور قبل نشوب الصراع»⁽²⁾. «يصف الكتيب الحقل للعمليات التكتيكية الجديدة في مكافحة التمرد للجيش الأمريكي (3-FM 24.2) الحقائق في البيئة العملية اليوم «على أنها» عدلت بانفجار سكاني ومدمرين وعملة وتقنية وانتشار الأصولية الدينية والطلب على الموارد وتغير المناخ والكوارث الطبيعية وانتشار أسلحة الدمار الشامل»⁽³⁾.

عدم التناظر من الأعلى

في لب الموضوع هناك حقيقة غريبة: السلاح الحربي الأمريكي متطور أكثر من اللزوم. يمكن للولايات المتحدة أن تبديد أي عدو تقليدي، وتحطم كوكب الأرض عدة مرات، فهي تصرف على السلاح أكثر من أكبر أربعة عشر جيشاً تأتي بعد جيشها. لكن القوة الكارثية للسلاح النووي الأمريكي فعالة سياسياً فقط إذا لم تستخدم بالفعل... إنها تعمل كتهديد فقط.

ليكون عنف الجيش الأمريكي فعالاً في عالم من الدول الفاشلة والثورات والانقلابات والحروب الأهلية والصدمات القبلية والمذابح واللصوصية، وعنф المخدرات وقطع الطرق والإرهاب والتدفقات اليائسة للاجئين، يجب أن يطبق بتحفظ - تحفظ كبير بالنظر إلى قدراته - وبدقة. لا يمكن لإمبراطورية أن

تصطاد الذباب بمطرقة. يتطلب تطبيق الولايات المتحدة للعنف الحقيقي أسلحة أصغر، وحركة أكبر، وتكتيكات أذكى قادرة على تحقيق انتصارات سياسية غير تقليدية مثل تحييد سكان ثائرين وهزيمة قوى غير نظامية واحتواء تدفق لاجئين واستبعادهم وقمع جماهير جائعة في المدن. وبالتالي فإن مكافحة التمرد COIN هي الموضة السائدة.

لسوء الحظ فإن الولع الحالي بمكافحة التمرد هو جزء من المشكلة، وليس الحل. فأساليبها مخربة ومفتتة اجتماعياً. وكعقيدة، فإن مكافحة التمرد هي نظرية الحرب الداخلية؛ إنها استراتيجية كبج التمرد والثورة. هدفها هو المجتمع المدني ككل، والنسيج الاجتماعي للحياة اليومية. وبينما يستهدف القصف الجوي التقليدي (المعروف بأنه غير فعال) الجسور والمصانع ومراكز القيادة، تستهدف مكافحة التمرد - ونستخدم مصطلح فوكو (*) - المستوى «الشعري الدقيق» من العلاقات الاجتماعية. فهي تصدع وتمزق (لكنها نادراً ما ترمم) العلاقات الاجتماعية الحميمة بين الناس، وقدرتهم على التعاون، ونسيج التضامن المعيش - بعبارة أخرى الروابط التي تشكل أواصر المجتمع⁽⁴⁾.

تحاول الحرب التقليدية أن تتحكم بالأرض، وتحطم الجيش المعارض، لكن مكافحة التمرد تحاول أن تتحكم في المجتمع. لذا فهي «تتمركز حول السكان». في تمرد ما تمتلك القوة العسكرية - الدولة أو القوة المحتلة - (اسمياً على الأقل) التحكم بفضاء المعركة، لكنها لا تمتلك التحكم بالسكان. رجال العصابات والقوات غير النظامية وحتى المجموعات الإرهابية الصغيرة غير المحبوبة، كلها تعتمد على السكان أو على جزء منهم للحصول على المجندين والمأوى والعناية الطبية والمعلومات، وإذا لم يوجد شيء آخر، على غطاء بسيط لعملياتها. لخص ماو تسي تونغ ذلك بقوله: «يجب على مقاتلي حرب العصابات أن يتحركوا بين السكان كما تسبح السمكة في الماء». لذا فإن مهمة مكافحة المتمردين هي عزل رجال العصابات وتحطيمهم عن طريق كسب التحكم بالسكان من خلال العنف والوسائل النفسية والعقائدية الأخرى.

(*) الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucault.

حرب من أجل كوكب صغير

تحت هذه الظروف، تتمحور الاستراتيجية والتكتيكات الآن حول النفسية والدين والبنى العمرية والطقوس والتقاليد والروابط العائلية والأنشطة الاقتصادية والإحساس بالمكان - باختصار، كل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية للحياة العادية. المجتمع هو الهدف وهو لذلك محطم. مكافحة التمرد مدمرة بشكل خاص لأنها تهاجم النسيج الاجتماعي. ومثل الثورات التي تحاول قمعها، تهاجم مكافحة التمرد عن قصد العلاقات الاجتماعية في مكان ما، وتحاول إعادة صياغتها. لكنها أثناء العملية تساعد في إطلاق عمليات ذاتية التغذية من التفكك الاجتماعي.

الفاتورة

في فيتنام أطلق عليها «كسب العقول والقلوب»، أو في اللهجة العسكرية العامية الخبيثة في ذلك الوقت «ربح عقول الفلاحين وقلوبهم». واليوم كما في الماضي، يمكن لمثل هذا «العمل الاجتماعي» العسكري أن يشمل تنمية اقتصادية حقيقية، وإصلاحات سياسية تقدمية، مصممة لتلبية المطالب المشروعة للناس - أي لكسب تأييدهم الفعلي، وجعل الوعود الثورية للمتمردين أقل جاذبية. أو يمكن أن تعني حرب إبادة شاملة تدمر المجتمع من جذوره، كما في «تصفية البحر للقبض على السمكة». في غواتيمالا خلال الثمانينيات سمح ذلك المنحى للقوات الحكومية بأن تحرق أكثر من 400 قرية هندية. محيت هذه القرى عن الوجود ببساطة، وقتل سكانها واغتصبوا واعتقلوا وشردوا.

سواء أكانت قاسية أم ناعمة، تحاول مكافحة التمرد دوماً إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية. وأثناء العملية غالباً ما تلهدم من دون أن تعيد البناء، مسببة انهيار العادات والقيم الاجتماعية، وممزقة روابط التكافل والتحكم الاجتماعي الطوعي. وبشكل نموذجي، يكون الشذوذ والانحراف والأذى والفوضى من آثارها⁽⁵⁾.

قارن بين تأثيرات مكافحة التمرد وتلك الناجمة عن قصف جوي خلال حرب تقليدية. على الرغم من أن القصف الجوي أكثر قتلاً وأشدّ تخريباً اقتصادياً، فإنه لا يميل إلى تخريب المجتمع والعلاقات الاجتماعية. وإذا كان هناك أي تأثير له فقد وجد أنه يزيد التضامن بين ضحاياه. تعطي بريطانيا خلال الحرب العالمية

الثانية المثل القوي البارز على ذلك: قوبل القصف النازي بالإخلاء والتقنين والتجنيد وتسوية غير مسبوقة للفوارق الطبقية. اتحدت بريطانيا كلها تحت القنابل، وقاتلت بشراسة أكبر. وكما شرح وزير العمل ارنست بيفين عندما «تنخرط أمة في أزمة كبيرة. من المحتم أن تصبح تشاركية»⁽⁶⁾. ظهرت تأثيرات مماثلة في ألمانيا واليابان أثناء الحرب، وكذلك في فيتنام الشمالية تحت القصف الأمريكي الكثيف، ويتوقع المرء ظهور ثقافة مماثلة من المعارضة المتحدة في المناطق القبلية من باكستان الآن التي تتعرض لهجمات طائرات الدرون»^{(*) (7)}.

لذا كانت مكافحة التمرد مركزية في تركيبة التجمع الكارثي للفقر والعنف والتغير المناخي. حددت صراعات بالوكالة غير نظامية - التمرد ومكافحة التمرد في العالم الثالث - الأساليب الأمريكية والسوفييتية خلال الحرب الباردة. شحنت هذه الأساليب مناطق عدة من العالم بعدم استقرار خطير. وثقت الأمم المتحدة نحو 150 نزاعاً مسلحاً في العالم الثالث بين 1945 و1990. في هذه الحروب في العالم الثالث والتي تدعى حروباً صغيرة قتل 20 مليوناً وجرح 60 مليوناً، ونزعت هوية 15 مليوناً صنفوا لاجئين بحلول العام 1991. وصف ديريك سامرفيلد، وهو عالم نفس وأكاديمي متخصص بتأثيرات الحرب الحديثة على الصحة العقلية، الوضع بما يلي :

كان 5% من مجموع المصابين في الحرب العالمية الأولى من المدنيين، وكان الرقم بالنسبة إلى الحرب العالمية الثانية 50%، وبالنسبة إلى حرب فيتنام أكثر من 80%. في الصراعات المسلحة الحالية فإن أكثر من 90% من الإصابات كلها هي من المدنيين، وعادة من العائلات الريفية الفقيرة. يأتي هذا نتيجة العنف المتعمد والممنهج الذي يستخدم لإرهاب السكان... فالسكان، وليست الأرض، هم الهدف، ومن خلال الترويع يكون الهدف التغلغل داخل البيوت والعائلات ونسيج العلاقات الاجتماعية من جذورها منتجاً الشلل والاحباط. لهذا يزرع الرعب ليس بطريقة عشوائية فقط، وإنما أيضاً من خلال هجمات مخططة على العاملين في الصحة والمعلمين ورؤساء التعاونيات، وهم الذين يجسد عملهم قيماً وأملاً مشتركة. أصبح التعذيب والتشويه والإعدام الفوري أمام أفراد العائلة أمراً روتينياً»⁽⁸⁾.

(*) الدرون drone (الدبور): طائرة من دون طيار تقاد من مركز تحكم. [المترجم].

حرب من أجل كوكب صغير

بعبارة أخرى، فإن مكافحة التمرد COIN أو نظرية الحروب الصغيرة تعني التشويه الاجتماعي. إذا كان التكيف العسكري يعنى بالصراعات الأقل شدة، وإذا كان متنبئو البنتاغون يرون الحرب غير النظامية بدلا من الصراع التقليدي كمحور لعالم يعاد تشكيله بسبب التغير المناخي، فعلى أن نراجع تاريخ هذه الطرق من حيث النظرية والتطبيق.

تاريخ الحروب الصغيرة

بمراجعة تاريخ الحروب الأمريكية الصغيرة تبرز ثلاث مراحل متميزة. من بداية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين شكلت الحروب اللامتناظرة جزءاً من الغزو الامبراطوري الأوروبي لعالم الجنوب، والتحكم الاستعماري الذي تبع ذلك. في هذا الطور قاتلت المجتمعات التقليدية من أجل الحفاظ على نمط حياتها التقليدي. كانت الحرب اللامتناظرة بالنسبة إلى هذه المجتمعات عملاً دفاعياً بالدرجة الأولى ضد الغزاة. شن محاربو الزولو فيما يسمى الآن جنوب أفريقيا، وهنود السهول في الغرب الأمريكي، وطواير قبائل الباشتون التي هاجمت البريطانيين في القرن التاسع عشر كلها، حرب العصابات للدفاع عن النظام الاجتماعي القديم، وليس لتشجيع أنماط جديدة.

ثم من عشرينيات القرن الماضي حتى التسعينيات أصبحت الحروب الصغيرة بشكل متزايد (وليس دوماً) تتميز بثورات مدفوعة ايديولوجياً. نعم، حارب الفلاحون الفقراء لأن لهم مطالب - استغلال زائد - ولكن النواحي الايديولوجية والسياسية للحروب كانت مهمة في صياغة هذه المطالب. حاربت القوى الاستعمارية والاستعمارية سابقاً، بشكل أساسي حروباً دفاعية لمكافحة التمرد ضد حركات التحرر الشيوعية أو الوطنية التي كانت لها مطامح تحديثية، وزعماء مدفوعين بأفكار جديدة، أناس مثل أوغستو ساندينو وماو تسي تونغ وفيدل كاسترو وهوشي منه. كان لهذه الحركات جميعها نظريات متطورة، وإن كانت في بعض الأحيان مخطئة حول المجتمع.

ومع نهاية الحرب الباردة أصبح الصراع اللامتناظر ومكافحة التمرد أقل عقائدية وبالتالي أدنى فكرياً. أصبحت حركات التمرد الآن تخرج بازدياد لمجرد النهب والبقاء

أو بسبب أفكار أصولية محافظة ومتخلفة تعكس دوماً عند تفحصها فلسفات أخلاقية ساذجة بدلاً من نظريات اجتماعية⁽⁹⁾. أو أنها لا تمتلك أي مبادئ على الإطلاق. حركة طالبان مثال على ذلك، وكذلك جيوش حرب العصابات المختلفة في غرب أفريقيا ووسطها. مثل الجبهة الثورية المتحدة المجنونة التي أصبحت منحلة الآن والتي شوهدت واغتصبت ونهبت عبر سيراليون لمدة 11 عاماً بدءاً من 1991؛ أو جيش الرب المقاوم، وهو ميليشيا نشطة تؤمن بالمذابح، مؤلفة من الجنود الأطفال الذين يزرعون الخراب خلال أجزاء من أوغندا؛ أو بقايا العصابات بعد العقائدية من رجال القوات المسلحة الثورية لكولومبيا.

أدرك أحد المفكرين العسكريين في كتابته في مجلة كلية الجيش الحربية (باراميتارز) هذا الطور الثالث بعد العقائدي على أنه جزء من تحول تاريخي يبتعد عن الاستقرار المتنامي باتجاه الفوضى المتزايدة: «منذ معاهدة ويستفاليا في العام 1648 سارت العملية باتجاه تعزيز القانون والنظام، مما أدى إلى ازدهار العديد من الدول الغربية ومؤسساتها العامة وسكانها. ربما تنزاح الدورة الآن بعيداً عن الاستقرار وباتجاه الفوضى، مقترحة أن الدولة - الأمة ربما تدخل مرحلة يجري فيها تحدي فائدها كأساس لتنظيم المجتمعات... ربما نتوقع فوضى متزايدة خلال الانتقال مما دعي بالحقبة «الحديثة» إلى الحقبة التي تليها»⁽¹⁰⁾.

الحقبة «التالية» - إن لم يعتنق مبدأ التخفيف والتكيف التدريجين في تغير المناخ - ستكون تلك التي وصفها جيمس ووسلي: حضارة تنحسر، ومكافحة تمرد مفتوحة، ومد يرتفع من العنف.

الأصول الاستعمارية

أخضع سكان أمريكا الأصليون سابقاً لمشروع من الوحشية البسيطة على يد المستوطنين، لكن الحكومة الأمريكية صاغت بعد ذلك مشروعاً للدمج والتهذبة كان شبه علمي وشبه إنساني في خطابه. خدم برنامج «الحضارة» الذي فرض على هنود التشيروكي كمثال مبكر على ذلك. «عليهم إما أن يغيروا نمط حياتهم، أو الموت» قال عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ضد التشيروكي⁽¹¹⁾. اختار التشيروكي الخيار الأول.

حرب من أجل كوكب صغير

شيء يشبه عملية مكافحة التمرد الحديثة ميز الحروب ضد هنود السهول خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. هزم الجيش الأمريكي السايوكس Sioux جزئياً عن طريق تقليدهم: حلت وحدات صغيرة وسريعة وخفيفة من الفرسان محل تشكيلات المشاة الكبيرة، مخفضة اعتماد الجيش على قطارات إمداد طويلة مهددة. عملت فرق الخيالة عن قرب مع الكشافين والمرتزة الهنود من قبائل الكراو والأريكارس. وفي بعض الحالات هزمت تلك الوحدات العسكرية الصغيرة والسريعة، أو كما في حالة الجنرال جورج كاستر، قضي عليها.

دعم تقليد الطرق الهندية بالطبع بتفوق القوة النارية والنقل والاتصالات للجيش الأمريكي - أي بقوة الصناعة الأمريكية. كان الاقتصاد مجالاً حاسماً في الحرب. تقلص صيد الأمريكيين الأصليين مع إبادة الجاموس جزئياً من أجل فرائها، وجزئياً لعدم توفير الغذاء لعصابات المتمردين الذين رفضوا العيش في المحميات. جاء النصر النهائي على السايوكس عندما استغل نيلسون مايلز، انتقاماً لمقتل كاستر، قدوم فصل الشتاء الذي قيد حركة الهنود، وحصولهم على الغذاء لإرغامهم على اللجوء إلى المحميات. وما إن حصروا هناك حتى أخضعوا لأساليب السياسة الحديثة كلها: التعرف على الهوية والتنظيم في فرق والمراقبة والتلقين الديني والعمالة المأجورة والنقود ودفاتر الحسابات والغرامات والمحاكم العسكرية والسجون. كانت المحميات كما عرّفها عالم الاجتماع ارفنغ غوفمان «مؤسسات شاملة». ولذلك فقد حطمت أو أعادت تشكيل ثقافة الهنود وهويتهم.

في نيو مكسيكو، مع ريادة الجنرال جورج كروك استعمال دوريات صغيرة ضد العصابات لمضايقة محاربي الأباتشي من أتباع جيرونيمو^(*)، أنشأ أيضاً نظاماً من المرايا الموضوعة في أعالي الجبال تتواصل بالإشارات، ومد هذا من تحكمه بالمعلومات على مساحة شاسعة من أراض وعرة جداً⁽¹²⁾. أعطت القطارات والتلغراف والأسلاك الشائكة والدعاية والتلقين العقائدي والتصوير والشعوذة القانونية والبنادق ذات الإطلاق السريع المتكرر ومدفعية الميدان الخفيفة هوتشكيس كلها تلك الحملات الوحشية للإخضاع نمطاً حديثاً. ولنسمها التاريخ المسبق لطائرة الدرون الحديثة القاتلة.

(*) جيرونيمو Geronimo (1829 - 1909) هو أحد قادة سكان أمريكا الأصليين ممن حاربوا ضد المستوطنين في أراضيهم. [المحررة].

بالتالي، استهدف الجيش في الحروب الهندية المدنيين كما في الحملات الحديثة ضد العصابات: مهاجمة القرى وحرق المحاصيل وأخذ الأطفال والنساء رهائن وتركيز اللاجئين في حصون عسكرية بحيث يمكن مراقبتهم بسهولة أكبر. استخدم مبدأ «فرق تسد» القبلي أيضاً لتسهيل الاقتتال الداخلي، وخلق تابعين محليين من الهنود. تذكر أن الزعيم الهندي سيتينغ بول (الثور الجالس) قتل من قبل محاربيه السابقين الذين تحولوا إلى شرطة في المحمية⁽¹³⁾.

ظهور عقيدة

لم تنتج حروب السهول عقيدة مكتوبة أو نظرية للتهدة، لكن الضباط البريطانيين وهم يواجهون مهمات مماثلة نهاية القرن التاسع عشر في مستعمرات التاج البريطاني بأفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا وثقوا أساليبهم. وكما بين جون نيغل في كتابه الكلاسيكي: «تعلم أكل الحساء بسكين: دروس لمكافحة التمرد من ملايو وفيتنام»، كان الضباط البريطانيون البعيدون جداً عن حكومتهم غير قادرين غالباً على تلقي التعليمات. لذا كان عليهم أن يقوموا بأنفسهم بدراسة تكتيكات جديدة وتطويرها.

كان أول كتاب في هذا المجال «انجراف الأغبياء الدفاعي» الجنرال سير ايرنست سوينتون. يصف هذا الكتاب الصغير الغريب «انجراف الأغبياء» خبرة سوينتون كضابط صغير يقود فرقة بريطانية في حرب البوير. رتب الكتاب على شكل خمسة أجزاء من الكوابيس المترابطة والمتكررة. في كل منها يخدع البوير سوينتون، ويهاجمونه بطرق جديدة أكثر دهاء. كل كابوس تتبعه قائمة من الدروس التي تصبح أكثر قسوة مع كل تكرار للحلقة⁽¹⁴⁾. مع إدراكه أنه لا يحارب مجموعة عصابات، بل السكان بأكملهم، يستنتج سوينتون أنه «ليست هناك أجنحة ولا مؤخرة، أو بعبارة أخرى إنها جبهة من كل الجهات⁽¹⁵⁾». من هذا يستنتج أن عليك ألا تثق بالسكان المحليين بل تحتجزهم وتحرق مزارعهم وتجوعهم بمن فيهم النساء والأطفال. عليك أن تهاجم نسيجهم الاجتماعي لأن هذا ما يعتمد عليه رجال حرب العصابات.

حرب من أجل كوكب صغير

تشمل أعمال لاحقة كتاب تشارلز كالدويل «حروب صغيرة: مبادئها وتطبيقاتها»، وكتاب تشارلز غوين «التحكم الامبراطوري». كلاهما ساعد في تأسيس خصائص مركزية في عقيدة مكافحة التمرد - استخدام أدنى للقوة، وتنسيق بين المدنيين والعسكريين، وتطوير لقوى متعاونة - لكنهما يفتقران إلى الأسلوب الرائع والمخدر الموجود في كتاب «انجراف الأغبياء».

حروب الموز

بالنسبة إلى القوات الأمريكية فضجت تكتيكات الحرب الصغيرة بشكل كبير بنشوء ما يدعى بحروب الموز. بين نهاية 1890 ونهاية 1930 تدخلت القوى الحربية الأمريكية في تشيلي وهايتي وهاواي ونيكاراغوا والصين وبنما والفلبين وكوبا وبورتوريكو وجمهورية الدومينيكان وأماكن أخرى كثيرة. كانت هذه الصراعات جميعها غير نظامية، وغير متناظرة بصورة أو أخرى، وشملت التحكم بالسكان المدنيين أكثر من إبادة قوة تقليدية.

كان النظام السائد في تلك الأيام هو العنف المحسوب، وتكتيك الوحدات الصغيرة، والحركة، والحرب النفسية والثقافية، والطرق الحديثة في الإدارة والتنظيم والمراقبة. حشد المعتقلون وهم غالباً من المدنيين في معسكرات، وتحكمت وثائق الهوية الرسمية ونقاط التفتيش في تحركاتهم. في أوقات شملت هذه الحملات تحطيم وسائل معيشة العدو، وكان حرق قرى بأكملها إجراء عادياً. أصبح المدنيون الجائعون بعد ذلك، معتمدين على مساعدات الغذاء، أو برامج التنمية الاقتصادية «الحديثة» للمحتلين، وأفرغت مناطق عمليات حرب العصابات من السكان⁽¹⁶⁾.

كان أساس الانتصار هو إنشاء قوات متعاونة محلية وتدريبها. عندما انسحبت القوات البحرية الأمريكية أرادوا الاعتماد على الشرطة المحلية أو الدرك لقمع أي سياسي أو نقابي أو وطني أو اشتراكي إصلاحي ربما يبحث عن قلب النظام القائم بفرض الضرائب على الشركات الأجنبية وإعادة توزيع الثروة⁽¹⁷⁾.

أطلق على هذا الاستخدام للأقليات العرقية عن طريق سياسة فرق - تسد بـ«انتهازية التحرير العرقي» من قبل عالم الإنسانيات فيليب بورجوا. وهي تحدث مرة بعد أخرى في الحروب الصغيرة - تشمل الأمثلة استخدام وكالة المخابرات

المركزية CIA لقبائل الجبال في لاوس خلال حرب فيتنام، وتسليح مرتزقة المجاهدين ضد الاتحاد السوفييتي خلال فترة الجهاد الأفغاني في الثمانينيات، وتطوير فرق الموت الشيعية، وميليشيات الصحوة السنية^(*) في العراق⁽¹⁸⁾. رعاية هؤلاء العملاء تعني دوماً تقريباً رعاية المجرمين والمتعصبين. تشمل أسماؤهم من الحرب الباردة بروكلين ريفيرا في نيكاراغوا وجوزيف سافيمبي في أنغولا وقلب الدين حكمتيار في أفغانستان. ليس من السهل أبداً التحكم بهؤلاء المهووسين النافعين، وعندما ينتهي الغرض منهم كعملاء يتركون ليتجولوا بعنف عبر أراضي مجتمعاتهم.

الكتيب

من حروب الموز إلى القوات البحرية الأمريكية في الكاريبي وأمريكا اللاتينية، جاء كتاب «كتيب الحروب الصغيرة» الذي نشر في العام 1940. عند تلك المرحلة كان لدى القوات البحرية الأمريكية بعض الخبرة للاستفادة منها. وكما لاحظت الطبعة الأولى من الكتيب «أنزلت القوات البحرية جنوداً 180 مرة في 37 دولة من العام 1800 إلى العام 1934. وفي كل عام خلال الـ 36 عاماً السابقة منذ الحرب الإسبانية - الأمريكية اشتبكت القوات البحرية في عمليات نشطة بالحقل⁽¹⁹⁾. كانت الحروب الصغيرة ثابتة ومستمرة.

مالئت أساليب الحرب الصغيرة للقوات البحرية إلى الجمع بين الجزيرة والعصا، والترويع والصلح. طبق العنف من أجل إزاحة سلطة المتمردين أو الحكومة المسيئة. حرقت القوات البحرية المحاصيل والبيوت، وأخذت سجناء، وأرعبت السكان العاديين. قال سميدلي بتلر إن قواته حرقت معظم شمال هايتي. استخدمت التقارير الرسمية لغة أذكي لوصف الشيء نفسه: «أعلنت القوات على الأرض ونفذت ما عرف بشكل شائع بـ (الموسم المفتوح) حيث لا يتخذ الحذر لتقرير فيما إذا كان السكان المحليون المصادفون هم من رجال العصابات أو (مواطنين صالحين)، وحرقت مستودعات بلا شفقة فقط لأنها لم تكن مشغولة، وأتلفت ممتلكات السكان المحليين»⁽²⁰⁾. لكن ما إن يخضع السكان حتى يسمح لهم بالعودة إلى حياتهم العادية وأنشطتهم الاقتصادية⁽²¹⁾.

(*) وردت في النص الإنجليزي خطأ safwa وقد ترجمناها «صحوة» كما هي بالعربية. [المترجم].

حرب من أجل كوكب صغير

وصفتها صحيفة الأمة The nation بشكل أكثر صراحة: «نزلت القوات البحرية الأمريكية في هايتي، واستولت على الذهب في المصرف الوطني، واحتلت أبنية الجمارك، وأغلقت المجلس التشريعي، ورفضت دفع رواتب الموظفين الهايتيين الذين رفضوا تنفيذ رغبات الرجل الأبيض»⁽²²⁾. عبر بتلر وهو محارب قديم في العديد من الحروب الصغيرة، عن ذلك بشكل أكثر مباشرة: «قضيت معظم وقتي أعمل حارساً من الصنف الأول للشركات الكبرى لشارع وول ستريت وللمصرفيين. باختصار كنت أقوم بالابتزاز لمصلحة الرأسمالية». قال بتلر إنه: «ساعد في اغتصاب نصف دزينة من جمهوريات أمريكا الوسطى لمصلحة وول ستريت»⁽²³⁾.

وكلاء الحرب الباردة

في العام 1952 أنشأ الجيش الأمريكي القوات الخاصة. وبهذا التطور أصبحت مكافحة التمرد عملية أكثر مؤسساتية ومرتبطة عن قرب بعقيدة سياسية للدفاع عن الرأسمالية. بعد بضع سنوات نشر ارنستو تشي غيفارا كتابه «حرب العصابات» المماثل لكتيب «الحروب الصغيرة» من حيث إنه مليء بنصائح عملية وبديهيّة: «الانتقال في الليل خاصة مهمة أخرى للعصابات، تمكنها من التقدم للهجوم، وللحشد في مكان جديد وحيث يوجد خطر الخيانة»⁽²⁴⁾. لكن كتاب «حرب العصابات» يؤكد أيضاً على دور الأفكار والسياسات. فبالنسبة إلى غيفارا، العقيدة هي وسيلة وغاية. أما بالنسبة إليه، فإن التمرد السياسي الواعي ذاتياً هو وحده القادر على الانتصار: «يحتاج مقاتل العصابات إلى مساعدة كاملة من سكان المنطقة. هذا شرط ضروري. ويتضح هذا بالنظر إلى جماعات اللصوص التي تعمل في المنطقة. لديها كلها خصائص جيش العصابات كالسيطرة واحترام القائد والشجاعة ومعرفة الأرض، وغالباً فهم يتقنون التكتيكات التي يجب استخدامها، الشيء المفقود الوحيد هو دعم الناس لهم؛ ومن المحتمل أن يجري القبض على هذه العصابات في النهاية وتصفيتهم من قبل القوات الحكومية»⁽²⁵⁾. أما بالنسبة إلى غيفارا، فإن تفوق العصابات العسكري ناجم عن ارتباطها بالمثل السياسية. «لابد أن نأتي إلى الاستنتاج المحتمل بأن محارب العصابات هو أيضاً مصلح اجتماعي، وأنه يحمل السلاح استجابة للاحتجاجات الغاضبة للناس ضد من يقمعهم، وأنه يقاتل من أجل تغيير النظام الاجتماعي الذي يبقي إخوانه من غير المسلحين في البؤس والعار»⁽²⁶⁾.

من هنا يأتي الصراع على القلوب والعقول. وبالفعل كان جون كينيدي أول من طلب ترجمة كتاب تشي إلى الانجليزية. كان كينيدي مهتما بشكل حميم بمكافحة التمرد: بناء على طلبه قام رجال القوات الخاصة بارتداء قبعاتهم المسماة بالخضراء. كان تقديراً غريباً وغير مناسب لتشي، الذي عرف بصورته الأيقونية مرتدياً هذه القبعة.

وبعد فترة قصيرة كانت القوات الخاصة تعمل في لاوس وفيتنام. تميزت الحرب في الهند الصينية بعنف هائل: قصف جوي مستمر بطائرات B-52 وبالنابالم، واشتباكات كبيرة وتقليدية بين جيش فيتنام الشمالية والقوات الأمريكية. لكنها شملت أيضاً مكافحة تمرد واسعة النطاق كان في لبها برنامج القرية الإستراتيجي الذي تضمن تدمير المجتمعات المدنية المؤيدة للفيت كونغ^(*)، ثم إعادة بنائها. لم تشهد أي دولة حملة مكافحة تمرد أشد تدميراً من غواتيمالا. بدءاً من 1981 جمعت الحكومة العسكرية للجنرال ريوس مونت بين حملات الإبادة والأرض المحروقة ضد المدنيين واستراتيجية تطوير كلاسيكية (أمن - و - احتفظ) دعيت «فاصولياء ورصاص». بعد هدم القرى الهندية وذبح معظم سكانها، حشد الجيش المدنيين المتبقين على قيد الحياة في «قرى نموذجية». أجبروا الذكور الناجين على الاشتراك في دوريات مدنية، وقوات حراسة بأسلحة خفيفة خدمت على شكل آذان الجيش وعيونه - وفي كثير من الأحيان استخدمت كدروع بشرية له. قتل نحو مائة ألف مدني خلال الحرب الأهلية في غواتيمالا معظمهم من القوات الحكومية.

سُنحت لي الفرصة لرؤية هذه الحرب عن كثب عام 1988 عندما مشيت عبر مثلث ايكسل في جبهة الحرب بالمرتفعات. كانت الطرقات مليئة بالدعايات من قبل الحكومة والعصابات - قوائم يدوية صغيرة تحض الناس على المشاركة مع هذا الفريق أو ذاك. كانت المنطقة لا تزال في حالة حرب، لكن العصابات كانت تتراجع. في كل مكان شهدنا أساليب مكافحة التمرد: طرق قطعت الأشجار فيها من الجانبين، ودوريات طيران، ونقاط تفتيش لميليشيات مدنية، وقرى محروقة وأخرى تحت النفوذ الحكومي الصارم. في قرية نموذجية تخندقت مجموعة من الجنود الغواتيماليين حول مكان هبوط المروحيات في أعلى مكان من الجبل. بعد

(*) Viet Cong: الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام.

حرب من أجل كوكب صغير

ذلك في العام 1991 سافرت مع المقاومة الوطنية، وهي جزء من جبهة التحرير الوطنية فارابونديو ماري أو FMLN، وأرسلت تقارير عنها. حملت هضاب كاباناس والسلفادور الندوب الفيزيائية والاجتماعية نفسها.

اليوم يستمر العنف في مرتفعات غواتيمالا والمدن الصغيرة في السلفادور، لكن بدلا من حرب العصابات ومكافحة التمرد، فإن المصيبة هي الجريمة. يبلغ المتوسط العالمي للقتل أقل من ثمانية لكل مائة ألف من السكان، لكن مكتب الأمم المتحدة حول المخدرات والجريمة أشار إلى أن معدل القتل في أمريكا الوسطى بين عامي 2003 و2008 بلغ في المتوسط واحدا وستين في هندوراس؛ واثنين وخمسين في السلفادور؛ وتسعة وأربعين في غواتيمالا لكل مائة ألف من السكان⁽²⁷⁾. كتب عالم من أمريكا اللاتينية عام 2006 أن «معدلات الجريمة ارتفعت عالميا بمعدل 50 في المائة خلال الـ 25 سنة الماضية، ويعتقد على نطاق واسع أن هذه الظاهرة تساهم بشكل كبير في معاناة الناس في كل أنحاء العالم. وتنطبق هذه الحالة بشكل خاص على أمريكا اللاتينية، حيث وصل العنف فيها إلى مستويات غير مسبقة نتيجة ازدياد الجريمة والجنوح»⁽²⁸⁾.

كانت هذه الدول الثلاث جميعها مراكز لمكافحة تمرد عنيفة منذ أواخر السبعينيات حتى أوائل التسعينيات، وكانت النتيجة هي الانحراف وإضعاف المجتمع وتخريب النسيج الاجتماعي، مما تسبب في انتشار ثقافة البندقية بين عدد كبير من السكان العاطلين عن العمل والمعتادين على العنف والقمع والسرية والولاء للعصابة والوحشية والتدرب على فنون التهريب والابتزاز والصوصية والاغتيال. بعبارة أخرى احتل جيش غير مرئي من المجرمين المجتمع. انغمست الطبقة السياسية في العنف ومعظمها نظر إلى المجتمع كساحة حرب يجب تحطيم الأعداء فيها، والتخلص من المشاكل الاجتماعية بالعنف. هيمنت الجدران والحراس المسلحون على الأحياء. وتعودت الشرطة على سلوكيات كالتعذيب والخطف وتجارة المخدرات⁽²⁹⁾.

في هذه الأثناء، كان الفقر النسبي يحدد معالم الوضع النفسي: هذه المجتمعات أكثر لا مساواة من أي وقت مضى، وبرفعها الوعي الطبقي للجماهير قامت الحركات الثورية والاجتماعية التقدمية بتنوير المجتمعات حول عدم

المساواة الكامنة في هذا الوضع⁽³⁰⁾. وتجعل مشاهد الإعلام الحديث عن طريق عرضها للغنّى والشهرة الناس العاديين يشعرون بما يفتقرون إليه. ويغذي هذا كله الفقر النسبي المولد للجريمة.

ما بعد الحرب الباردة

من المعروف أن هزيمة أمريكا في فيتنام صرفت الجيش الأمريكي عن دراسة مكافحة التمرد، رغم أن أساليب الحرب غير النظامية بقيت جزءاً من التعليمات للقوات المتعاونة مع الولايات المتحدة في السلفادور والفلبين وكولومبيا وأمثلة أخرى. لكن عقيدة مكافحة التمرد عادت مرة أخرى بعد وقوع مغاوير الجيش الأمريكي بمشكلة في مقديشو بالصومال عام 1993 خلال غارة فاشلة على مجمع أمير الحرب في الصومال محمد فرح عيديد. بعد إصابة مروحية بلاك هوك في المدينة، دخلت بعثة إنقاذ المدينة في النهاية، ثم خرجت منها، لكن ليس من دون خسارة كبيرة في الأرواح - خاصة بالنسبة إلى الميليشيات الصومالية، حيث قتل من ثمانمائة إلى ألف وثلاثمائة منهم - وإذلال مدو للجيش الأمريكي⁽³¹⁾.

بدأ البنتاغون بعد ذلك بالتفكير بجدية أكبر حول كيفية محاربة جنود غير نظاميين في المدن وفي دول فاشلة. بعد ذلك بوقت قصير وضعت مؤسسة راند RAND دراسة دعيت «تهدين التمرد»، وفي ديسمبر عام 1997 انتقدت هيئة الدفاع الوطني في تقرير لها «الجيش الأمريكي بأنه غير مهياً لقتال معقد في الشوارع المتعرجة والمستحيلة السلوك تقريباً في مدن العالم الثالث الفقيرة. نتيجة لذلك أطلقت القوات المسلحة الأربعة جميعها، بالتنسيق من قبل مجموعة العمل المدني للأركان المشتركة برامج سريعة لإتقان فن قتال الشوارع تحت ظروف تماثل واقع العالم الثالث»⁽³²⁾.

في العراق رأيت هذا المبدأ الجديد يطبق في شوارع بغداد والفلوجة وسامراء وبعقوبة. وخلال معركة بالنيران عادت بي الذاكرة، وأنا مختبئ خلف سيارة متوقفة، إلى لعبة الحرب تلك في أوكلاند. اختصر إطلاق النار ذاك في بغداد الحرب بأكملها: مشوشة وكثيفة العمالة، ومفرطة في التقنية، وغير فعالة، ومدينية بشكل غريب. كان لدى القوات الأمريكية قوة نارية أكبر مما كان بإمكانها أن تستخدمه، ولم تكن

حرب من أجل كوكب صغير

تعلم بالضبط مكان العدو ولا هويته. اختبأ المواطنون في كل زاوية بينما كانت طلقات الرصاص تثرز بالقرب منهم.

يوضح غريغ غراندين في كتابه «ورشة عمل الامبراطورية: أمريكا اللاتينية، والولايات المتحدة، وصعود الامبريالية الجديدة» الروابط بين مكافحة التمرد في العراق وسابقاتها في أمريكا الوسطى. يقتبس غراندين قول خبير أمريكي في مكافحة التمرد يصف قوة القوات الممولة والمدربة أمريكيا في أمريكا الوسطى على أنها «تصبح متوحشة». وكما يشرح غراندين «مع فشل الولايات المتحدة في هزيمة الثوار [العراقيين] وحدها بدأ البنتاغون في مناقشة «الخيار السلفادوري»، أي استخدام قوات ميليشيا محلية عرفت بكتائب الموت للقيام بالعمل القذر الذي لم تكن ترغب فيه، أو غير قادرة عليه. تحولت إلى رجال مثل جيمس ستيل الذي قاد في الثمانينيات مهمة القوات الخاصة في السلفادور، وعمل مع أوليفر نورث لتهريب السلاح والإمدادات إلى ثوار الكونترا في نيكاراغوا⁽³³⁾.

كانت النتيجة تشكيل كتائب الموت. التحق بيتر ماس من مجلة نيويورك تايمز بستيل ووصف الوضع كما يلي:

بالنظر من خلال الأبواب، رأيت نحو مائة معتقل يجلسون على الأرض وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم، ومعظمهم معصوب العينين. عن يميني خارج الأبواب كان هناك موظف أمن يلبس سترة جلدية يصفع معتقلا جالسا على الأرض ويركله.. بعد بضع دقائق من بدء المقابلة، بدأ شخص يصيح في القاعة الرئيسية مغطيا على الصوت، «الله» صرخ: «الله، الله». لم تكن صرخة فرح بل كانت صرخة رعب كصیحات رجل مجنون، أو شخص يعذب حتى الجنون. «الله» صرخ مرة بعد مرة. كانت الصرخات عالية جدا بحيث لا يمكن تجاهلها. غادر ستيل الغرفة ليعرف ما يحدث. في الوقت الذي عاد فيه كانت الصرخات قد توقفت. بيد أنه حالا من خلال النافذة ورائي أمكنني سماع أصوات رجل يتقيأ جاءت من منطقة احتجز فيها معتقلون آخرون على جانب البناء⁽³⁴⁾.

ختم ماس مقاله بتلخيص جوهري: «في السلفادور والهندوراس والبيرو وتركيا والجزائر وأماكن اشتعال التمرد ومكافحة التمرد، استمرت المعارك من دون توقف. كانت بلا استثناء حروبا قذرة».

هذا هو فحوى التكيف المسلح للتغير المناخي: حرب قذرة للأبد. في الفصول اللاحقة سيتضح الخراب الاجتماعي الناجم عن مكافحة التمرد في الماضي، على شكل جريمة وتهريب وميليشيا مدنية وفرق موت ومناطق مليئة بالأسلحة الخفيفة واستخدام روتيني للاعتقال والتعذيب. ولأن مكافحة التمرد بالتصميم هي حرب تهاجم النسيج الاجتماعي فقد بذرت الفوضى وهيات المسرح لتجمع كارثي. بترك الفساد والجهل والجريمة والانحراف خلفها، خلقت الحروب الصغيرة والقذرة مجتمعات غير قادرة كليا على التعامل مع التغير المناخي. والآن يضاعف التكيف المسلح الرهان السيئ بتطبيق مكافحة تمرد أكبر على المستوى العالمي للأزمة.

الجزء الثاني
أفريقيا

الجغرافيا السياسية لغارة على قطيع

هناك ظل تحت هذه الصخرة الحمراء،
(تعال إلى ظل هذه الصخرة الحمراء)،
سأريك شيئا مختلفا عن ظلك، وهو يسير
خلفك في الصباح،
أو عن ظلك، وهو يقف للقائك في المساء؛
سأريك الخوف في حفنة من تراب.
ت. س. اليوت، الأرض البيضاء

إذا كان المركز الإمبريالي للنظام العالمي
يستعد للتكيف مع تغير المناخ عبر اللجوء
إلى أساليب عسكرية، فما الذي سيبدو عليه
انهيار ناجم عن تغير مدفوع مناخيا في عالم
الجنوب؟ كيف يتكيف الفقراء؟ وكيف يعمل
التجمع الكارثي على أرض الواقع؟ ما بنيته
وما تاريخه؟ للحصول على أجوبة على هذه
الأسئلة، سافرت إلى شرق أفريقيا. وهناك في

«إن لم تكن هذه حريا فهي شي»
قريب جدا منها»

المؤلف

صباح يوم قانظ وجدت نفسي أنظر إلى الرجل المقتول إيكارو لورومان الذي قتل من نواح عدة بسبب تغير المناخ.

كما ذكرت في الفصل الأول، دفعت هذه المجموعة من التوركانا نحو الجنوب من جراء موجة جفاف قوية، وكانوا يرعون ماشيتهم قريبا جدا من أعدائهم البوكوت. ولنندرة الماء والكلاء مرض القطيع. ولتعويض النقص في القطيع أغار الشباب على جيرانهم⁽¹⁾. هذا العنف المتزايد يتعلق بوضوح بتغير المناخ. ترتفع درجة حرارة الأرض وتصبح الأمطار المنتظمة في نطاق التقارب بين المدارين ITCZ غير منتظمة. في الوقت نفسه، فإن المياه التي تتدفق من الجليد المتموضع على جبل كينيا في مشكلة أيضا: منذ قرن مضى كانت القمة تحوي 18 كتلة جليدية بقي منها اليوم 11 فقط وتقلص 4 منها بشكل كبير⁽²⁾. والشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى تنزانيا المجاورة، حيث تشير اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC إلى أن «المدى الحقيقي لحقول جليديات جبل كليمنجارو تقلص بنحو 80 في المائة خلال القرن العشرين⁽³⁾».

وكما شرح طبيب بيطري كيني يعمل مع رعاة قبيلة الماساي لجون فيدال من صحيفة الغارديان: في الماضي كنا نحصل على دورة مناخية كل 10 سنوات، يتبعها دوما جفاف كبير. في السبعينيات بدأنا نحصل على موجات جفاف كل 7 أعوام؛ وفي الثمانينيات جاء الجفاف مرة كل 5 سنوات، وفي التسعينيات حصلنا على دورات جفاف وفترات من الجفاف كل عامين إلى ثلاثة أعوام تقريبا. وفي العام 2000 حصلنا على ثلاث فترات جفاف كبيرة وعدد من فترات الجفاف. والآن أصبحت تأتي كل عام تقريبا عبر البلد كله⁽⁴⁾».

يدفع الطقس المتطرف شمال كينيا نحو التصحر، وهذا يعني أن على الرعاة أن يتنافسوا على الماء والكلاء. الوضع سيئ جدا في بعض الأماكن بحيث يقتل الناس بعضهم بعضا من أجل الماء - إطلاق النار للتحكم في الآبار والمراعي. ربما كان هذا المثل الأكثر مباشرة عن إثارة تغير المناخ للعنف.

الغارة

التوركانا موجودون هنا - في مكان دعي كوتاروك جنوب غرب قرية نيبا، أو «موقعها الفرعي» - ليكونوا بالقرب من بئر حفرت منذ سنوات مضت من

قبل منظمة غير حكومية NGO. وغير بعيد عن المكان ترتفع هضاب كاراسوك - وهي جبال حادة قاحلة تبرز فجأة من صحراء منبسطة. عندما يتوافر لرجال القبائل الديزل لتدوير المضخة، تسحب هذه البئر الضيقة القليل من المياه الجوفية القديمة. في تلك الأوقات الجافة التي يبدو أنها تدوم وتدوم، يكفي ماء البئر وحده لإبقاء القطيع على قيد الحياة. ومن دون القطيع سيختفي التوركانا، سيموتون أو سيهاجرون إلى المدن، وستبقى ثقافتهم فقط في ذكريات سكان أحياء عشوائية لا جذور لها في المدن.

في الوقت الحاضر تسحب البئر الحياة إلى السطح. لكن البئر تسبب المشاكل أيضا. إما بسبب المنطق الجاهل لمشروع مساعدات عمره 40 عاما، أو بسبب ضرورة جيولوجية أو هيدرولوجية بسيطة، حفرت البئر قريبا بشكل خطير من مقاطعة البوكوت - على الحدود التي تلتقي عندها كلتا القبيلتين. هنا تنحدر الجبال نحو واد عميق ينفث على السهول. يمكنك في الحقيقة رؤية المكان إذا نظرت في خرائط غوغل. إنه في منتصف الطريق صعودا إلى الحافة الغربية من سهول توركانا، حيث يقترب نهر تركويل الموحد والسريع التدفق من الجبال. انظر عن قرب ويمكنك أن ترى موضع تقاطع واد عميق مع هضاب كاراسوك. يستخدم البوكوت ذلك الممر للقيام بغاراتهم.

تعود العداوة بين البوكوت والتوركانا إلى عهد طويل. يحد البوكوت التوركانا من الجنوب، وهم مثل التوركانا ينحدرون من سلالة نيلية. لكن البوكوت يتكلمون لغة مختلفة، وينتمون إلى المجموعة الكبيرة الفضفاضة من القبائل التي تدعى كالينجين - وهي تجمع ثقافي مخترع حديثا نسبيا، وذات تجانس داخلي مشكوك فيه. إنها اختراع سياسي من فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتجميع لقبائل أدنى تحاول التوازن مع قبيلة الكيكويو المهيمنة اقتصاديا واجتماعيا⁽⁵⁾.

أجبر البوكوت على الصعود إلى المناطق الجبلية الصخرية غير الخصبة، بسبب قلة عددهم وضعفهم التاريخي، ونتيجة للضغوط عليهم من كل جانب. لكن ضعفهم وتعرضهم للأذى جعلهم خشنين وعنيفين وجريئين. يحترم الجيران جميعهم البوكوت ويخشونهم، لأنهم خلال الجيل الأخير أو نحو ذلك على الأقل بقوا على قيد

الحياة بنقل الحرب إلى أعدائهم، بالإغارة والقتل من مناطق بعيدة، وتبني تكتيكات شبه عسكرية، واستخدام الحدود الأوغندية - الكينية كملاذ آمن لهم يعبرونها جيئة وذهابا كما يشاؤون. وكرد على أولئك الذين اضطهدوهم وضغطوا عليهم لفترة طويلة، بدأ البوكوت في تحويل غارات القطيع التقليدية والطقسية إلى مزيج حديث من الحرب غير النظامية والجريمة المنظمة.

تغير جماعات الحرب من البوكوت على الماشية، وتنصب الكمائن للعربات على أحد طرفي الحدود، فقط لتهريب ما سرقته وبيعه على الطرف الآخر. يهجمون على مسافات طويلة في عمق شمال كينيا، ثم يتراجعون بسرعة إلى الهضاب الوعرة في أوغندا. يشترى الأسلحة والذخيرة في أوغندا لاستخدامها في كينيا، ويعقدون الصفقات مع ضباط الجيش الأوغندي والسياسيين الكينيين لبيع ماشيتهم المسروقة. البوكوت لاشك أنهم خشنون ومشهورون بالقسوة. لقد منى الجيش الكيني بأكبر الخسائر منذ الاستقلال خلال حملته الفاشلة لقمع البوكوت.

ملتهب من جديد

لعدة أشهر كان البوكوت يغيرون بشدة على الموقع الفرعي نيبا. أصيب قوم نيكارو قبلها بأسبوع واحد فقط. في ذلك الهجوم قتل رجل بالغ وطفلان. وخلال غارات حديثة أخرى سرق البوكوت بعض الأطفال ليحتفظوا بهم، ويربوهم كأطفال لهم، وأخذوا بالغين وزعوهم وألقوهم في طريق قطعان الماشية المسروقة لتدوس عليهم. وكما شرح زعيم في الموقع الفرعي نيبا كان هذا تقاطعا بين لعنة تقليدية للحماية، وإرهاب حديث.

ولأنهم مضغوطون على حافة أراضي البوكوت، كان التوركانا الذين عاش إيكارو بينهم يشعرون بالتعاسة. أرسلت العديد من العائلات نساءها وأطفالها إلى التجمع في بلدة صغيرة وانتظار منح المساعدة، بينما ذهبت طواقم من الشباب لحماية القطيع. هؤلاء الشباب المعروفون باسم موران أو المحاربين تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين، وعرضوا طيفا من الأزياء الشخصية: صنادل مصنوعة منزليا من عجلات قديمة، وتنانير من الطرطان، وعقود من البلاستيك،

الجغرافيا السياسية لغارة على قطيع

ومجموعة من القمصان المفتوحة، ومعاطف حقلية تتراوح بين الخاكي المبرقع ورمادي الفرق الموسيقية، والأسود الباهت، وأثواب لها جيوب لشركة أمن خاصة في نيروبي. لبس بعض الموران قبعات صغيرة ذات حافة على نمط قبعات جبال الألب. وضع آخرون صفوفا من الجروح التزينية على وجوههم. حمل الجميع السلاح: بنادق كلاشنكوف لها مقابض خشبية ملونة ومحفورة، أو بنادق G-3 ألمانية الصنع، وبنادق قوية ذات مدى بعيد، صالحة للقتال والصيد في الأماكن الفسيحة المفتوحة من توركانا.

شهد الموقع الفرعي عنفا سابقا. خارج الطريق الترابي اصطفت جدران محروقة لما كان في السابق مدرسة ومستوصفا، دمرتا في مرحلة أسبق من الحرب بين التوركانا والبوكوت. ومن خلال مترجم شرح الموران ما الذي حدث في اليوم السابق. بدأت الغارة منتصف الصباح، واستمرت 6 ساعات. هجم نحو 90 من البوكوت من الجانبين، متوغلين في عمق السافانا المنبسطة بين الهضاب ونهر تركويل. تحركوا شرقا ثم عادوا فاجتاحوا غربا نحو الهضاب مثل شبكة بشرية مسلحة، دافعين آلاف الحيوانات أمامهم، في محاولة منهم لدفع القطيع خلال الممر وصعودا داخل الكاراسوك.

لو استطاعوا الوصول إلى الممر وارتقوا الهضاب لأمكنهم التصدي للمحاربين المطاردين من التوركانا أو حتى تمزيقهم. في الهضاب، عند فوهة الجرف الضيق، استكشف البوكوت مسبقا أماكن لوضع البنادق يمكنهم منها الانقضاض على أي شخص يطاردهم. قبل ذلك بنحو شهرين، خلفت غارة مماثلة للبوكوت تبعها كمين لهم 26 قتيلا و14 جريحا من التوركانا المطاردين⁽⁶⁾.

لو تمكن القطيع من الوصول إلى الهضاب لقسمه المغيرون إلى قطعان أصغر، ووزعوها في عمق مقاطعة البوكوت الغربية، ثم ربما عبر الحدود إلى أوغندا، أو لأمكنهم بيع الأبقار من القطيع لعملاء مسالخين في نيروبي، والإبقاء على الأغنام والماعز لأنفسهم.

مع هجوم البوكوت بدأ إطلاق النار. سمع رجال آخرون من التوركانا قرقرة طلقة واحدة من الـ AK-47، ثم صيحات الحرب المرتفعة للبوكوت. ولتنبيههم إلى التهديد، ولأنهم مصابون وعلى حافة أعصابهم من جراء صيف من العنف المستمر،

وشعورهم بأنهم يمكن أن يصلوا إلى الفقر المدقع في يوم واحد لو نجحت الغارة، اندفع الموران نحو صوت البنادق.

مع هجومهم رقص البوكوت ملوحين ببنادقهم وقارعين عليها، مزغردين ومنادين بأسماء جوائز قطيعهم، قبل أن يطلقوا طلقات منفردة أو ثلاثية رشا. وبذخيرة محدودة رد التوركانا على البوكوت مطلقين طلقات مفردة مصوبة جيدا، وصائحين بوعودهم بالشجاعة وبأيمانهم القاتلة، وأوصاف ثيرانهم المميزة. «هذا للثور الرمادي ذي الوجه الأبيض». لو قتل محارب رجلا يمكنه بعد ذلك أن يقسم الأذنين المتدليتين لثوره المميز، بحيث يعلم الناس ما فعل.

استمرت المعركة على مدى 6 كيلومترات، واستمرت لعدة ساعات من الركض والاختباء وإطلاق النار ومطاردة القطيع. كان البوكوت يدفعون الأبقار و«القصار» - الأغنام والماعز - غربا نحو الفجوة في الكاراسوك. وبالامتداد على مدى بضعة كيلومترات كان للبوكوت محاربون على رأس القطيع يحرسون الجانبين، وفي الخلف كان هناك اثنان يحرسان المؤخرة.

ركض التوركانا الذين كانوا أقل عددا وقوة نارية بيأس ليتقدموا على المغيرين، ويطبقوا عليهم ويفصلوهم ويمنعوا تقهقرهم نحو الجبال، ويفرقوا الحيوانات قبل أن تدخل ممر الوادي الضيق. هذه المرة نجحت الخطة. دب الذعر في الكثير من الأغنام والماعز، لكنها بدلا من أن تعدو تجمعت حول بعضها بعضا، وحاول كل منها أن يختبئ داخل القطيع، وضغطت كلها في تكتل كثيف غير متحرك. حوصرت حيوانات أخرى في أجمة.

علق مغيرو البوكوت في السافانا وهم يحاولون جعل الحيوانات الصغيرة المذعورة تتحرك غربا. لكن الأغنام والماعز كانت خائفة ومضطربة جدا، ولم تفهم المأساة البشرية التي تدور حولها، وحاولت فقط أن تختبئ. انحشرت الماشية الصغيرة البنية والبيضاء والذهبية أقرب فأقرب مع بعضها بعضا، وتساعد الغبار من بينها، بينما بدأ محاربو البوكوت - الذين ازداد خوفهم من خطورة التأخير - بركل الحيوانات ودفعها والصراخ فيها كي تتحرك. ومن الأجمة شن محاربو التوركانا من حين إلى آخر جولات للمضايقة. لكن معظمهم عدوا متجاوزين القطيع راكضين غربا نحو الهضاب في محاولة منهم لمباغطة المغيرين. كان عليهم أن يسبقوا البوكوت إلى فوهة الممر، ويغلقوا طرق نجاتهم، ويشتتوا القطيع ويعيدوه إلى السافانا.

عندما فك البوكوت أخيرا القطعان المسروقة ووصلوا إلى الممر، كان التوركانا هناك بانتظارهم. اصطدمت القوتان حيث قام التوركانا بإطلاق النار على البوكوت المتقدمين. بإصرارهم على قيادة القطيع إلى الممر، قام لصوص البوكوت الغاضبون والمحصورون بالرد على النار بالمثل.

كان معظم المغيرين شبانا يقودهم محاربون قدماء أكبر سنا وأشد مراسا. بالنسبة إلى الطرفين كان كل شيء موضع رهان. كانوا يقاتلون من أجل كل ما هو مهم في الحياة: الشرف والمكانة والثراء والحب والبقاء، متمثلة كلها في القطيع الذي أصبح بدوره مالا، وكل ما يمكن شراؤه بالمال.

هنا، لا شيء يتم من دون قطيع. من أجل أن يتزوج الشاب عليه أن يقدم مهر العروس على شكل قطيع. وإذا كان القطيع قليلا أو هزيلا أو ليست هناك ثيران مميزة فيه فستشعر المرأة الشابة بالإهانة. لجمع الثروة يربي المرء قطيعا. الحيوانات عملة: لو احتاج الطفل إلى دواء أو تعليم يباع القطيع أو يتاجر به. يشتري التبغ والصابون والمجوهرات والثياب والأسلحة كلها بالقطيع أو بثمنه من النقود.

يحلم العرافون أو «الإيمورون» بالقطيع، ويلطخونه بالطين في طقوسهم، ويقرأون أحشاء الماعز، ويتلقون الأجرة لقاء خدماتهم بالقطيع. الرجل الذي يمتلك الكثير من الماشية محترم، بينما لا يحترم من يملك القليل منها. المرأة الصالحة ترعى القطيع جيدا، وتصد المرض عنه، وتمرض الحيوانات المرضى، وتتبع الحيوانات الضالة. الأبناء يصبحون رجالا ويشرفون آباءهم بأخذ القطيع إلى مسافة بعيدة بحثا عن الماء والكلأ، والعودة بالحيوانات كلها سليمة وآمنة. لذا فالمعركة - التي جاءت جزئيا بسبب الجفاف الذي أنقص القطيع، والمتعلق جدا بتغير المناخ - كانت قتالا حول كل ما له قيمة في الحياة.

مع تعبیر أزيز طلقات بنادق التوركانا عن هذه الحاجات كلها، امتزجت المخاوف والعواطف مع رغبة عارمة في البقاء أحياء، وتقدم البوكوت إلى الأمام مباشرة نحو خط إطلاق نار قناصي التوركانا، الذين تقع خلفهم فسحة هضاب كاراسوك وأمانها. كان الأمر مماثلا بالنسبة إلى التوركانا: اعتمد كل ما هو غال لديهم على هذا القطيع الذي يسرق الآن أمام أعينهم من قبل أعداء ولصوص وقتلة محترفين يشوهون جثث الموتى.

صرعت طلقات الرصاص الثقيلة والمنهمرة من بنادق التوركانا ستة من المغيرين البوكوت. مات واحد أو اثنان منهم بسرعة، ونزف دم واحد منهم ببطء، وجرح عدد قليل منهم، وبلا شك فقد أعدموا عن قرب مثل إيكارو. مات ثلاثة أيضا من التوركانا بمن فيهم إيكارو. لكن معظم القطيع شتت وأعيد إلى السهول القاحلة على طول نهر تركويل. كانت الغارة مرة أخرى عملية فاشلة تقريبا، وكارثة جري تجنبها في أرض دفع فيها الجفاف ومآذج الطقس العنيف غط الحياة القديم إلى حافة الإبادة. مع تراجعهم إلى التلال، توعّد البوكوت بالعودة الفورية والمميتة. فقدت بعض الماشية القصيرة، مع أن راعيا غاضبا قال إنه ربما سرقها بعض التوركانا خلال فوضى المعركة. في اليوم التالي بقي الموران متحفزين للقتال ومستعدين للغارة التالية. وبقيت مجموعة القتال من البوكوت قريبة من المكان.

قال البوكوت «لم نحصل على ما يكفي، كونوا على حذر، سنعود» شرح أحد الرجال. «انظر، ليست لدينا طلقات. كل طلقة تكلف خمسين شلنا. كل واحد منا لديه طلقة أو طلقتان فقط» شرح آخر. يريني الرجال الآن مخازن بنادقهم الفارغة. «نحن بحاجة إلى طلقات».

تمنيت للحظة تقريبا وأنا أنظر إلى جثة إيكارو لو أنني جلبت لهم بعضها. كل ما كان بوسعي تقديمه هو كيلوغرام من التبغ الطازج الذي يمزجه التوركانا بالملح ويمضغونه ويلفونه على شكل سيجارة من ورق الجرائد، أو يدخنونه في غلايين صغيرة من النحاس.

غيوم الأمطار والكلاشنكوف

حدثت تلك الغارة التي قتلت إيكارو لورومان في قلب «ممر الرعاة»، وهي منطقة من الجبال والسافانا والمستنقعات والصحراء على طول الحدود بين كينيا وأوغندا والسودان وإثيوبيا والصومال. تعود ملكية هذه المنطقة التي أصيبت بجفاف يتكرر بانتظام وفيضانات عارمة إلى قبائل رحل ونصف رحل مسلحة جيدا تعيش في توازن هش مع بعضها بعضا ومع بيئتها. وبسبب تجاهلهم من السلطات الاستعمارية والدول الأفريقية الحديثة على السواء، يعيش الناس في هذه المنطقة كما كانوا دوما بحيث يشكل القطيع محور حياتهم الاقتصادية والثقافية.

الأرض عموماً جافة جداً للزراعة، لكن يمكن استخدامها للرعي. الوحدة الاقتصادية الاجتماعية الأساسية هنا هي الرجل وزوجاته وأطفالهم وقطعانهم.

لكن ممر الرعاة يعاني الآن من طقس عنيف يتميز بالجفاف والفيضان المفاجئ، وهذا يضعه في الجبهة الأمامية للتجمع الكارثي حيث يجتمع الفقر مع العنف والتغير المناخي ويصدم بعضها بعضاً. أدت هذه العملية هنا إلى فشل الدولة الجزئي، وإلى العنف الميليشيوي⁽⁷⁾. تعبر هذه الفوضى الطاحنة عن «نظام للصراع» وهو اقتصاد سياسي معزز ذاتياً من العنف يربط بين الرعاة والميليشيات غير الشرعية وعصابات الإجرام والسياسيين والدول والجيوش والأسواق وصناعة المساعدات والمناخ⁽⁸⁾.

تتنبأ معظم نماذج المناخ التي جمعت من قبل اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC بأن هذه المنطقة من أفريقيا ستواجه تصحراً شديداً مع بدء تسارع الاحترار العالمي. ربما تصبح الصحارى في الشمال الغربي أكثر خضرة، لكن يبدو أن أحزمة الطقس إلى الجنوب تزداد جفافاً. في العقود الحديثة السابقة تكثفت دورات الجفاف، على الرغم من أن معدلات الهطول الإجمالي ازدادت، لأن الغلاف الجوي الأدفأ يحتوي على كمية أكبر من بخار الماء والطاقة. يهطل المطر الآن دفعة واحدة وبتدفقات شديدة. في الوقت نفسه يعبر فشل الدولة الجديد عن نفسه في انعدام القانون والتخلف والفساد وعدم توافر الخدمات الأساسية. ويتجسد هذا كله في انتشار ثقافة البندقية شمال كينيا.

خلال العقود القليلة الماضية أصبحت موجات الجفاف والفيضانات العارمة أكثر شيوعاً شمال كينيا. يعتقد معظم العلماء أن هذا يعكس سيطرة التغير المناخي. التأثيرات الأكبر والأبعد مدى لهذا النمط الجديد مفزعة. انظر إلى معلومات مكتب رصد المناخ الحكومي البريطاني للعام 2006. استناداً إلى كمية واسعة من البيانات والملاحظات، والمنتجة حسب تقليد مؤسسي عمره 150 سنة حول علم المناخ، اكتشف نموذج مكتب رصد المناخ هذا أن الميول الحالية تشير إلى تصحر نحو ثلث مساحة الكوكب بأكمله بحلول 2100، بينما سيعاني نصف مساحة الأرض من الجفاف. تتنبأ الدراسة أيضاً أنه خلال الفترة نفسها ستزداد نسبة الأرض التي في حالة «جفاف شديد» من النسبة الحالية 3 في المائة إلى 30 في المائة⁽⁹⁾.

في العام 2006 كلفت منظمة المعونة المسيحية (كريستيان ايد) الدكتور ديفيد كيمني المختص بالماشية بدراسة كيفية تعامل مربي الماشية في كينيا مع بيئة تزداد جفافا. تحدّث كيمني إلى رعاة في خمس مناطق عبر مقاطعة مانديرا شمال شرق كينيا (شرق التوركانا) وهي ماوى لـ 1.5 مليون من الناس. وجد الآتي:

• زاد حدوث الجفاف أربع مرات في منطقة مانديرا خلال الخمسة والعشرين عاما السابقة.

• أجبرت ظروف مناخية سلبية مسبقا ثلث الرعاة الذين كانوا يسكنون هناك - نحو نصف مليون نسمة - على التخلي عن طريقة حياتهم المعتمدة على رعي الماشية.

• خلال موجة الجفاف الأخيرة نفق الكثير من الأبقار والأغنام والماعز بحيث إن 60 في المائة من العائلات التي بقيت معتمدة على الرعي احتاجت إلى مساعدات خارجية لتتعافى، إذ إن قطيعهم المتبقي أقل من تكاليف معيشتهم⁽¹⁰⁾.

منذ 1997 وقعت أجزاء من الاقتصاد الكيني في ركود طويل بسبب هطولات مضطربة وغير كافية. في الحقيقة تتبع معدلات النمو في الاقتصاد الكيني المعتمد بشدة على الزراعة هطول الأمطار تماما تقريبا: يعني المطر العادي نموا عاديا أو قويا. لكن الأمطار تجلب مشاكل اقتصادية أيضا⁽¹¹⁾. يقول تقرير نموذجي لوكالة أمريكية للتنمية العالمية يعود إلى ديسمبر من العام 2007، إن «المناطق الرعوية في شمال كينيا شهدت فصلا أقل من المعتاد من حيث قصر فترة الهطول. إضافة إلى ذلك، بينما كانت تجري عمليات التحكم، هددت أسراب الجراد شمال كينيا قدرة الرعاة على الرعي والتجول خلال فصل الجفاف التالي أيضا. يستمر تأثير فصل الحصاد في مارس - مايو بالتأثير على المنطقة. ويستمر الطقس الجاف في إعاقة إنتاج المحصول على طول الساحل الكيني. مر معظم الفصل مسبقا، وكانت كمية الهطول الإجمالية أقل من المعتاد⁽¹²⁾.

كينيا من الطريق

لأفهم بشكل أفضل كيف يؤثر تغير المناخ والتاريخ السياسي للمنطقة على الحروب المحلية من أجل الماء والقطيع، استأجرت سيارة دفع رباعي، وسافرت

شمالا من نيروبي إلى ممر الرعاة. شاركني في الرحلة على مدى 700 كيلومتر صحافي شاب يدعى كاسبار ويثاكا. لم يتحدث كاسبار لغة التوركانا لأنه ينحدر من الكيكويو خارج نيروبي لكنه تكلم السواحيلية واللغة الفرنسية وعاش في التوركانا ستة أشهر في بداية حياته المهنية.

«لا أحد يود الذهاب إلى هناك، هناك دوما الكثير من القصص الجيدة عن الاغتصاب والقتل والسرقة. الكثير من القصص الجيدة. فقط اختر ما تريد»، قال كاسبار داغما حرف الرء لزيادة التأثير. وافق كاسبار على أن يريني الطريق إلى لودوار إحدى مدن التوركانا الرئيسة. قدمت لنا الرحلة - يومان من الالتفاف المتعرج الخطر على طرق جبلية ضيقة تهيمن عليها الشاحنات والباصات القادمة - درسا متتاليا في الجغرافيا الفيزيائية والاجتماعية والاقتصادية لكينيا.

بعد 40 دقيقة خارج نيروبي صعدنا جرف إلغيو، وهو الجدار الغربي للوادي المتصدع الكبير^(*). هو ليس واديا حقيقيا بل منطقة ممتدة - حوضا بطول 3900 ميل وعرض 100 ميل نجم عن انفصال صفيحتين تكتونيتين أو انفلاقهما. يحتوي الجزء الكيني من الحوض، المحدود بسلاسل جبلية وخطوط صدع متوازية، جبالا أصغر وهضابا ووديانا وبحيرات وأنهارا، وفي الشمال تمتد الصحراء. تذهب معظم مياه الفائق جنوبا لتصب في بحيرة فيكتوريا⁽¹³⁾. بعد النزول من الجرف تابعنا السير إلى الهضبة الباردة الرطبة للمرتفعات الغربية. أفضى الطريق الإسفلتي إلى دروب ترابية مجروفة ووعرة ومحفرة.

على الطرف الشمالي الغربي من المرتفعات أمضينا الليل في كيتالي، وهي بلدة زراعية يسيطر عليها اللوهيا^(**)، محاطة بمخيمات للنازحين مغلقة بالدخان وممتلئة بضحايا الكيكويو من المذابح التي تلت الانتخابات الأخيرة. الكيكويو هي القبيلة المسيطرة سياسيا واقتصاديا في كينيا، وبعد الانتخابات المتنازع حولها في ديسمبر 2008 هاجمتهم القبائل الأخرى. ملأت آثار تلك الاضطرابات - الأكواخ القماشية الزرقاء لمخيمات النازحين، والمزارع وواجهات المخازن المحروقة - المظهر الهادئ للمشهد الكيني.

(*) Great Rift Valley، ويطلق عليه كذلك الأخدود الأفريقي العظيم.

(**) إحدى الجماعات الإثنية الكينية. لغتهم هي البانتو. ويعيش بعضهم في أوغندا وتنزانيا. [المحررة].

في اليوم التالي سعدنا تلال تشيرانغاني الغائمة، وهي مقاطعة البوكوت، والكتف الشرقي لجبل إلغون بقبعته الجليدية على الحدود الكينية - الأوغندية. هناك بدأ انحدارنا الأخير إلى شبه صحراء التوركانا، وهي الأراضي المنخفضة للوادي المتصدع، وسرنا مباشرة شمالا لمسافة 300 كيلومتر أخرى على طرق ترابية مخربة للكل، تمضي أكثر فأكثر إلى عمق السافانا الهادئة ومركز حروب القطيع.

توركانا

«هذه منطقة عمليات»، قالها ضابط شاب وهو يتكئ على نافذة السيارة، ويمسح بعينه ما بداخلها، ثم يقلب ببطء جواز سفري. كانت هذه آخر نقطة تفتيش قبل دخول الأراضي السيئة.

«ليست لديك أي حماية. ربما عليك أن تأخذ مرافقا معك».

قتل العشرات من المسافرين على هذا الطريق في السنوات السابقة. وتحمل صحف نيروبي كل أسبوع قصصا مثيرة عن باصات وشاحنات تهاجم وتسرق. شملت قائمة القتلى من المسافرين كهنة وسياسيين وحتى نساء وأطفالا. ونتيجة لذلك يفضل الآن السفر مع حماية مسلحة. تحمل الحافلات العامة كلها شرطين مسلحين جيدا. ويقدم ضباط الشرطة الوطنية الكينية هذه الخدمة مقابل أجرة تتراوح بين 5 و10 دولارات. ولأن رواتبهم قليلة ومصادرهم شحيحة فهم بحاجة إلى النقود بشدة. ربما لا يستطيع شرطيان جالسان في المقعد الخلفي إيقاف قطاع الطرق، لكنك إذا رفضت المساعدة فربما يستدعي أحد الشرطة العصابة نفسها.

«أعتقد أنه من الأفضل أن نستأجر حماية» قال كاسبار.

لذا قبلت العرض، أو بالأحرى لم أرفضه، وصعد شرطي شاب يدعى إريك إلى المقعد الخلفي. لمدة عشرين دقيقة ونحن نصعد الطريق، لقم إريك بصوت عال مشطا من الذخيرة في بندقيته الـ G3، وصوب فوهتها خارج النافذة.

كان لإريك الاحساس القاتم نفسه لجنود احتلال في أي مكان. كان ينظر إلى السكان المحليين وإلى الصحراء بمزيج من الاحتقار والإعجاب. «الصحراء قبيحة. في المنطقة التي انحدر منها يمكنك زراعة أي شيء» قال.

لكن ماذا عن الناس هنا؟

«ليس لديهم أي احترام للحياة. سيقتلونك بالسهولة نفسها التي يقتلون بها معزة. وجميعهم يصيبون الهدف جيدا». شرح أن ثلاثة ضباط من مركزه، بمن فيهم قائد، قتلوا في الشهور الأخيرة وهم يقاتلون المغيرين على قطيع التوركانا. «استدعينا المروحيات والتعزيزات».

لماذا الأوضاع عنيفة جدا هنا؟

«الجفاف» أجاب إريك. «التقاليد والافتقار إلى التعليم والجفاف. وأوغندا لا تستطيع التحكم بحدودها».

كانت تفسيراته معقولة: من دون مطر يتناقص الرعي والعشب، وتضعف الماشية وتموت. لتعويض الفقد في الماشية يقوم الشبان بالغزو. في كل مكان انتصبت هياكل رمادية لأشجار الأكاسيا الميتة. في مقاطع على الطريق مررنا بامرأة طويلة بملامح قوية من التوركانا، تبيع حقائب طويلة ونحيفة من الخيش مملوءة بالفحم. إثر إصابتهم بالمجاعة، يقومون الآن بحرق الأشجار التي أصابها الجفاف ليصنعوا منها الفحم. أنزلنا إريك في بلدة لوكيشار المحترقة بالشمس على جانب الطريق. كان مرافقنا التالي شرطيا احتياطيا من التوركانا أكبر سنا وبوجه لفحه الطقس والكحول. كان يحمل بندقية AK-47 ومشطين مليئين بالذخيرة، أراد الركوب إلى الغابة ليطمئن على قطيعه.

قال إنه كلف بحماية الحافلات إلى الحدود السودانية. منذ وقت ليس بالطويل كان على متن حافلة هوجمت. نزل اللصوص إلى الطريق وأطلقوا النار على العجلات وزجاج السيارة الأمامي. انبطح المسافرون جميعهم على الأرض، بينما أطلق الشرطي الاحتياطي ورفيقه النار على قطاع الطريق من خلال زجاج السيارة الأمامي المحطم. «قتلنا واحدا وطردنا الاثنين الآخرين» قال الاحتياطي المسن. «كان القتل سودانيا. يمكنك معرفة ذلك من العلامات على وجهه».

ثم في مكان مقفر طلب الرجل المسن منا أن نتوقف. «سأنزل هنا» قال ذلك وانطلق نحو الغابة.

بلدة الرجل

أخيرا وصلنا لودوار في قلب منطقة التوركانا. تقع المدينة على تقاطع الطريق A-1 مع نهر تركويل. على الرغم من أنها صغيرة ومتراصة فإنها تتمتع بحيوية

غربية. ليست البلدة شيئا كبيرا، لكنها كانت المدينة الكبرى ذات الأضواء المتلاثلة في هذه المنطقة. يعج شارعها الرئيس وجسرها الفولاذي ذو الاتجاه الوحيد على نهر تركويل الموحد بالرعاة وقطعانهم الكثيفة من الماعز والأغنام. تتوقف شاحنات عتيقة وحافلات ديزل ممتلئة بالناس ومحملة إلى الأعلى بالمتاع، في لودوار وهي في طريقها من جنوب السودان وإليه. تغص المدينة بمحلات تبيع الدلاء والسكاكين والفؤوس والمجارف والحبال وقدور الألمنيوم وأكواب الماء البلاستيكية المخططة بلمعان والقماش ومطاعم صغيرة وضيعة وبارات مفتوحة الأبواب تنبعث منها رائحة كريهة حيث يختبئ أصحابها من الشمس خلف مشبكات غليظة. تطل أشجار قليلة كثيفة قديمة فوق الشوارع غير المعبدة. في الليل تثير السيارات التي تتحرك ببطء الغبار، وتعوم في وهج أضوائها، معطية لودوار جوا غائما مخدرا وقائما. في لودوار قابلت لوكاس آريونغ، رئيس منظمة ريام ريام غير الحكومية لبناء السلام. كان لوكاس رجلا وسيما طويلا ونحيفا وله ملامح ناعمة لكن وجهه ممتلئ بالندوب كما لو أن زجاجة حطمت مرة عليه.

«هذه حروب على الموارد»، قال لوكاس، مشيرا إلى حروب الماشية. «والآن يتغير المناخ، المطر يتأخر وتتحول الأرض إلى صحراء. يحرق الناس أشجار الأكاسيا من أجل الفحم، ويقتلون بعضهم بعضا للتحكم في آبار المياه».

كان اهتمام لوكاس بدورات الغارات شخصيا: قتل والده في غارة عندما كان يافعا. وقتل الكثيرون من أصدقائه في الغارات. يمتلك لوكاس نحو 50 بقرة والكثير من الماشية القصيرة، كلها تحت مراقبة رجال مسلحين من أولاده ورجال مستأجرين. لشرح الأزمة يخرج لوكاس حزمة من خرائط من الأمم المتحدة تظهر مواقع الكلاً وحفر المياه والبرك المالحة والأنهار والطرق والأراضي الجافة والبلدات الصغيرة والمدارس والعيادات والأعداد المنخفضة جدا من المدرسين والعاملين الصحيين نسبة إلى السكان. تشير الخرائط أيضا إلى ممرات الإغارة والحدود القبلية التي تتقاطع أحيانا مع موارد المياه والمراعي، وبالتالي تحدد خطوط المواجهة لحروب التوركانا الصغيرة حول الموارد المدفوعة مناخيا.

أشار لوكاس إلى مواقع معارك حديثة عدة: إلى الأعلى في الشمال الغربي عبر الجيش الأوغندي الحدود إلى كينيا، وقصف مخيما صغيرا للتوركانا، ربما في أثناء

الجغرافيا السياسية لغارة على قطيع

مطاردته للصوف ماشية من التوركانا كانوا يسرقون كالينجيين من أوغندا. في صيف العام 2007 أجبرت الغارات عبر الحدود حكومتي أوغندا وكينيا على التفاوض لمبادلة الماشية. إلى الجنوب كان البوكوت يسرقون القطيع، ويكمنون للمركبات. من الشمال والشمال الغربي تهرب البنادق من جنوب السودان والصومال بينما تتوافر الذخيرة مسبقا من شرق أوغندا. اتخذ نظام الصراع شكلا منظورا.

ما الذي على الدولة أن تفعله ؟

«حفر المزيد من الآبار. نحتاج إلى آبار» قال لوكاس. «القضية هي الجفاف»

أرض الغارات

تنمو حوليات العنف المدفوع بالجفاف شمال كينيا - حروبها المناخية الصغيرة - كل يوم. هذه تقارير مأخوذة من شهر واحد فقط أواخر صيف العام 2008:

5 أغسطس: قتل 74 شخصا في عطلة نهاية الأسبوع من الهجمات على ثلاث قرى بقسم لوكوري في مقاطعة جنوب توركانا، وسرق أكثر من 2200 من الماشية.

12 أغسطس: قتل الغزاة من البوكوت أكثر من 30 من رعاة التوركانا في قسم لوكوري بمقاطعة توركانا الجنوبية، وجرح عشرات آخرون وسرقت 700 رأس من الماشية.

20 أغسطس: هاجم المغيرون من التوركانا قطعان الماشية في تجمع مياه غالاسا، وسرقوا أكثر من 20000 حيوان. طاردتهم قوات الأمن وقتل ثمانية من الشرطة الاحتياط المحليين وعدد من المغيرين.

22 أغسطس: قتل الجيش الأوغندي 10 وجرح 4 من رعاة التوركانا الذين عبروا الحدود للبحث عن الماء والكلا. سرق الجنود الأوغنديون 400 حيوان.

24 - 30 أغسطس: عبرت مجموعة من المغيرين مؤلفة من أكثر من ألف شخص من قبيلة توبوسا السودانية إلى كينيا خلال الأسبوع التالي، وهاجمت قريتين وقتلت ثمانية أشخاص وخطفت ثلاثة أطفال وسرقت ما يقدر بخمسة آلاف حيوان في لوكيتشوغيو شمال غرب توركانا.

2 سبتمبر: قتل اثنان من الشرطة الاحتياط وهم يصدون مغيرين آخرين من التوبوسا الذين عبروا الحدود من جنوب السودان.

4 سبتمبر: قتل مغبرون من البوكوت شخصين في كوتاروك وسرقوا أكثر من ستمائة حيوان⁽¹⁴⁾.

في منتصف العام 2007، أجرى إحصاء الأسلحة الصغيرة، وهو مشروع لمعهد الخريجين للدراسات الدولية في جنيف، بحثاً بين الأسر على طول الحدود الكينية - السودانية. حاول الإحصاء قياس التأثيرات الاجتماعية لانتشار الأسلحة الصغيرة. وجد أن وباء اللعب بالأسلحة «بمستويات حقيقية، ومتخيلة عن عدم الأمان... أسوأ بكثير على الطرف الكيني من الحدود مما هو في جنوب السودان، الذي يتعافى من حرب أهلية دامت 21 سنة». شهد 60 في المائة من المستجيبين للإحصاء غارة على الماشية، وقال أكثر من 60 في المائة منهم إن نزع السلاح سيقول الأمان⁽¹⁵⁾. إن لم تكن هذه حرباً فهي شيء قريب جداً منها.

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

الآن، أصبحت الموت محطم العوالم.
فيشنو في البهاغافاد غيتا(*)،
كما اقتبس من قبل روبرت جي أوبنهايمر

تتميز منطقة شرق أفريقيا وخاصة كينيا
بطقس معقد. وحتى أفهمه، قمت بزيارة إلى مركز
مكتب الأرصاد الجوية هناك. المكان هادئ بشكل
خادع - يهتمون هنا بالغيوم. ففي كينيا المعتمدة
على الزراعة تتحكم الغيوم في حياة الناس وأحيانا
بعواقب مخربة. عند نهاية قاعة طويلة في غرفة
للتنبؤ بالطقس تصطف على جانبيها حواسب
شخصية قديمة تقرقع، قابلت جيمس موهندي
رئيس الرصد المناخي. وكسترة موهندي الصارخة
وسوالفه العتيقة، تبدو الآلات خارج الموضة لعقد

(*) البهاغافاد غيتا هو الكتاب المقدس في الديانة الهندوسية،
وفيشنو هو الهم الأعلى. [المحررة].

«يبدو أن تجليات نظام المناخ
الحالي تحدث بصورة أسرع مما
توقع العلماء»

المؤلف

أو أكثر. بعد أكثر من ثلاثين عاماً في الوظيفة، يعلم موهندي التفاصيل الملتوية للطقس الكيني كما يعرف عائلته. «لدينا الكثير جداً من المناخات الصغيرة» قال هذا بمزيج من السخط والفخر الوطني. «يلعب المناخ دوراً رئيساً في النشاط الاقتصادي الاجتماعي - يعتمد اقتصادنا جداً على الطقس. يعتمد معظم المزارعين الكينيين على فصلين ممطرين. أحدهما في الربيع، والآخر في الخريف».

يعمل أكثر من 70 في المائة من السكان العاملين في كينيا بالزراعة أو القطاعات المرتبطة بها. المحاصيل الرئيسة هي الشاي والقهوة والذرة والقمح وقصب السكر والفواكه والخضروات ومنتجات الحليب ولحم البقر والخنازير والدواجن والبيض والأزهار المقطوعة التي يجلب تصديرها الكثير من النقد. تسقى معظم هذه المزروعات بمياه الأمطار بدل الري، وكما عبّر موهندي عنها في «أطلس هطول الأمطار في كينيا»، «يؤدي فشل الأمطار وحدوث الجفاف خلال أي فصل زراعي غالباً إلى نقص كبير في إمدادات الغذاء، وموت الحيوانات، خاصة في غياب التخطيط الاستراتيجي»⁽¹⁾. على الرغم من وجود نقص حاد في التخطيط الاقتصادي الاجتماعي بعيد المدى في كينيا، فإن البلد يمتلك نظاماً جيداً للاستجابة إلى المجاعة يصل الحكومة بقطاع الأعمال وصناعة المعونات الدولية.

يمكن لعملية تقديم الغذاء في الحالات الطارئة أن تستمر حتى ستة أشهر. لو لم تُتوقع المجاعة مقدماً، فستكون حتى الاستجابة السريعة والقوية متأخرة جداً، وربما يموت الكثيرون. إن أهم مهمة لمكتب الأرصاد الجوية هي اكتشاف علامات تحذير مبكرة، بحيث يمكن تهيئة نظام الاستجابة إلى المجاعة - بمن فيهم المديرون المحليون ووكالات العون وشركات النقل. حتى العلامات المعقدة على أمطار متأخرة أو فيضانات مفاجئة يمكنها أن تطلق إجراءات التخفيف والتحذير المبكر للأمن الغذائي. وستبدأ محركات صناعة المعونات الدولية الضخمة بالدوران - بأسرع ما يمكن، لكنها تبقى مع ذلك بطيئة.

الحياة والموت والغيوم

عندما يتبع مناخ كينيا النمط العادي يمتلك معظم البلد فصلين ممطرين أو هطولاً على نسقين. يعرف الفصل الأول الذي يستمر من مارس إلى مايو بـ «الأمطار الطويلة»؛ ثم يأتي من أكتوبر إلى ديسمبر فصل «الأمطار القصيرة».

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

نظام المناخ في العالم معقد ومترابط جداً، لكن لو أمكن القول إن قوة وحيدة تتحكم بنماذج الطقس في أفريقيا الشرقية، فسيكون نطاق التقارب بين المدارين ITCZ. وبمصطلحات بسيطة فإن الـ ITCZ هو عبارة عن حزام من الرطوبة العالية، والضغط المنخفض، والرياح الهادئة، يلف خطوط العرض الاستوائية للأرض. وهو ينتج عن تصادم الرياح التجارية الشمالية الشرقية مع الجنوبية الشرقية - كتل من هواء استوائي رطب ودافئ - تتحركان كلتاهما نحو خط الاستواء. وعندما تصطدمان، تتخلل تدفقات الهواء الأفقية للهواء الشاقولي الصاعد⁽²⁾. يرتفع الهواء الرطب الدافئ ليشكل حزاماً من الغيوم يتراوح عرضه بين 20 و200 ميل: تميل الغيوم إلى التحرك أكثر فوق الكتلة البرية لأفريقيا، لتضيق في الأمريكيتين وعبر المحيط الهادئ. هذه الغيوم تنتج الأمطار⁽³⁾.

تتبع نقطتا التكاثف والهطول الأعظميتان ضمن نطاق التقارب ITCZ - قلب حزام الغيوم في المنطقة - مسار الشمس في الأعلى. عندما تكون الشمس في الأعلى مباشرة، تنتج الكمية العظمى من الحرارة في الأرض تحتها: وهذا يعني كمية أكبر من الهواء الدافئ الصاعد، حاملاً كمية أكبر من الماء المتبخر، ومنتجاً بالتالي تكاثفاً وهطولاً أكبر. يتنقل لب حزام الغيوم هذا شمالاً وجنوباً عبر خط الاستواء متبعاً تحول الشمس السنوي من مدار السرطان - الذي يقع على بعد 23.5 درجة أعلى خط الاستواء وهو أقصى خط عرض في الشمال تبدو الشمس عنده كأنها في الأعلى مباشرة - جنوباً عبر خط الاستواء إلى مدار الجدي - الذي يقع على بعد 23.5 درجة جنوباً والذي هو بالعكس أدنى خط عرض تبدو الشمس عنده مباشرة في الأعلى. مع تحرك الشمس تسحب معها مركز هطول نطاق التقارب ITCZ⁽⁴⁾. ينتج هذا التذبذب على الأرض في كينيا الفصلين الممطرين. لكن مع ارتفاع متوسط درجة حرارة سطح الأرض يخرج نظام نطاق التقارب ITCZ عن المألوف.

«المفتاح لهذا كله»، شرح موهندي منحنياً فوق أحد الحاسبات الشخصية الكبيرة القديمة، هو المحيط الهادئ. المحيط الهادئ هو أم المحيطات جميعها، والمحيطات الأخرى كلها هي أطفاله تطيع إشاراته. عندما تزداد درجة حرارة المحيط الهادئ، ويكون هناك تأثير النينو^(*) مقابل البيرو، تزداد رياح المونسون والرياح التجارية في

(*) النينو El Nino من الإسبانية وتعني الطفل الصغير هي حزمة من مياه المحيط الحارة تتطور من حين لآخر مقابل الشاطئ الغربي من أمريكا الجنوبية، ومن أن تتسبب في تغيرات مناخية عبر المحيط الهادئ [المترجم].

المحيط الهندي، وتحدث رياح قوية، وأمطار أكثر وفيضانات هنا في شرق أفريقيا. ومع اللانينيا^(*) يبرد المحيط مقابل البيرو، وتضعف الرياح وتصل كمية أقل من الماء إلى شرق أفريقيا، ويميل المناخ إلى فترة جفاف».

على الرغم من أن كينيا عانت من فترات أكثر من الجفاف خلال العقود السابقة، فإنها في الحقيقة تتلقى بالإجمال كميات أكبر من الأمطار. لكن المطر أصبح يأتي على شكل دفعات مفاجئة، وعواصف شديدة حيث يهطل بشدة، ودفعة واحدة بدلاً من أن يهطل تدريجياً خلال فصل. يجلب هذا الفيضانات التي تجرف التربة، تتبعها فترة جفاف. «نراها هنا من تقارير محطة رصد الطقس»، شرح موهندي. «حوادث الطقس العنيف كالفيضانات العارمة في 1997 - 1998، وجفاف 1999 - 2000 أصبحت أكثر تكراراً»⁽⁵⁾. باختصار فإن الأمطار التي تهطل بانتظام كالساعة، والتي يعتمد عليها المجتمع الكيني أصبحت في حالة خلل.

تؤثر مجموعة من العوامل المحلية أيضاً على الطقس في كينيا ومن بينها إزالة الغابات. يقلل قطع الغابات في حوض الكونغو وعبر أفريقيا الشرقية من تخزين الماء والتبخر والتكاثف والهطولات المولدة محلياً. وتعني درجات الحرارة المحلية الأعلى كمية أقل من الثلوج على جبال كيليمينجارو وكينيا وإغون، وبالتالي تدفقات مفاجئة أكبر، وفيضانات أشد، تعقبها مستويات أدنى للأنهار في الفصل الجاف. يختم موهندي حديثه بالقول «أفضل ما يمكننا عمله للتكيف مع تغير المناخ هو الحفاظ على غاباتنا».

حلقات التغذية الراجعة ونقاط تحول

كنت في كينيا في العام 2008، وعندما وصلت في النهاية الأمطار القصيرة لذلك العام ضربت بقوة شديدة: تركت الفيضانات المفاجئة 300 ألف من الناس بحاجة إلى مساعدات. أزاحت الانهيارات والفيضانات المئات من السكان. لوثت المراحيض المفتوحة المغمورة بالماء العديد من الآبار الضحلة، وبدأ التيفوئيد يقتل الناس بسرعة. جمع ذلك ضربة مزدوجة: جفاف، طارده فيضان عارم. بحلول يناير من العام 2009 احتاج 10 ملايين إنسان إلى مساعدات غذائية لدفع المجاعة⁽⁶⁾. بحسب

(*) لا نينا La Nina من الإسبانية وتعني الفتاة الصغيرة ظاهرة محيطية - جوية معاكسة لظاهرة النينو حيث تكون درجة حرارة المنطقة الاستوائية من شرق المحيط الأطلسي أبرد ب 3-5°م [المترجم].

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

قسم الأرصاد الجوية الكينية سببت «درجة حرارة أعلى من المعدل في المحيط الهندي» هذه الأمطار العنيفة⁽⁷⁾.

هل كانت كوارث كينيا في تلك السنة مرتبطة بشكل أكيد بتغير المناخ؟ لا، فالنظام المناخي معقد جداً حتى يلقي باللوم نتيجة حادثة طقس معينة على تغير المناخ الناجم عن الإنسان. لكن خطوط الميل تشير كلها إلى الاتجاه نفسه: مع ارتفاع تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون يرتفع متوسط درجة الحرارة، وتصبح نماذج المناخ أقل استقراراً.

عاشت الكثير من الحضارات في ظل قصص زوالها، ومن المغربي وصف التغير المناخي على أنه يشبه تلك الرؤى، سوى أنه يتم في جو من الجمالية العلمانية. لكن تغير المناخ حقيقة، وفهمنا لكيفية حدوثه مبني على علم موثق وجدي. ويبدو أن تجليات نظام المناخ الحالي تحدث بصورة أسرع مما توقع العلماء.

من المفيد مراجعة الحقائق مرة أخرى. يتوصل الباحثون من اختصاصات مختلفة - علماء رصد المناخ والمحيطات والحفريات والأحياء... الخ - جميعهم إلى استنتاجات مؤكدة جداً حول كيفية عمل مناخنا، وتاريخه، وإلى أين من المحتمل أن يذهب، نتيجة لإصدارائنا الضخمة من غازات الدفيئة. يلاحظون أن مناخ الأرض يزداد حرارة، وستكون لهذا عواقب قريباً جداً - وبالنسبة إلى معظمنا ستحدث خلال حياتنا.

تمضي الخطوط العريضة للإجماع العلمي على الشكل التالي: للـ 650 ألف سنة الماضية تراوحت تراكيز ثاني أكسيد الكربون في الجو - وهو الغاز الممتص الرئيس للحرارة في بيئة الأرض - بين 180 و300 ج.ف.م (جزء في المليون). في أي مرحلة قبل الثورة الصناعية لم يرتفع تركيز ثاني أكسيد الكربون عن 300 ج.ف.م. بحلول 1959 وصل التركيز إلى 316 ج.ف.م، وهو الآن عند 390 ج.ف.م. بالمعدلات الحالية ستتضاعف مستويات ثاني أكسيد الكربون بحلول منتصف القرن الحالي.

يعتقد علماء المناخ أن أي زيادة في متوسط درجة حرارة الأرض أكثر من 2°م فوق مستوى ما قبل الثورة الصناعية ستؤدي إلى تغير مناخي خطير، مسببة تصحراً على مستوى واسع، وفشل المحاصيل وغرق المدن الساحلية وإبادة واسعة النطاق، وانتشار الأمراض، وربما انهياراً اجتماعياً. ويخشون من أن تجاوز حد الـ 2°م يمكنه أن يجعل تغير المناخ ذاتي التغذية بسبب حلقات التغذية الراجعة الإيجابية.

يدرك العلماء الآن أن الأنظمة البيئية ومناخ الأرض ككل، لا تعمل دوماً وفق منطق خطي ناعم. بدلاً من ذلك تتعرض الأنظمة البيئية لانزلاقات سريعة

ومفاجئة. يمكن لأعداد صنف معين أن تتناقص ببطء أو تنهار بسرعة دفعة واحدة تقريباً. لاحظ الاختفاء التام تقريباً لمستعمرات الخفاش في شمال شرق الولايات المتحدة بسبب فطر الأنف الأبيض، أو الانخفاض المفاجئ لنحل العسل في السنوات القليلة الماضية. يمكن بتفاؤل عكس كلتا المشكلتين، لكنهما توضحان كيف يمكن للأنظمة الطبيعية أن تنهار.

خلال النظام المناخي هناك حلقات تغذية راجعة ايجابية، ونقاط تحول خطيرة. حلقة التغذية الراجعة الايجابية هي عملية ديناميكية تندمج فيها التأثيرات وتتسارع أو تضخم السبب الرئيس. تعكس نقاط التحول في النظام المناخي حقيقة أن الأسباب يمكن أن تتراكم، بينما تتأخر التأثيرات. ثم عندما تبدأ التأثيرات بالعمل، فإنها تفعل ذلك كلها دفعة واحدة، مسببة الانزياح المفاجئ نسبياً من نظام مناخي إلى آخر. في السيناريو الأسوأ على الرغم من أنه ليس الأقل احتمالاً، تسرع حلقة التغذية الراجعة الإيجابية تغير المناخ إلى نقطة تحول، تصبح العملية بعدها مدفوعة ذاتياً، ومن المستحيل عكسها مهما فعلنا⁽⁸⁾.

درجتا حرارة مئويتان

منذ حوالي 125 ألف سنة كان متوسط درجة حرارة الأرض أعلى بـ 1°م تقريباً مما هو عليه الآن، لكن مستوى سطح البحر كان أعلى بـ 4 إلى 6 أمتار عن وضعه الحالي. ومن المحتمل أن يؤدي أي تسخين فوق 2°م إلى تغييرات كارثية، وتحولات جذرية ومفاجئة جداً، بحيث يكون من الصعب على الحضارة أن تتعامل معها. تنص معظم التقارير الحديثة للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC على حد الـ 2°م، وهو الهدف الرسمي للاستقرار للعديد من الحكومات وللاتحاد الأوروبي⁽⁹⁾.

يصبح السؤال بعد ذلك، ما حدود تركيز ثاني أكسيد الكربون المماثل في الجو؟ لسنوات افترض أنه بحدود 450 ج.ف.م. ولتحقيق هذا الهدف توصي الـ IPCC بأن تخفض الدول المتقدمة إصداراتها من غازات الدفيئة بنحو 40 إلى 90 في المائة أقل مما كانت عليه عام 1990 بحلول عام 2050. سيتطلب هذا أهدافاً عالمية لتخفيض غازات الدفيئة بـ 10 في المائة على الأقل كل عقد من الزمن - بدءاً من الآن. هذه الأنواع من تخفيضات الإصدارات ارتبطت فقط بحصول ركود اقتصادي. شهد

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

انهيار روسيا الكلي تقريباً في أوائل التسعينيات تناقصاً بمقدار 5 في المائة سنوياً في إصدار ثاني أكسيد الكربون⁽¹⁰⁾.

توضح حسابات أجريت من قبل مركز تيندال لبحوث تغير المناخ في المملكة المتحدة أنه من دون محاولات جذرية للتخفيف، فإننا حتماً على الطريق للوصول إلى تركيز 450 ج.ف.م لثاني أكسيد الكربون. حتى مع تخفيضات جذرية في الإصدارات خلال الـ 20 سنة المقبلة، يمكن لثاني أكسيد الكربون المتراكم في الجو أن يتجاوز الـ 450 ج.ف.م بسهولة⁽¹¹⁾. إذا لم يكن هذا سيئاً بما فيه الكفاية، يعتقد جيمس هانسون من معهد غودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا في جامعة كولومبيا، فإن نقطة التحول التي يصبح بعدها تغير المناخ منفلتاً، وعملية ذاتية التغذية هي أقرب إلى 350 ج.ف.م. لقد أصبحنا بالفعل عند الـ 390 ج.ف.م⁽¹²⁾. من حيث التكيف يعني هذا أن علينا أن نتهياً لمعالجة ارتفاع بمقدار 4°م في متوسط درجة حرارة الأرض، والانزياحات الاجتماعية الهائلة الناجمة عن ذلك.

لقالق تأكل العظام

عبر شمال كينيا هناك استجابات مختلفة للجفاف والفيضانات - بعضها أكثر عنفاً من الأخرى. في توركانا يعيش الناس وسط ثقافة البندقية، ودورة الإغارة. لكن أبعد إلى الشرق، بالقرب من المركز الصحراوي غاريسا، فإن العنف غير شائع نسبياً على الرغم من القطعان الهالكة، والجفاف القاسي⁽¹³⁾. للتحري أكثر حول هذه العلاقة قطعت الـ 375 كيلومتراً نحو غاريسا مع مصور صحافي أمريكي اسمه دان ماكيب، وصديقه الكيني تيم. وصلنا إلى غاريسا مع غروب الشمس. تبدأ البلدة عند نقطة تفتيش وجسر ضيق فوق نهر تانا العريض الضحل. تنبع مياهه من على بعد مئات الأميال بين ثلوج جبل كينيا وأمطاره وضبابه. وبوصوله إلى غاريسا يصبح شريان الحياة في الصحراء.

كانت هناك مخلوقات ضخمة زرقاء وبيضاء تشبه الصقور تدعى لقالق ابي سعن تحرس الجسر، قطعان ضخمة منها جاثة في كل مكان. تبدو مثل طيور البجع ولها أجنحة بعرض 10 أقدام، ولا تغرد أو تزعق. الصوت الوحيد الذي يخرج منها يأتي أحياناً من النقر بمناقيرها الضخمة.

تتكاثر هذه الطيور «في مستعمرات» وتحب أن تعيش بالقرب من الناس. هذه اللقائى تنهش الجيف من القطيع الميت بسبب الجفاف، ويعرف عنها أنها تحمل العظام إلى السماء ثم تسقطها على الصخر لتفتحها ثم تخرج منها النخاع. وفي البلدة يبدو أن هذه الطيور الجائمة على أشجار الأكاسيا الجرداء الجافة هي رمز للجفاف. للإشارة أكثر إلى الندرة، كان الوقت شهر رمضان، وهو شهر الصوم والامتناع عن التدخين في غاريسا حيث ينتمي معظم السكان الى العرق الصومالي المسلم. لم يكن من الصعب العثور على بيرة فقط، لكن لم يكن هناك طعام أو قهوة طيلة اليوم.

في الصباح التالي خرجنا متجاوزين البلدة إلى الصحراء. تحوّل الطريق سريعاً إلى طريق رملي ناعم. مرة أخرى كانت أعالي اشجار الأكاسيا المسطحة ميتة ومصفرة، مثل أخشاب طافية واقفة، ترسل لمعاناً أزرق غريباً لانعكاس السماء الفارغة على الخشب الشاحب. لوح لنا صبيان من الرعاة بأكوابهم البلاستيكية الفارغة لتتوقف، آمليين أن نكون من منظمة مساعدات غير حكومية، وأن يكون لدينا ماء.

حوالي 50 كيلومتراً إلى الشمال من غاريسا على الطريق إلى الحدود المنفلتة مع الصومال وصلنا إلى شامباري، وهي قرية صومالية - أو في الواقع مخيم للرعاة الرحل كان في طريقه للتحويل إلى قرية لولا موت القطيع واستبداله بالمساعدات. تألفت القرية من مجموعة من الأكواخ المصنوعة من العصي والخيش، متجمعة حول شجرة ضخمة وبناءين صغيرين من الطوب اللبن: مدرسة بغرفة واحدة ومستوصف كلاهما فارغ لعدم وجود موظفين. ليس بعيداً كان هناك خزان المياه، وهو حفرة من الغبار بحجم ملعب كرة قدم يفترض أنها تلتقط مياه الأمطار. الشيء الوحيد الذي يبقى هؤلاء الناس على قيد الحياة كان المساعدات من حين لآخر، وبئر تعمل بالكاد. في الحرارة اللاهبة يشعر المرء كأن الشمس نفسها تكره بلدة شامباري. قال الزعيم إن الأمطار لم تهطل منذ عامين. انخفض قطيعه من 50 بقرة إلى ثلاث. عشرون رجلاً كما قال «أصابهم الجنون وهاجروا» متخليين عن عائلاتهم. بعض الرجال الذين كانوا يستمعون إلى المناظرة ضحكوا بعصية عندما قال ذلك.

من المثير للاهتمام أنه لا يوجد شنف هنا. عندما استفسرت عن ذلك عزا الناس السلام النسبي إلى الإسلام. لكن مزيجاً من العوامل الأخرى كانت كما اعتقد أكثر أهمية: سمح القرب من طريق معبد يصل نيروي بميناء موباسا للمعونات بالوصول إليهم، ووفر

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

ممرات لهرب الرجال الذين يبحثون عن عمل بالأجرة. القرب من نهر تانا وضفته الضيقة من السهول الناتجة عن الفيضانات سمح للبعض بالزراعة. أيضا نظمت القرية لجنة للمياه لإدارة بئر الماء، وتحديد من يحصل على الماء ومتى وبأي كميات، وجمع المال لشراء وقود الديزل للمضخة. ربما ساعد هذا التنظيم الجماعي على منع العنف بالإبقاء على المجتمع موحدًا، بدلاً من ترك الشباب ينحرفون في مجموعات صغيرة بقصد الإغارة. لكن أقوى العوامل التي حدثت من العنف كما أظن هو ببساطة العائق الفيزيائي المتمثل بالصحراء. السافانا الميته حول شامباري واسعة وجافة جداً بحيث إن نقل القطيع المسروق عبرها صعب جداً. محاطين بالحرارة الضاربة والصحارى الرملية، حصرت العشائر المتنافسة حول البئر، وضاف نهر تانا، و«مخيمات المعونة» على الطريق التي تشكلت حول نقاط توزيع المعونات الغذائية. كان هؤلاء الرعاة مسالمين لأنهم في الأساس همّشوا، في عملية تخليهم عن حياة الرحل المتمركزة حول القطيع، عن الغارات وكل شيء آخر.

يوجد الدليل على أن السلام منتج ثانوي للانهييار الاقتصادي والبيئي (أكثر من تعاليم السلام في الإسلام) على بعد 700 كيلومتر إلى الشمال في مدينة مانديرا الصغيرة على الحدود الصومالية - الكينية. هناك ينهمك الرعاة الصوماليون - الكينيون (مسلمون أيضاً) في غارات شاملة على القطعان، وفي حرب دموية صغيرة على الموارد. تأتي تقارير جديدة كل يوم عن معارك قبلية طاحنة وحرق للقرى: عشيرة الغار ضد المورول. يحاول كلاهما التحكم بسد لوليس المترامي. كان العنف شديداً منذ العام 2005، وتقطع فقط نتيجة عمليات عسكرية عقابية من حين لآخر، ومحادثات سلام فاشلة. هرب أكثر من ألف عائلة من تلك المنطقة⁽¹⁴⁾.

غربة للضحايا

أحد الأسئلة المحورية لفهم تغير المناخ والصراع هو فيما إذا كان العنف استجابة للندرة أو لتوفر الفرصة. هل يغير التوركانا لأنهم يفتقرون إلى القطيع أو لأن لدى جيرانهم قطيع لسرقته؟

وجد عالما إنسانيات درسا مقاطعة مارسايت في الشمال الأوسط لكينيا أن الجفاف والندرة ارتبطا فعلاً بانخفاض وتيرة الغارات. وجد المؤلفان آدانو روبا وكارين

ويتسبب «عدم وجود دليل على زيادة العنف نسبياً، وعدم ارتباط العنف العرقي بالندرة البيئية»⁽¹⁵⁾. بدلاً من أن تؤدي الندرة إلى العنف بين رعاة السامبورو فإنها أدت إلى تعاون أوثق مع تقارب المجتمعات فيزيائياً بالتجمع حول آبار الماء، وسياسياً في التنظيمات المطلوبة لإدارة رسمية للمياه. يؤكد روبا وويتسبرغ على التاريخ، والتعاون البشري، والتعقيد والخصوصية، وهما حذران من عدم التعميم على أبعد من المقاطعة التي أجرياً فيها بحثهما. وبهذا فإن قرية شامباري تؤيد نظريتهما.

ولا حتى توماس هومر ديكسون، العالم الأكثر ارتباطاً بفكرة دفع الندرة للعنف، يحتاج بوجود علاقة عرضية بسيطة من واحد - لواحد بينهما. بدلاً من ذلك يحاول استخلاص الروابط الضعيفة بين المناخ والندرة الاقتصادية وسياسة الدولة والصراع الاجتماعي العنيف. هنا تلخيص جيد لطريقة تفكيره: «الإنتاج الزراعي المتناقص والهجرة إلى المدن والانكماش الاقتصادي في مناطق متأثرة بالندرة تولد غالباً المعاناة، وتزيد هذه المعاناة من مطالب الناس على الدولة. في الوقت نفسه يمكن للندرة أن تؤثر على تدفق عائدات الدولة، بخفض الإنتاجية الاقتصادية وبالتالي الضرائب، ويمكنها أيضاً زيادة قوة «الباحثين عن الأجار» ونشاطهم بحيث يصبحون أكثر قدرة على وقف العوائد الضريبية على ثروتهم المتنامية، والتأثير على سياسة الدولة لمصلحتهم. لذا فالندرة البيئية تزيد طلبات المجتمع على الدولة، بينما تخفض قدرة الدولة على تلبية هذه المتطلبات في الوقت نفسه»⁽¹⁶⁾. لذا، في صياغة هومر - ديكسون، تزداد الأزمة البيئية خلال الزمن والمكان: أزمات الموارد الريفية يعبر عنها غالباً على شكل صراعات عرقية ودينية وسياسية في المدن على عوائد الدولة وخدماتها.

بالنظر بشكل أكثر تحديداً إلى عنف الرعاة في كينيا، يركز كينيدي أغاد موكوتو في كتابه الرائع «بنادق وحكم» على دور توافر الأسلحة الصغيرة في الدفع إلى العنف، ويضع في الوقت نفسه العوامل البيئية في الأمام والمركز. يناقش موكوتو أنه «عندما يخفض الجفاف والمجاعة والمرض أعداد القطيع، يضطر الناس إلى الحصول على مزيد منه بالإغارة»⁽¹⁷⁾.

يستخلص مؤرخو كينيا النتيجة ذاتها. لاحظ ديفيد اندرسون، أحد أشهر علماء أفريقيا الشرقية المستعمرة، زيادة في سرقة القطيع خلال موجات الجفاف. يبدو أن نمط العنف يدفع بمزيج من الندرة وتوافر الفرصة معاً. خلال الجفاف، في عقود ماضية

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

كما هو اليوم، تتركز القطعان أكثر حول آبار المياه القليلة المتوافرة. وبهذا تزداد فرص سرقة قطعان الجيران. «لا تتطلب السرقة الانتهازية من أفريقيين آخرين تخطيطاً أو تنظيماً أبعد من قدرة أعضاء عائلة أو مجموعة من الرعاة على الإمساك بقطيع لآخرين يرعى من دون حذر قرب قطيعهم. كانت مثل هذه السرقات أكثر شيوعاً بالقرب من أماكن المياه ولحق الملح ومناطق الرعي المشتركة مع رعاة آخرين في الفصل الجاف. يوفر الجفاف فرصاً أكثر لمثل هذا النوع من السرقة، عندما تكون موارد الرعي شحيحة، وميل الماشية التي تعود ملكيتها إلى أناس مختلفين إلى أن تتجمع مؤقتاً بعضها بالقرب من البعض»⁽¹⁸⁾.

عصابات

لا تتم غارات القطيع «التقليدية» في الوادي المتصدع الكبير من فراغ. منذ العشرينيات ارتبطت الغارات بالاقتصاد النقدي، والحياة الاقتصادية في البلدات والمدن والأسواق الوطنية، وحتى التجارة الدولية. غالباً ما تكون المجموعات المسهلة شبكات من الجريمة المنظمة، أو زعماء سياسيين. يكتب اندرسون: «بحلول الثلاثينيات ارتكبت سرقات الماشية ليس لمراكمة ثراء الأفراد المشاركين فيها فقط، لكن كجزء من نظام أوسع من التجارة، بتزويد الماشية لأنحاء من أفريقيا الشرقية حيث يرتفع الطلب عليها هناك»⁽¹⁹⁾. وهذا هو الوضع اليوم.

في بلدة كابينغوريا عاصمة غرب البوكوت التي تقع في الجبال المرتفعة الغائمة، قابلت الصحافي إدوارد كوتش الذي يعمل في الصحيفة اليومية الكينية نيشن (الأمة). تناولنا غداء من مرق اللحم الغليظ المدعم بقطع من معجون الذرة الطري الثقيل الذي يشكل وجبة الغذاء المعتادة في شرق أفريقيا. كان المطعم مليئاً بالبوكوت الهادئين ذوي المظهر الخشن. بعد الغداء انتقلنا بسيارتي الصغيرة ذات الدفع الرباعي وتوقفنا عند طريق فرعي للحديث.

على الرغم من أنه من قبيلة ناندي فإن لكوتش روابط عميقة في بنية السلطة لدى البوكوت، ويعرف الاقتصاد السياسي لغرب بوكوت. أكد أن رجال الأعمال والسياسيين الأقوياء يمولون غارات القطيع، ويدفعون عمولات لمحاربين فصلين لتنظيم مجموعات من الشباب في الريف، وتدريبهم ليقوموا بعد ذلك بمهام طويلة لأسبوعين أو ثلاثة في توركانا أو أوغندا. يعاد بيع القطيع المسروق في كامبالا أو نيروبي.

قال كوتش إن السنوات الخمس السابقة كانت جافة جداً في مقاطعة البوكوت. (تذكر أن لكينيا نماذج طقس محلية معروفة يمكن أن تختلف من مقاطعة لأخرى) بالمقارنة مع الأوقات العادية فإن بوكوت الغربية أصبحت أخيراً إما جافة أو أنها أصيبت بأمطار شديدة وفيضانات. يجعل هذا الطقس الشاذ الزراعة التي هي صعبة مسبقاً على هذه التربة النحيفة أكثر تحدياً. ولذا فالغارة بالنسبة إلى بوكوت الغربية عمل اقتصادي مربح.

أخبرني رجال الشرطة وعناصر المنظمات غير الحكومية والرعاة من التوركانا أنفسهم جميعاً أنهم حين تتبعوا قطيعاً مسروقاً إلى تلال كاراسوك لم يكن من غير الشائع أن تجد آثار الحيوانات تنتهي عند حظائر غير رسمية بعيدة عن تلك التي تقود إليها آثار دواليب شاحنات النقل الكبيرة. المعنى من هذا أن بعض المغيرين من البوكوت سلموا القطيع المعد مسبقاً إلى تجار محترفين لبيعه من جديد. يقترح دليل شفهي أيضاً أن ضباط الجيش الأوغندي يحتفظون بشيران التوركانا المميزة، ويصادرونها على شكل ضريبة من لصوص البوكوت الذين يعبرون بشكل غير شرعي إلى أوغندا.

بالتالي تربط دوائر تجارية وشبكات اجتماعية النزاعات المحلية المختلفة عبر ممر الرعاة مع هياكل الجريمة المنظمة، والزعماء السياسيين، والمجموعات العسكرية المحلية، والأسواق الشرعية. يظهر تأثير الاقتصاديات المدنية السرية على الغارات ليس على شكل انزياح باتجاه واحد (وفقاً لهومر - ديكسون) من الريف إلى المدينة فقط، لكن على شكل تبادل مستمر للخلف والأمام للأزمات من اقتصاد الريف إلى اقتصاد المدينة، ثم العودة إلى اقتصاد الريف. ضمن هذا النظام من النزاع يبدأ تغير المناخ بالعمل كمسرّع جذري، مثل صب غازولين على نار تتقد.

صعود دول أفريقيا الشرقية وهبوطها

كنت سأضم الكواكب لو استطعت؛ أفكر
كثيرا في ذلك.
يحزنني أن أراها بهذا الوضوح، لكن
بهذا البعد.

سيسيل رودوس (*)،

الوصية والشهادة الأخيرة 1902

نظام الصراع في أفريقيا الشرقية هو
اقتصاد سياسي محدد ومتطور من العنف
الذي يربط بين الرعاة والمليشيات والجريمة
المنظمة والنخب السياسية والأسواق
والنماذج المناخية المتغيرة. يوضح تطوره
التاريخي عناصر من التجمع الكارثي -
اصطدام الفقر والعنف وتغير المناخ - والذي
يعني تأثير إعادة البناء الاقتصادي على

(*) Cecil Rhodes (1902-1953)، رجل أعمال وسياسي إنجليزي
كان من أشد الدعاة لتوسع الإمبراطورية البريطانية. [المحررة].



«في سبع سنوات قصيرة جسدت
أوغندا عيدي أمين الحكم الفاسد
الذي أساء إلى سمعة معظم دول
أفريقيا جنوب الصحراء وتفوقت
عليها كلها»

المؤلف

النمط الليبرالي الجديد، وعسكرة الحرب الباردة، مع تأثيرات الاحترار العالمي. الاضطراب الحديث في نطاق التقارب بين المدارين على سبيل المثال يلعب على مسرح أعد من قبل التاريخ البشري. لذا لا يمكن أن يكون هناك فهم حقيقي للتأثيرات الاجتماعية للتغير المناخي من دون بعض الإلمام بالتاريخ الواقعي للمناطق التي تحدث فيها هذه التغيرات. ولا يمكن لأي خطة من التكيف أو التخفيف أن تطور أو تنفذ بنجاح من دون مثل هذا التاريخ.

بالعودة إلى السؤال عن المسؤول عن مقتل إيكارو لورومان، يمكننا أن نسأل لماذا تمتلئ منطقة التوركانا في كينيا بالأسلحة النارية؟ الجواب المختصر هو: أوغندا وجنوب السودان والصومال كلها كانت أو مازالت دولا فاشلة. ساهمت كلها في دخول الأسلحة الصغيرة إلى كينيا.

السؤال التالي: كيف تشكلت هذه الدول وتحولت ثم انهارت؟ يعمل هذا التاريخ على تشكيل الظروف الحالية للمجتمعات في أفريقيا الشرقية، ويشرح بالتالي قدرتها على التكيف مع التغير المناخي.

إنشاء كينيا

بدأ ضم البريطانيين لأفريقيا الشرقية منذ أوائل العام 1890. أطلق مؤتمر برلين في العام 1885 «التدافع على أفريقيا». وكجزء من هذا، استأجرت حكومة المملكة فيكتوريا شركة أفريقيا الشرقية الإمبراطورية بقيادة قطب النقل البحري الأسكتلندي السير وليام ماكينون، الذي كان في ذلك الوقت يسيطر على حمولات نقل أكبر من أي شخص آخر في العالم. كانت مهمة الشركة فتح ما يعرف الآن بكينيا وأوغندا للاستغلال، وربما الاستيطان⁽¹⁾. بدءا من العام 1888 حاولت شركة أفريقيا الشرقية الإمساك بأجزاء مما يدعى اليوم أوغندا، لكنها أغضبت بسرعة قبائل الكيكويو المحلية في أثناء ذلك. عندما مر السير جيرالد بورتال بالمنطقة ألقى باللوم على الشركة لتحريضها على العنف «برفضها الدفع مقابل أشياء تأخذها»، كما كتب، وبالإغارة والسلب وإطلاق النار على السكان المحليين والاحتلال، حولت الشركة البلد بأكمله ضد الرجل الأبيض⁽²⁾.

فشلت الشركة وواجهت انهيارا ماليا. بدأ الاستعمار بشكل جدي عام 1895 فقط، عندما تولت وزارة الخارجية البريطانية (ثم مكتب الاستعمار عام 1905) المهمة. كان الاهتمام الرئيس للندن استراتيجيا: التحكم في منابع النيل، وبالتالي نظريا دعم المصالح البريطانية أسفل النهر في السودان ومصر. لهذا الغرض بنيت سكة حديد من موباسا الساحلية إلى كوسومو على بحيرة فيكتوريا، وبإنائها في العام 1901 فتح البلد بسرعة أمام استيطان الرجل الأبيض والاستغلال التجاري والتحييد السياسي. شرح مقال معاصر في ذلك الوقت، «يجب أن يكون لسكة حديد أوغندا إضافة إلى التأثيرات السياسية لبنائها، تأثير تجاري، وقد أثرت مسبقا على عادات السكان المحليين وأسلوب حياتهم. لقد وصلتهم مباشرة بالحضارة، وفتحت لهم إمكانيات للتجارة. لقد هدأت العداوات بين القبائل، وأوقفت الغارات الثارة للأعراق العدوانية. لقد فتحت البلدان التي تقع بالقرب من شواطئ بحيرة نيانزا^(*) فيكتوريا بكاملها، لاتصالات سهلة نسبيا مع البحر ومع أوروبا⁽³⁾.

في هذا الخصوص، عملت سكة الحديد، على الرغم من أنها مكونة من خط وحيد، كسياج اجتماعي - اقتصادي، حاصرة المناطق حولها ومحولة إياها: دمرت الأشكال المحلية من الإنتاج الاقتصادي، وأزيحت، أو ضمت كفروع للاقتصاد الرأسمالي العالمي المتنامي⁽⁴⁾. بحلول العام 1907، بدأ تدفق المستوطنين البيض. بسلطة القانون والضرائب والقوة الاقتصادية، استولى هؤلاء المستوطنون على مرتفعات كينيا الوسطى. ومن العام 1895 إلى 1903 قامت القوات البريطانية بـ «حملات عقابية منتظمة». كان استخدام القوة عاملا رئيسا في سرقة الأرض من أيدي الأفريقيين، على الرغم من أنه لم يكن بالضرورة من النمط المباشر كحملات السرقة البلجيكية العنيفة في الكونغو. اشتمل انتقال الأرض الفعلي من الأفريقيين إلى المستوطنين في أغلب الأحيان على مساومات واحتيال وتعاون واختيار أجريت كلها على خلفية من العنف. في هذه العملية، حتى بعض النخب الأفريقية استفادت من ذلك.

وصف جون لونسديل، عميد آخر في تاريخ أفريقيا الشرقية، الفارق كما يلي: «ما تبين على ساحة المعركة في ذلك الوقت، عندما اجتمع الهوتشكيس أو الماكسيم أو دخلت حملة الحراب، وعندما أحرقت بيوت القش، أو قبض على القطيع - أن

(*) نيانزا هو اسم بحيرة فيكتوريا بلغات البانتو. [المحررة].

هذا كله ذو أهمية رئيسة في تشكيل شعور بالتفوق أو الخضوع. لكن القوة ليست سلطة. لا تأتي السلطة من عمل واحد من المواجهة، لكن بعمليات انتقالية متكررة ضمن مجموعة منتظمة من العلاقات الاجتماعية، ويجب أن تحمل كلفها وفوائدها على الأقل إمكانية الحساب والتنبؤ»⁽⁵⁾. بكلمات أخرى تبنى الدول من العنف، لكن لا يمكن إنشاؤها بالعنف فقط.

مع الإدارة الاستعمارية من بريطانيا أسس المستوطنون البيض حكومتهم المحلية، كاللجنة التشريعية التي عملت مع لندن، لكن ضدها أحيانا. في ذروة تلك الفترة عاش نحو 350 ألف شخص أبيض في كينيا. كانوا هم الذين أغضبوا السكان الأصليين، واستغلوهم مباشرة⁽⁶⁾. تجادلت لندن ونيروبي باستمرار حول نفقات الدفاع، والإنتاج الاقتصادي المنخفض للمزارعين البيض. «في السنوات التسع الأولى ابتلعت النفقات العسكرية نحو ثلث ميزانية المحمية، وتجاوزت العوائد المحلية، وكانت السبب في مضاعفة المعونة الإمبراطورية السنوية ثلاثة أضعاف في السنوات الخمس منذ العام 1896»⁽⁷⁾.

استغلال أزمة وزرع أزمة

مما ساعد على التثبيت السياسي البريطاني - أي تشكيل نظام دولة حديث أخيرا في شرق أفريقيا - كانت الأزمة البيئية في تسعينيات القرن التاسع عشر. عندما قتل الجفاف وأمراض الماشية والجذري نحو ربع السكان الأصليين وسط كينيا. كان الناجون يسعون بإلحاح إلى الحصول على حماة للدفاع عنهم ضد الغارات، وللحصول على الموارد. «وفي المناطق المخربة من كينيا تصادق أن كان البريطانيون أفضل حماة موجودين.... لكنهم أتوا أيضا كغزاة»⁽⁸⁾.

ومع دخول أنماط الإنتاج المحلية في أزمة، استخدمت طبقة المستوطنين أموالها لشراء الأراضي. لكن مزارع البيض كانت غالبا تدار بكفاءة منخفضة وغير رابحة. ولحماية أنفسهم من المنافسة الاقتصادية، فرضت اللجنة التشريعية التي يسيطر عليها المستوطنون عوائق اقتصادية قاسية على المزارعين المحليين. على سبيل المثال، منع الأفريقيون كليا من زراعة البن. وفوق ذلك، طالب المستوطنون بمساعدات من لندن، وبالتالي من الاقتصاد البريطاني ككل، وحصلوا عليها.

صعود دول أفريقيا الشرقية وهبوطها

كان تأثير هذه القيود والمساعدات العنصرية المدللة إعاقة تطور اقتصاد رأسمالي كفاء ضمن المستعمرة. أزيحت شبكة الحماية التي أسسها المستوطنون لمصلحتهم في ثلاثينيات القرن العشرين فقط عندما أطلق التصعيد للحرب العالمية الثانية ازدهارا اقتصاديا على المواد الأولية. احتاجت بريطانيا إلى استيراد المواد الخام والغذاء أكثر من حاجتها إلى أرستقراطية أفريقية بيضاء ترعى البقر. وكما أوضح كولن ليز، عندما سمح للمزارعين الأفريقيين في النهاية بالمنافسة في حصتهم من الصادرات والمشاركة فيها، انطلق نمو الاقتصاد الكيني⁽⁹⁾.

نكسة الكيكويو

بحلول الخمسينيات، خلق الكيكويو الذين استؤصلوا من المرتفعات من قبل المستوطنين البيض، شيئا من زعامة مثقفة تجارية وزراعية وحضرية. وبدأوا في التحرك من أجل الحصول على حقوق سياسية أكبر. قوبل هذا التحرك بالقمع، وسريعا ما تحول العديد من الكيكويو إلى حرب العصابات.

حرض عصيان الماو ماو، كما دعيت هذه الانتفاضة، حركة مقاومة تمرد عنيفة ومتطورة. دعاها البيض «الطوارئ»، وامتلا الحصار الداخلي بالاجتياحات المسلحة وفرق الترويع والاعتقالات الجماعية والتعذيب وإعادة التأهيل واستخدام وحدات صغيرة ونخبوية لمكافحة العصابات. كان الرقم الرسمي للإصابات 11503 قتلى، ومع ذلك يرى الباحثون الآن أن الرقم أعلى من ذلك بكثير⁽¹⁰⁾. يقدر ديفيد أندرسون الرقم بـ 20 ألفا، وتقدر كارولان إيليكن، الفائزة بجائزة بوليتزر على كتابها «تصفية الإمبراطورية: القصة غير المروية للغولاغ البريطاني في كينيا»، القتلى بـ 70 ألفا أو أكثر⁽¹¹⁾. حطمت حركة الماو ماو، لكنهم وضعوا كينيا على مسار الاستقلال الكامل، ونهاية حكم الأقلية البيضاء في شرق أفريقيا.

مع اقتراب فترة إزالة الاستعمار بدأت السلطات في التفاوض مع عدوها السابق جومو كينيا. خلال فترة الطوارئ وصف الموظفون البيض كينيا بأنها رجل مجنون وأنه من الماو ماو وشيوعي ووضعه تحت الإقامة الجبرية. في الواقع كان كينيا وطنيا متحررا، ما إن أطلق سراحه حتى تصرف كمحاور محلي عقلاني لبريطانيا. حمت الترتيبات النهائية للاستقلال ثروة المستوطنين، وأعطت الراغبين منهم في

المغادرة الخيار لبيع ممتلكاتهم حسب أسعار السوق. ومن أجل الدفع لهؤلاء المالكين المغادرين استدانت الحكومة الكينية الجديدة المال من المملكة المتحدة. وزعت الممتلكات - الأراضي والأعمال الاقتصادية - في معظمها على طبقة جديدة من الكيكويو الحاكمة الذين كانوا أيضا ممثلين بشكل أكبر في حكومة كينيا الجديدة، وفي الاتحاد الوطني الأفريقي، الحزب الحاكم في كينيا حتى العام 2002. يفسر هذا الوضع المهيمن جزئيا للكيكويو - لكنه لا يبرر أبدا - المذابح ضدهم عام 2007؛ ومرة أخرى اتخذ الصراع الطبقي شكلا عرقيا.

انحسار الغارات القديمة

بحلول العام 1909 أسست الإدارة الاستعمارية نظام العقوبات الجماعية الذي حاول إيقاف الغارات بفرض غرامات عقابية على مجتمعات بأكملها⁽¹²⁾. تمثّل الملفات الاستعمارية في الأرشيفات الوطنية في نيروبي بتقارير من موظفي المقاطعات، تفصل فيها تدفقا لا نهاية له من الهجمات على شكل فعل ورد فعل بين القبائل. عقد الموظفون البريطانيون بشكل روتيني جلسات استماع، وأصدروا تقارير، واحتجزوا مشتبهين، وفرضوا غرامات، وطاردوا ملاحقين، وحذروا بشدة زعماء محليين فرعيين كانوا عادة رؤساء عينوا من قبل البريطانيين.

من الصعب قياس الاتجاه التاريخي لعنف القطيع في أفريقيا الشرقية بدقة كاملة - فالسجلات ناقصة ومنحازة ومحرقة - لكن هناك دليلا على انحسار نسبي في الغارات منذ أواخر العشرينيات حتى أوائل السبعينيات. يبدو أن النمو المستمر لقدرة الدولة الإدارية وامتصاص أعداد متزايدة من الناس في سوق العمل الرسمي، قد أنقص من العنف. أنشأ البريطانيون «مزارع جماعية» محددة قانونيا صممت للفصل بين القبائل المتحاربة ودمج الرعاة في الاقتصاد. وبعد أن أصبح الكثير منهم عمالا مأجورين، ومنتجي بضائع، هبطت أهمية سرقة القطيع.

قلصت الزيادة في الشرطة والمحاكم والضرائب والعمالة المأجورة وبطاقات الهوية والتجنيد والسجون والرعاية الصحية وإدارة المياه والتعليم الابتدائي وخدمات الطب البيطري وبرامج العناية بالماشية - باختصار شبكة الحكم - الغارات التقليدية، على الرغم من أنها في بعض الأحيان أدت إلى أشكال جديدة ومختلفة من العنف. حوَصر

صعود دول أفريقيا الشرقية وهبوطها

الريف إداريا وبالتالي جرى التحكم فيه. استوعب التوركانا ورعاة آخرون جزئيا في المجتمع الكيني، وانخرطت أنماطهم الثقافية التقليدية بالعلاقات الاقتصادية الرأسمالية، وبتنظيم الدولة العام للمجتمع⁽¹³⁾.

مع ذلك بقي الرعاة في شمال كينيا بعد الحقبة الاستعمارية مهمشين - للأفضل أو الأسوأ - ومهملين بشكل عام، على الرغم من أنهم عملوا ضمن الحدود القانونية والاجتماعية شبه الفاعلة، لدولة حديثة مجهزة بالمدارس والقوانين والعيادات والطرق وحدائق الألعاب واقتصاد نقدي. لكن القبضة الإدارية للدولة على هذه الأراضي والسكان بدأت تضعف بشكل كبير بدءا من السبعينيات، عندما بدأت سلسلة من دورات الجفاف المرتبطة بالتذبذبات الجنوبية للنينو. وبذلك بدأت غارات القطيع في الزيادة مرة أخرى.

بنادق أوغندا

تحكم البريطانيون في أوغندا أيضا حتى أوائل الستينيات. خلال أواخر السبعينيات، دخل من أوغندا المستقلة التدفق الأول من البنادق إلى منطقة التوركانا ومعظم شمال كينيا. كانت أوغندا الحالية تضم المملكة السابقة بوغندا مع بعض الإمارات والولايات الإقطاعية الأفريقية الأخرى، التي وقعت كلها تحت حكم البريطانيين من خلال مزيج من الإكراه والتعاون والقوة الاقتصادية.

في منتصف الخمسينيات كانت نخبة أوغندا الوطنية القديمة والطبقات الوسطى المتعلمة فيها تراقب تطور حركة الماو ماو في كينيا والحملة الوحشية ضدها باهتمام بالغ. خدم ثوار كينيا كقصة تحذيرية للأفريقيين، وسلطة البيض كليهما. عندما بدأ الأوغنديون في الاحتجاجات من أجل مشاركة سياسية أوسع، واستقلال كامل، أجرت السلطات البريطانية بحكمة تحضيراتها لعملية إزالة استعمار خطط لها منذ نهاية الخمسينيات. بقيت أوغندا محمية بريطانية حتى العام 1962، لكنها أصبحت بعد ذلك دولة مستقلة.

كان الرئيس الأول لأوغندا أرستقراطيا أفريقيا مسنا هو السير ادوارد موتيزا الذي كان فيما مضى ملكا محليا، بينما كان رئيس وزرائه الوطني المتحيز إلى اليسار هو ميلتون أوبيتي الذي أمم أجزاء كبيرة من الاقتصاد، واشتهر بالفساد أيضا. في العام

1971 استولى الضابط سيئ السمعة عيدي أمين دادا على السلطة، ومن ثم بدأت عملية الانحدار نحو الفوضى⁽¹⁴⁾.

ولد أمين في شمال أوغندا عام 1925، والتحق وهو صبي بالمدرسة الابتدائية، وكان يعتني بماعز عائلته. في العام 1944 تطوع في البنادق الملكية الأفريقية، وهي فرقة استعمارية بريطانية كانت تخدم في شرق أفريقيا، وفي أمكنة أخرى خلال الحروب العالمية. شارك أمين في القتال في بورما، وعاد منها برتبة عريف. أصبح بعدها بطل الملاكمة للوزن الثقيل في الجيش المحلي، وشارك في حملات تأديبية ضد القبائل الثائرة في شمال أوغندا، وفي العام 1953 قاتل الماوا ماو. بعد عودته من كينيا عام 1957 كانت التحضيرات للاستقلال تتم في أوغندا، وكضابط مشهور غير مكلف، أعد أمين لرتبة عالية في الجيش الأوغندي. بحلول العام 1964 كان القائد الأعلى للجيش، وقام بحملات سرية إلى الكونغو / زائير لدعم السيمبا، ومعه مجموعة من المتمردين المؤيدين للومومبا كانت تقاتل ضد الحكومة الفاسدة الصاعدة تحت رئاسة موبوتو سيسي سيكو. لكن يبدو أن أمين استثمر معظم وقته في الكونغو في تهريب العاج والذهب⁽¹⁵⁾.

حالما حصل أمين على التحكم السياسي في أوغندا بدأ في تهديد دولة تنزانيا المجاورة⁽¹⁶⁾. داخليا، تميّز نظام أمين بوحشية القرون الوسطى، وبالتسليح الحديث. في البداية كان لاضهاده منطق سياسي: توجيه العنف نحو أهداف اجتماعية اقتصادية محددة، وخدمة المصالح الاقتصادية المسيطرة. لكن أمين كان في نهاية المطاف مجنوناً: رجل ضخم بدين بابتسامة ملائكية يرتدي الخاكي ويقود ما أصبح أحد أضخم الجيوش في أفريقيا جنوب الصحراء. أصبحت دولة أوغندا بسرعة شخصية ومصابة بالعصابات ومختلسة ومرتشية وشريرة. في سبع سنوات قصيرة جسدت أوغندا عيدي أمين الحكم الفاسد الذي أساء إلى سمعة معظم دول أفريقيا جنوب الصحراء وتفوقت عليها كلها. كان النظام الأسوأ من نمط سياسة الرجل العظيم لموبوتو، حيث تكون التزامات الزعيم «أولا وأخيرا نحو الأهل والأقارب وعملائهم ومجتمعاتهم ومناطقهم أو حتى ديانتهم» - لكن ليس نحو الأمة كلها⁽¹⁷⁾.

قبل العام 1971 صدرت أوغندا كميات لا بأس بها من القطن والنحاس والسكر ومنتجات زراعية مختلفة أخرى. بدأ ذلك كله في الانحسار بسبب الإدارة الغبية

للحكومة العسكرية ونهب القطاع العام. وسرعان ما خرج قمع الدولة عن السيطرة. في العام 1972 هاجم أمين الآسيويين الجنوبيين في كينيا، وطردهم منها في مذبة سحق واستيلاء دعيت «عملية مافوتا مينغي». أصبح الجنود في قلب الدولة الآن يمتلكون أعمال الآسيويين المصادرة، لكنهم لم يتمكنوا من إدارتها بأي طريقة رسمية. كان الهدف الصلب الوحيد للنظام، إضافة إلى الإثراء الشخصي لزمرة الضباط، هو بناء الجيش بشكل ضخم. منح السوفييت أمين مساعدات سخية لهذه الغاية، كما استفادت الشركات الغربية من بيعه الأسلحة ومن التدريب. كان نوعا غريبا في الظاهر، لكنه غير نادر، من المنافسة في الحرب الباردة، حيث غازل كلا المعسكرين العميل نفسه. وكما سئرى فقد تمتعت إثيوبيا والصومال وأفغانستان، على سبيل المثال لا الحصر، بالرعاية المختلطة نفسها من المعسكرين.

تحت قيادة أمين أصبحت طرقا أوغندا وموانئها ومخازنها ومزارعها ومصانعها في حالة إفلاس. وكما كتبت مجلة الإيكونوميست «خفض الانفاق على صيانة البنى الاجتماعية والاقتصادية التحتية بدلا من تطويرها إلى مقدار ضئيل جدا. كان الغلاء والندرة هما الحصاد الذي حصده النظام خلال فترة قصيرة»⁽¹⁸⁾. جاءت الإضرابات العمالية بعد ذلك، وقمعت بوحشية شديدة. أصبح النظام معزولا ومهددا بازدياد.

أخيرا تحرك مجلس الشيوخ الأمريكي المذعور لفرض عقوبات اقتصادية. عارضت إدارة كارتر على الرغم من التزامها المعلن بحقوق الإنسان الفكرة. لكن مجلس الشيوخ انتصر على الرغم من ذلك، وفي أكتوبر من العام 1978 فرضت الولايات المتحدة حظرا تجاريا على أوغندا. وكرد فعل على ذلك، أخبر أمين المغتربين الأمريكيين هناك بأنهم لا يستطيعون مغادرة أوغندا - مما يعني أخذهم رهائن⁽¹⁹⁾. ومع تقلص الاقتصاد أوغندي أكثر من ذلك، بدأت مجموعة الضباط المتكاملة على الاقتصاد المنهك بالتنازع فيما بينها. ولإرضاء أتباعه أنشأ أمين عشرة مقاطعات تدار عسكريا، لكن هؤلاء الإقطاعيين العسكريين ساهموا في إضعاف الدولة بشكل أكبر. ومع تهريب حكام المقاطعات للبن وسرقة العوائد، فرغت خزانة الحكومة المركزية من النقود. وبحلول صيف العام 1978 لم يقبض حتى الجنود مرتباتهم. وحصلت محاولات انقلابية وتمردات صغيرة شارك فيها وزير الدفاع نفسه.

في أكتوبر من العام 1978 لجأ أمين إلى أحط حيلة سياسية: بدأ الحرب. لكن اجتياحه لتنزانيا صد بسرعة، وانهار جيشه - الفوضوي الحديث والمؤلل - حيث احتل التنزانيون وحلفاؤهم الأوغنديون في المنفى من مناوئي أمين كامبالا بسرعة⁽²⁰⁾. وصف مراسل النيويورك تايمز الانتصار: «لم يطل الوقت حتى اكتشف محررو أوغندا أن الديكتاتور قد ترك القليل وراءه. كان هناك 200 ألف دولار بالعملة الأجنبية في البنك المركزي مع 250 مليون دولار من الديون. كانت هناك مقابر جماعية خلال البلد ضمت ما يقدر بنصف مليون ميت معظمهم من الرجال الذين كان يشك في معارضتهم لأمين. كانت دولة من الأرامل واليتامى من دون اقتصاد يستحق الذكر؛ مكانا من الخراب»⁽²¹⁾.

أسلحة منهوبة

كانت العاصمة تحت الاحتلال، لكن في الريف الشمالي الشرقي لم يكن هناك مسؤول. ومع انهيار الجيش نهبت كتيبة مورتو المتروسة جيدا بالأسلحة قرب الحدود الكينية، وأخرى أصغر منها في كوتيدو، من قبل رجال قبيلتي الكاراموجونغ والجي الذين حصلوا «لأول مرة على تزويد مهم من الأسلحة الآلية والذخيرة». تدفق العديد من هذه البنادق إلى كينيا، ومنها إلى أنحاء أخرى في ممر الرعاة⁽²²⁾. وصف أحد التقارير محاربي الكاراموجونغ وهم ينهبون أسلحة عسكرية في العام 1979، مستولين على 20 ألف بندقية هجومية، و2 مليون مشط من الذخيرة، وتركت بنادق أكثر من قبل الجنود الفارين⁽²³⁾. بعد سنة من التحرير وصفت صحيفة التايمز الأزمة في كاراموجا: «اقتحم السكان المحليون معسكرات الجيش في بلدة مورتو خلال الثورة، وأخذوا 15 ألف سلاح آلي. لكن كان لكاراموجا مأساتها الخاصة. لقرون مضت حصل الرجال منهم على قوتهم بواسطة الرماح، وسرقة أبقار بعضهم بعضا، لكن بالحصول على الأسلحة تحولت الإغارة على القطيع من الرماح إلى البنادق»⁽²⁴⁾. أطلق تقرير آخر على أنحاء من أوغندا اسم «مناطق حرب افتراضية». «تقوم زمر من المغيّرين تعد أحيانا بالمئات، ومسلحة عادة ببنادق آلية، باجتياح القرى الأوغندية والتنزانية وقتل من يقاومهم، وسرقة القطيع - وهي أثن ما يمتلكه القرويون»⁽²⁵⁾.

صعود دول أفريقيا الشرقية وهبوطها

هجر الآلاف وقتل المئات قبل أن يتمكن الرئيس الجديد لأوغندا يوري موسيفيني من البدء في إعادة نوع من النظام. تقدر إحصاءات الأسلحة الصغيرة اليوم أن هناك 400 ألف سلاح غير مرخص في أوغندا وحدها. وتستمر الحرب هناك حتى اليوم، حيث تنفذ من قبل جيش الرب المقاوم المنحرف اجتماعياً⁽²⁶⁾.

دخول النينو

كما غرق شمال شرق أوغندا في البنادق، أصاب جفاف شديد المنطقة كلها. اجتاحت المجاعة كاراموجا مهلكة النسل والضرع. بحلول صيف العام 1980 وصفت مجلة الإيكونوميست الأزمة على أنها «كارثة ذات أبعاد ضخمة ضربت شمال شرق أفريقيا كلها. يموت المئات من الناس والأطفال بشكل رئيس من الجوع كل يوم. في الصومال وإثيوبيا، وفي شمال أوغندا وكينيا، وفي جيبوتي الصغيرة وفي السودان الواسعة هناك 10 ملايين إنسان مهددون بالموت. كلهم إلى درجة ما ضحايا الجفاف، لكن 3 ملايين منهم لاجئون من الحروب والصراعات الأهلية»⁽²⁷⁾. شهد العقدان التاليان سلسلة من موجات الجفاف عبر منطقة الساحل والقرن الأفريقي، وحدثت مجاعات في إثيوبيا والسودان والصومال. وبحسب الخبراء فقد معظم الرعاة في المنطقة حتى 80 في المائة من مواشيهم الصغيرة، ونصف قطعانهم نتيجة المجاعة والأمراض⁽²⁸⁾.

من العام 1980 حتى 1982 أصبح الطقس أكثر عنفا مع حدوث أسوأ حادثين للنينو في القرن. بنهايتيهما كان قطيع الكاراموجونغ قد انخفض إلى نصف ما كان عليه عام 1962. ومع ذلك تضاعف عدد السكان. وكما وصف أحد التقارير الصحافية «تبقى النساء في البيت لزراعة الذرة قرب الجداول. لكن السنة الماضية لم يكن هناك مطر وكانت الجداول جافة. انتشرت المجاعة والكوليرا، وبأواخر يونيو في ذلك العام مات نحو 20 ألفاً من الكاراموجونغ». توقف برنامج مساعدات الأمم المتحدة بعد عدة أشهر، بسبب الهجوم على إحدى قوافل الغذاء⁽²⁹⁾.

حلول زائفة

على الحدود الأوغندية - الكينية زودت الأسلحة المنهوبة الكاراموجونغ بحل اجتماعي لمشاكلهم البيئية: غارات على نطاق واسع ضد اليتسو الزراعيين. سلب

مسلحو الكاراموجونغ معظم قطعان الايتسو «كانت الغارات من حين لآخر عادية، لكن مداها وعواقبها كانا غير مسبوقين»⁽³⁰⁾. وللانتقام، طرد الايتسو بعنف أولئك الكاراموجونغ الذين استقروا في منطقتهم. حصلت حالات سلب أخرى مماثلة لقبائل أخرى، وبتوافر البنادق ورخصها بدأت الغارات على القطعان التي شهدت انحسارا متزايدا من جديد. عبر نحو ألفين من الأوغنديين الجائعين، والمسلحين غالبا، إلى مناطق التوركانا في كينيا للبحث عن الطعام والقطيع⁽³¹⁾. وعلى الرغم من عودة الاستقرار النسبي إلى معظم أنحاء أوغندا، فإن البلد يبقى مصدرا للبنادق والذخيرة التي تهرب للقبائل الكينية. ومازال الضرر من الأحداث العنيفة أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات قائما.

مصدر أكبر لعدم الاستقرار في المنطقة بكاملها هو بالطبع الصومال، نموذج الدولة الفاشلة. الصومال اليوم منطقة حربية فوضوية تتدفق منها الأسلحة واللصوصية والتعصب العرقي والديني. فهي تزود عصابات القرن الأفريقي والغزاة والمليشيات والمجرمين بالبنادق والملأذ والأسواق. لذا دعنا الآن نعالج تاريخ انهيار الصومال، لأنه عنصر محوري في التجمع الكارثي.

النبوءة الصومالية

على السياسي الذي يستسلم لحمى
الحرب أن يدرك أنه ما إن تعطى الإشارة
للحرب، فإنه لن يكون المسيطر على
السياسة، لكنه سيكون عبد الحوادث غير
المتنبأ بها، وغير الخاضعة للسيطرة؟

ونستون تشرشل

في العام 1969 جلب انقلاب عسكري
يساري نهاية تجربة جديدة لصومال مستقل
حديثا يحكم بالديموقراطية الانتخابية. كان
الرجل القوي الجديد هو محمد سياد بري
الذي أعلن في السنة التالية أن «الاشتراكية
العلمية» ستكون العقيدة الرسمية للبلد،
مصرًا على أنها «تتوافق تماما مع الإسلام
وواقع المجتمع الرعوي». كانت المعارضة
السياسية كلها وأي ذكر علني للقبلية
ممنوعين بشدة.



«تحكي قصة انفجار الصومال كيف
أن الأفكار الكبيرة والتحالفات النبيلة
خلال الحرب الباردة لم تغلف غالبا
سوى المعاناة والفوضى»

المؤلف

مع ذلك جلب نظام سياد بري في البداية بعض الإصلاحات الاجتماعية المهمة. وكما شرح آي. م. لويس، العالم البارز في التاريخ الصومالي، فقد قَدَّم النظام الجديد برامج لصحة المجتمع، والتعليم في الريف، وحملات لمحو الأمية، وشجّع المجتمعات المحلية على بناء المدارس والمستشفيات والمستوصفات. شجعت التعاونيات وزراعة الأشجار، وعدلت الأحرف الرومانية لتناسب اللغة الصومالية⁽¹⁾.

لكن للأسف كان سياد بري وطنيا متحمسا ووحيدويا. قسّم المستعمر الأوروبي والإثيوبي الفضاء الوطني الصومالي إلى خمسة أجزاء. أعاد استقلال الصومال عام 1960 توحيد أجزاء الصومال التي خضعت لإيطاليا (الجنوب) ولبريطانيا (الشمال) فقط. لكن هذا لم يكن هذا كافيا بالنسبة إلى سياد بري. في مقديشو، امتلأ المثقفون الوطنيون والنخب السياسية بالغضب وهم يطالبون بالمناطق التي تتكلم الصومالية في كينيا وجيبوتي وإثيوبيا. أرادوا خصوصا الحصول على أوغادين، وهي عبارة عن نتوء فقير وجاف ووعر من إثيوبيا داخل في الصومال معطيا البلد شكله المعوج ويسكنه صوماليون. تعهد سياد بري بإعادة توحيد أجزاء الأمة الصومالية، وعندما دخلت إثيوبيا في منتصف السبعينيات بفترة من عدم الاستقرار السياسي، سنحت له الفرصة للبدء في هذا المشروع.

تحكي قصة انفجار الصومال كيف أن الأفكار الكبيرة والتحالفات النبيلة خلال الحرب الباردة لم تخلف غالبا سوى المعاناة والفوضى. عموما، تشكل تلك الديناميكية عنصرا مؤسسا للتجمع الكارثي.

سقوط الأسد

كان الامبراطور الإثيوبي المنعم والمستبد هيلاسي لاسي - على الرغم من احتفاء النخب الغربية به، وتأليهه الغريب من قبل الراسستافاريين الفقراء والمدخنين للغانجا في جامايكا^(*) - مكروها بازدياد في إثيوبيا. كانت أسوده المدللة تأكل اللحم، بينما كان شعبه جائعا. حظر أي تنظيم عمالي من أي نوع حتى عام 1962⁽²⁾. تمتع الإمبراطور بعلاقات دافئة مع واشنطن، حتى أنه أرسل فرقة من أفضل قواته

(*) Rastafarians الراسستافاريون فرقة في جامايكا نشأت في الثلاثينيات وعبدت هيلاسي لاسي لأنه بنظرها بمنزلة المسيح المخلص الثاني. [المترجم].

لمساعدة الولايات المتحدة خلال الحرب الكورية. كان للجيش الأمريكي مركز اتصالات في كاغنيو وقام بتدريب القوات الإثيوبية. ومن العام 1953 حتى العام 1973 ذهبت نصف المساعدات العسكرية الأمريكية لأفريقيا جنوب الصحراء كلها إلى الامبراطورية الإثيوبية⁽³⁾.

بحلول العام 1974 كان حكم الامبراطور في مشكلة. كان الجفاف الساحلي (*) يفتك بالمزارعين الإثيوبيين، وارتفعت أسعار النفط 4 أضعاف، وكان الاقتصاد العالمي في حالة ركود. أدى الغلاء وارتفاع أسعار الوقود إلى حدوث احتجاجات في أديس أبابا. أرسل الامبراطور قواته لإعادة النظام - لكن القوات تمردت. أمسكت الفوضى بالأمة، ووسط هذا برزت مجموعة ثورية من صغار الضباط اليساريين دعيت بالديرغ (Dergue). تحرك النظام الجديد بسرعة مطبقاً أوسع اصلاح زراعي في أفريقيا، ومؤمما الصناعة كلها، ومؤسساً لجاناً عمالية حتى على المستوى المحلي. لكن مع كل تطرفها الفكري، عانت مجموعة الديرغ من صراعات عنيفة مميتة. خلال هذا كانت هناك مقاومة في الريف من قبل الإقطاعيين، وثورات رجعية عديدة⁽⁴⁾.

عبر الحدود، رأى سياد بري الفوضى في إثيوبيا كفرصة لضم أوغادين. وعلى الرغم من أن إثيوبيا والصومال كانتا دولتين اشتراكيتين تدّعي كل منهما أنها تضع التنمية الاقتصادية والتضامن ورخاء الجماهير فوق كل اعتبار آخر، فإن الوطنية هي التي تغلبت في ذلك الوقت.

معبدة بمساعدة خارجية

في غمط مألوف حول العالم، بدأ سياد بري حربه بشكل غير معلن بتدريب قبائل صومالية في إثيوبيا وتسليحها لتسمى فيما بعد جبهة تحرير غرب الصومال. ولكن كما تسير هذه الأمور غالباً، تطوّر العمل السري ليخرج عن نطاق السيطرة.

في الوقت الذي كان فيه هذا النزاع المحلي يزداد سخونة، كان التوتر الناجم عن الحرب الباردة يشتد عبر المنطقة. طبقت الاستراتيجية الكبرى للقوى العظمى بحيث نافست كل واحدة الأخرى على النفوذ في القرن الأفريقي بتقديم المساعدات العسكرية بسخاء لحلفائها المحليين بشكل رئيس. حاول الاتحاد السوفييتي خلق

(*) نسبة إلى منطقة حزام الساحل الأفريقي. [المحررة].

تحالف موالٍ له مؤلف من أربع دول اشتراكية - الصومال واليمن الجنوبي وإثيوبيا (التي كانت في ذلك الوقت تضم إريتريا)، وربما الدولة التي ستستقل بعد وقت قصير وهي جيبوتي. كان هذا التحالف مهما للمعسكر الاشتراكي، جزئيا لأن مصر طردت القوات السوفييتية، وتحولت بشكل رئيس إلى معسكر الحرب الباردة الذي تقوده الولايات المتحدة. من شأن تحالف اشتراكي في القرن الأفريقي أن يسمح للاتحاد السوفييتي بعرض قوته في الشرق الأوسط وخارجه على طرق التجارة البحرية للبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي. اعتبر الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة: البحر الأحمر هو الممر لمعظم نفط الغرب، ويرتبط بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة قناة السويس، واليمن التي تشترك بحدود طويلة مع المملكة العربية السعودية، والصومال التي تشير إلى فوهة الخليج⁽⁶⁾.

تزعم فيدل كاسترو إلى حد كبير هذا «الحلف السوفييتي» في القرن الأفريقي كما دعاه المراقبون الغربيون بقلق. في الحقيقة كان كاسترو هو الذي جرّ الاتحاد السوفييتي إلى أفريقيا - ويجب الإضافة أن ذلك حدث من دون أن يسألهم - بإرسال قوات كوبية لمساعدة الحركة الشعبية لتحرير أنغولا (MPLA) بعد غزو قوات أفريقيا الجنوبية والمرتزقة ومستشارين من الـ CIA لها في العام 1975. ظهرت الحقائق المذهلة لهذه الديناميكية الغربية في كتاب المؤرخ بيرو غليجيسيس «مهمات متعارضة: هافانا وواشنطن وأفريقيا 1959 - 1976»⁽⁷⁾. بعد الانتصار في أنغولا دفعت كوبا الاتحاد السوفييتي إلى التعامل بشكل أكبر مع أفريقيا. اهتم كاسترو جدا بأفريقيا لأسباب عدة: أحدها كان نابعا من التزامه العقائدي. خلال وثائق الـ CIA ووزارة الخارجية المقتبسة من قبل غليجيسيس وصف كاسترو على أنه «ثوري أولا» وعلى أنه «ثوري بالضرورة» بـ «إخلاص متفانٍ لقضيته» مدفوع «بشعور رسولي للتبشير برسالته»، وأنه «منشغل بحملة صليبية كبرى». كانت هناك أيضا قضية العلاقات الثقافية العميقة بين كوبا وأفريقيا. وكما أخبر مبعوث الرئيس كارتر إلى الأمم المتحدة الناشط السابق في حقوق الإنسان اندرو يونغ مجلة نيوزويك، «ليس هناك شك بأن كوبا تفكر في نفسها على أنها دولة أفرولاتينية... لا أعتقد أن كوبا في أفريقيا لأنها أمرت بأن تذهب إلى هناك من قبل الروس. أعتقد أن كوبا في أفريقيا لأن لها فعلا شعورا مشتركا بالقمع

والسيطرة الاستعماريّتين». يجب التنويه إلى أن يونغ لم يتبنّ الثورة الاشتراكية المسلحة في أفريقيا، وفي النهاية انتقد الحملة الكوبية المقدسة على أنها «أسهمت في تخريب أفريقيا»⁽⁸⁾.

أخيرا كانت هناك قضية البقاء. كدولة من أولى الدول الماركسية اللينينية في العالم الثالث، احتاجت كوبا إلى أصدقاء. احتاجت إلى توازن قوى يضم مجموعة من الدول الصغيرة إلى العلم الأحمر. وكما فعل في أنغولا في القرن الأفريقي، لعب كاسترو دورا رئيسا في تصميم الاستراتيجية السوفييتية وديبلوماسيتها. تكلم عن «جبهة مشتركة ضد الامبريالية» على البحر الأحمر. وعندما اعتنقت الحكومة الجديدة للملازم كولونيل مينغستو هيلي ماريام رئيس الديرع الاشتراكية، طردت المستشارين العسكريين الأمريكيين، وتحولت إلى دول حلف وارسو للمساعدة. وسرعان ما أصبح الاتحاد السوفييتي يساعد الصومال وإثيوبيا معا. أثار هذا غضب سياد بري ومؤيديه. حاول السوفييت والكوبيون حل مسألة أوغادين وبناء الوحدة بين الجيران في أفريقيا الشرقية. سافر كاسترو شخصا مجيئا وذهابا بين الزعماء الصوماليين والإثيوبيين محاولا إصلاح الأمور بينهم.

لكن ذلك لم يتم. في مقديشو كانت الاشتراكية العالمية تعني أقل مما تعنيه الصومال الكبرى. أفشلت قضايا محلية الخطة الكبرى، وعندما انهارت الرؤية الاستراتيجية انهار معها معظم المنطقة.

حرب أوغادين للأبد

في صيف العام 1977 طفت الحرب السرية الصغيرة في أوغادين على السطح. في 13 يونيو عبر نحو خمسة آلاف جندي صومالي نظامي بعد إزاحة شاراتهم المميزة، وبالتعاون مع رجال العصابات في جبهة تحرير غرب الصومال، الحدود إلى إثيوبيا وشنوا الهجوم⁽⁹⁾. وبحلول يوليو استولوا على بلدات جيغيغا وهارار ودمروا عدة جسور مهمة، وخرّبوا سكة الحديد بين أديس أبابا وميناء جيبوتي على البحر الأحمر. وبذلك توقف أكثر من 40% من صادرات إثيوبيا، و50% من وارداتها⁽¹⁰⁾. وطوال ذلك الوقت كان المستشارون والضباط الكوبيون والسوفييتيون في الصومال وإثيوبيا معا.

بحلول نوفمبر 1977 أكدت الصومال أن القوات المسلحة الكوبية لم تكن في إثيوبيا فقط، بل كانت تقاتل لمصلحتها. وبذلك طرد سياد بري المستشارين السوفييت الأربعة آلاف الذين كانوا يدربون قواته، ويصونون طائرته. ذهب معظم المستشارين المغادرين مباشرة إلى إثيوبيا⁽¹¹⁾. في فبراير من العام 1978 أسقط الجيش الصومالي أي ذريعة للابتعاد عن القتال، وشارك جبهة تحرير الصومال الغربية رسمياً في «حرب مرة شاملة ضد إثيوبيا». استنفدت الهجمة الجديدة أعداداً غفيرة من الأوغادينيين⁽¹²⁾.

في إثيوبيا واجه الديرغ كارثة: هدد ضياع نحو ثلث البلاد التابع للجنة الديرغ بانحيار البلاد. لوقف النزيف تدفق الدعم السوفييتي والكوبي إلى إثيوبيا. أرسل السوفييت بالطائرات معدات حربية متطورة قدرت قيمتها بملايين الدولارات، بينما أرسلت كوبا مزيداً من الجنود المشاة والطيارين - أربعاً وعشرين ألف جندي بالكامل⁽¹³⁾. حطم الهجوم الإثيوبي المعاكس المدعوم خارجياً الجيش الصومالي الغازي، ودفع بالحرب الجوية إلى شمال الصومال نفسها⁽¹⁴⁾.

أصبح سياد بري الآن في وضع حرج. نظراً إلى حاجته للسلاح لصد القوات الكوبية والسوفييتية ذهب إلى شاه إيران المتأزم، ثم دعا الولايات المتحدة «لتنفيذ مسؤوليتها الأخلاقية» في مساعدة الصومال. كان الرئيس كارتر قد صرح بأنه «سيتحدى بقوة» الاتحاد السوفييتي من أجل النفوذ، ومنح القتال بين دولتين اشتراكيتين الولايات المتحدة الفرصة لفعل ذلك. مع حلفائها المحليين، سحبت الولايات المتحدة الآن الصومال الماركسية إلى ما دعي بالمعسكر العربي المعتدل، على الرغم من أن سياد بري لم يكن من أي منهما⁽¹⁵⁾. بلغت المعونة العسكرية الأمريكية خلال الحرب القصيرة أكثر من 200 مليون دولار، بينما تجاوزت المساعدات الاقتصادية 500 مليون دولار⁽¹⁶⁾. بمعظم هذه المساعدات اشترت الصومال الأسلحة من المملكة العربية السعودية ومصر وإيران وباكستان.

بحلول العام 1980 تخلى سياد بري عن الاشتراكية العلمية التي على الرغم من أنها أدت إلى بعض من إعادة توزيع الثروة، فإنها لم تقدم التنمية الاقتصادية المتناسبة مع النمو السكاني. بحلول منتصف الثمانينيات كان نظام سياد بري يطبق سياسة التحرر الاقتصادي التي أوصى بها صندوق النقد الدولي. أدى هذا إلى ارتفاع

كبير في تصدير الموز الذي عادت معظم فوائده إلى المصدرين الرئيسيين، ومن هم ضمن النظام. أصبحت زوجة سياد بري وابنته كلتاهما من مزارعي الموز⁽¹⁷⁾. على الرغم من أن الاستراتيجية العظمى للولايات المتحدة كانت في النهاية مهمة بحماية اقتصادات السوق حول العالم، فإن الاهتمام الخاص بالصومال لم يكن اقتصاديا. لم تأت أهمية الصومال من الأرباح المتواضعة التي يمكن لبعض الشركات العالمية أن تجنيها هناك، لكن لأن الدولة قدمت نتوءا عسكريا وسياسيا بارزا يشرف على أفريقيا الشرقية والمحيط الهندي. إضافة إلى ذلك، كسر استقطاب الصومال، «الحلف السوفييتي» الملتصقي في أفريقيا الشرقية. حصل التدخل الأمريكي من أجل توازن القوى مع الاتحاد السوفييتي عالميا عبر القتال بين وكلاء محليين.

سقوط

رسميا، انتهت حرب أوغادين عام 1978 بعشرات الآلاف من القتلى. مع ذلك استمرت الصومال وإثيوبيا خلال الثمانينيات في صراع على مستو منخفض، ولا تزال جبهة تحرير الصومال الغربي تقاتل حتى اليوم. حافظ الجيش الأمريكي على فريقي تدريب على الأقل في الصومال. وصرفت موسكو 5 مليارات دولار في إثيوبيا خلال الثمانينيات، منشئة أكبر جيش في أفريقيا جنوب الصحراء. بقي الكوبيون في إثيوبيا، وخلال الثمانينيات عبرت القوات الإثيوبية الحدود مرارا إلى الصومال، أو أرسلت طائراتها لقصف البلدات هناك⁽¹⁸⁾.

لم يتعاف الصومال أبدا من هزيمته المنكرة في أوغادين. وساعدت هذه الكارثة في التفكك الوطني للدولة. لخصت مجلة «فورين أفيرز» تأثير الحرب بما يلي: «مكّن الدعم السوفييتي منغستو (الإثيوبي) من قهر العدوان الصومالي، وإذلال سياد بري، وإرسال نصف مليون من الصوماليين، ورجال العصابات عبر الحدود الصومالية، ليحمل الكثير منهم الموجة التالية من الأسلحة الحديثة في مد متصاعد. أطلقت كارثة أوغادين سخطا محليا خطيرا ضد نظام سياد بري القمعي والمتحيز بازدياد، مؤدية إلى محاولة انقلابية للإطاحة به في العام 1978، وتشكيل الحركة الوطنية الصومالية عام 1981 بين عشائر اسحق في الشمال»⁽¹⁹⁾.

حطمت كلفة الحرب اقتصاد الصومال الزراعي الصغير. تضاعفت الديون الخارجية ثلاثة أضعاف من 95 مليون دولار في العام 1976 إلى 288 مليون دولار في العام 1979⁽²⁰⁾. وصفت سياسة الدولة الاقتصادية على أنها «مضطربة وغير مستقرة» وغالبا ما تحركت من منظومة من الأهداف إلى منظومة أخرى، وبالتالي تسببت في إحداث الفوضى في السوق المحلية: بحلول العام 1990، مع بدء انحدار الدولة الصومالية النهائي نحو الفوضى، بلغت ديونها الخارجية للدول الغربية 1.9 مليار دولار أو 360% من إجمالي إنتاجها المحلي. نشأت هذه الأزمة من النفقات العسكرية لحرب أوغادين⁽²¹⁾.

نحو الهاوية

احتفظ سياد بري بمقديشو حتى يناير من العام 1991، عندما أجبرته ثلاث مجموعات متمردة ذات تنسيق ضعيف على الفرار. انهار جيش الديكتاتور بحسب الانتماء القبلي، وأطلق مخزونه من السلاح الذي تخلى عنه موجة جديدة من البنادق في الصومال وشمال كينيا والقرن الأفريقي بأكمله. وكما عبر تيرانس ليونسي وأحمد ساماتار عن ذلك «يرتبط زوال الدولة ضمينا بانهايار التجانس الاجتماعي على نطاق واسع، مع عدم قدرة المجتمع المدني على خلق الدعم والحاجات التي تشكل أسس المجتمع وتجميعها والتعبير عنها. ومن دون الدولة ينهار المجتمع، ومن دون بنية اجتماعية لا يمكن للدولة أن تبقى»⁽²²⁾. تداعى هيكل متهاك منذ زمن ولم تمتلك الصومال حكومة فاعلة منذ ذلك الوقت. الأسوأ من ذلك أن وباء الحرب وعدم الاستقرار المستمر أصاب المنطقة بكاملها. خلق تدفق السلاح والذخيرة والتهريب والرجال المسلحين عبر الحدود منطقة ينعدم فيها القانون شملت بصورة متزايدة كينيا.

لم تشعل القوى الكبرى الحرب في أوغادين، واجتياح أوغندة لتتنزانيا أيام الحرب الباردة، لكن اندفاع هذه القوى لتسليح وكلاء لها سَعَر هذه الصراعات بشكل سيئ. ببساطة: جعلت الأسلحة المستوردة أفريقيا تركع على ركبتيها. وعلى الرغم من أن هذا ليس واضحا بشكل مباشر، فقد أثار هذا التاريخ كله عندما قتل المغيرون من البوكوت الراعي ايكارو لورومان من التوركانا في قتال حول القطيع والماء، في المناطق السيئة المصابة بالجفاف في كينيا.

تنظير الدول الفاشلة

قمعت في النهاية الإجراءات القضائية
المدنية والجنائية؛ وحكم الجمهور من
النبلاء والعامّة من دون تمييز وفق
العادات التقليدية التي وضعت بشكل
عريض لرعاة ألمانيا وقراصنتها. ضاعت
لغة العلم والتجارة والحديث التي
أدخلها الرومان في الخراب العام.
إدوارد غيبون، انحدار الإمبراطورية الرومانية
وسقوطها

كانت السماء فوق كيسسنگاني منبسطة
ورمادية، لكنها لم تمطر قط. بجانب النهر
كانت نساء السوق يبعن أكواما صغيرة من
اليرقان الصالح للأكل، لكن لا يبدو أن أحدا
كان يشتريها. الشوارع في هذه المدينة الصغيرة
في وسط حوض الكونغو هادئة بشكل غريب،

«الانهيار كالتنمية يحدث تدريجيا،
حيث تبنى كل مرحلة على التالي
فوق الظروف التي خلقتها
المراحل السابقة»

المؤلف

وخالية تقريبا من السيارات التي سلب معظمها خلال اجتياحين قريبي العهد. دخلت الأبنية القديمة من الحقبة الاستعمارية والمزخرفة فنيا في طور الخراب، خاضعة ببطء للأمطار والعفن والنباتات، كأنها كانت تتوارى أمام عيون الناظرين. لا طرقات تصل كيسنغاني ببقية جمهورية الكونغو الديمقراطية أو بأي جزء آخر من العالم؛ واستردت الغابة مدرجات المطار. على ضفة النهر يتدفق الماء الموحل كما كان منذ آلاف السنين، وعلى بعد 1300 ميل أخرى من هنا، فوق مجموعة ضخمة من الشلالات، يصب النهر البني المزبد العنيف في البحر جالبا الحطام والنباتات الطافية معه.

بدأت كيسنغاني على شكل محطة تجارية بلجيكية. أسسها الأمريكي هنري مورتون ستانلي للملك ليوبولد أثناء اجتياحه الدموي الثالث للكونغو في العام 1883⁽¹⁾. استخدم جوزيف كونراد الموقع نموذجا لمحطته الداخلية في روايته «قلب الظلام». إنها النقطة الأخيرة التي يمكن الوصول إليها بواسطة النهر، لأن الـ 250 ميلا التالية أعلى النهر مقطعة بنتوءات متعاقبة، وشلالات مائية. كنت في كيسنغاني في طريقي إلى إسانغي لكتابة تقرير عن قطع الأشجار في ثانية أكبر غابة استوائية لم تمس في العالم. لكن الشرطة احتجزتني على الرغم من أنني كنت أحمل خمسة أشكال مختلفة من الوثائق الرسمية - بما فيها أمر مهمة وتصريح بالسماح بنقل الأخبار - مختومة وموقعة كلها من قبل وزارات عديدة مختلفة. أصرت الشرطة على أنني في حاجة إلى مزيد من الوثائق الورقية، وبينما كانوا يعدونها لي كان علي الانتظار.

في اليوم التالي زرت مكتب الإدارة المحلية الأيل للسقوط. سأل موظف مسن كتيب عما إذا كنت مستعدا لدفع 200 دولار من أجل الوثائق الإضافية. اقترحت عليه 50 دولارا. وافق على ذلك، لكنه في كل يوم أتى بتأخير أكثر. تجولت حول المدينة، وصاحبت رجلا لديه قرد مدلل يدعى جوني، وشربت البيرة في بار يملكه تاجر أخشاب إيطالي. وجلست على درجات الكنيسة أنظر إلى نهر الكونغو. لم تكن هناك مواصلات على الماء بسبب عدم هطول الأمطار - تمتد مشاكل نطاق التقارب بين المدارين إلى أواسط أفريقيا. انقص الجفاف مستوى الماء في نهر الكونغو، وهو الآن ممتلئ بالمياه الضحلة الخطرة.

أخيرا، في اليوم الثالث من الانتظار، أخبرني الموظف العجوز في المكتب المحلي أنني سأغادر من دون ترخيص جديد. كان ذلك يعني بالطبع أنه ورئيسه لن ينالا الـ 50 دولارا «أجرة» التي طلبها. نظر الموظف بقلق. فجأة أصبحت الوثيقة جاهزة. كانت مكتوبة

تنظير الدول الفاشلة

بخط اليد على ورقة بنية عتيقة، لكنها كانت مختومة وموقعة. على الخلف كانت هناك وثيقة أقدم مختلفة، وهي عبارة عن ترخيص بالسفر مكتوبة بالآلة الكاتبة لشخص آخر كان في مهمة طبية بيطرية إلى إسانغي أيضا. كانت تقول «الكونغو البلجيكي، مقاطعة ستانلي فيل، السكرتارية.....7 فبراير 1957».

تشریح الخرائب

تشرح تلك الوثيقة كيف تنهار الدول، وكيف أن الدول الفاشلة أو شبه الفاشلة مهمة لأنها مهددة جدا بالتغير المناخي. في دول فاشلة يكون الانهيار الاجتماعي هو المعتاد، مع أن الحكم والإدارة غير غائبين بالكامل. إنهما موجودان لكن بصورة شكلية. يبدو كأن الدولة الفاشلة تعود إلى أساليب فرعية من السيطرة، والمعاملة بالمثل. ولأن فشل الدولة نسبي، فهناك في معظم ما يدعى بحكومات الدول الفاشلة خراب نصف وظيفي - الدولة كحياة لاحقة مرتجلة. «وثيقة السفر» التي أعطاها الموظف في كيسنغاني لي مثال مضحك على ذلك، لكنه مع ذلك قوي: ملاحظة مكتوبة بخط اليد خلف وثيقة استعمارية عمرها 50 سنة. يجد المرء مثل هذا النوع من البيروقراطية وسط الانهيار في معظم الدول الفاشلة، حيث يلعب الموظفون المدنيون ذوو الرواتب الضئيلة رسميا، بمكونات جهاز استعماري ميت للشرطة، ليس رغبة في تطبيق القانون والنظام، لكن ببساطة لاستخلاص رشا تكفل لهم البقاء.

ينطبق هذا المثل على معظم الدول الفاشلة أو شبه الفاشلة - لقد فرغت حكوماتها من مضمونها. لكل من هذه الدول علم وعملة ومقعد في الأمم المتحدة، لكن هناك القليل من القانون والنظام أو من البنية التحتية الفاعلة، أو لا يوجد شيء من ذلك على الإطلاق. ليست الدول الفاشلة دوما مناطق حرب مدمرة على النمط الصومالي السيئ. على الرغم من أنها تصاب بنوبات من العنف، فإن الحياة اليومية فيها تتميز بشكل أكثر نموذجية بالخليط اللصوفي الموجود في جمهورية الكونغو الديمقراطية.

في أماكن مثل الصومال وأفغانستان وهايتي وغينيا بيساو وساحل العاج، تكون الدولة شبحا؛ تظهر ثم تختفي. يمكنك رؤية معالمها، وتشعر بوجودها، لكنها ليست هناك فعلا. على سبيل المثال، في كينشاسا عاصمة الكونغو لا توجد سلطة فعلية تفرض القانون، ولا برامج لحماية الناس، لكن هناك حضرا شديدا على النمط الكوري الشمالي

لمصادرة العاملين «الخاصين» والمستقلين ذاتيا للسلطة التنفيذية الذين يقفون إلى جانبه، من أولئك الذين يمتلكون حقوقا في وسائل الإدارة والحرب والتنظيم المالي، إضافة إلى بضائع يمكن استعمالها سياسيا من الأنواع كلها. العملية كلها موازية تماما لتطور المشروع الرأسمالي من خلال المصادرة التدريجية للمنتجين المستقلين. في النهاية تتحكم الدولة الحديثة بوسائل التنظيم السياسي كلها، والتي تندرج بالفعل بعضها مع بعض وتحت رئاسة واحدة. لا يملك موظف واحد شخصا المال الذي يدفعه، أو الأبنية والمخازن والأدوات وآلات الحرب التي يتحكم فيها. في «الدولة» المعاصرة - وهذا ضروري لفكرة الدولة - فإن «فصل» موظفي الإدارة والعاملين فيها عن الوسائل المادية للتنظيم الإداري هو فصل كامل⁽⁵⁾.

أما في الدول الفاشلة فالأمر على العكس تماما. تعاد شخصنة السلطة ويعاد تخصيص وسائل الإدارة والقمع. السلطة التنفيذية - التي يعني بها فيبر سلطة اتخاذ القرار والتنفيذ - تعود من مؤسسة مركزية شرعية إلى طرف مؤسساتي، طبقة الموظفين الذين يتحكمون بجهاز الدولة: مكاتبها ووثائقها وملفاتها ووزاراتها وأسلحتها ونقاط تفتيشها ووزارات سجونها. يعاد استخدام هذه التقنيات بطريقة مجزأة وطفيلية. ينتج الانهيار البيروقراطي للدولة الفاشلة نوعا فريدا من الجغرافيا السياسية: سيادة موزعة شبيهة بكلية السلطات - الملك والكنيسة والمدن والإقطاعيين - كالتي ميزت أوروبا في العصور الوسطى. يظهر هذا التوزيع اليوم على درجات مختلفة عبر أجزاء من أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق

من قبل «الحرس الجمهوري» أو بعض القوات الميليشيوية لوزارة الداخلية، وهي بعد ذاتها ملك لرئيسها. سيكون هذا وصفا لكينشاسا وكابول وبغداد أيضا. خارج العاصمة يتحكم أحد قادة المتمردين ببعض الطرق المهمة إلى الحدود، وستجد مثل هذا في الكونغو وأفغانستان وكولومبيا. تحمي القوات الأجنبية - التي ربما تلبس خوذة الأمم المتحدة الزرقاء، أو تحمل علامة الناتو - المناطق حول قواعدها، وبعض الأبنية الحكومية، وعقد المواصلات والمطارات. يتحكم رجال العصابات والمتمردون بالمناطق فيما وراء ذلك. في مناطق أو مقاطعات أبعد بموارد أو صلات تجارية مغرية، ربما يجد المرء حاكما مسلحا ومستقلا يدعي الولاء لأي حكومة مركزية تساندها القوى الغربية الكبرى، لكنه في الحقيقة سيد نفسه ويدير دويلة مستقلة.

تنظيم الدول الفاشلة

في مدينة المرقا ليس من المستغرب أن تكون السلطة الحقيقية بيد أكبر تاجر استيراد وتصدير، والذي يستطيع بثروته الضخمة أن يرشو الشرطة، ويفعل ما يريد مع السياسيين المحليين. تصف هذه الخصائص مرة أخرى أنحاء من العراق وكولومبيا وأفغانستان وهايتي وساحل العاج وغينيا بيساو وجمهورية الكونغو الديمقراطية والصومال على سبيل المثال لا الحصر.

هذه هي النماذج السياسية التي سادت أوروبا في القرن الرابع عشر، وهي الأشكال السياسية التي خلفها انهيار الإمبراطورية الرومانية إثر وباء الطاعون⁽⁶⁾. إنها ليست نماذج التخلف، لكنها بالأحرى النماذج الناجمة عن انهيار اجتماعي، وسقوط سياسي. إنها حطام مؤسساتي وسياسي لحدائث سابقة. وهي تميز الحاضر بصورة متزايدة.

نرى هنا معاكسا غريبا لـ «نظرية المرحلة» في التنمية لوالث روستو، وفكرته حول «الإقلاع الاقتصادي»⁽⁷⁾. الانهيار كالتنمية، يحدث تدريجيا، حيث تبنى كل مرحلة على التتالي فوق الظروف التي خلقتها المراحل السابقة. ومثل التنمية، يمكن للانهيار أن يصبح عملية مدعومة ذاتيا. الانحدار نحو الأنتروبيا (الاعتلاج) والفوضى مثل الحلقة الإيجابية للتحديث والتصنيع التي تخيلها المخططون في الغرب بعد الحرب - لكنها تسير بعنف في الاتجاه المعاكس.

دول وحرب وجريمة

لو قرأنا فيبر بالشكل المعاكس، فسنفعل حسنا لو استشرنا مقالة تشارلز تيلي الكلاسيكية «صنع الدولة وصنع الحرب كجريمة منظمة» بالطريقة ذاتها⁽⁸⁾. بحسب تيلي «الحرب تصنع الدول»، وينتمي «قطع الطرق والقرصنة والتنافس بين العصابات والحماية والحرب كلها إلى التواصل نفسه»⁽⁹⁾. وهو يحتاج بأن الجريمة المنظمة - نموذج عصابات الحماية، هي من نواح عدة مشابهة لعملية فرض الضرائب من قبل الدول الشرعية. توجد الحرب والابتزاز والنهب ضمن طيف مفصول بمستويات مختلفة من الشدة والشرعية. النقطة الرئيسة في المقالة هي أنه مع ازدياد تكلفة الحرب في أوروبا من حيث تكلفة السفن والمدافع والجيش الميدانية، أصبح مشروع فرض الضرائب والإدارة أكثر تطورا، وبالتالي أصبح حديثا.

وكما يعبر تيلي عن ذلك:

في تدرج مثالي، صنع سيد عظيم الحرب بفاعلية كبيرة، بحيث أصبح يسيطر على مقاطعة كبيرة، لكن شن الحرب أدى إلى استخلاص أكبر لوسائلها - الرجال والأسلحة والغذاء والمساكن والنقل والإمدادات و/ أو المال لشرائها - من سكان المقاطعة. وبالمثل أدى بناء قدرة صنع الحرب إلى زيادة القدرة على الاستخلاص. لو نجحت عملية الاستخلاص ذاتها، لشمّلت التخلص من السيد العظيم وتحييده أو تعاون المنافسين المحليين ضده، وبالتالي أدت إلى صنع الدولة. وكمنتج ثانوي، فقد خلقت تنظيماً على شكل وكالات جمع الضرائب، وقوى الأمن، والمحاكم، وبيوت المال ومسجلي الحسابات، وبالتالي أدت مرة أخرى إلى صنع الدولة⁽¹⁰⁾.

إذا كان صنع الحرب التقليدية قد أنتج الدولة الحديثة، فإن الحروب اللاتناظرية والانهييار الاجتماعي والصراع القبلي والطائفي والتحارب ومكافحة التمرد المفتوحة في عصر الفوضى المناخية، ربما ستكون عوامل انهيار الدولة الحديثة. مع انهيار وسائل الإدارة و«الاستخلاص»، تنشق «عصابات من رجال مسلحين» عن الدولة، وتطلق حرة في المجتمع للبقاء بوسائلها الخاصة. يصبح فرض الضرائب سرقة مع عودة الجنود والشرطة إلى الرشوة والابتزاز والنهب. وحيثما تكون الدولة غائبة تماماً، تنشأ العصابات لتحكم العشوائيات مثل دول المدن القديمة.

ربما توجد أيضاً نواح تقنية لانهييار سلطة الدولة الحديثة. وكما توضح الحالة الكينية، هناك شيء خاص حول انتشار الأسلحة الصغيرة: AK-47 وقاذفات القنابل والآلات الرشاشة. عندما تكون هذه الوسائل «الديموقراطية» للعنف رخيصة بما يكفي، فإنها تنسف سلطة الدولة بطريقة معاكسة مباشرة لحجة تيلي، حيث تطلبت السفن الحربية المكلفة والمدافع الضخمة (وبالتالي أنشأت) أنظمة بيروقراطية وضريبية معقدة ومركزية وحديثة⁽¹¹⁾. إذا كانت المدافع والسفن الحربية قد صنعت الدولة الوطنية الحديثة، فإن الكلاشينكوف والراديو الحقلي ربما سيكونان سبب فشلها.

الجزء الثالث آسيا

مخدرات وجفاف وجهاد: التاريخ البيئي للحرب الأفغانية

السنة الجيدة تحدّد من ربيعها.

مثل أفغاني

فتح المزارع العجوز الجوز والرمان في
باحة بيته المحصن المبنية جدرانها من الطين،
وشرح متاعبه. يزرع وزير الأفيون والماريوانا
في مقاطعة حدودية من مقاطعة نانغارهار
الجنوبية شرق أفغانستان. تمتد الحدود، وهي
خط دوران، على طول حافتي سلسلة جبلية
مرتفعة تغطي قممها الثلوج التي تغذي الأنهار
التي تروي وديان نانغارهار الجافة⁽¹⁾.

عندما زرت المنطقة أوائل سبتمبر 2006
كانت تمر بدورة سيئة جدا من الجفاف. وكما
اكتشفت الأمم المتحدة من إحصاء أجري قبل
أربع سنوات، كانت الآبار تجف خلال معظم
العقد الأخير، مع معاناة أفغانستان من «أقصى

«صحيح أن التعصب الديني والكره
العنصري والطموح الاستعماري
هي أدوات حركت العنف بشكل
كبير، لكن تغير المناخ أيضا يغذي
الصراع في أفغانستان»

المؤلف

حالة جفاف في الذاكرة الحية»⁽²⁾. يربط العلماء هذا الجفاف بالتغير المناخي، وعلى الخصوص بارتفاع درجة الحرارة في الجبال، وانخفاض بسيط في كميات الهطول. حل الجفاف في نانغارهار أخيرا في العام 2010 عندما مرت رياح مونسون بحر العرب الضخمة التي أغرقت نحو 20 في المائة من باكستان على طول خط دوران. في باكستان قدرت الأمم المتحدة أن نحو 2000 شخص ماتوا، واحتاج 14 مليونا إلى مساعدة إنسانية، وفقد 2.4 مليون هكتار من المحاصيل، ودمر أو تخرّب 1.9 مليون بيت، وأصبح أكثر من 7 ملايين شخص من دون مأوى. ربما كان الأسوأ أن الفيضانات دمرت 50 سنة من البنى التحتية. قدر الإجمالي الاقتصادي للخسائر بـ 43 مليار دولار⁽³⁾. وبحلول العام 2011 سيطر سوء تغذية خطير على منطقة الفيضانات.

في أفغانستان ضرب جانب من نظام الطقس نفسه عدة مقاطعات شرقية، بما فيها نانغارهار، التي كانت على أطراف امتداد الرياح الموسمية. نموذجيا، فإن شهر أغسطس في نانغارهار جاف جدا بهطول أقل من 5 مم للشهر بأكمله⁽⁴⁾. لكن في تلك السنة فتحت أبواب السماء، وجرفت الأمطار الضخمة المحاصيل والماشية و2500 منزل وقتلت 80 شخصا.

وبحسب التقارير الأمنية فإن نانغارهار ليست الأمطار جافة أو مغمورة بالمياه فقط، لكنها تشتهر بالعنف أيضا: سجلت 23 حادثة معظمها متعلقة بقتال خلال الأسبوع الذي زرتها فيه خلال شهر سبتمبر 2006. وفقا لمكتب الأمن الأفغاني غير الحكومي ANSO، شهد ذلك الأسبوع تهديدات بالخطف وعمليات مستمرة لمكافحة التمرد «وتقريراً عن تغلغل مجموعة جديدة من المتمردين» مؤلفة من «العرب والشيشان والباكستانيين»؛ وشوهدت عربتان استخدمتا من قبل «عناصر مسلحة من طالبان» في مقاطعة شيرزاد، وحصلت هناك عدة هجمات بالصواريخ. وصفت تقارير مكتب الأمن الأفغاني ANCO المنطقة باعتبارها خارج سيطرة الحكومة.

وحدها تجارة المخدرات أبقت هذه المنطقة مستقرة اقتصاديا، لكن التهديد بمنع زراعتها كان حاضرا دوما، وإن كان في الأغلب بعيدا. وصف المزارع وزير رعب المزارعين المحليين عندما جاءت فرقة لمكافحة زراعة الأفيون من كابول. «جاءت حملة مكافحة المخدرات، لكنها اكتفت بأخذ الرشوة»، قالها وزير ونحن نجلس في ديرته dera، وهي منطقة مظلمة مخصصة لزيارة الضيوف خارج البيت، على أسرة

من الحبال والخشب تدعى تشارباي. «عندما سمعنا أنهم آتون إلى هنا، ذهبنا إلى حاكم المقاطعة وفاوضناه على سعر». أخبرني وزير أن القائد المحلي، واسمه هاسيل، اختير كممثل للمزارعين. بعد قبض الرشوة، ومن أجل التقاط الصور، أتلقت الشرطة بعض حقول الأفيون القديمة الجافة والتالفة.

«لو لم يقبل الحاكم الرشوة لكننا مستعدين للقتال. إذا فقد المزارع أفيونه فلن يستطيع الحصول حتى على السكر والشاي. سوف يقترض المال من شخص غني، وسوف يفقد أرضه». قال وزير إن معدل فوائد قروض الطوارئ تصل إلى 100 في المائة. الضغوط البيئية التي كانت عاملاً أولياً في عدم استقرار أفغانستان أصبحت تغذي العنف الآن. هذا ما يبدو عليه التجمع الكارثي من الفقر والعنف والتغير المناخي في أفغانستان: تربة مجروفة ومياه شحيحة وشرطة جشعة وقوات أجنبية وغضب جماهيري وتمرد يحمي محاصيل الأفيون من الإزالة.

دور الجفاف

في العام 2008 أصدرت الحكومة البريطانية تقريراً يصف ما سيفعله تغير المناخ في أفغانستان. «ترتبط التأثيرات السلبية الأكثر احتمالاً.. بالجفاف، وتشمل ديناميكيات مرتبطة به كالتصحر وتدهور التربة. من المحتمل أن يعتبر الجفاف حالة طبيعية بحلول العام 2030، بدلاً من أن يكون حادثاً مؤقتاً أو دورياً. وتأتي الفيضانات غير المنتظمة، والزيادة العامة في درجات الحرارة في الدرجة الثانية من حيث الأهمية. لكن تأثيراتها قد تتضخم بسبب ذوبان أكبر وأسرع للثلوج في الربيع نتيجة ارتفاع درجة الحرارة، بالإضافة إلى تأثيرات مصب النهر على تدهور التربة وانحسار الغطاء النباتي وسوء إدارة الأراضي»⁽⁵⁾.

اقرأ تاريخ الحرب الأفغانية بعمق، وستتضح زاوية المناخ فيه. تعاني آسيا الوسطى من صدمات مائية - دورات جفاف وفيضانات - توافق نموذج الاحترار العالمي المدفوع من قبل الإنسان. يعمل ثلثا الأفغان في الزراعة، ومع ذلك فمعظم البلد صحراء، ونظام الري فيها مخرب جداً. يسبب الطقس العنيف الناجم عن التغير المناخي البؤس، والذي يسبب العنف، وهذا يؤدي إلى مزيد من البؤس وهكذا دواليك. من نظرة أولية، فإن أهم سبب للحرب في أفغانستان هو الوجود الأمريكي

هناك: جاءت الولايات المتحدة وحلفاؤها من الناتو إلى أفغانستان لمطاردة القاعدة والقضاء عليها و/ أو لبناء دولة أفغانية تمنع حضانة الإرهاب الدولي. لكن ومن ناحية أخرى، تحارب الطالبان لطرد المحتلين الكفرة.

لكن كانت هناك حرب في أفغانستان قبل أن تتدخل الولايات المتحدة بشكل سري، حتى قبل أول تدخل أمريكي سري تحت رئاسة جيمي كارتر العام 1979. كانت هناك حرب حتى قبل التدخل السوفييتي في ديسمبر في العام 1979. ترجع بواكير جذور الصراع الحالي من نواح عدة إلى انقلاب في العام 1973 بقيادة الجنرال محمد داوود خان ضد الملك محمد ظاهر شاه. وضمن قصة انقلاب داوود يقبع عنصر من ضحية مخفية ناجمة عن المناخ.

صحيح إن التعصب الديني والكره العنصري والطموح الاستعماري هي أدوات حركت العنف بشكل كبير، لكن تغير المناخ أيضا يغذي الصراع في أفغانستان. أولا، بدأ العنف نتيجة لجفاف حدث منذ أربعين عاما. وثانيا، خلق الضغط المناخي الفقر واليأس اللذين يغذيان التمرد ضد احتلال الناتو الآن. وثالثا، يسبب تغير المناخ تنافسا بين الدول يظهر على شكل عمليات غير مباشرة داخل أفغانستان. وأخيرا وبشكل مهم جدا، فنبات الأفيون مقاوم للجفاف، بينما المحاصيل البديلة غير مقاومة له، والناتو يهاجم الأفيون بينما تدافع طالبان عنه. دعنا نبدأ القصة بالجفاف والانقلاب الذي أطاح بالملك ظاهر شاه.

ملك في إجازة

في العام 1969 فشلت الأمطار في أنحاء كثيرة من أفغانستان بشكل كامل. وخلال العامين التاليين فشلت مرة أخرى. ثم جاء شتاء قاس جدا، وللبقاء اضطر العديد من المزارعين إلى أكل بذورهم وذبح ثيرانهم، مما ترك لهم القليل لزراعته، والقليل من الحيوانات لجبر المحاريس. ونتيجة لذلك كان محصول العام 1972 من القمح غير كاف، وبحلول أبريل اجتاحت المجاعة شمال أفغانستان ووسطها. وبحسب راجا أنور كانت تلك «أسوأ مجاعة في التاريخ الأفغاني»⁽⁶⁾.

كانت مقاطعة غور في المنطقة الداخلية النائية من البلد الأشد تضررا. منذ آلاف السنين كانت المنطقة مغطاة بالغابات بكثافة. لكن تلالها أيضا احتوت

مخدرات وجفاف وجهاد

على رواسب معدنية، لذا قطعت أشجار غور وحرقت لصهر الخامات المحلية. ثم أصبحت المنطقة المعرأة قلب صناعة القطيع في أفغانستان في العصور الوسطى، لكن الأبقار والماعز والأغنام دمرت الأراضي. والآن تبدو غور أشبه بسطح القمر - جرداء تماما. فقط على طول النهر وأحواض الجداول تصبح الزراعة ممكنة. بالنسبة إلى معظم الناس، كانت أكم نبات المريمية الصغير التي تجمع خلال الصيف على التلال البعيدة هي المصدر الوحيد للوقود⁽⁷⁾.

كان عبد الحق واليه محرر صحيفة محلية تدعى كارافان (القافلة)، أول صحافي يعلن عن قصة المجاعة في العام 1972. سافر إلى تشاغتران العاصمة الصغيرة المغبرة لمقاطعة غور، وهناك اكتشف مشهدا مخيفاً: الجثث تملأ الشوارع، والباقون على قيد الحياة لم يكونوا قادرين على حفر القبور بسرعة كافية لمنع الكلاب، وأعداد من الأطفال تخلق عنهم آباؤهم لأنهم لم يعودوا قادرين على إطعامهم، أو يُتموا لأن آباءهم ماتوا من الجوع.

الصحافي التالي الذي قام بزيارة الإقليم كان جيمس ستيربا من جريدة نيويورك تايمز. رفض محررو ستيربا في المكتب الخارجي نشر قصته لأنها لم تحتو على إحصاءات كافية. كم عدد الأشخاص الذين ماتوا؟ حاول أن يشرح أن أفغانستان لم تكن بلدا تجري فيه الإحصاءات، إذ لا أحد يعلم حتى عدد سكانها حيث اختلفت التقديرات بنحو 5 ملايين في أي اتجاه. أخيرا أرسل ستيربا 3 لفات من فيلم قام بتصويره في غور. لم يكن من الممكن إنكار الفظاعة الآن، ونشرت التايمز قصة ستيربا حول الأطفال المتروكين من المجاعة. هنا مقتطف منها: «تهالك جسم الصبي النحيل ببطء على الطريق الترابي المملوء بالحجارة. خفض رأسه نحو الحصى مريحا خده الغائرة على يده. شفتاه الجافتان والمتشققتان لم تغلقا. حاول أن يغطي قدمه، لكن الخرق الوسخة الممزقة التي كان يلبسها لم تكن واسعة بما يكفي. وضع علبة فارغة من التنك هي كل ما كان يملكه بالقرب من معدته. ثم انخرط في البكاء»⁽⁸⁾.

وبينما جاع الآلاف حتى الموت في الجبال، لم يقل، أو يفعل، سوى القليل حول المشكلة في كابول. وكما ذكر أحد التقارير «لم يقتل الناس المصابون بالجفاف بحسب نظر الأفغان والملاحظين الأجانب بسبب الافتقار إلى الطعام في منطقتهم فقط، لكن بسبب الإهمال الحكومي وفساد الموظفين وجشعهم»⁽⁹⁾.

تولى الملك محمد ظاهر شاه السلطة في العام 1933 وهو في سن التاسعة عشرة عندما اغتيل والده. ولكونه صغيرا وضعيفا وغير مهتم بمصائب شعبه، هيمن عليه أعمامه وأبناء عمومته، حيث حكموا واستخدموا الملك الشاب كزينة احتفالية، ومفتاحا للقصر. من هذه الترتيبات برز نمط غير كفء وسلبى من الحكم، لكن مع نضوجه مارس ظاهر شاه سلطة أكبر. في العام 1964 أنشأ مجلسا تشريعا منتخبا، لكنه كان غير فاعل، وسيطر عليه الإقطاعيون وعلماء الدين وزعماء القبائل الذين جعلتهم محافظتهم يعارضون بشدة أي تحديث⁽¹⁰⁾. كانت الأحزاب السياسية غير شرعية. كان الجمود المضحك تقريبا والركود هما السائدان. خلال العام 1970 لم يصدر تشريع واحد. وشهدت السنوات الأخرى إصدار مشروع واحد أو اثنين أصبحت قانونين⁽¹¹⁾. بقيت أفغانستان منعزلة وراكدة اقتصاديا ومتخلفة وفقيرة وغير منظمة سياسيا. انتخبت خمس حكومات، وانهارت كلها في أقل من عقد. تأخر مشروع للتنمية مقدم من ألمانيا الغربية بقيمة 10 ملايين دولار كمساعدة في المجلس التشريعي لمدة ثلاث سنوات من دون أي فعل.

وبينما تحول الجفاف إلى مجاعة، عاش الملك ومجلسه التشريعي الصغير المفعم بالمشاحنات في عالم خيالي. عندما أطلقت جهود الإغاثة أخيرا جعلها الفساد من دون قيمة - مجرد مشروع آخر لسرقة الشعب. في تشاغلان في قلب المجاعة، هاجم المزارعون الغاضبون والجائعون مبنى للحكومة⁽¹²⁾. وفي هذه الأثناء وصل غليان أواخر الستينيات إلى كابول، ونزل طلاب الجامعة إلى الشوارع، وتعاركوا بعضهم مع بعض في الحرم الجامعي - شيوعيون مقابل إسلاميين، وماويون ضد ستالينيين، والجميع ضد سيرو أغنيو^(*) الذي توقف هناك في زيارة له العام 1970⁽¹³⁾. من بين هؤلاء الناشطين برز الرجال الذين سيقودون الحكومة الشيوعية، والمجاهدون في الثمانينيات.

لم تحدث هذه الاحتجاجات الطلابية بسبب الطقس، أو المناخ، أو معاناة الفلاحين، لكنها كانت ذات صلة بكل ذلك. خاصة مع بدء موت المزارعين حيث أصبحت المجاعة في الريف رمزا صارخا لعدم كفاءة الملك وبعده عن الأمة.

بحلول صيف العام 1973 كان البلد في عامه الثالث من الجفاف والمجاعة. كان حصاد القمح مرة أخرى سيئا جدا. أظهر فيلم محلي صنع في ذلك العام مزارعا

(*) نائب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون. [المحررة].

أفغانيا يشرح المتاعب: «كانت السنتان السابقتان قاسيتين. لا يمكن لأي إنسان أن يفسر إرادة الله. لم تهطل أي أمطار، والكثير جائعون. نستيقظ باكرا في هذا المناخ الحار. لدينا الشاي والخبز، ونعمل حتى الرابعة بعد الظهر»⁽¹⁴⁾.

كتبت النيويورك تايمز: «كان هناك سخط كبير في أفغانستان على جهود الحكومة للتعامل مع المجاعة التي أتت نتيجة ثلاث سنوات من الجفاف. يقال إن أكثر من 80 ألف شخص ماتوا من المجاعة»⁽¹⁵⁾. ويصفها تقرير آخر للنيويورك تايمز بهذه الطريقة. «لا أحد يعلم كم عدد سكان أفغانستان - تتراوح التقديرات بين 9 و17 مليونا - ولا يوجد على الإطلاق أي إحصاء لعدد الناس الذين ماتوا من المجاعة»⁽¹⁶⁾. كان الملك في هذه الأثناء في إجازة في منطقة الينابيع المعدنية في جزيرة إسكيا مقابل شاطئ نابولي. كما تبين، فقد دامت إجازته 40 سنة تقريبا.

انقلاب المجاعة

في 17 يوليو العام 1973 حدث أخيرا شيء ما. استولى الجنرال محمد داوود خان ابن عم الملك وصهره على السلطة في انقلاب. تحدثت التقارير عن قتل ثمانية أشخاص في قتال ناري صغير بين الشرطة الموالية للملك، والجنود التابعين لداوود⁽¹⁷⁾. كان داوود الأصلع الرأس أقرب مستشاري ظاهر شاه خلال معظم فترات الخمسينيات والستينيات. وكرئيس للوزراء خلال تلك السنوات فقد حكم البلد نيابة عن الملك. كان داوود محبا للتحديث، وغازل كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لبناء طرقات وسدود ومدارس ومصانع. لكن في العام 1963 نحى ظاهر شاه داوود جانبا.

ما إن عاد داوود إلى السلطة حتى أعلن الأحكام العرفية وألغى الملكية وأنشأ جمهورية رئاسية ونصب نفسه رئيسا لها. خلال أيام من الانقلاب انخفضت أسعار المواد الغذائية. اعتقل أعداؤه وأحيانا قتلوا وغالبا أبعدوا⁽¹⁸⁾. وكوطني بشتوني متحمس ووحيدوي، اعتبر داوود الحدود الباكستانية - الأفغانية واقعا غير شرعي فرضته الدول الاستعمارية. وبرسمها في العام 1893 من قبل الدبلوماسي البريطاني مورتيمر دوراند، فقد اقتطع الخط المدعو باسمه قطعا ضخمة يهيمن عليها البشتون من أفغانستان الملكية (بما في ذلك العاصمة الشتوية بيشاور) وضمها إلى الهند البريطانية. بعد العام 1947 أصبحت تلك الأراضي جزءا من باكستان.

كرئيس للجمهورية بدأ داوود يثير غضب باكستان، ويتكلم عن بشتونستان الكبرى⁽¹⁹⁾. أنشأ معسكرا لتدريب المتمردين البلوش خارج قندهار لإثارة المشاكل عبر الحدود مع باكستان. وشجع الوطنية البشتونية داخل باكستان⁽²⁰⁾. بعد ذلك ستصرف أفغانستان تحت الحكم الشيوعي بالطريقة نفسها. على سبيل المثال، قامت بحماية ودعم كتائب الرعب الحمراء ذي الفقار لمرفى بوتو، التي حاولت الاطاحة بالديكتاتور اليميني الجنرال محمد ضياء الحق الذي حكم باكستان من 1977 إلى 1988⁽²¹⁾.

لا حاجة للقول إن باكستان لا ترى ادعاء أفغانستان على جزء من أراضيها شرعيا، ورحبت بالمتشددین الإسلاميين في أفغانستان حالما جاء داوود إلى السلطة، وقامت بتدريبهم. بدءا من 1973 دعمت باكستان قلب الدين حكمتيار، وحزبه الإسلامي. أصبح هذا الحزب بعد ذلك ضد السوفييت، وقوة للمجاهدين المتمركزين في باكستان، وتحالف مع طالبان منذ العام 2005.

منذ نشوئها حاولت طبقة الضباط الباكستانيين إبقاء أفغانستان ضعيفة، بحيث تقدم «عمقا إستراتيجيا» أو مساحة للتراجع في حالة نشوب حرب كبرى مع الهند. على طرفي الحدود بين باكستان وأفغانستان يعيش البشتون. في أفغانستان كان البشتون دوما العنصر الحاكم، لكنهم كانوا في باكستان أقلية كبيرة وفقيرة ومتمردة تمثل نحو 16 في المائة من السكان. آخر ما تريده باكستان هو أن يتصل البشتون المقيمون ضمن حدودها مع أفغانستان قوية ومجاورة يحكمها البشتون، ومتحالفة مع الهند أو أن يصبحوا أداة لها.

ضمت الحكومة الجمهورية الجديدة لداوود عناصر متعارضة من الشيوعيين في حزب الشعب الديمقراطي في أفغانستان PDPA، وإسلاميين ناشطين سياسيا. هيمن كل فريق من الميول الثورية الحمراء والخضراء هذه على الحرم الجامعي لجامعة كابول. في نمط مميت يذكر بالرئيس قاسم في العراق ورجال التحديث الأقوياء الآخرين، حاول داوود أن تلعب القوى المتعارضة بعضها ضد بعض، مستخدما مزيجا من التعاون السياسي والقمع. كان لحزب الشعب الديمقراطي PDPA مراكز في الحكومة، لكن داوود قمعها أيضا. لكن عملية إحداث التوازن هذه لم تدم طويلا.

ثورة ساور

في أبريل 1978 أطاح فريق من حزب الشعب الديمقراطي بداوود في انقلاب، بادئين بذلك ما دعي بثورة ساور، على اسم شهر أبريل الذي حدثت فيه. كان الحزب الشيوعي الأفغاني غير فاعل ومنقسما ومشعبا بالعتيدة. على الفور بدأ حزب الشعب الديمقراطي PDPA بالهجوم على أتباعه. كما أجرى إصلاحات زراعية بنية طيبة، لكن بتخطيط سيئ، حيث ألغى إقراض المال من التجار، لكنه لم يقدم للمزارعين بنية بديلة. فرضت قوانين جديدة أخرى المساواة في الجنس والتعليم العام وحقوق العمال، لكن الاندفاع صوب الحداثة لم تحتمله الثقافة الريفية المحافظة جدا في أفغانستان. في أبريل 1979 ثارت الفرقة العسكرية في هواة. وبحلول الخريف تفكك الجيش الأفغاني تقريبا.

منذ الخمسينيات كانت أفغانستان رابع أكبر متلق للمساعدات السوفيتية. قاتل السوفييت الثوار المسلمين الذين استعملوا أفغانستان الضعيفة قاعدة لهم حتى منتصف الثلاثينيات⁽²²⁾. بعد الحرب العالمية الثانية رأى الاتحاد السوفيتي أن الاستقرار في آسيا الوسطى يعتمد على الاستقرار في أفغانستان وعلى العلاقات الودية معها... لذا ضخ مقادير ضخمة من المساعدات إلى الجارة جنوب آمو داريا^(*). وبمراقبة انهيار أفغانستان في العام 1979، واجه السوفييت خسارة دولة تتعامل معهم، وإمكانية عودة تمرد إسلامي يمتد إلى جمهورياتهم في آسيا الوسطى. وبغض النظر عما إذا كان السوفييت اجتاحتوا أفغانستان أم دعوا إليها، فقد قاموا بعد ذلك بقتل حفيظ الله أمين الرئيس المتطرف لحزب الشعب الديمقراطي PDPA الذي استدعاهم، ونصبوا مكانه المعتدل ببرك كارمل، ومع ذلك بدأت الحرب.

نظرت الولايات المتحدة إلى التدخل على أنه خطأ سوفيتي كبير، وبالتالي فرصة لها. بدأت الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بسرعة في تقديم 8 مليارات دولار مساعدات للمجاهدين المتمركزين في باكستان والمدعومين منهما، والذين كانوا يقاتلون لإسقاط حكومة حزب الشعب الديمقراطي PDPA⁽²³⁾.

عندما استولى المجاهدون في النهاية على السلطة في العام 1992 بدأوا مباشرة في قتال بعضهم بعضا، مدمرين نصف مدينة كابول في هذه العملية. من الحرب الأهلية

(*) نهر جيحون. [المحررة].

برزت طالبان كقوة لفرض النظام والقانون. عندما أمنت طالبان الطرقات فازت بدعم مافيا النقل الباكستانية، ثم وكالة الاستخبارات الباكستانية. وعندما طرد أسامة بن لادن من السودان وجد ملاذاً عند نظام طالبان. وبحلول 11 سبتمبر العام 2001 تحكمت حركة طالبان في معظم أفغانستان، وبالتالي أعد المشهد للحرب الدائرة حالياً.

جفافستان

يرى باحثون في الحكومة البريطانية ارتباطاً بين الاحترار العالمي والصراع في أفغانستان. يلاحظون كيف أن السجلات منذ العام 1960 تظهر ارتفاع متوسط درجة الحرارة السنوي في أفغانستان بمعدل 0.6°C ، بينما هبط متوسط الهطول بنحو 2 في المائة كل عقد⁽²⁴⁾. الأهم من الأمطار هو القمم الثلجية. خلال معظم العام يحافظ ذوبان الثلوج على تدفق ثابت للماء في الأنهار والجداول والقنوات التي تغذي المزارع على أراضي أفغانستان الجافة والحارة جداً.

تمثل المياه من الذوبان نحو 70 في المائة من حجم مياه نهر كابول في الفصل الجاف. يجري نهر كابول غرباً خلال نانغارهار ويدخل باكستان وينضم إلى نهر السند الذي يجري جنوباً إلى البحر.

في مدينة كابول تبدو مشكلة النهر واضحة للعيان. من خلال سحب من الغبار المثار بالرياح، يرى المرء أن نهر كابول - وهو مصدر ضروري للماء لسكان المدينة البالغ عددهم ثلاثة ملايين - قد تقلص إلى أكثر بقليل من مجرد تنقيط خلال الأوساخ. في أوقات عدة خلال السنوات العشر السابقة كان جافاً تماماً⁽²⁵⁾. أوصل العقد الأخير من الجفاف الزراعة في أفغانستان إلى أكبر المستويات انخفاضاً لها. يعمل نحو 80 في المائة من الأفغان في الأرض، لكن كما ذكر تقرير حكومي بريطاني بعنوان «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان» فإن «معظم المزارعين الأفغان غير مكتملين ذاتياً حالياً في إنتاج الحبوب حتى في السنوات الجيدة». ويذكر تقرير المكتب البريطاني للتنمية الدولية: «يتعرض القطاع الزراعي لدرجات حرارة متزايدة، ولتغيرات في أنماط الهطول، ولذوبان الثلوج عالياً. تؤثر زيادة التبخر من التربة، وانخفاض تدفق الأنهار جراء ذوبان أبكر للثلوج، وقلة الأمطار خلال ذروة الفصول الزراعية كلها، على الإنتاجية الزراعية ووفرة خيار المحاصيل»⁽²⁶⁾.

مخدرات وجفاف وجهاد

كان شتاء العام 2010 مرة أخرى «دافئا وجافا» بشكل غير عادي، مثيرا الخوف من أن الجفاف «يمكن أن يتسبب في ندرة الغذاء، وينسف محاولات منع زراعة الخشخاش، ويفاقم المسائل الأمنية». عبر الجبال في أواسط أفغانستان كان الغطاء الثلجي من 4 إلى 12 بوصة فقط، بالمقارنة بالمعدل العادي الذي يصل إلى 6 أقدام. ناشد الأئمة الناس أن يصلوا من أجل هطول الأمطار⁽²⁷⁾.

لاحظ تقرير من أبريل العام 2010 أن «سقوط أمطار أقل من المتوسط ضرب الإنتاج الزراعي شرق أفغانستان وشمالها الشرقي، حيث جفت بعض الحقول التي تتغذى بالأمطار». شرح حميد الله وهو مزارع من نانغارهار الوضع: «زرعت القمح في أرضي»، لكنه فشل بسبب قلة الأمطار. «قال مزارع آخر في مقاطعة مجاورة: «أنفقت 70 ألف دينار أفغاني (1450 دولارا) على بذور القمح والبصل، لكن مزارعي جفت». في ربيع العام 2010 ضرب الجفاف 12 من مقاطعات نانغارهار الـ 23. توسل المزارعون في طلب المساعدات الغذائية، والمعونات للري. ثم في مايو أفسح الجفاف الطريق لأمطار غزيرة مفاجئة عبر أجزاء من وسط أفغانستان وشرقها. جرفت الفيضانات الخاطفة المحاصيل والماشية والتربة السطحية، وهجرت آلاف الناس وقتلت العديد منهم⁽²⁸⁾.

كان هذا مجرد مقدمة. جلب أغسطس فيضانات فجائية وغير متوقعة أكثر. «بعد ضرب باكستان، عبر هذا النظام المناخي الحدود إلى أفغانستان»، كتب مقدم نشرة الطقس في الجزيرة. «تحرس الجبال العالية إلى الجنوب البلد عادة من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية بالكامل. وهذا هو أكثر الأوقات جفافا عادة، ولا تهطل أي أمطار بين شهري يونيو وأكتوبر... لكن الجبال ساعدت قليلا. هطلت معظم الأمطار فوق باكستان... وشهدت بيشاو أكثر مما تتوقعه في عام بأكمله»⁽²⁹⁾.

زهرة رحيمة

في وجه الجفاف والفيضانات يجلب أحد المحاصيل أمنا نسبيا. إنه خشخاش الأفيون. لماذا؟ الجواب المعتاد هو أن المخدرات تجلب أسعارا أعلى بكثير من المشمش والزبيب أو القمح. لكن اعتبر هذا: يستخدم الخشخاش فقط سدس الماء الذي يحتاجه القمح. يمكن لهذه الحقيقة وحدها أن تفسر تجارة المخدرات في

المناطق المصابة بالجفاف في أفغانستان. إضافة إلى ذلك، على الرغم من أن أسعار الحبوب ارتفعت كثيرا منذ العام 2008، فإن الخشخاش ما زال يجلب دخلا أكبر من القمح⁽³⁰⁾. تنتج أفغانستان نحو 90 في المائة من الأفيون في العالم، ويقدر أن اقتصاد الأفيون يشكل نحو نصف حجم الناتج المحلي الإجمالي في أفغانستان. المقاطعة الأفغانية التي تنتج معظم الخشخاش هي نانغارهار المصابة بالجفاف والفيضانات حيث يعيش المزارع وزير.

على الرغم من كونه مقاوما للجفاف وغالي الثمن، فإن الخشخاش مع ذلك محصول غير قانوني. هوجم من قبل الناتو المحتل، وحكومة حميد قرضاي، لكن طالبان دافعت عنه. لذا فزراعة الخشخاش المدفوع بالجفاف عامل إضافي يدفع المزارعين إلى تأييد المتمردين. وكما شرح أحد الصحفيين: «من المحتمل أن يجعل حصاد سيئ، خاصة إذا ترافق مع افتقار إلى المساعدات الغذائية، النقود التي تقدمها طالبان لمقاتليها أكثر جاذبية، وينسف الدعم للحكومة المركزية التي ينظر إليها الكثيرون على أنها بعيدة وفاسدة»⁽³¹⁾. حاجت اللجنة الدولية حول الأمن والتنمية (سابقا لجنة سينليس) بأن حملات مكافحة الأفيون التي تقودها الولايات المتحدة كانت «السبب الأهم الذي حول الأفغان ضد الأجانب»⁽³²⁾.

يؤدي الجفاف والفيضانات إلى مزيد من الفقر. يغذي الفقر الشعور بالظلم واليأس بين الناس، ويخلق طوابير من الشباب العاطلين والعازبين. ينجرف عمال المزارع المعوزون - غير القادرين على دفع مهر العروس، أو شراء أرض، أو العثور على عمل - إلى صفوف طالبان، ويصبحون هدفا لطائرات درون الأميركية، والوقود البشري للحرب.

وكما شرح أحمد رشيد: «فشلت الولايات المتحدة والناتو في استيعاب أن طالبان لا تنتمي إلى أفغانستان أو باكستان، لكنهم سكان محرومون جاؤوا من مخيمات اللاجئين، والمدارس العسكرية، وعدم توافر الفرص في المناطق الحدودية بين أفغانستان وباكستان. لم يكونوا مواطنين حقيقيين لأي من البلدين، ولم يعيشوا المجتمع البشتوني القبلي التقليدي. وكلما طال أمد الحرب، أصبحت طالبان وبيئتها عبر الحدود أكثر تجذرا واتساعا»⁽³³⁾.

يمكننا أن نضيف أنه كلما استمر تغير المناخ من دون تخفيف لأسبابه، ومن دون تكيف مع تأثيراته، أصبحت بيئة طالبان الألفية(*) عديمة الجذور أكثر سوءاً. في هذا الخصوص فإن اقتصاد الأفيون والدفاع المسلح عنه هما آليتان محليتان للتكيف مع تأثيرات تغير المناخ.

النسخ اللزج

«منذ ثلاث سنوات لم نكن نزرع الكثير من الخشخاش»، قال مضيفي وهو مزارع محلي ومقاتل سابق من المجاهدين. «الآن كل شخص يزرعه، حتى رئيس الشرطة. غدا سأجلب لك بعضاً منه».

كيف عملت تجارة الخشخاش خلال الحرب وكيف تناغمت معها؟ في العام 2004 سافرت إلى وردك، وهي مقاطعة على بعد ساعة من كابول. استردت العصابات وردك، لكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال في أيدي الحكومة. تبدو وردك مثل نيوميكسيكو: وديان خضراء بأشجار حور متفرقة، وتجمعات لبيوت ذات جدران من اللبن، تقبع خلف الطريق. تطل على هذا كله جبال ضخمة جرداء، وسماء زرقاء. ذهبت إلى وردك مع المصور تيرو كوايما ورجل ندعوه مصطفى قدمنا إلى عائلته أو على الأقل إلى أقاربه من الذكور. (من عادات البشتون أن تحتجب النساء بعيداً عن أعين الرجال الغرباء). جلسنا في غرفة جلوس مفروشة بالسجاد في الطابق الثاني. هذه الغرفة التي أكلنا وئمنا فيها تقع بعيداً بشكل آمن عن غرف العائلة. كان مضيفونا رجالاً غلاظاً ملتحمين، قاتل العديد منهم مع المجاهدين بقيادة قلب الدين حكمتيار خلال الثمانينيات والتسعينيات. عاد أحدهم لفوره من إيران حيث عمل في معمل لصنع أقماص البوطة. كان على وشك الزواج من امرأة لم يرها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، وكان يكبرها بسنوات قليلة. كانت العائلة كلها تستعد لليوم الكبير، لذا تحولت رحلتنا خلال عطلة الأسبوع إلى حفلة، مع الكثير من الأكل والشاي والشراب وتدخين السجائر والضحك ولعب القمار بمراهنات عالية طوال الليل.

شرح أحد الرجال أن جفافاً قوياً كان في عامه السادس آنذاك، دمر المحاصيل الأكثر تقليدية لمنطقة وردك كالعنب والتفاح والقمح. كان الخشخاش المقاوم

(*) يقصد بها هنا الاعتقاد بالألفية أو بنهاية العالم بعد ألف أو ألفي عام. [المترجم].

للجفاف هو كل ما تبقى لهم. «كل واحد هنا يزرع الخشخاش» قال مزارع يدعى نظير ويدعوه أقرباؤه مازحين بـ «السيد القاعدة» بسبب لحيته وقبعته على طراز طالبان.

لم يكن ازدهار زراعة الخشخاش مقتصرًا على وردك. فعبر أفغانستان كلها عادت زراعة هذا المحصول بسبب الجفاف إلى حد كبير. يعتقد باحثو الأمم المتحدة أن 1.7 مليون من سكان أفغانستان البالغ عددهم 28.5 مليون يعملون مباشرة في زراعة الخشخاش، ويعمل كثيرون آخرون في التصنيع والنقل وإقراض المال وتبييضه والنشاطات الأخرى المرافقة. ويفرض أمراء الحرب الضرائب على المزارعين والموزعين أيضًا، وبفضل سياسة حامد قرضاي المتساهلة يمتلك العديد منهم الآن مواقع رسمية في الدولة، مما يسهل استغلالهم لاقتصاد المخدرات بشكل أكبر.

لكن طالبان تستفيد أيضًا. فهم أولاً يفرضون الضرائب على تجارة المخدرات، كما يفعلون بالنسبة إلى أشكال التجارة كلها. وهم ثانياً لا يقومون بإتلاف محاصيل الخشخاش. وفي مناطق موالية لهم لا يقلق المزارعون بشأن إتلاف المحصول والإساءة والرشوة اللتين تترافقان معه.

في وردك مع مضي الليل وتناول العشاء ثم الشاي ثم لعب الورق والاطلاع على صور أكثر، أصبح الرجال أكثر راحة، وشرحوا تفاصيل صناعة الأفيون. «الخشخاش رخيص للزراعة. يمكنك الحصول على البذار في أي سوق»، أخبرني ماهيد وهو محارب قديم فقد ساقه عندما داس على لغم أرضي في التسعينيات. للخشخاش فصلان في وردك، إما في مناخ أشد حرا أو أكثر برودة، فليس من الممكن الحصول سوى على فصل واحد. المحصول الأول الذي يزرع في مارس ويحصد في يونيو ويوليو هو الأفضل دوماً. من أنواع الزهور الثلاثة - الأحمر والأبيض والقرمزي - فإن الأبيض هو الأفضل.

«بعد أن تزرع الخشخاش وترويه بالماء يبرعم خلال 15 يوماً»، شرح السيد القاعدة. «ثم عليك أن تزيل الحشائش من المحصول، وتستمر في ذلك حتى يصبح النبات أكبر من الحشائش. خلال 3 أشهر تزهر. تبرز أكياس البذور وتنمو في البرعم ثم تسقط الزهرة وتستمر أكياس البذار في النمو. ثم نخدش أكياس البذار بواسطة غوزا (مجرفة صغيرة مصنوعة منزلياً لها حافة مسننة من ستة أسنان، ليخرج حليب أبيض لزج من الشقوق). يخدش الخشخاش في الصباح، ويجمع النسغ في المساء

مخدرات وجفاف وجهاد

عندما يصبح أكثر لزوجة وبني اللون. تحصل على القليل من كل زهرة، ثم يصبح لديك كرة، وهذه تجفف لتصبح الأفيون»، قال السيد القاعدة مبتسما.

في معظم أنحاء أفغانستان يمكن للمزارع أن يحلب كل جراب للبذور حتى 7 مرات. في النهاية يفرغ الجراب ويترك ليجف قبل أن يحصد للزراعة التالية. تستخدم البذور أيضا لصنع الزيوت الصالحة للأكل، وتغلى أحيانا مع الشاي الذي تستخدمه النساء لتخدير أطفالهن الرضع خلال ساعات العمل الطويلة.

لتوضيح التأثير الاقتصادي للخشخاش بدأ الرجل ذو الرجل الواحدة ماهيد يتحدث عن قياسات الأراضي. الواحدة هنا هي الجريب (الجراب) وتبلغ نحو نصف فدان. يقول الرجال في وردك إن المزارعين يمكنهم عادة الحصول على 28 كيلوغراما من الأفيون من 1 جريب من الأرض. ويمكنهم بيعها مقابل 5 آلاف دولار. في المقابل ربما يكسب المزارع من 1 جريب من القمح 100 دولار، أو ربما لا يجلب أي نقود على الإطلاق حسب الطقس والأسعار.

في بعض المناطق يقدم المهربون قروضا يعاد دفعها بالأفيون. يبدو أن النظام في وردك أكثر حركة: يقترض المزارعون من أصحاب المتاجر، ويسددون نقدا عندما يدفع لهم المهربون. «في السنوات الثلاث الأخيرة خرجت الكثير من المزارع من الديون بسبب الأفيون. لا يمكن مقارنته بأي محصول آخر. وفي أوقات الجفاف نحصل على 10 في المائة فقط من تفاحنا وقمحنا. تستخدم هذه المحاصيل الكثير من الماء بالمقارنة بالخشخاش. والقمح لا قيمة له تقريبا»، قال السيد القاعدة قبل أن يعود إلى عب الورق.

«أصبح الكثير من قادة طالبان والمجاهدين السابقين هنا غاضبين من أمريكا بسبب ما يحدث في فلسطين والعراق، ولأن الاقتصاد هنا سيئ»، لاحظ السيد القاعدة أن «قطع الخشخاش سيجعلهم أشد غضبا».

الخروج من نانغارهار

مع الأسف أصبحت العلاقات الجدلية بين تغير المناخ والحرب وتدهور البيئة تدعم بعضها بعضا. لخص مايكل رينير من معهد وورلد ووتش (معهد مراقبة الأرض) ذلك جيدا: «أزاحت ثلاثة عقود من الصراعات المسلحة جزءا كبيرا من

السكان، وأعاقَت الوصول إلى الأراضي الزراعية بسبب الألغام، ودمرت العديد من أنظمة الري أو جعلت صيانتها مستحيلة. وإذا أضيفت الفيضانات ودورات الجفاف المتكررة وإستراتيجيات السكان اليائسة للتعامل معها، فإن النتيجة الإجمالية ستكون تدهورا شديدا في البيئة الطبيعية لأفغانستان ومواردها المائية وبنائها التحتية الزراعية. أدت إزالة الغابات على نطاق واسع، وأيضا الضغط الشديد على الأراضي الرعوية، إلى حت التربة، ونقص مقاومتها للفيضانات»⁽³⁴⁾.

الخطاب الرسمي حول مكافحة الأفيون طموح بشكل سخي بالمقارنة بالحقائق على الأرض. بين الأركان الخمسة لهذه الإستراتيجية يوجد «الإصلاح القضائي» و«بدائل المعيشة». لا يوجد أي منهما هنا. المنظمة غير الحكومية الوحيدة في هذه المقاطعة تقوم بحفر الآبار، لكن وزير قال إن فريق الحفر الفاسد يطالب بأجرة لما يفترض أنه معونة.

مع بدء انحدار الشمس في السماء توجهنا إلى الخارج. في نصف الطريق نحو جلال آباد خرج خمسة رجال مسلحين من وراء الصخور. صوب أحدهم قبلة مدفوعة صاروخيا أو آر بي جي RPG على شاحنتنا، بينما تقدم آخر إلى الطريق وصوب بندقيته من نوع AK - 47 على الزجاج الأمامي. اقترب رئيس المجموعة وسأل: «هل ما زالت شاحنة الشرطة في القرية؟».

بمصادفة محظوظة مررنا بشاحنة لشرطة الحدود تسير في الاتجاه المعاكس. بسرعة بديهية، أجاب أحد زملائي الأفغان: «نعم، وسيلحقون بنا خلال بضع دقائق». توقف صاحب البندقية ثانية طويلة جدا، ثم سمح لنا بالعبور. افترضنا أن هؤلاء الرجال لصوص محليون، أو ربما من طالبان كانوا يتربصون بنا، لكنهم توقفوا في الدقيقة الأخيرة بسبب مرور شرطة الحدود غير المحسوب. بعد أسابيع تكلم مترجمي واسمه نقيب مع وزير مرة أخرى وأكد أن هؤلاء المسلحين كانوا عصابات محلية بحاجة إلى المال. كانت خطتهم اختطافنا ثم بيعنا لوكلائهم من طالبان. في مواجهة الجفاف والفيضانات والمحاصيل الفاشلة كان من المحتمل أن نكون غنيمة اقتصادية.

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

عانى الناس وعاشوا أوقاتا صعبة بحيث
أصبح من المستحيل الاستمرار على هذا
المنوال... زادت الضرائب على الأراضي،
رُفعت أسعار الكهرباء والتدفئة...
لا يجد الشباب فرص العمل، إنهم
يتسكعون في الطرقات فقط، ونحن
بالكاد نعطيهم تعليما.

شينار ماتكirimوفا، متقاعدة

من قرغيزستان 2010⁽¹⁾

كان الربيع في طريقه إلى قرغيزستان، وكانت
البراعم الخضراء والأزهار الشاحبة تندفع للأمام،
والسمااء الرمادية الجميلة ملبدة بالغيوم. داعب
المطر الخفيف العاصمة بيشكك، تاركا الساحات
العريضة من الحقبة السوفييتية نظيفة ومنعشة.
حمل الهواء الرطب غناء طير من حين إلى آخر،
وعبر شوارع المدينة الفارغة.

«كان النظام القرغيزي ضعيفا
مسبقا قبل أن يدفعه الطقس
العنيف إلى الهاوية»

المؤلف

لكن الهدوء جاء نتيجة أزمة وخوف. سرعان ما امتلأت الساحة العريضة بآلاف المتظاهرين. وكما نقلت «الغارديان»: «قال المحتجون إنهم دفعوا إلى الشوارع بسبب الارتفاعات الحادة في أسعار الخدمات الاجتماعية كالماء والكهرباء. كانت هذه الارتفاعات القشة الأخيرة في بلد عانى مسبقا بطالة ضخمة، وفقرا منتشرا»⁽²⁾. لاحظت الـ «نيويورك تايمز» أيضا أن الجماهير كانت «غاضبة من ارتفاع أسعار الخدمات ومن حكومة اعتبروها قمعية وفاسدة»⁽³⁾. قبل أسبوع من بدء الاحتجاجات في أوائل أبريل 2010، أعلنت الحكومة خطة لرفع أسعار الخدمات بـ 20 في المائة⁽⁴⁾.

لماذا فعلت الحكومة ذلك؟ لأن البلد يعتمد كلية تقريبا على الطاقة الكهرومائية، والدخل من تصدير الكهرباء، وقد أوقف الجفاف الطويل نفسه في وسط آسيا، والذي كان يعاقب أفغانستان وباكستان، محطات الطاقة في قرغيزستان، وبالتالي اقتصادها بأكمله. في هذا الخصوص تبين حالة قرغيزستان بشكل متطرف كيف يمكن لتغير المناخ أن يطلق العنف. يشرح هذا الفصل كيف حدثت تلك الأزمة، ولماذا.

الطاقة

تحول الجمهور الذي كان يحتج على ارتفاع الأسعار بسرعة إلى غوغاء ومجموعات مسلحة، وهاجموا الأبنية الحكومية. دوى صوت إطلاق الرصاص ودوي القنابل في الشوارع. تطايرت علب الغازات المسيلة للدموع عبر الساحة. اندلع اللهب من نوافذ المكاتب الحكومية. بناء واحد أولا تبعه آخر، ثم التهمت النيران بناء آخر. قبض المحتجون على وزير الداخلية، وضربوه بقسوة، واحتلوا مركز الأمن الرئيس والتلفاز الحكومي. بدأت الشرطة بإطلاق الرصاص الحي. أطلق المحتجون النار ردا عليهم. تقدمت الشرطة ثم تقهقرت. هرب الغوغاء بعيدا ثم ركضوا عائدين. حمل الجرحى والموتى بالسيارات: قتل 60 شخصا، وجرح المئات. سرعيا كانت المنطقة التجارية الرئيسية في بيشكك تحترق، وبدأت موجة من النهب العنيف المنفلت.

بحلول أوائل مايو العام 2010 هرب الرئيس قرمان بيك باقايف - «مصلح» ثورة الخزامى^(*) المؤيد لسياسة السوق الحرة والغرب - إلى بلدته الأصلية أوش

(*) ثورة الخزامى أو ثورة التوليب التي بدأت باحتجاجات في مارس 2005 أدت إلى خلع الرئيس عسكر أكاييف وانتخاب قربان بيك باقايف رئيسا لقرغيزستان في يوليو من العام نفسه. [المحررة].

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

في الجنوب. استولت المعارضة على السلطة، ووعدت الرئيسة الجديدة السيدة روزا أوتونباييفا بخفض تعريفه الخدمات، وتقديم عون أكثر للفقراء. لكن لم يعد هناك نظام ولا قانون. نصبت الأحياء الحواجز، وشكلت الميليشيات. وسط النهب بدأ العنف العرقي - القرغيز ضد الأوزبك وبعض المعارضين - تحولت المعاناة الاقتصادية للناس وغضبهم من الطبقة الحاكمة الفاسدة بسرعة إلى حقد عنصري. دفعت اغتيالات التطهير العرقي واغتصاباته آلاف الأوزبكيين المذعورين للهرب نحو الحدود - لكن أوزبكستان كانت مغلقة⁽⁵⁾... استدعت الرئيسة أوتونباييفا الجيش الروسي للتدخل، لكن الكرملين رفض⁽⁶⁾. مع الانحسار التدريجي للهيجان، بدت قرغيزستان على شفا تفكك عرقي دموي.

في 10 يونيو اندلع العنف مرة أخرى، هذه المرة في المدينة الجنوبية أوش. تحول قتال صغير بين الأوزبك والقرغيز في صالة للقمار بسرعة إلى مذبحة. هذه المرة اشتركت عناصر قرغيزية من قوى أمن الدولة في تعقب الأوزبك. تاريخيا، كانت البلدات الجنوبية أماكن لإقامة التجار والمزارعين من الأوزبك، بينما كان معظم القرغيز من البدو وشبه البدو يتنقلون مع قطعانهم. لكن التعاونيات الإجبارية في الثلاثينيات أنهت هذا النمط، حيث استقر القرغيز في الوديان وسط الأوزبك. برز التنافس على الماء والأرض. وكما شرح تقرير لمنظمة «هيومان رايتس ووتش»: «أضحت المشاكل أكثر حدة مع نمو السكان. واتخذت الشكاوى حول توزيع الماء والأرض بعدا عرقيا بازدياد خلال حقبة البيريسترويكا والغلاسنوست^(*) في منتصف إلى أواخر الثمانينيات، مع نمو الهويات العرقية واللغوية والثقافية»⁽⁷⁾. شهد جنوب قرغيزستان اضطرابات عرقية في التسعينيات خلال فترة تفكك الاتحاد السوفييتي. في العام 1990 حاولت الأقلية الأوزبكية الحصول على الحكم الذاتي والانضمام إلى أوزبكستان المجاورة. حصد العنف العرقي الذي جرى بعد ذلك حياة 1000 شخص. وفي العام 2010، مات أكثر من 350، وترك الآلاف من دون مأوى⁽⁸⁾.

... والماء

من الوهلة الأولى، عكست التشنجات المفاجئة من العنف ثورة ضد رئيس فاسد يعمل لمصلحته، وإعادة إشعال فتيل نزاع عرقي قديم، لكن كانت هناك

(*) برنامجا الإصلاحات الاقتصادية والسياسية اللذان أطلقتهما رئيس الاتحاد السوفييتي ميخائيل غورباتشوف. [المحررة].

قضية بيئية في قلب هذه المشاكل. كانت في الحقيقة التجمع الكارثي الذي تجلّى على شكل اضطرابات عرقية. في قرغيزستان التفت معالجة الاقتصاد بالصدمة الليبرالية الجديدة التي فرضت بعد تفكك الاتحاد السوفييتي مع الانتكاسات العسكرية السياسية لحروب الوكالة في الحرب الباردة، ومع الأزمة الناشئة الناجمة عن التغير المناخي.

كما ذكر سابقا، كانت الشكوى الرئيسة للمحتجين في بيشكك سعر الكهرباء وندرته، وكان هذا بسبب الجفاف الطويل في آسيا الوسطى. أوقف الطقس الجاف مع الإدارة السيئة محطات الطاقة الكهرومائية في قرغيزستان. من ربيع العام 2008 وبعد ذلك، عانت قرغيزستان انقطاع التيار الكهربائي المستمر⁽⁹⁾. في بعض المناطق كان الانقطاع لفترة 10 ساعات في اليوم هو المعدل العادي. ثم في العام 2009 حركت قرغيزستان الأمور نحو الأسوأ قليلا، بانسحابها من شبكة الطاقة في المنطقة التي بُنيت من قبل الاتحاد السوفييتي⁽¹⁰⁾.

يأتي 90 في المائة من الكهرباء المنتجة في قرغيزستان من محطات توليد الطاقة الكهرومائية، وأكبر مصدر لها هو السد الكهرومائي في قاعدة سد توكتوغول على نهر نارين. في الواقع فإن محطة طاقة توكتوغول هي الأكبر في وسط آسيا. وكمثال على التحديث السوفييتي بُنيت المحطة بين العامين 1975 و1982 في عز أيام بريجنيف التي تميزت بأسعار النفط المرتفعة والتي مثلت قمة الازدهار السوفييتي. لكن الجفاف مع ذلك أدى إلى مستويات أخفض من الماء في سد توكتوغول وبالتالي إلى انخفاض في إنتاج الطاقة.

لم يكن الجفاف النوع الوحيد من أشكال الطقس العنيف الذي غذى الأزمة. فقد ساء شتاء بارد جدا مع إدارة سيئة وجشع في إنقاص مستوى الماء بشكل أكبر. شهد شتاء 2008 فترة باردة طويلة وعميقة انخفضت فيها درجة الحرارة إلى -31 مئوية أو -25 فهرنهايت، وهي أبرد بمثلين من الحالة الطبيعية. بسبب الجفاف كانت هناك أيضا انقطاعات في التيار الكهربائي خلال الفترة الباردة. وبالتالي لم تكن هناك تدفئة أو ماء ساخن في الكثير من الأماكن! عبر البلد، تجمدت الأنابيب، ومات المتقاعدون، وتوقفت الصناعة، وهلكت الماشية، وأغلقت المدارس لمدة شهرين، أغلق البلد فعلا.

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

أجبر البرد القارس الحكومة على إطلاق كمية أكبر من المخطط لها من الماء، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتوليد الكهرباء، وللتغلب على انقطاعات التيار الكهربائي المخربة. ومع ارتفاع أسعار الطاقة في أسواق المنطقة، أطلق المسؤولون الفاسدون كميات أكبر من المياه لتوليد طاقة أكبر وتهريبها إلى طاجيكستان وأوزبكستان وكازاخستان.

كان شتاء العام 2007 الأكثر جفافاً منذ بدء بناء سد توكتوغول. وفي العام 2008 تلقى الخزان 70 في المائة فقط من التدفق المتوسط، وانخفض حجمه إلى نصف مستواه في العام 2005⁽¹¹⁾. وكما عبر محلل سياسي محلي عن ذلك: «مستوى الماء أقل من الحد الحرج. لذا فمسألة الحصول على النور والتدفئة هذا الشتاء، وفيما إذا كانت الأعمال الصغيرة والكبيرة ستنمو، تعتمد كلها مباشرة على ارتفاع الماء في الخزان إلى المستوى المطلوب»⁽¹²⁾، لم يتم ذلك.

كضائقة بعد ذاتها كان لانقطاع التيار الكهربائي تأثير صاعق مخرب على الاقتصاد بأكمله خالفا البطالة والندرة. مع إغلاق الصناعة ارتفعت البطالة، وانخفض الطلب، خالفا قدراً أكبر من البطالة. تعتمد معظم الأنشطة الصناعية إن لم يكن كلها على الكهرباء التي من دونها يبدأ الاقتصاد بالانهيار. أوضح خباز في بيشكك هذه العملية: «لقد أفلست عملياً بسبب انقطاع التيار المتكرر. في أوقات كثيرة صنعت خلطة العجين لخبز الكعك، لكن عدم وجود الكهرباء أدى إلى إتلافها. سحبت قرضاً في العام الماضي وكانت الأمور في طور التحسن. لكنني عانيت كثيراً انقطاع التيار الكهربائي. كان عليّ أن أدفع فائدة، وفي كل شهر لم أكن أعلم من أين سأدبر المال». وقال مصنع ثياب يفتقر إلى الكهرباء إنه يعمل بـ 30 في المائة فقط من قدرة السنة السابقة «شركاؤنا في العمل غاضبون منا لأننا متأخرون في اتفاقيات التسليم. لا نعرف كيف نستطيع رد قروضنا»⁽¹³⁾.

أدى الإنتاج المنهار إلى نقص في العائدات الضريبية، مما فاقم من الأزمة المالية في الدولة. الدكتور نور عوماروف أستاذ العلاقات الدولية في جامعة قرغيز الروسية السلافية حلل الوضع بدقة عندما أخبر صحافياً: «هناك انفجار اجتماعي منتظر. كله يعتمد على من ينظم الجماهير المحتجة»⁽¹⁴⁾.

القشة الأخيرة

في فبراير 2010، حتى مع بيع كبار الموظفين الحكوميين للطاقة، ضاعف الرئيس بقايف تكلفة الكهرباء والتدفئة والماء، وخطط لرفع الأسعار مرة أخرى بحلول منتصف العام. احتج الناس فوراً في مدن الأقاليم مثل نارين بلوحدات كتب عليها «لا يمكننا دفع الأسعار الجديدة للكهرباء» و«أيتها الحكومة اصغ لنا»⁽¹⁵⁾.

كان عمدة بيشكك ناريمان تولييف قد حذر الحكومة المركزية سابقاً من أن الارتفاعات في الأسعار سيكون لها تأثير مخرب في ميزانية المدينة، وفي الاقتصاد الأكبر. سيتأثر «المتقاعدون الوحيدون والمسنون والأشخاص المقعدون والعديد من عمال المؤسسات العامة برواتب ضئيلة» بشكل أقسى، كما حذر العمدة. وأضاف أنه يخشى «موجة السخط» التي قد يجلبها ذلك وأراد «منع الاحتجاجات الاجتماعية» بزيادة الرواتب والدعم للغاضبين⁽¹⁶⁾. لكن الرئيس المؤيد لسياسة السوق الحر لم يستمع له.

أزمة ما بعد السوفييت

الجفاف الذي سبب نقص الكهرباء، والذي شل بدوره الاقتصاد، وأعطى التبرير لبقايف لرفع أسعار الخدمات بشكل هائل، كان جزءاً من المشكلة فقط. كان النظام القرغيزي ضعيفاً مسبقاً قبل أن يدفعه الطقس العنيف إلى الهاوية.

خلال الحقبة السوفييتية نظم اقتصاد قرغيزستان بالتكامل المدعّم مع الاتحاد السوفييتي الأكبر في نمط دعاه أحد العلماء «استعمار الرخاء». خلال الحرب الباردة الأخيرة أصبحت قرغيزستان منتجا رئيساً للبضائع والأسلحة العسكرية للجيش الأحمر. لكنها فقدت تلك الأسواق في الفوضى التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي. بالنسبة إلى أحمد رشيد فإن «الحقيقة البارزة حول آسيا الوسطى اليوم هي أن الدولة المستقلة لم تكن مرغوبة أو مطلوبة من قبل النخب الشيوعية الحاكمة. لقد أُلقيت عليهم عندما تفكك الاتحاد السوفييتي العام 1991. بالتالي اضطر الحكام في المنطقة فجأة إلى صنع هويات جديدة لدولهم الخمس المتنوعة كثيراً عرقياً. كازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان - وأن تتنافس لأول مرة مع عقائد مختلفة متطرفة»⁽¹⁷⁾. ويمكن للمرء أن يضيف، ومع اقتصادات جديدة.

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

بعد العام 1991 أصبحت قرغيزستان أحد أصغر اقتصادات آسيا الوسطى وأكثرها تحررا. وبسبب خسارتها المفاجئة للأسواق والدعم السوفيتيين اتجهت قرغيزستان إلى البنك الدولي وإلى صندوق النقد الدولي طلبا للمساعدة. طالبت هاتان المؤسسات بدورهما بمجموعة من الإصلاحات الليبرالية الجديدة. التزمت النخب السياسية القرغيزية - المتحمسة للعلاج الأكاديمي للعقيدة الكلاسيكية الاقتصادية الجديدة - بحماس أكبر. خصصت قرغيزستان الزراعة والصناعة والخدمات وانتقلت إلى عملة قابلة للتحويل بحرية، وأزالت معظم الحواجز على التجارة، وبنهاية التسعينيات خصص ثلاثة أرباع الاقتصاد⁽¹⁸⁾.

كان من المفترض أن يحفز هذا نمو الاقتصاد، لكنه فقط عمق إزالة الصناعة، وأغرق الأسواق بمنتجات أجنبية رخيصة دخلت من دون ضريبة جمركية. ولعدم قدرتها على المنافسة مع الواردات، جردت العديد من الشركات المخصصة ببساطة من اعتماداتها. ارتفعت البطالة جدا، وعاد العمال من المدن إلى المزارع، أو هاجروا إلى خارج البلد. يعمل الآن بين 500 ألف إلى 800 ألف قرغيزي في الخارج، وتشكل تحويلاتهم جزءا رئيسا من الاقتصاد. انخفض الناتج المحلي الإجمالي لقرغيزستان بنحو 45 في المائة بين عامي 1991 و1996 مع انهيار الإنتاج الصناعي، وتبخر الأسواق السوفيتية لمنتجات الألبان، ووصل الغلاء إلى 1200 في المائة العام 1993⁽¹⁹⁾. لم يعد الدخل بالنسبة إلى الفرد إلى مستواه العام 1989، وأصبح عدم المساواة في الدخل بين الأسوأ في المنطقة. أجبر انهيار الخدمات العامة مثل الرعاية الصحية والتعليم الناس على تدبر ذلك بأنفسهم. يعيش أكثر من 20 في المائة من السكان على أقل من 2 دولار في اليوم. وأصبح أكثر من 40 في المائة من القرغيز فقراء بمعنى أنهم يكافحون لتلبية متطلبات الحياة الأساسية. ذهبت ثلاثة أرباع دخل الحكومة من بيع الممتلكات الحكومية على دفع الديون الدولية. أوقفت عملية الخصخصة بشكل كبير، وحتى أنها عكست بعض الشيء بعد أواخر التسعينيات. في العام 2010 كان الناتج المحلي الإجمالي نحو 11.66 مليار دولار و«أخبار جيدة» كان الدين الخارجي بحدود 3.4 مليار دولار فقط⁽²⁰⁾. تحتوي جبال قرغيزستان على توضعات للذهب، ومعادن ترابية نادرة، وخامات أخرى، وتعني حدودها مع الصين أن من الممكن أن تسحب إلى دوامة التنمية التي تمثلها الصين.

مع ذلك يقبع السكان في قرغيزستان الآن في الفاقة والفساد⁽²¹⁾. البطالة الرسمية هي بحدود 20 في المائة، وبفرصة ضئيلة لمستقبل أفضل تتحول عناصر من السكان - شبابها الغاضب الممتكئ - إلى الجريمة وتجارة المخدرات وإلى القومية المتطرفة ضد الغرباء، وإلى أشكال متطرفة من الإسلام السياسي.

الجهاد في آسيا الوسطى

تتميز الدول الجديدة في آسيا الوسطى بالحكم الفاسد والاستبداد والخلل والضعف. خلال العقدین الأخيرین عبرت فعاليات مسلحة لا دول لها، أمراء حرب عرقيون ومهربو مخدرات ومرتزقة وميليشيات قبلية وعصابات سرقة وشبكات مرتبطة بالإرهاب العالمي كالقاعدة والحركة الإسلامية الأوزبكية (IMU) المنطقة، وخاضت حروبا فيها، وعندما ضغط عليها تحركت جنوبا إلى المناطق الخارجة عن القانون في أفغانستان وباكستان⁽²²⁾.

كانت دول آسيا الوسطى مكونات مندمجة بالاتحاد السوفيتي، ومتعاونة سياسيا واقتصاديا معه، بيد أنها الآن تجد نفسها تتنازع حول موارد وخطوط مواصلات واتصالات مشتركة سابقا. أما أعراق السكان التي تشكل الأساس الرسمي لهذه الدول، فهي أيضا موزعة عبر الحدود الوطنية. على سبيل المثال تعيش الأقليات الأوزبكية في كازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان.

لا مكان يجسد هذه الضغوط أكثر من وادي فرغانة الكثيف بالسكان. هنا تنحني الحدود بين أوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان بطريقة ملتفة من التجزئة السياسية. لكن البنى التحتية الاقتصادية للمنطقة تتبع المنطق الطبيعي لأراضي المنطقة. تصل تصفية نهر سير داريا^(*) بين الدول الثلاث وسكانها. يقدم النهر منطقا راتزليا للتكامل الاقتصادي^(**). يقدم النهر والوادي إمكانية إنشاء طاقة كهرومائية وزراعة وربط مواصلات مشتركة. لكن الفوضى التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفيتي والوطنية العرقية للرؤساء السياسيين، والمعاناة الاقتصادية التي

(*) نهر سيحون.

(**) نسبة إلى الجغرافي الألماني فريدريك راتزل Friedrich Ratzel الذي نظر إلى تأثير العنمية الجغرافية في العلاقات بين الدول. [المترجم].

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

نجمت عن المعالجة بالصدمة الليبرالية الجديدة خربت الفرغانة. اليوم تحتضن فرغانة تراكيب عنيفة من الإسلام السياسي والمطامح العرقية.

يمكننا رؤية مستقبل عدم الأمان في وادي فرغانة من ماضيه. منذ العام 1917 شن المشايخ والإقطاعيون وزعماء العشائر المحليون في الوادي وعبر آسيا الوسطى مقاومة ضد البلاشفة. وصف هؤلاء الزعماء التقليديون من نموذج المجاهدين - أطلق عليهم السوفييت اسم باسماشي، وتعني «قطاع الطرق» - أنفسهم بأنهم يثورون من أجل الإسلام والقومية التركية وضد الشيوعية. قاد إحدى هذه الزمر من المتمردين المسلمين أنور باشا، عضو حركة تركيا الفتاة سابقا، ووزير الحرب العثماني، التركي القومي المثالي، والمتعسف ضد الأرمن الذين تركوا تركيا ليقاتلوا في مناطق أبعد إلى الشرق. استخدمت قوات مختلفة من الباسماشي شمال أفغانستان كملجأ لها، وقاد إبراهيم بيك هذه القوات التي لم تهزم نهائيا حتى أوائل الثلاثينيات، وفقط بالتعاون بين الجيش الأفغاني الملكي، والجيش الأحمر^{(23) (*)}.

عندما اندلعت الحرب مرة ثانية في أفغانستان خلال الثمانينيات، هيج الإسلام المتطرف أيضا في آسيا الوسطى السوفييتية. مر نحو خمسة وثلاثين ألفا من المقاتلين الإسلاميين من أنحاء العالم كلها عبر الحرب الأفغانية للقتال مع المجاهدين. درس آلاف آخرون في المدارس الدينية المتطرفة في باكستان⁽²⁴⁾. من خلال هذه الحلقة من الجهاد تدفق المتطوعون، وتمركزوا في منطقة الحرب على الحدود، حيث استوعبوا المهارات القتالية والأفكار المتطرفة. كان بينهم أوزبك وطاجيك وقرغيز من الجمهوريات السوفييتية.

في العام 1987 عبر بعض المجاهدين من أفغانستان - عناصر من الحزب الإسلامي المتعصب لقلب الدين حكمتيار - الحدود إلى طاجيكستان السوفييتية وهاجموا حرس الحدود، وقذفوا مدينة بانغ بالصواريخ⁽²⁵⁾. في ذلك الوقت كتبت الصحافة الأمريكية: «أعلن المتمردون في 24 مارس أنهم أطلقوا من نحو أسبوعين سابقين الصواريخ عبر نهر آمو داريا (جيحون) نحو الأراضي السوفييتية قاتلين 12 شخصا». في 8 أبريل قتل حارسا حدود سوفييتيان خلال هجوم ثان⁽²⁶⁾.

(*) هذه نظرة المؤلف إلى هذه القضية والتي تتطابق مع النظرة السوفييتية. [المترجم].

بعد خمس سنوات انفجرت المنطقة. كانت الحرب الطاجيكية أشد وأساء حرب أهلية في ذلك العقد. قتل نحو 60 ألف شخص، ووصفت منظمة «هيومن رايتس ووتش» حدوث حملات تطهير عرقي على مستوى واسع. في نهاية الحرب انضمت عناصر من حزب مقاومة إسلامي إلى المتطرفين من الحركة الإسلامية (IMU)، واقتحموا الجزء القرغيزي من وادي فرغانة، الذي تتحكم بأجزاء منه أوزبكستان وطاجيكستان أيضا. وفي عامي 1999 و2000 دفعت عمليات عسكرية قرغيزية - أوزبكية مشتركة الـ IMU إلى أفغانستان ثم إلى باكستان⁽²⁷⁾.

بحلول صيف العام 2010، مع قرغيزستان محطمة بفعل الاضطرابات المحرصة بالتغير المناخي، أشيع أن الحركة الإسلامية الأوزبكية (IMU) رجعت إلى وادي فرغانة. فقدت الحكومة القرغيزية لسيطرة على الكثير من المنطقة الجنوبية في البلاد. وكما حذر رئيس مجموعة الأزمات الدولية في صحيفة «الإنديبندنت»: «يجب ألا يقلل أحد من إمكانية انتشار عنف عرقي على نطاق واسع خلال وادي فرغانة»، كانت المنطقة معبأة لحدوث الأزمة

انتشر الجفاف في قرغيزستان أعيرا العام 2010. منح نمط الطقس نفسه الذي رجع باكستان مهلة لقرغيزستان المعتمدة على الطاقة الكهرومائية. بحلول أغسطس من العام 2010 أعادت أمطار غزيرة مستويات الماء إلى وضعها في سد توكتوغول⁽²⁸⁾. لكن القصة القرغيزية لم تنته بعد. تقى الدولة مقسمة ومسلحة ويائسة. وتزداد أمطار الطقس التي يعتمد عليها اقتصاد الطاقة الكهرومائية اضطرابا، ومن المحتمل أن يشتد اضطرابها مع التغير المناخي.

الهند وباكستان: جليديات وأنهار وعمل غير منتهٍ

إما أن يتدفق الماء وإما الدم!
علامة احتجاج في باكستان

من المعروف أن باكستان والهند منخرطتان في صراع. وسبب مهم لهذه العداوة هو حاجة كل طرف إلى الماء. وطريقة مهمة في الصراع هي استخدام باكستان للمجموعات الإسلامية المسلحة والإرهابيين بوصفهم وكلاء لها ضد الهند. إحدى ساحات الصراع المهمة هي أفغانستان.

مع زيادة الضغط المائي الناجم عن تغير المناخ في جنوب آسيا ووسطها، يزداد النزاع الهندي - الباكستاني الذي يتجلى على عدة جبهات حدة. لا يمكن اختزال النزاع بين الهند والباكستان في موضوع الماء وحده، ولا يمكن أن يقال إنه نشأ بسبب تغير المناخ. لكن الماء والمناخ مع ذلك محرضان رئيسان للنزاع. ومع جلب تغير المناخ

«تحت هذه الظروف يمكنك أن تتخيل جيداً أن الناس بدلاً من أن يموتوا بهذه الطريقة، سيموتون وهم يحاربون»

حسين سهروردي
رئيس وزراء باكستان الأسبق

طقسا أكثر عنفا، واضطرابا في الرياح الموسمية، والفيضانات والجفاف والذوبان السريع للجليديات، فإنه يؤدي دورا متزايد الأهمية في شكل النزاع بين الهند وباكستان.

برج ماء قراقرم

يتمحور الصراع بين الهند وباكستان على كشمير، جزئيا لأن 90 في المائة من الزراعة المروية في باكستان تعتمد على أنهار تنشأ في المنطقة التي يحتل معظمها الجيش الهندي⁽¹⁾. بدأ النزاع في العام 1947 أثناء التقسيم. تحت الحكم البريطاني كانت هناك أغلبية مسلمة في إمارة دولة جامو وكشمير، لكنها كانت تحكم من قبل مهراجا هندوسي، وحاشيته المكونة من هندوس من خارج الإمارة.

كان منطق التقسيم هو أن يشكل المسلمون والهندوس في الهند كيانين منفصلين. اقترح التحالف الإسلامي ذلك، ووافق المؤتمر الوطني الهندي بتردد على فكرة الفصل الجغرافي بحسب الخطوط الدينية. تحولت تلك العملية بسرعة إلى كارثة مروعة مع اقتتال الهندوس والمسلمين. قتل مليون من الناس، وهجر 15 مليونا. كانت هذه النزاعات بين المجتمعات دينية بالاسم، لكنها شملت أيضا صراعات طبقية مشوهة ومزاحة. وكما عبر باحث من تلك الفترة عنها «الطائفية هي أكثر من ظاهرة دينية. تظهر ملامحها الاجتماعية والاقتصادية عندما يضطهد الفلاحون الذين يتصادف أن يكونوا مسلمين من قبل مقرضي الأموال الهنود، أو عندما يثور النساجون المسلمون ضد أصحاب المصانع من الهنود»⁽²⁾.

عنصر محوري في التقسيم كان مصير 560 إمارة صغيرة شبه مستقلة في الهند البريطانية. نصحت كلها بالانضمام إلى الهند أو باكستان. وبما أن منطق التقسيم يقضي بأن تذهب المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى باكستان، بدا أن كشمير ستنتهي إليها: كان أكثر من 70 في المائة من السكان مسلمين، وكانت معظم علاقاتها التجارية، وخطوط اتصالاتها مرتبطة بتلك المنطقة... في إحدى نسخ المصطلح الأصلي الذي أصبح باكستان يرمز حرف الـ «ك» إلى كشمير⁽³⁾. إضافة إلى ذلك ومن المهم جدا، «فإن أنهارها الثلاثة التي تغذى من الجبال وهي السند وجيلوم (الذي يتدفق عبر وادي كشمير الشهير) والتشيناب، تندمج كلها في نهر واحد يمر عبر الأراضي المنخفضة في باكستان ليصب في كراتشي على بحر العرب»⁽⁴⁾.

لكن الزعماء الهنود رأوا في كشمير منطقة حدودية غنية بالموارد، ومكسبا جيواستراتيجيا قيما جدا للتخلي عنه - تذكر أن كشمير، إضافة إلى الجليديات الضخمة، لها غابات وخامات وحدود مع أفغانستان والاتحاد السوفييتي والصين. وكما شرح أليس ثورنر، وهو مؤرخ كبير عن الهند في ذلك الوقت، نظر إلى كشمير على أنها بوابة لتأثير هندي أكبر في آسيا الوسطى، وكقاعدة للدفاع عن الهند في الوقت نفسه. الهند وحدها كما حوجج لديها القوة الاقتصادية الكافية لتطوير إمكانية الطاقة المائية غير المستفاد منها حتى الآن في كشمير، ومواردها من الخامات⁽⁵⁾.

تردد الماهاراجا الهندي وحاشيته في التخلي عن سيادتهم لأي من الدولتين، وتبع ذلك حدوث مشكلة من ثلاث نواح. ثم في 22 أكتوبر من عام 1947 تحركت باكستان. في الظلام قبل الفجر اجتاحت فرقة مسلحة من نحو 2000 من قبائل البشتون - الجيل الأول من العصابات الباكستانية المرتزقة المجهزة من المناطق الحدودية الشمالية الغربية مع أفغانستان، يقودها نقيب قي الجيش الباكستاني - كشمير. تقدموا 60 ميلا وراء الحدود قبل أن يواجهوا مقاومة من قوة صغيرة من قوات كشمير الحكومية. استدعت حكومة الماهاراجا معونة عسكرية هندية. ومع إرسال القوات الهندية بالطائرات فوق الجبال، وافق زعيم كشمير الهندوسي أخيرا على السيطرة الهندية. وعندما هبطت القوات الهندية في سينغار وجدت البلدة غير محتلة، لكنها قاتلت حالا رجال القبائل المتقدمين. تداعى تقدم البشتون مع انفصال مجموعات مرتدة عن الفرقة الرئيسية من أجل النهب. سرعان ما استولت الهند على نصف كشمير.

سجلت باكستان في الحال موقفها برفض الاعتراف بضم كشمير إلى الهند، واتفقت الدولتان علنا على إجراء استفتاء حول القضية. لكن جواهر لال نهرو عارض الفكرة سرا⁽⁶⁾. أرادت الهند كشمير، وكانت بحاجة إليها، وشعرت بأنها تستحقها - من المحتمل أن الاستفتاء كان سيعني التخلي عنها لباكستان. بعد أسبوعين شنت الهند هجوما احتلت بموجبه ثلثي الأراضي التي تتحكم فيها باكستان⁽⁷⁾. خلال منتصف الصيف التالي كان لباكستان وحدات من الجيش النظامي تقاثل هناك⁽⁸⁾.

بالتالي، انحاز زعماء كشمير إلى الهند، بينما بدأت غالبية سكانها من المسلمين في الهيجان تحت الاحتلال الهندي. ولم يجر أي استفتاء. خرجت كشمير من التقسيم مجزأة ومحتلة. وخلف الصراع الإسلامي - الهندوسي قبعقت قضية المياه.

سياسات الدول المتشاطئة

منذ العام 1957 أشار الزعماء السياسيون إلى دور المياه المحوري. خذ تعليقات حسين سهروردي رئيس وزراء باكستان في ذلك الوقت:

هناك - كما تعلم - ستة أنهار ينبع معظمها من كشمير. أحد الأسباب التي يجعل كشمير مهمة جدا لنا هذه المياه التي تروي أراضيها. إنها لا تروي الأراضي الهندية. ما فعلته الهند الآن - إنها لا تهدد فقط - بل قامت بالفعل ببناء سد اليوم، وهي تهدد بقطع مياه الأنهار الثلاثة من أجل ري بعض أراضيها. لو أنها فعلت ذلك من دون تعويض عنها، فمن الواضح أننا سنجوع، وسيموت الناس من العطش. تحت هذه الظروف - آمل ألا تنشأ هذه الحالات الطارئة - يمكنك أن تتخيل جيدا أن الناس بدلا من أن يموتوا بهذه الطريقة، سيموتون وهم يحاربون⁽⁹⁾.

وهذا ما فعلوه. دخلت الهند وباكستان في حرب العام 1965 حول كشمير. مرة أخرى اصطدم الجيشان في تلك المنطقة في العام 1999⁽¹⁰⁾. خاضت الهند وباكستان أربع حروب خرجت باكستان عادة منها بشكل سيئ. اثنتان منها كانتا حول كشمير الغنية بالمياه. في العام 1971 فقدت الباكستان نصف أراضيها بتدخل الهند. عندما عولج إعصار مخرب في باكستان الشرقية باستجابة حكومية غير ملائمة، أطلقت حركة انفصالية هناك حربا من أجل الاستقلال. تدخلت القوات الهندية لمساعدتهم. ألقى المتمردون القبض على 90 ألف جندي باكستاني، وساعدوا في ولادة دولة بنغلادش الجديدة.

انظر إلى الصراع من وجهة النظر الباكستانية. باكستان دولة طويلة ونحيفة محصورة بين دولتين معاديتين هما الهند وأفغانستان. وهي بلد جاف بعدد كبير ومتنام من السكان يعمل معظمهم في الزراعة. وبهذا الشكل فإن باكستان إحدى أفقر الدول إلى المياه في العالم، وهذه الحقيقة تساعد في تحريك الصراع مع الهند على التحكم في جامو وكشمير. ينبع نهر السند مع روافده من التبت، ويمر خلال الهند إلى باكستان، ثم ينحدر من الجبال الباردة نحو السهول الخصبة الحارة للبنجاب ليروي سلة خبز البلد.

نهر السند هو العمود الفقري الاقتصادي لباكستان. ومن دون هذا النهر لن يدوم مخزون المياه الجوفية في باكستان ومياه السدود إلا لشهر واحد فقط، لا نهر لا بلد. وفي أعلى النهر يوجد العدو، الهند: بلد ضخم ديناميكي اقتصاديا وديموقراطي سياسيا

ومحترم دوليا ومسلح نوويا. إلى الغرب، على نهر كابول الذي يصب في السند حليف الهند غير المستقر، وغير الثابت، أفغانستان. تحولت أفغانستان من ملكية إلى جمهورية ومن دولة شيوعية بحزب واحد إلى ديمقراطية متعددة الأحزاب، لكنها لم تترك - سوى خلال حكم طالبان - جانب الهند. ببساطة تفوقت الهند على باكستان.

مفارقة الندرة

ضمن هذه القصة من التنافس يخدم الماء كعامل لنسف الاستقرار، وللعجب للتعاون أيضا⁽¹¹⁾. إحدى اتفاقيات المياه والوحيدة عبر الحدود في آسيا الوسطى هي أيضا أقلها احتمالا: ارتبطت الباكستان والهند في العام 1960 باتفاقية حول مياه السند جرى التفاوض عليها تحت إشراف البنك الدولي.

بحسب الاتفاقية تتلقى باكستان حقوقا حصرية على مياه السند، وعلى رافديه الرئيسين في الغرب جيكوم وتشيناب. أعطيت الهند الروافد الشرقية رافي وبياس وسوتلج⁽¹²⁾. يمكن للهند أن تبني السدود على هذه الروافد لتوليد الكهرباء وتربية الأسماك وتطويرها للملاحة... إلخ، لكن عليها أن تطلق معظم المياه إلى باكستان. إجمالا يجب أن تتلقى باكستان 80 في المائة من المياه التي يمكن أن تصل بصورة أخرى إلى نهر السند. في الخمسينيات عندما أخذت الاتفاقية شكلها، كان للهند النفوذ الأكبر، لكنها احتاجت إلى تمويل البنك الدولي لتطوير اقتصادها. لذا وافقت على شروط منحازة إلى باكستان⁽¹³⁾.

من العجيب أن الاتفاقية نجحت حتى الآن. لماذا؟ حاجج أحد الأكاديميين بأن باكستان والهند تتعاونان لأن ذلك «منطقي مائيا»، بمعنى أن «هناك ضرورة للتعاون لحماية وصول الدولتين إلى مياه مشتركة على المدى البعيد»⁽¹⁴⁾. لكن ذلك التفسير يترك السؤال التالي من دون جواب: لماذا الاجتياح غير منطقي مائيا؟

القضية المركزية في المعاهدة هي تفوق الهند. وكدولة مشاطئة لأعلى النهر، وبقوة عسكرية أكبر، كان من الممكن للهند أن تأخذ حصة أكبر من الماء. في الحقيقة تستطيع الهند أن تدمر باكستان بتحويل سلة الخبز في البنجاب إلى صحراء. لكن أواخر الخمسينيات، عندما جرى التفاوض على الاتفاقية، احتاج البلدان إلى تمويل البنك الدولي، وكان الاتفاق على المياه وحده كفيلا بتأمين ذلك. أكثر من ذلك، على

الرغم من أن باكستان كانت في موقف ضعيف، فقد واجهت الهند أيضا تحديات مهمة. كانت باكستان متحالفة عن قرب مع الولايات المتحدة، وكانت جزءا من منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا المدعومة أمريكيا. كانت باكستان تقترب من الصين، منافس الهند. بعد عامين من التوقيع على الاتفاقية، خاضت الصين والهند حربا قصيرة الأمد من أجل التحكم في قمم جليدية أخرى.

قصرت نواح أخرى عديدة من المعادلة الدولية يد الهند. كان شن الهند حربا شاملة من أجل جامو وكشمير، ثم بناء سدود لتحويل مياه نهر السند، سيعد عملا عدوانيا لا تسامح فيه.

بدلا من ذلك تقبض الهند على كشمير ذات الغالبية المسلمة كدولة محتلة. تهيمن مقاومة شعبية تشبه الانتفاضة الآن على المقاطعة. خلال الأزمة في صيف العام 2010 كانت القوات الهندية تقتل متظاهرا أو اثنين كل عدة أيام⁽¹⁵⁾. يتهم الموظفون الهنود في كشمير بـ «إهمال مشاكل كشمير الاقتصادية الضخمة، وتفشي الفساد، وتزييف الانتخابات» والتدخل في «سياسات كشمير بطرق تتناقض مع دستور الهند نفسه»⁽¹⁶⁾. أشعلت انتخابات مزورة للمجلس التشريعي في العام 1987 معارضة عنيفة واسعة النطاق. بحلول العام 1992 مع تراجع الجهاد في أفغانستان، انتقل بعض المجاهدين من أفغانستان إلى كشمير. بدأ الصراع حول استقلال كشمير يتحول إلى «حملة إسلامية مقدسة لجعل كشمير بكاملها تحت تحكم باكستان»⁽¹⁷⁾. لم يوقف احتلال الناتو لأفغانستان منذ العام 2001 المسلحين عن كشمير، لكنه بدلا من ذلك قوى نظام الصراع في آسيا الوسطى بأكملها. والآن تفاقم السرعة القاسية للجفاف والفيضانات هذه الأزمات.

سدود قتالية

في العام 2008 دشنت الهند سد باغليهار للطاقة الكهرومائية باستطاعة 450 ميغاوات على نهر تشيناب، وبدأت في تقييد تدفق الماء إلى باكستان. ينبع نهر تشيناب في كشمير، ويصب في باكستان. حاولت باكستان منع بناء سد باغليهار بمناشدة البنك الدولي في العام 2005. لكن المشروع مضى قدما على الرغم من ذلك، بعد أن وافقت الهند على تخفيض ارتفاع السد، ووعدت بعدم الحد من تدفق النهر⁽¹⁸⁾.

الهند وباكستان: جليديات وأنهار

مع ذلك فسد باغليهار هو واحد فقط من عدد من السدود قيد البناء⁽¹⁹⁾. يقول الناشطون الباكستانيون الأكثر تشنجا وتعصبا إن الهند بنت مسبقا 44 سدا على «أنهار باكستان»، ولديها مشاريع لبناء 52 سدا آخر⁽²⁰⁾. تؤكد الهند أنها تطوع الطاقة المائية أو تنظف الأنهار للملاحة فقط، ولا تحجز مياها أكثر من حصتها أو تحولها. لكن باكستان تشكك في ذلك، وتشير إلى تناقص التدفق في أنهارها.

في صيف العام 2008 أبلغ المزارعون على طول نهر تشيناب عن انخفاض مستوى الماء في النهر والمياه الجوفية⁽²¹⁾. بحسب اتفاقية مياه السند للعام 1960، تتلقى باكستان 55 ألف كوسيك من الماء. (الكوسيك cusecs عبارة عن وحدة حجم لقياس تدفق السوائل تساوي قدما مكعبة في الثانية) في السنوات الماضية احتجت باكستان بأن الهند تخفض تدفق النهر إلى مجرد 13 ألف كوسيك خلال الشتاء، وإلى تدفق أعلى يصل إلى 29 ألف كوسيك خلال الصيف. يخرب هذا الزراعة وتوليد الطاقة معا، ويؤدي بدوره الصناعة والإنتاج⁽²²⁾.

لجعل الأمور أكثر سوءا أبلغت باكستان عن تناقص في هطول الأمطار وعن استغلال جائر للمياه الجوفية. نقصت مستويات المياه الجوفية في إسلام آباد وراولبندي بين 1 و 2 متر في العام بين عامي 1982 و 2000. في كويتا، عاصمة بلوشستان العطشى، ينخفض مستوى المياه الجوفية بنحو 3.5 متر في العام⁽²³⁾. بحسب سلطة تطوير الطاقة والمياه في باكستان شهدت السنوات الـ 50 الأخيرة انخفاض توافر الماء بالنسبة إلى الشخص في العام بنحو 80 في المائة، من 5600 م³ إلى 1038 م³. وبحلول العام 2025 يتوقع أن ينخفض ذلك الرقم إلى 809 م³ فقط للشخص في العام⁽²⁴⁾.

الآن تُحول التوترات الهندية - الباكستانية - التي ولدت جزئيا من نزاع حول المياه، وتفاقمت نتيجة لتغير المناخ - وتدار على شكل حرب دينية. يتحدث المتعصبون المسلمون في باكستان عن المياه والله والعنف بالخطاب ذاته.

في العام 2010 اتهم المقاتل الديني حافظ محمد سعيد رئيس جماعة الدعوة ومؤسس لاشكار طيبة^(*) المحظورة، وهي مجموعة إرهابية مرتبطة بالجيش الباكستاني، الهند بأنها تمارس «الإرهاب المائي» لأنها كانت تبني أنفاقا وسدودا على روافد رئيسة لنهر السند. تدعي الهند أن هذا لن يؤثر في مستويات المياه. لكن أحجام المياه تتناقص، وتظاهر المزارعون الباكستانيون محذرين «إما أن يتدفق الماء وإما الدم»⁽²⁵⁾.

(*) منظمة جهادية باكستانية أسسها حافظ محمد سعيد في العام 1990. [المحررة].

الآن ينشئ مسلحو جماعة الدعوة حركة من أجل الماء. حضر الاجتماع الذي دعوا إليه في مايو العام 2010 ممثلون عن معظم الأحزاب السياسية، بما في ذلك حزب الشعب الباكستاني والجماعة الإسلامية وحزب تحريك إنصاف للاعب الكريكت عمران خان الذي تحول إلى سياسي. في الاجتماع طالبت جماعة الدعوة بأن توقف الحكومة الهند عن بناء السدود في كشمير، أو تعطي «المجاهدين الكشميريين» الحرية للتعامل مع هذه المشكلة⁽²⁶⁾. «لدينا خياران إما أن نقبل الإرهاب المائي الهندي، أو نشن الحرب عليه»، قال الزعيم الكبير لحركة جماعة الدعوة حافظ خالد وليد. حرض زعيم حزب آخر على معاداة السامية لادعائه بأن «مهندسين إسرائيليين يشرفون على بناء السدود، ويقومون بمنع حصة باكستان من المياه»⁽²⁷⁾.

إزاحة إستراتيجية

أزاحت التوترات حول المياه التي زادها تغير المناخ بين هاتين الدولتين المسلحتين نووياً، ولعبت أيضاً على شكل حرب دينية وعرقية في أفغانستان. بالنسبة إلى الأفغان، تعود العداوة بين دولتهم وباكستان إلى فقد أفغانستان أراضي للهند البريطانية عام 1893، عندما فرض خط دوراند الذي هو الآن الحدود بين أفغانستان وباكستان على «الأمير الحديدي» لأفغانستان عبد الرحمن خان. في تلك الصفقة فقدت أفغانستان قدراً كبيراً من مقاطعتها البشتونية. بين الأفغان، مازال ذلك الجرح ينزف. بالنسبة إلى باكستان، القضية هي الهند.

غازلت الهند أفغانستان بمنحها أكثر من 1.3 مليار دولار كمساعدات لإعادة البناء منذ العام 2001. يتوسع نفوذ الهند السياسي عبر مواردها في الذكاء، وبصمتها الديبلوماسية الكبيرة، والمشافي الجديدة، ومشاريع الطاقة الكهرومائية، وبناء الطرقات - الكثير من الطرقات وبعضها قريب بشكل مريب من الحدود الباكستانية.

ترغب باكستان في أن تبقى أفغانستان حليفة الهند دولة ضعيفة. لذا فإنها تدعم الجماعات المتطرفة مثل طالبان كما فعلت في كشمير. منذ منتصف السبعينيات كانت باكستان تثير عدم الاستقرار في جارتها الغربية. وللمخابرات الباكستانية حتى الآن صلات مع عناصر من طالبان الكويتا شوري^(*) وشبكة حقاني^(**) والحزب الإسلامي.

(*) الكويتا شوري هي منظمة عسكرية تتألف من قيادات طالبان الأفغان. [المحررة].

(**) جماعة جهادية مسلحة متحالفة مع طالبان أخذت اسمها من جلال الدين حقاني. [المحررة].

يفصل أحمد رشيد كيف استمر هذا الدعم إلى وقت متأخر في الحرب الأفغانية في كتابه الرائع «انحدار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى». يكتب قائلا: «اعتقد الجيش الباكستاني أن حكومة قرضاي الانتقالية كانت معادية بشدة لباكستان.. وللحفاظ على تأثيرها بين طالبان والبشتون الأفغان طورت الآي أس آي (مخابرات ما بين الأجهزة) سياسة باتجاهين، إذ تقوم بحماية طالبان من جهة، وتقديم العرب وغير الأفغان الآخرين من القاعدة إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى. «بقيت الولايات المتحدة متشككة، لذا أنشأت المخابرات الباكستانية» منظمة سرية جديدة تعمل في المجال المدني خارج بنى المخابرات العسكرية. أعيد التعاقد مع مدربي طالبان السابقين من الآي أس آي، وضباط متقاعدين من الجيش من البشتون، وبخاصة من قوات الحدود. أقاموا مكاتب في منازل خاصة في بيشاور وكويتا ومدن أخرى، ولم يقيموا أي علاقة مع رئيس مقر الآي أس آي المحلي أو مع الجيش. عمل معظم هؤلاء العملاء في وظائف نظامية ظاهريا كمنسقين للاجئين أفغان، وموظفين حكوميين، وباحثين في الجامعات، ومدرسين في كليات، وعمال مساعدات أيضا. أنشأ آخرون منظمات غير حكومية للعمل ظاهريا مع المهاجرين الأفغان⁽²⁸⁾.

في العام 2007 اكتشف أن معظم الـ 5 مليارات دولار التي أنفقتها الولايات المتحدة لدعم مجهود باكستان الحربي لقتال القاعدة وطالبان قد سرقت أو حولت إلى التوجه الحربي ضد الهند. وأثناء ذلك استمرت عناصر من قوات الأمن الباكستانية في العمل مع طالبان.

عندما أجريت مقابلة مع مقاتلي طالبان بمقاطعة زابل في أفغانستان خلال العام 2006 وصفوا أنفسهم بأنهم مؤسسون ومدعمون من قبل باكستان⁽²⁹⁾. قال أحد عناصر طالبان: باكستان تقف معنا، ومكاتبنا موجودة على الجانب الآخر من الحدود. باكستان تدعمنا وتزودنا بالموارد. وزعماءنا هناك يجمعون المساعدات. الناس على هذا الجانب من الحدود يدعموننا أيضا. بعد عدة أيام تواصلت مع المتحدث باسم طالبان د. محمد حنيف (قبض عليه بعد ذلك) الذي أكد الدعم الباكستاني أيضا⁽³⁰⁾.

في يونيو من العام 2010 تأكدت العلاقة بين طالبان والآي أس آي أكثر عندما أصدر معهد الدراسات التنموية في مدرسة لندن للاقتصاد تقريراً نقدياً مفصلاً يوثق كيف تعمل وكالة التجسس الباكستانية ما في استطاعتها للتحكم في حركة طالبان

- وليس دائما برغبتها ولا حتى بموافقتها. وصف التقرير الذي كتب من قبل مات والدمان من مركز كار لسياسة حقوق الإنسان في جامعة هارفارد، علاقة الآي أس أي بطالبان على أنها تعود إلى «أبعد من التلامس والتعايش»، وتلخص كيف تفرض الآي أس أي تحكمها، وتتعامل مع معارضين طالبانيين أكثر استقلالا، وتقدم النقل والمعلومات والذخيرة والدعم الناري..الخ»⁽³¹⁾.

لماذا تفعل باكستان ذلك ؟

هكذا وصف مدير الاستخبارات الوطنية الأمريكية دينيس بليز هذه العلاقة في فبراير من العام 2010 : «تشكل المجموعات المسلحة جزءا مهما من سلاح باكستان الإستراتيجي لموازنة التفوق الهندي العسكري والاقتصادي»⁽³²⁾. يضرب وكلاء باكستان المصالح الهندية مباشرة في كشمير والهند وأفغانستان. قتل الإرهابيون من طالبان مهندسين ومدربي شرطة وديبلوماسيين هنودا يعملون في أفغانستان. في يوليو من العام 2008 فجر فدائيون من طالبان لهم صلات مزعومة بالآي أس أي السفارة الهندية في كابول، فقتلوا 41 فيما جرحوا وشوهوا 130 آخرين. وفي أكتوبر من عام 2008 ضربت سيارة مفخخة انتحارية أخرى السفارة الهندية فقتلت 17 أفغانيا كانوا ينتظرون دورهم للحصول على الفيزا. في خريف العام 2009 هاجم رجال على صلات مع تنظيم لاشكار طيبة بيتي ضيافة في كابول كانا يغصان بأشخاص من السلك الطبي والتعليمي الهندي⁽³³⁾.

نخب

لن تنهي قوات الأمن الباكستانية دعمها للمتعصبين الدينيين الذين يشنون الحرب على الهند وأفغانستان. ولن يكون هناك تفهقر لأصولية من نوع طالبان، ولا نهاية للصراع على كشمير، ما لم يُضمن أمن باكستان مقابل الهند. هذا الأمن المتمحور بصورة متزايدة حول قضية المياه، واتفاقية مياه السند للعام 1960، يهترئ الآن بشكل سيئ.

ثوار الجفاف في الهند

الرجل الذي حصل على كل ما يريد، يؤيد
الأمن والسلام.

جواهر لال نهرو

تغطي الغابات الجرداء تلال شمالي أندرا
براديش على حافة هضبة الدكن الهندية.
الشهر هو فبراير، وهو فصل الصيف في تلك
المنطقة، وقد أسقطت الأشجار المتهالكة أوراقها
في الحرارة الجافة. مشهد الأرض غريب: تلال
مستوية القمة ذات ميول حادة، تتابع على
خطوط طويلة، وتميز غالباً بجروف أفقية. بين
هذه التلال تقع سهول واد عريض، تحتوي على
حزم متفرقة من الحطام البركاني⁽¹⁾.

الحياة بالنسبة إلى المزارعين هنا صعبة.
«هناك تناقص في الأمطار، وهذا يؤثر في
المحصول، والأسعار لاتزال منخفضة». يقول

«كيف يجب أن تكافح الهند
الناكسالة؟ بالتكيف مع تغير المناخ
وبإعادة التوزيع الاقتصادية وبالعادلة
الاجتماعية والتنمية المستدامة»

المؤلف

لينغا ريدي ساما، مزارع قطن في قرية جامني على بعد بضعة كيلومترات من سد سائالا، غير بعيد عن حدود ولايتي تشاتيسغار وماهاراشترا. معظم الناس في هذه المنطقة أديقاسيون أو «أناس قبليون»، من الغوند من مقاطعة عادل آباد. الآخرون هم مهاجرون من الهندوس جاءوا من ولاية ماهاراشترا.

في ذلك اليوم من العام 2009 عندما جلست تحت ظل شجرة خشبية مبتورة مع مجموعة من المزارعين، لم يكن أي منهم قد سمع حتى الآن بغازات الدفيئة، أو بتغير المناخ الناجم عن الإنسان. مع ذلك ظن جميعهم أن الطقس يتغير. قالوا إن الجفاف المنتظم والأمطار غير المنتظمة أصبحت شائعين جدا خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة السابقة. خمن العديد منهم أن قطع الغابات هو السبب.

قال مزارع يدعى موهان راو: «قام هذا الجيل بفعل شيء خطأ أثر على الأمطار بهذا الشكل. عندما كنت طفلا كانت الغابة تمتد حتى هنا. لم يكن بإمكانك رؤية تلك التلال. كل هذا كان مغطى بالأشجار. اعتدنا فصلين ممطرين. في يونيو كنا نزرع بغض النظر عن المطر بين 15 و28 من الشهر، وبحلول سبتمبر كنا نحصد». قال إن أمطار الصيف كانت تهطل بشكل نموذجي لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وغالبا ما تتبعها أمطار أخف وأقصر أواخر الخريف.

هذا النمط شائع عبر جنوب الهند. تهب الرياح الموسمية من المحيط الهندي، وتهطل عادة على الأرض في جنوب الهند في نحو 1 يونيو. تصل هذه الأمطار الشديدة لأن ارتفاع درجة حرارة البر الهندي في الصيف يؤدي إلى سحب الهواء الرطب من المحيط. ترتفع الرطوبة وتبرد، ثم تهطل على شكل أمطار. تنقسم الرياح الموسمية إلى فرعين عند وصولها إلى سلسلة جبال الغاتس الساحلية في الهند، حيث تهطل معظم الأمطار على الساحل الغربي للهند، مخلفة معظم المنطقة الوسطى جافة. تسافر الرياح الموسمية نحو الشمال حتى شهر سبتمبر، ثم مع تحرك الشمس نحو الجنوب، يبدأ نظام الطقس بالتقهقر في ذلك الاتجاه، مولداً الأمطار الموسمية الشتوية. تشكل الأمطار الموسمية في الصيف أربعة أخماس الأمطار الإجمالية في الهند، وتقدم الأمطار الموسمية الأخف المتراجعة أو الشمالية الغربية البقية. لكن الأمور أقل استقرارا مما كانت عليه في الماضي. يقول المزارعون إن السنوات الأخيرة شهدت أمطارا شتوية خفيفة فقط. وهذا يجعل من المستحيل زرع محصول قطني ثان.

لجعل الأمور أسوأ، فإن هذه المنطقة تقع تحت قبضة حرب عصابات بشعة صغيرة. الهند أكبر ديمقراطية في العالم، وهي أيضا موطن إحدى أقدم حركات التمرد في العالم - وهي حركة تمرد ماوية تعرف بالناكسال Naxalites. بدأت الحرب الماوية عام 1967 غرب البنغال. تجزأت أحزابها ثم توحدت من جديد طبقا لارتفاع وتيرة الحرب وانحسارها⁽²⁾. اليوم يجري هذا الصراع بشكل خفيف على طول شرق الهند، وله مسببات مختلفة، خاصة جغرافيا. في بيهار وتشاتيسغار، وهما قلب العنف، التعدين الضخم على أراض قبلية هو السبب المباشر للمشاكل. لكننا نجد في أمكنة أخرى التجمع الكارثي.

لو قارن المرء خرائط هطول الأمطار بخرائط العنف لوجد بروز نمط مقلق: في المكان الذي ينتشر فيه الجفاف يتقدم الماويون. هذه الجغرافيا تمتد على طول الغاتس الشرقية، من بيهار غرب بنغال مروراً بأوريسا^(*) وتشايتسغار إلى أندرا براديش، وحتى أبعد من ذلك جنوبا وغربا. هذا «الممر الأحمر» هو أيضا ممر الجفاف. ينتج الجفاف سلسلة من ردود الأفعال من الاقتراض إلى خسارة الأرض والجوع والانتحار وقطع الطرق والماوية.

لماذا هذه العلاقة الوثيقة؟ الصلة ليست «طبيعية»، لكنها بالأحرى منتجة تاريخيا. خلال سنوات صعود حركة الناكسال في أندرا براديش، كان الجفاف شديدا أيضا: السنوات 1984 - 1985 و1986 - 1987 و1997 - 1998 و1999 - 2000 و2002-2003 كانت كلها سنوات جفاف⁽³⁾.

ومع تفكك أنماط الطقس في الهند، انزاحت كذلك سياساتها الاقتصادية نحو اليمين بالتخلي فعلا عن طبقة الفلاحين، وخلق قدر أكبر من عدم المساواة. إذا كان التجمع الكارثي في شرق أفريقيا قد تمحور حول عسكرية الحرب الباردة، فإن الوضع في الهند يعود إلى السياسات الليبرالية الاقتصادية الجديدة بشكل رئيس. تشتعل النار الماوية ليس بسبب الجفاف فقط، لكن بسبب سياسة السوق الحر للحكومة أيضا. يتقفى ما تبقى من هذا الفصل الصلات بين المناخ والتاريخ الاقتصادي والعنف السياسي في أندرا براديش.

(*) اسمها الحالي أوريسا.

الجذور العميقة للتمرد

تتغلغل لغة العصابات الحديث السياسي بين الغوند في تيلانغانا، كما يعرف الجزء الشمالي من أندرا براديش. يجعل القمع المزارعين يتحفظون في كلامهم، لكن أي نقاش حول الطقس أو الاقتصاد يقدم سريعا إشارات إلى عقيدة الناكسال. أحد المزارعين في قرية جامني قال: «جال، جانغل، زامين». وهي تعني «ماء، غابة، أرض»، وهي الدعوة إلى حشد التنظيمات الاجتماعية للغوند المحليين. إنها أيضا صرخة الحرب للناكسال، ودفاع عن الجمهور ضد كل من يعتدي عليهم. لكن هذا المبدأ يعود إلى أبعد من ذلك، فهو يعود إلى ثورة قبلية جرت ضد نظام (*) الحاكم المسلم القديم لتيلانغانا. خلال الأربعينيات ثار القبليون يقودهم كومارام بيم والشيوعيون ضد أسيادهم الإقطاعيين. خلال الحكم البريطاني بقيت تيلانغانا حرة اسميا كإحدى المقاطعات الأميرية شبه المستقلة.

على رأس النظام القديم جلس نظام، الرئيس المسلم لولاية تحكم من مدينة حيدر آباد. من القرن السابع عشر (**) حتى عام 1948، حكمت سلالة من نظام، لكن دوما بالتضامن مع طبقة من الإقطاعيين الهنود تدعى دورا dora. استخلص نظام والأرستقراطية الإقطاعية دورا أجورا زراعية باهظة من السكان الريفيين، لكنهم لم يستثمروا سوى القليل في البنية التحتية. بحلول أوائل القرن العشرين تسلل البريطانيون إلى بلاط نظام وتحكموا بماليتهم وعلاقاتهم الخارجية. مع ذلك بقي نظام يستفيد بشكل جيد.

وفي الحقيقة كان آخر نظام، عثمان علي خان بهادر، الذي حكم من 1911 حتى 1948 لفترة من الزمن، أغنى رجل في العالم، حتى أنه احتل غلاف مجلة التايم عام 1937⁽⁴⁾. لكن، في عام 1948، وعلى خلفية موجة التقسيم، غالى النبيل المتعجرف باللعب بأوراقه خلال مفاوضات الانضمام إلى الهند.

وكما في كشمير، رأت الهند المستقلة حديثا أنه من غير المجدي تماما لها القبول بدولة شبه معادية يحكمها مسلم محشورة في قسمها الجنوبي الشرقي. في 13 سبتمبر عام 1948 انتهت المفاوضات عندما قرر جواهر لال نهرو وحده وبالقوة أن يضم

(*) نظام، أو نظام الملك، هو لقب أطلق على حكام حيدر آباد في الفترة من 1720 حتى 1948. [المحررة].

(**) الصحيح أن سلالة نظام المالك حكمت حيدر آباد منذ يوليو 1720، أي القرن الثامن عشر. [المحررة].

تيلانغانا إلى الهند. تقدم الجيش الهندي الضخم، وقهر حراس قصر نظام ومجموعة من المحاربين المسلمين غير النظاميين دعوا رازاكارز. دعت هذه «الحرب» التي دامت مدة 4 أيام العملية بولو، وهي إشارة ساخرة لملاعب البولو العديدة المجهزة التابعة لنظام. بالتالي ضمت دولة حيدر آباد إلى جمهورية الهند. لكن الأمور الأساسية لم تتغير بالنسبة إلى مزارعي تيلانغانا. بقيت المنطقة منعزلة وراكدة اقتصاديا، واستمر فلاحوها في العيش ضمن شبكة من الخطر، محصورين ضمن تقلبات الأسواق وسياسات الولاية والطقس. كان العامل الأخير، وهو الطقس، الأكثر أهمية في المناطق الجافة وشبه الجافة التي تغطي 60 في المائة من مساحة الهند⁽⁵⁾.

ترجع معظم التيارات الناكسالية أصولها إلى الحزب الشيوعي في الهند (الماويين)، وإلى مذبحة غامضة عام 1967 في قرية غرب البنغال تدعى ناكسالباري في الأجزاء الفرعية من دارجيلنغ المشهورة بزراعة الشاي⁽⁶⁾. في عام 1969 تجمع الناكسال في حزب سياسي دعي الحزب الشيوعي في الهند (ماوي - لينيني)، لكن الحزب حظر. أجبر هذا الناكسال على الاختباء في مناطق نائية، حيث مالوا إلى الانشطار إلى فئات من دون قيادة مركزية⁽⁷⁾. من البداية، وُجد الناكسال في غرب بنغال وبيهار وأندرا براديش⁽⁸⁾.

الناكسالية الآن

في سياق الحديث مع المزارعين المكافحين في جامني، تبين أخيرا أن لهذه القرية تنظيمات جماهيرية متصلة بالناكسال. من خلال هذه الحركات احتج المزارعون مرارا، ونظموا وقفا للسير للمطالبة باستثمار الحكومة في أنظمتهم المائية. أرادوا بمجموعهم حفر الآبار، ورفع الماء للري من خزان سائلا الجوفي. فرديا، أراد العديد منهم السفر إلى حيدر آباد فقط على أمل العمل في مواقع البناء، أو السفر شمالا إلى ماهاراشترا حيث يمكنهم العمل كعمال زراعيين في مزارع كبيرة.

الحرب الناكسالية عملية غريبة تمزج بين احتجاجات الطلاب والمثقفين في المدن، والأفعال المباشرة غير العنيفة للتنظيمات الفلاحية (كإغلاق الطرق)، والأساليب الإرهابية لرجال العصابات (كالاعتقالات وتفجير الطرقات). بدا من الصعب على

الناكسال الاستيلاء على الحكم، لكن قتالهم لم ينحسر مع نهاية الحرب الباردة. في السنوات الأخيرة هاجمتهم الدولة بأسلوب مكافحة تمرد كلاسيكية تزداد عنفا، متعقبة المتمردين ومؤيديهم من المدنيين لتقتلهم. تخلق الحرب أشكالا دوارة من العنف توهن النسيج الاجتماعي وتصيبه بالفساد والجريمة والأمراض.

في هذه المقاطعة تم على الأغلب ربح الحرب الصغيرة ضد الناكسال، في الوقت الحاضر على الأقل. مع ذلك لا يزال مؤيدو الناكسال من المدنيين يغلزون الطرقات بالحواجز، ولا يزال الناس هنا يحتفلون بالذكرى السنوية لمذبحة 20 أبريل عام 1981 سينية الذكر، حيث قتلت الشرطة مائة من القبليين في قرية اندرفيللي⁽⁹⁾. يخرق الناكسال أيضا صفوف أعدائهم، ويقتلون أحيانا المخبرين (حقيقيين أو متخيلين). قال طالب محلي من قبيلة الغوند كان يرافقني إن رجال العصابات اتهموا ابن عمه في السنة السابقة بالإخبار عنهم وقتلوه. مات سكان محليون آخرون في عادل آباد على يد الغريهاوندز (كلاب الصيد) - وهي القوات الخاصة للشرطة.

في العام 2008 هاجم الناكسال زورقا للشرطة على سد باليميدا- سيليرو بالقرب من حدود أندرا - أوريسا. في تلك المعركة قرر 59 من الغريهاوند «في عملية مشتركة»، لسبب أو آخر، عبور السد في زورق واحد، حيث هاجمهم الماويون بإطلاق النار عليهم من التلال المجاورة. انقلب زورق الشرطة وقتل 38 من مغاويرهم⁽¹⁰⁾.

المناخ والماء والحرب

في تيلانغانا يعتبر الماء سياسة. وإدارة الماء هي إدارة المجتمع. هذه المنطقة محصورة بين نهر غودافاري في الشمال ونهر كريشنا في الجنوب. كل منهما يبدأ كنهر تغذية الأمطار وليس الثلوج، كما هي الحال بالنسبة إلى نهري الغانج والسند. ولذلك فإن نهري تيلانغانا مهددان جدا بتغير المناخ، وإزالة الغابات محليا. ينبع نهرا غودافاري وكريشنا في الغاتس الغربية - الجبال والتلال التي تلتقط الجزء الأكبر من أمطار المونسون الصيفية، ويتصفيان شرقا عبر هضبة الدكن خلال تيلانغانا، ليصبا في النهاية في خليج البنغال. عندما تفشل أمطار المونسون تتناقص مياه النهرين إلى مجرد ذكريات. وحتى في ذروة المونسون عام 2010، حصل نقص بمقدار 25 في المائة عن المعدل المحلي في عادل آباد⁽¹¹⁾.

يتنبأ علماء المناخ بتغيرات فيزيائية كارثية لشبه القارة الهندية في المستقبل القريب. ارتكب التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC خطأ خطيرا وسيئ السمعة في التنبؤ بسرعة ذوبان الجليد في المستقبل⁽¹²⁾. لكن بعد كل ما تعرض له العلم من نقد عدائي، تبقى نتائج التقرير التقويمي الرابع صحيحة. "تناقصت كتلة جليد الهندو كوش - همالايا بأكملها في العقدين الأخيرين. وهي تستمر بالتناقص بمعدلات مخيفة"⁽¹³⁾.

الآن اعتبر هذا: ثلثا الهنود مزارعون، ومعظمهم يعتمد على تدفق المياه من جليديات الهمالايا أو من أمطار المونسون. والنظام الهيدرولوجي للمنطقة ينزلق إلى أزمة: يزداد تذبذب المونسون، وتتأخر الأمطار وتقل جدا، أو أنها تأتي بشدة ودفعة واحدة. في الشتاء لا تحصل بعض المناطق على الأمطار.

عندما قابلت أحد أبرز علماء المناخ في الهند، الدكتور موراري لال كان قلقا: «الطبقة السياسية في حالة إنكار تام. إنهم لا يتعاملون مع قضية تغير المناخ. إنهم يعتقدون أنها مشكلة الإنسان الغني فقط. لا شيء يقف في وجه «تألق الهند». أتفهم ذلك؟ إنهم يفكرون «التنمية أولا ثم معالجة الأمور البيئية». لقد تمت معالجة البيئة فقط بضغط من المجتمع الدولي، وفقط خلال السنوات الثلاث السابقة بدأوا بمجرد إدراك وجود مشكلة. «بعد عدة أشهر صدم وزير البيئة الهندي جيرام راميش العالم عندما اتهم الدول الغنية بإثارة الرعب من دون مبرر». «للعلم حدوده»، قال الوزير⁽¹⁴⁾.

اختصاص لال هو نظام المونسون، وهو لاعب مهم في اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC. يقول بأن المونسون «يظهر تذبذبا متزايدا» مع زيادة طفيفة في الهطول الكلي، لكن بطريقة عشوائية أكثر بحيث إنه مع إدارة سيئة للأراضي، واهتمام غير كاف بحصاد المياه، سيؤدي إلى تصحر أكبر وجفاف على الرغم من هطول أكبر. «منذ عشر سنوات تنبأت بانخفاض هطول الأمطار الشتوية في الشمال، وقد حدث هذا بالفعل». قال لال بلهجة غاضبة حزينة⁽¹⁵⁾.

لاحظت المخابرات الأمريكية هذا أيضا. في فبراير 2010 أخبر آدم دينيس بلير رئيس المخابرات الوطنية الكونغرس: «بالنسبة إلى الهند يشير بحثنا إلى أن التأثيرات العملية لتغير المناخ سيتم تدبرها من قبل نيودلهي حتى عام 2030. بعد ذلك فإن

قدرة الهند على معالجة الوضع ستخفف مع تراجع الإنتاج الزراعي وتناقص موارد المياه وزيادة الضغوط من جراء الهجرة عبر الحدود إلى البلد»⁽¹⁶⁾.

القضية المحورية هي المياه من حيث كميتها ونوعيتها. متى يأتي المطر؟ وكيف يهطل؟ أمران مهمان جدا بقدر أهمية هل سيهطل؟ بكلمات أخرى فإن تذبذب المونسون يعني أخبارا سيئة للمزارعين الهنود. إن له تأثيرا سلبيا في مردود المحاصيل أكثر مما تظهره بيانات الهطول المتوسطة والإجمالية. بمصطلحات اجتماعية، يتجلى تذبذب المونسون على شكل زيادة الديون والبؤس والنزوح والصراع الاجتماعي.

المصدر الآخر للماء في الهند هو كتل الجليد على الهمالايا - التي تدعى بالقطب المتجمد الثالث - والتي تذوب بسرعة. احتفظت الـ 46298 كتلة جليدية على الهمالايا بالماء على شكل احتياطي متجمد لمصلحة مئات الملايين من البشر في آسيا⁽¹⁷⁾. لو استمرت إصدارات غازات الدفيئة بالزيادة من دون توقف، واستمرت درجة حرارة الأرض بالارتفاع، واستمرت تلك الكتل من الجليد بالاختفاء تماما، فستصبح أنهار الغانج والسند وهنا والبراهماپوترا والأنهار الأخرى التي تجري عبر السهول الشمالية في الهند، مجرد ممرات فصلية يتدفق فيها الماء عندما يهطل المونسون فقط⁽¹⁸⁾.

على سبيل المثال فإن نهر الغانج - أو غانغا ما، أقدس أنهار الهندوس، والمصدر المائي لحوالي 500 مليون إنسان - له تدفق فصل جاف متشكل من 70 في المائة من الماء المذاب من جليدية غانغوتري، وهي قناة واسعة من الجليد بعرض 5 أميال وطول 15 ميلا. تقلص الغانغوتري بمعدل 40 ياردة في العام، وهذا يعادل ضعف سرعة تقلصها تقريبا منذ عقدين⁽¹⁹⁾. وهذا نموذج عن «التقلص السريع جدا في جليديات المنطقة»⁽²⁰⁾. الغانج الآن في حالة تناقص خطير، بحيث إنه اعتبر ضمن أكثر 10 أنهار مهددة في العالم⁽²¹⁾.

على المدى القصير يؤدي هذا الذوبان لجليديات الهمالايا إلى زيادة تدفق المياه، لكنه على المدى الطويل فإن أنهار آسيا التي تتغذى من الجليديات ستختفي بشكل كبير⁽²²⁾. وأثناء ذلك يزداد عدد السكان والطلب على الماء: بحلول عام 2050 سيكون عدد سكان الهند أكبر ربما من عدد سكان الصين. وسيظل نحو 900 مليون من هؤلاء الناس يعملون في الأرض⁽²³⁾.

الولايات الهيدروليكية - في النظرية والتطبيق

بالعودة إلى قرية جامني في مقاطعة عادل آباد يستمر الحديث عن الماء. يروي بعض المزارعين هنا أراضيهم من آبار صغيرة، وبعضهم من نهر محلي، لكن معظمهم يعتمدون بشكل رئيس على الأمطار ولا شيء أكثر. إنهم يعيشون تحت رحمة أمطار المونسون التي يبقى معظمها بعيدا عن الدكن، بسبب جبال غاتس الشرقية والغربية. ليس بعيدا عن القرية هناك نهر جاف تقريبا يدعوه السكان المحليون ببساطة الجدول الكبير. يتدفق هذا النهر إلى خزان السائنا، والذي تكون من سد بني منذ عقود مضت.

في مثل هذا المناخ يشكل الري وحصاد الأمطار مشاهد رئيسة في المنطقة. في أندرا براديش وتامول نادو اعتمدت معظم الزراعة تقليديا على حجز المياه وتخزينها. «يحول الهطول ويلتقط ويخزن ويتم التحكم به في عدد كبير من الصهاريج»، تعرف محليا بالخزانات، وتشكل من إغلاق تصريف منخفضات طبيعية بسدود ترابية على شكل هلال⁽²⁴⁾. تغذي قنوات من الخزانات الأراضي بالمياه، وتحكم قوانين مفصلة متى تعطى حصص الماء، وكيف؟

نظر ماركس وفيبر بشكل شائع، لكنه إلى حد ما غير صحيح، إلى أن أنظمة الري في جنوب الهند هي نواتج دول منظمة ومستقرة وشمولية. افترض رهط طويل من العلماء الذين يتبعون هذين المفكرين الرئيسيين أن مشاريع الري الضخمة ارتبطت عادة بالاستبداد وبيروقراطيات دول مستقرة تستوعب الفائض الذي ينتجه المجتمع. هذه العلاقة بين الري وسلطة الدولة محورية في نظرية ماركس عن «النمط الآسيوي في الإنتاج».

في كتابه الكلاسيكي «الاستبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة الشمولية» وصف كارل ويتفوغل الضرورات السياسية للماء كما يلي: «لا تجبر أي ضرورة عملية (مزارعا) على استغلال التربة أو النبات بالتعاون مع آخرين. لكن الحجم الكبير لمصادر الإمداد بالماء كلها، عدا أصغرها، يخلق مشكلة تقنية تحل إما بالعمل الجماعي وإما لا تحل على الإطلاق»⁽²⁵⁾. وشرح عالم آخر: «تتطلب الحاجة إلى التحكم بعمل السخرة، والتنافس بين المجتمعات أعمالا اضخم، وتتطلب هذه عمالة أكبر من السخرة، وهذه تتطلب بدورها مستويات أعلى من الري والتنسيق، وبالتالي

أنظمة ضخمة دائمة تتطلب في النهاية بيروقراطيات متخصصة دائمة، تقرر عدد الناس اللازمين ولأي عمل وأين. يجب أن تكون هذه البنى منظمة شاقولياً»⁽²⁶⁾. وبعبارة أخرى فإن الفكرة وراء الاستبداد الهيدروليكي، أو النمط الآسيوي من الإنتاج هي: يبدو أن أنظمة الري بالقنوات على المقياس الكبير تتطلب تنظيمًا جماعيًا، ويبدو أن هذا يتطلب بدوره دولة مركزية قوية.

في الحقيقة، يبدو أن أنظمة الري القديمة في الهند تطورت ببطء، وعلى مراحل، وبالمصادفة، من خلال سلسلة من ترتيبات سياسية غير مستقرة، تخللتها فترات من العنف. وبالنظر إليها على المدى الطويل، فقد حدث العديد من التغير الاجتماعي، وعدم الاستقرار، خاصة على الهوامش الجغرافية والسياسية للولايات⁽²⁷⁾. وكما حاجج عالم الإنسانيات ديفيد موس ضد التوافق القديم، فقد ارتبطت الحرب وحكم المحاربين في جنوب الهند دوما بالري وحقوق المياه - لكن ذلك لم يعن دوما الاستقرار. كان الصراع السياسي مستمرًا، ومن المحتمل جدًا أن أنظمة الري بقيت دوما في حالة من الأزمة النسبية، والتجهيز السيئ.

تمسك الممثلون البريطانيون لشركة الهند الشرقية بهذه الحقيقة، واستخدموها كركيزة عقائدية ضمن مهمتهم الأكبر. استنفدت ملاحظات الهدر في المنشآت المائية في تقاريرهم جهدًا كبيرًا، وكما يشرح موس «كان هؤلاء الموظفون أول من رمز إلى الخزانات كجزء من تقليد نبيل لمجتمع قديم، أزيل من قبل حكام مستغلين معاصرين. ومن هذا المشهد المحطم، استلهموا تبريرًا لمد حكم بريطاني من النظام والملكية الخاصة»⁽²⁸⁾.

بالتالي شكل الماء والري والطقس العنيف عوامل محورية في السياسة الهندية وبنية السلطة وترتيبات الملكية وتقاليد القمع والمقاومة لقرون. تغير المناخ - والتجمع الكارثي الذي يعبر عنه ضمن العالم الاجتماعي - يزيد فقط من أهمية الماء.

الليبرالية الجديدة والموت بالقطن

يزرع المزارعون في تيلانغانا كلهم نوعًا خاصًا من القطن المعدل جينيا. وهو منتج من شركة مونسانتو الزراعية العملاقة. أصبح هذا القطن الجديد متوافرًا منذ

سنوات قليلة سابقة. وعلى الرغم من الإعلان أنه لا يحتاج إلى مبيدات أعشاب، فإنه في الحقيقة يحتاج إليها. في البداية رفع القطن الجديد الإنتاج والدخل، لكن المردود هبط بعد بضع سنوات، وتحول القطن الجديد إلى لعنة. تتغلغل جذوره عميقا في التربة بحيث تمتص المغذيات جميعها. وقبل وقت طويل يحتاج المزارعون إلى كميات ضخمة من الأسمدة الصناعية - وهذا يعني الاقتراض. يدعو العلماء هذا «الدورة المغلقة السيئة للزراعة الكيميائية».

«نعلم أن الأرض بعد 3 إلى 4 سنوات ستموت»، قال لينغا ريدي ساما الذي ينتمي إلى عائلة هندوسية مهاجرة، وليس إلى قبيلة الغوند المحلية. يعلم المزارعون في هذه القرى أنهم يستخرجون المعادن من التربة، مستخلصين مغذياتها، ومصدرين لها على شكل قطن رخيص. وبينما يتناقص محصولهم تزداد ديونهم. وفي أسوأ الحالات يقتل المزارعون أنفسهم. هذا هو التجمع الكارثي محليا على مستوى محاصيل معينة وعائلات حقيقية.

هل انتحر أحد في جامني؟ نعم انتحر رجل في الخامسة والأربعين من العمر يدعى أنجانا في السنة السابقة بتجرع المبيد. «قتل نفسه ليهرب من ديونه»، قال أحد المزارعين. «الآن تعمل زوجته وابنه البالغ بالأجرة في مزرعة في دولة ماهاراشترا». تعود المشكلة مرة أخرى إلى الماء. في السنوات الأخيرة عانى الري نتيجة موجة من عدم الاستثمار الليبرالي الجديد. رفعت الدولة معونات مهمة عن المزارعين الصغار، ونتيجة لذلك انتحر الآلاف منهم.

مضت العملية على النحو التالي: بدءا من عام 1991 بدأت الحكومة الهندية عملية من التحرير الاقتصادي. أصبحت الكفاءة هي الكلمة المفتاحية: قطعت الدول دعم الطاقة عن المزارعين. وبذلك أصبح استخدام المضخات على الآبار والري أغلى. للتعامل مع الوضع بدأ المزارعون بأخذ القروض من البنوك المحلية، أو من المرابين⁽²⁹⁾. عنت السياسات الليبرالية الجديدة برفع الدعم، وقوع أنظمة الري المحلية في الإهمال. ولأن تجهيزات الري سيئة، تحول المزارعون إلى حفر آبار مموله بشكل خاص، وسحب المياه الجوفية. جرى هذا نمودجيا بطريقة عشوائية وفردية أو قرية فقيرة، بتخطيط قليل أو إدارة مائية سيئة. ونتيجة لذلك بدأت الخزانات الجوفية سريعا بالانحدار. تتطلب هذه

الاستراتيجيات الخاصة للمعالجة توافر رأسمال خاص. لحفر الآبار كان على المزارعين الاقتراض من المربين المحليين - غالبا - بفوائد مرتفعة. وعندما يفشل المحصول أو تجف الآبار، وهو ما أصبح أكثر شيوعا مع تغير المناخ، لا يستطيع المزارعون تسديد ديونهم.

بحلول أواخر التسعينيات، لم تعد لدى العديد من المزارعين خيارات. كانوا متأخرين جدا في الدفع لكي يتمكنوا من الاستدانة من جديد، ومفلسين جدا لإنتاج المحاصيل. بالنسبة إلى الآلاف جاء المنفذ الوحيد للهرب من هذه الديون عن طريق الانتحار - غالبا - بابتلاع المبيدات. بحسب بيانات من مكتب سجلات الجريمة الوطني قتل 150 ألف مزارع هندي أنفسهم بين عام 1997 و2005. ولكن كما تذكر أنورادا ميتال، «تعتقد منظمات المزارعين أن عدد المنتحرين أكبر من ذلك»⁽³⁰⁾. في أندرا براديش قتل ما يقدر بـ 2000 إلى 3000 مزارع أنفسهم بين عامي 1998 و2004. وكما أخبر أحد المقرضين مجلة النيويورك تايمز: «راكم العديد من المربين الكثير من المال... أما المزارعون فقد تحطم العديد منهم»⁽³¹⁾. عندما أصبحت العلاقة بين الجفاف والري والديون والانتحار واضحة منذ 12 عاما، قامت مجلة السياسة والاقتصاد الأسبوعية بتقصي أسباب ذلك. «تظهر دراسة لـ 50 مزارعا منتحرا في مقاطعة وارانغال (قرب عادل آباد)، أن «مياه» الآبار هي المصدر الأكبر للري لنحو ثلاثة أرباع المزارعين. حفر نحو ثلث الآبار فقط تحت خطط الدعم الحكومي. في بقية الحالات تحمّل المزارعون بأنفسهم نفقات حفر الآبار. إضافة إلى هذا فقد أدى استنفاد المياه الجوفية في السنوات الأخيرة إلى ضرورة تعميق الآبار، ووضع أنابيب فيها».

تراوحت تكلفة بئر كهذا في أواخر التسعينيات بين 1400 و3000 دولار⁽³²⁾. وكما وجدت دراسة للبنك الدولي حول الجفاف وتغير المناخ في اندرا براديش، فإن هذا يعني الاستدانة. لاحظ البنك «كانت استجابة العائلات للجفاف عبارة عن ردود أفعال، ولم تفعل سوى القليل لبناء مقاومة للجفاف على المدى البعيد. يبقى الإقراض الاستجابة الأكثر شيوعا للجفاف». في الحقيقة أخذت 68 في المائة من العائلات المشمولة في الدراسة قروضا بسبب الجفاف، حيث اقترض الملاكون الكبار «من مصادر رسمية (كالبنوك)، بينما اقترض المزارعون

الصغار، والذين لا يملكون أراضي من المربين بفوائد عالية»⁽³³⁾. لم تكن الفوائد على شكل ربا فاحش فقط، لكن هذه العلاقات غير الرسمية اعتمدت على آليات تنفيذ مذلة ووحشية.

الثورة الخضراء

السبب الآخر للاقتراض هو شراء البذور. كانت قمة هذا الفخ هي قطنا من نوع Bt المعدل جينيا من قبل مونسانتو. تعود قصة Bt إلى الأيام الذهبية لنظرية التحديث والثورة الخضراء، عندما احتل كتاب والت روستو عام 1960 «مراحل النمو الاقتصادي: بيان غير شيوعي» مرتبة عالية بين العلماء الغربيين وصناع السياسات⁽³⁴⁾. كان الهدف العام في ذلك الوقت هو تصنيع الزراعة، وبالتالي رفع المردود، وتحرير العمالة، التي يمكن الاستفادة منها في المدن كجزء من قطاعات التصنيع الجديدة. ولهذا الهدف أدخلت أنواع جديدة من البذور.

يُعزى مصطلح «الثورة الخضراء» لويليام غود من الوكالة الأمريكية للتنمية العالمية USAID ويعود إلى نحو عام 1968⁽³⁵⁾. بمعنى محدد، شملت الثورة الخضراء مجموعة من برامج تكثيف زراعي هادفة ومخططة ومدعومة من قبل البنك الدولي وUSAID. أدخل الخبراء بذورا متنوعة عالية المردود، وأسمدة مصنعة ومبيدات كيميائية، ورأيًا يعتمد بشدة على المياه الجوفية. دعمت الحكومات والمؤسسات برامج تعليمية، وتوسيع المزارع، لتوطين أساليب هذه التقنيات الجديدة بين المزارعين. وبصورة أوسع، تشير الثورة الخضراء إلى الانتشار غير المخطط له لهذه الأساليب والتقنيات نفسها خلال عالم الجنوب.

في اندرا براديش كان الجناح الرسمي للثورة الخضراء محصورا بالدلتا الساحلية. كان الرز والقمح أول المحاصيل المستهدفة. كان هدف البرنامج في الهند ككل هو تحقيق الاكتفاء الذاتي بالغذاء، وخلق فائض من العمالة، ورأس المال في الريف يمكن نقلهما إلى المدن وتسهيل التصنيع. وبحسب روستو سيمكن هذا من عملية الإقلاع الاقتصادي - البدء بتصنيع سريع وحديث ونمو اقتصادي.

انتقد البيئيون كثيرا الثورة الخضراء في الهند بسبب استخدامها الجائر للكيماويات السامة، بينما هاجمها الماركسيون لخلقها عدم مساواة أكبر بين المزارعين⁽³⁶⁾. لكن

هذا الدفع التحديثي لقي دعماً من الزعماء الجماهيريين، وشمل أشكالاً من إعادة توزيع المساعدات الحكومية، مثل برامج تثبيت الأسعار، ودعم الدخل الأساسي للمزارعين⁽³⁷⁾. بالمقارنة مع التقشف الليبرالي الجديد اليوم، أدت الدولة دوراً قوياً واشتراكياً تقريباً. زودت شركة مملوكة للدولة، وهي مؤسسة البذار الوطنية، التمويل والتوجيه، وتضاعف المردود خلال الستينيات. لكن هذا المردود مع ذلك كان تابعاً لاستثمار رأسمال أكبر. احتاج المزارعون إلى رأسمال أكبر لشراء الأسمدة والمبيدات وأدوات الري والآلات⁽³⁸⁾. لذا ارتفعت الديون مع ارتفاع المردود.

وسرعان ما أصبح القطن أحد المحاصيل الرئيسية. لم تعد القضية الآن أمناً غذائياً أكبر، لكنها أصبحت انتصاراً وأرباحاً في أسواق المواد الأولية العالمية. لكن مشكلة القطن هي أنه يحتاج أيضاً إلى كميات كبيرة من المياه. خلال عقد بدأ المردود بالانخفاض مع تجريد التربة من المغذيات، وتسميمها بالمبيدات. كان الحل الوحيد بالنسبة إلى الكثير من المزارعين هو المضاعفة هبوطاً للأسفل: استدن أكثر، واستثمر أكثر، واستخدم تقنية أكثر، وراكم ديناً أكبر.

جاءت الثورة الخضراء إلى هضبة الدكن بشكل غير مباشر وغير رسمي عندما هاجر مزارعون ناجحون من طبقة الكامابرا من الساحل بحثاً عن الأراضي التي يزرعون فيها القطن والفلفل. استقر المهاجرون بعضهم مع بعض، وحافظوا على علاقات مصاهرة قوية مع الساحل، لكنهم جلبوا معهم أساليب الزراعة كثيفة رأس المال ونشروها⁽³⁹⁾. مرة أخرى تكرر النمط المجرب في أماكن أخرى: في البداية كانت المحاصيل جيدة، ثم تناقصت بشكل ثابت بعد ذلك.

مع صعود زراعة القطن الكثيفة رأس المال في تيلانغانا خلال الثلاثين سنة الأخيرة برز تناقضان غريبان⁽⁴⁰⁾. أولاً استمر سعر المحصول النقدي الرئيس وهو القطن بالانخفاض: مع ذلك استمر الفلاحون في زراعة المزيد منه. لماذا لم يتحول المزارعون إلى محاصيل أخرى؟ وثانياً، بينما كان إجمالي النمو في الإنتاج الزراعي في المنطقة قوياً - أكثر من 4 في المائة في العام لسنوات عديدة - فإن مداخيل معظم المزارعين واستهلاكهم تناقصت بشدة، ويتضح هذا على شكل انتحار المزارعين، وتأبيدهم للناكسال⁽⁴¹⁾. يصبح السؤال الآن: لماذا يلجأ المزارعون إلى الاستدانة، كي يزرعوا محصولاً (القطن) تنخفض أسعاره؟

حدد مؤرخ اقتصادي لامع شاب اسمه فامسي فاكولابهارانام السياسة وراء هذا التناقض، والتي تبدو على شكل مجموعة خرقاء من الحقائق، وفسرها. يقبح الجواب كما كتب في نظام القروض. يطالب المقرضون بزراعة القطن تحديداً، لأن القطن لا يؤكل، وبالتالي لا يمكن للمنتجين خلال الأزمات أن «يسرقوا» أي يأكلوا المحصول. يعطي المقرضون أساساً قروضا مسبقة على المحصول ثم يتسلمونه. لو كانت هناك عائلة زراعية تموت من الجوع، وكان محصولها من القمح، فمن المحتمل أن تأكله لتبقى على قيد الحياة بدلا من أن تعطيه للمقرضين. يتجنب القطن هذه المشكلة. لذا حتى لو كانت أسعار محاصيل غذائية أخرى كالقمح أعلى، إلا أنها تحمل مخاطر أكبر لمقرضي الأموال. القطن هو الضمانة البيولوجية للمقرضين لتوجيه المزارعين بعيدا عن المحاصيل الغذائية، حتى لو كانت إمكانية الربح أكبر، لأن القطن وحده مضمون مباشرة. باستخدام هذه الفكرة بين فامسي أن المزارعين في تيلانغانا ابتعدوا منذ العام 1980 عن زراعة حبوب خشنة كالقمح والشعير والدخن إلى زراعة القطن، حتى عندما كان يفترض أن توجههم حركة الأسعار في الاتجاه المعاكس.

ترافق هذا التحول مع الإصلاحات الليبرالية الجديدة التي أزاحت من الزراعة العديد من الحماية القانونية والدعم الحكومي - بما في ذلك التسليف العام واستثمار الدولة في الري⁽⁴²⁾. استجابة للانسحاب النسبي للدولة، أخذ المزارعون على عاتقهم تكاليف أكثر، وبالتالي كان عليهم الحصول على المال من أي مصدر كان - وهذا يعني من المربين. وكلما ازداد تحول المزارعين إلى المربين، ازداد الضغط عليهم لزراعة المزيد من القطن. وكلما زادت كميات القطن التي يزرعونها، كلما انخفضت أسعاره.

لذا أصبح مزارعو تيلانغانا محصورين ضمن حلقة اقتصادية مفرغة تتجه للأسفل: يحتاجون إلى رأسمال ومدخلات غالية الثمن لإنتاج محصول تنخفض قيمته حتى أثناء الاستثمار الكثيف فيه. والتجهيزات المركزية - خاصة مع جعل تغير المناخ المنطقة أكثر جفافا، بسبب الطقس العنيف والجفاف المتكرر - هي البئر وأنظمة الري، لذا يقترض المزارعون. يدعو فامسي هذا «موا مسببا للبؤس» - إنتاج زراعي يزداد ومداخل تنخفض. وصف آخرون المجموعة ذاتها من التناقضات بـ «الفقر الحديث» أو أنها شكل من «ندرة مدفوعة تنمويا»⁽⁴³⁾.

ري الفساد

فاقم سوء الادارة والتدخلات السياسية حديثا من مشكلة الماء الناجمة عن تغير المناخ في أندرا براديش. يعود إهمال نظام إدارة المياه التقليدي بصورة خاصة إلى تدخلات راما راو. كممثل سينمائي يتكلم لغة التيلوغو، دخل راو كما عرّف نفسه المشهد السياسي، بتأسيس حزب تيلوغو ديسام. وهو حزب محلي تيلانغاني سعيًا إلى تنمية أكبر في شمال أندرا براديش، وحكم معظم الثمانينيات والتسعينيات. صنع جاذبيته الشخصية مباشرة للناس بمزج شعبي للأفكار من اليسار واليمين.

من ناحية، قاتل راو الناكسال بضراوة، متزعمًا إنشاء الغريهاوندز (كلاب الصيد) - قوات شرطة مكافحة التمرد. ومن ناحية أخرى فعل الكثير لإفشال مجموعات الضغط القديمة، وتقديم الخدمات للطبقات الشعبية في المنطقة. وكجزء من هجومه على الامتيازات المؤسسة والموروثة، ألغى نظام المناصب ونظام الطبقات الإقطاعي، اللذان ورث النبلاء المحليون بموجبهما وظائف جمع الضرائب، وإدارة المياه، وصيانة أنظمة الري - أي الفرص جميعها للتحكم بالمزارع. أزال الممثل السينمائي مزايا القرية هذه كلها - شيء من العدالة، لكنها أيضا طبقة إضافية أخرى للتدخل السياسي بينه وبين الجماهير - لكن لسوء الحظ لم يتم استبدالها بشيء أفضل. نظمت بعض لجان القرى لكنها لم تمول. بقي التحول إلى نظام مختلف أكثر ديمقراطية لإدارة المياه متخلفا وغير منظم، وبالتالي عانى نظام الري المحلي من ذلك.

الفساد كان أيضا مشكلة تؤثر في إدارة المياه. في قرية باتاغفادا أسفل الطريق من جامني عبر الجدول الكبير، وأعلى هضبة صغيرة، يرتبط الناس بشدة بحزب المؤتمر الهندي. أسباب ذلك واقعية جدا: رصف الحزب شارع القرية الرئيس بالاسمنت، ووعد بجعل الوصلات إلى الشبكة الكهربائية التي يستخدمها القرويون لسرقة الكهرباء قانونية وتحسينها. أخبرني القرويون كيف أنهم وعدوا بحفر خمس آبار، وكيف سجل أنها حفرت في سجلات المقاطعة، لكن لم ينجز سوى واحد منها فقط. ولذلك عانى الناس من تناقص المردود وانخفاض المداخيل وازدياد الضغوط والأمراض والخوف والإحباط. فشلت الأمطار الشتوية وأصبح الجدول الكبير مجرد بضع برك من المياه الراكدة.

خليط جاف من الغضب

هذه العوامل الاجتماعية - انسحاب الدولة وصعود زراعة كثيفة رأس المال ونهب المزارعين وعدم كفاءة الإدارة المحلية وفسادها وكلها ضمن مناخ شبه جاف - شكلت جميعها الأزمة الموجودة مسبقا التي يتسلسل عليها تغير المناخ الآن. تساهم هذه العوامل، مثل الحرب ومكافحة التمرد، في التجمع الكارثي للمناخ والفقر والعنف.

من تحت الشجرة أستطيع رؤية لماذا كان لينغا ريدي ساما والمزارعون الآخرون في جامني متشائمين جدا حول الزراعة. كانت لديهم مجموعة واضحة من الأفكار حول السياسات البيئية لما يفعلونه: قطن الـ Bt الذي يزرعونه يدمر الأرض. يقول البعض إن نمو السكان أدى إلى زيادة استغلال الغابات، وهذا كما يعتقدون (بصحة) يؤثر سلبا في هطول الأمطار. وبعيدا على التلال قطع تجاري وغالبا غير قانوني للأشجار. أما هنا، فإزالة الغابات هي منتج ثانوي لوقودهم، ولحاجات البناء المحلية. في الغابات النائية في تشاتيسغار فإن نشاط الناكسال قوي جدا، بحيث إن شرطة الدولة شبه العسكرية مقيمة هناك، ومحصورة ضمن مخيماتها المحصنة - حصون مدعمة بأكياس الرمل والأسلاك والجدران المدعمة والأبراج المجهزة بالبنادق. عندما تخاطر الشرطة بالخروج يكمن لها الناكسال. يجمع رجال العصابات أيضا قواتهم لشن هجمات كبيرة، وفي بعض الأحيان يسيطرون على مخيمات الشرطة شبه العسكرية، ومراكز الاحتجاز. على سبيل المثال، في نوفمبر من عام 2005 اقتحمت عصابات الناكسال سجننا في جيهان آباد في بيهار «مطلقين النار على المكاتب، ومحررين عدة مئات من السجناء». وفي مارس عام 2006 «هاجموا معسكرا للشرطة في تشاتيسغار قاتلين 55 شرطيا، ومستولين على كميات كبيرة من الأسلحة». لقد فجّروا محطات القطارات وأبراج النقل. خلال انتخابات عام 2009 استولوا على قطار ركاب، وأخذوه رهينة، وهاجموا خطا طينيا لنقل خام الحديد بتكلفة عدة مليارات الدولارات⁽⁴⁴⁾.

سلاح الناكسال المفضل هو اللغم الأرضي الذي يفجر بالإشارة. بما أن هذه ليست ألغاما تفجر بالضغط، يمكن زرعها في الطريق قبل شهور من استخدامها: تؤثر الأمطار والأحوال والمواصلات والشمس على منظر الطريق فوق الألغام، بحيث

تشكل تسمية تامة. يصبح من المستحيل اكتشاف الألغام المدفونة تحت الطرقات المرصوفة بشدة، لكن تبقى المتفجرات فعالة ومربوطة بأسلاك طويلة يمكن وصلها بصواعق وإطلاقها كلما كان رجال العصابات جاهزين لذلك.

ومثل الأجهزة المتفجرة المرتجلة، أو الألغام المصنوعة يدويا IED في العراق وأفغانستان، فإن ألغام الناكسال فعالة على مستويات عدة في الوقت نفسه. تكتيكيا تشوه الألغام رجال الشرطة شبه العسكرية وتقتلهم. ونفسيا تتعب المتفجرات العدو وتدمر معنوياته. وسياسيا تعمل الألغام كحاجز اجتماعي بين قوات مكافحة التمرد والناس الذين يريدون التحكم فيهم. الوضع سيئ جدا بحيث إن عناصر من القوة الجوية الهندية تضغط لبدء حملة قصف جوي على أراضي الممر الأحمر العطشى⁽⁴⁵⁾.

فنون مظلمة من الاضطهاد

بدلا من تبني تقنيات الزراعة الخضراء الحديثة بقوة، ودعم المزارعين الذين يواجهون مناخا غير معروف، ركزت الدولة على القمع. نجم الانتصار النسبي على العصابات في تيلانغانا من مزيج شبه مثالي من مكافحة التمرد بأسلوب «البندقية والزبدة» التقليدي. عند الطرف النحيف من الإسفين، هناك فرقة المطاردين التي سبق ذكرها، وهي القوات شبه العسكرية الخاصة لشرطة الدولة. تأسست قوة مكافحة التمرد في أوائل التسعينيات وكانت فعالة جدا. لم تتردد في استخدام العنف، لكنها وظفت قدرا كبيرا من الطاقة في الاستخبارات. هذا يعني أن المطاردين صوبوا عنفهم بشكل فعال. غالبا ما كانوا يتنقلون بثياب مدنية، مسلحين بشدة لكن خفية، ويمرون خلال السكان لكن من دون إعلان، غير مرئيين عادة، على شكل فرق من المقاتلين أكثر من جنود محتلين. كانوا جزئيا قوات خاصة، وجزئيا كتائب قتل.

أجرت قوات المطاردة عمليات بحث وقتل في حزام الغابات في شمال تيلانغانا لسنوات عدة، وما زالت تقوم بذلك. أحيانا يواجهون العناصر المسلحة في قتال ناري. في أكثر الأحيان يقتلون رجال عصابات غير مسلحين، ومؤيدين مدنيين⁽⁴⁶⁾. بمساعدة شبكة من المخبرين المأجورين، وعناصر قبلية غير نظامية

تخدم الدولة، وعناصر سابقة من الناكسال غيرت ولاءها، أمضت القوة المطاردة نصف عقد من الزمن تمسّط التلال، وتمسح المنطقة فيزيائيا واجتماعيا، وتراقب حركة الناشطين جيئة وذهابا، وتتعرف على الشبكات الاجتماعية في القرى - ثم تقوم على طراز عملية فينيكس للجيش الأمريكي في فيتنام الجنوبية - بتحطيم الروابط الاجتماعية الرئيسة بين رجال العصابات والشعب. أي إنهم كانوا يقتلون العناصر المسلحة وغير المسلحة أو الناشطين. تستمر الإستراتيجية، ولو بدرجة أقل. ودوما، عندما يعرض القتلى على وسائل الإعلام - متسخين وملطخين بالدماء وقد ألقوا على الحصى - تعزو القوات المطاردة الاغتيالات إلى الدفاع عن النفس. المصطلح الذي يصف القتل هو دائما نفسه. إنها عمليات «مواجهة» أو صدامات طارئة بين عصابات مسلحة وقوى النظام. في الممر الأحمر هذا هو المصطلح الذي يطلق على إرهاب الدولة⁽⁴⁷⁾.

حدثت ذروة نشاط الناكسال في أندرا براديش في أكتوبر 2003، عندما قام الوزير الأول في الولاية، تشاندرابابو نيدو، بزيارة إلى معبد فينكاتيسوارا الشهير لحضور جزء من احتفال هندوسي. مع مغادرة موكبه للمعبد، رفعت سلسلة من ستة ألغام من نوع كلايتون تفجرت من بعد، الأرض من تحت السيارات في صدمة صامة للأذان ناجمة عن الانفجارات. تشوهت سيارة الوزير المقاومة للرصاص، وانقلبت إلى خارج الطريق. لكن بفضل كفاءة شركة هندوستان موتورز التي أعادت من قبل تجهيزها، بقي نيدو حيا بجروح بسيطة على الوجه والصدر فقط. لكن سائقه وأربعة آخرين من المجلس التشريعي للولاية جرحوا بشكل خطير. كان المهاجمون عناصر من مجموعة حرب الشعب PWG، وهي أحد أكبر الأحزاب الماوية في الهند وأقدمها. «بين الهجوم على نيدو أنه ليس هناك بديل عن العودة إلى الحوار، ومباحثات السلام بين الـ PWG والحكومة». قال أحد المتحدثين باسم الناكسال في العلن، وهو غادار، المغني الشعبي المحبوب الذي يميل إلى اليسار، والذي يستعمل اسما واحدا فقط⁽⁴⁸⁾. بالفعل كان الهجوم إحدى أكثر غارات الناكسال شهرة حتى الآن، ليس بسبب حجمه لكن بسبب هدفه: كانوا على وشك قطع رأس حكومة ولاية. رثت صحيفة السياسة والاقتصاد الأسبوعية^(*) التأثيرات:

(*) The Political and Economic Weekly.

مع دعر حكومة الولاية من محاولة اغتيال تشاندرا بابو نيدو، وانزعاج مجموعة حرب الشعب PWG من فشل محاولتها، صلب كلا الجانبين موقفيهما الانتقاميين، ومن المحتمل أن تمر أندرا براديش بدورة أخرى من القتل الشرس. سيكون الضحايا من الرجال. ستستهدف الشرطة قرويين فقراء وناشطي حقوق الإنسان: على أنهم «ناكسال مشكوك فيهم» (كما فعلوا عند الإغارة على بيت زعيم حركة الحريات المدنية القديم كانابيران)، وستقبض عليهم أو تقتلهم في عمليات مواجهة مزيفة. وستقوم مجموعة حرب الشعب PWG بدورها برد الفعل على بعض المسؤولين من القرويين أو الموظفين الخاضعين لحكومة الولاية، متهمة إياهم بأنهم «مخبرون»، وبتنفيذ الغضب بإشعال النار في بعض محطات القطارات أو أماكن انتظار الباصات⁽⁴⁹⁾.

بعد التفجير ضد الوزير الأول نيدو صعدت شرطة أندرا براديش من عملياتها. أعادت حكومة نيدو فتح المفاوضات مع مجموعة حرب الشعب PWG. (كانت المحادثات تجري منذ يونيو 2002، لكن هجوما كبيرا على حافلة مملوءة بالشرطة أوقفها) أمرت الشرطة بالانسحاب، وحث المتمردون على فعل الشيء نفسه. «لدينا تقارير تفيد بأن هناك مجموعات تجول في القرى بأسلحتها. نطلب منهم عدم التنقل مع أسلحتهم»، قال وزير داخلية أندرا براديش⁽⁵⁰⁾.

أجريت المحادثات الأولية عبر مبعوثين كان أحدهم مؤلفا ناكساليا شهيرا أعطاني وصفه للحادثة ظهر يوم حار في حيدر أباد اسمه فارافارا راو. «لم تكن الحكومة جادة»، قال المؤلف العجوز. «كانوا يستخدمون المحادثات للبحث في شبكات الناكسال». بحلول عام 2005 ألقى القبض على فارافارا نفسه، واتهم باغتيال رجال الشرطة. ومع ضربات مطرقة الولاية مرة أخرى أخبر الصحافة: «حزب المؤتمر مثل سم حلو. بينما استبعدت حكومة TDP (الحزب المحلي) دوما المحادثات معنا، يتكلم حزب المؤتمر عن السلام، لكنه يقتل الثوريين في مواجهات مدبرة».

كان وقف إطلاق النار في أندرا براديش، وفي ولايات أخرى في نهاية المطاف جزءا من خدعة وإستراتيجية أكبر لطرد الشبكات السرية لمجموعة حرب الشعب PWG بحيث تتم تصفيتهم وسجنهم. بدأت الحكومة الاتحادية أخيرا في الإعلان عن مكافحة تمرد على ثلاثة محاور: مخابرات مدعومة على مستوى الولاية، وقمع بوليسي مستدام مدفوع مخابراتيا، وتنمية متسارعة في المناطق التي يؤثر فيها الناكسال. بين عام 2003

و2005 أعلن أكثر من 1500 ضحية كل عام من كل من الولايات الإحدى عشرة المتأثرة بعنف الناكسال. قتل أكثر من ثلاثمائة شرطي خلال تلك الفترة⁽⁵¹⁾.

بذر الفوضى

وصل عنف الناكسال في أندرا براديش إلى ذروته بعد عام 2005 مباشرة⁽⁵²⁾. في النهاية، برهنت قوة المطاردة على أنها أقوى مما يتحمله الناكسال في تيلانغانا، وتقهقر الماويون إلى غابة تشاتيسغار وتكاثروا هناك. في تلك المقاطعة طورت الشرطة قوة من الدفاع المدني دعيت سالفًا جودوم، وهي تعني باللهجة الغوندية المحلية «السير نحو السلام». في البداية كانت عبارة عن منظمة عضوية للدفاع الذاتي، لكن الدولة ضمتها بعد ذلك. أصبح الاشتراك إلزاميا، وأصبحت هذه «القوة الثالثة» تابعا مسلحا لقمع الشرطة⁽⁵³⁾.

ضمت المليشيات الجديدة العديد من عناصر الناكسال السابقين، وبهذا الشكل فهي تشبه دوريات المدنيين في مكافحة التمرد في غواتيمالا، أو المليشيات الأولية في كولومبيا⁽⁵⁴⁾. في يناير عام 2009 سجلت لجنة الحريات المدنية في أندرا براديش أن «مواجهة» واحدة في تشاتيسغار كانت حقا مذبحة لـ 18 قبايلين من جانب عناصر سالفًا جودوم مسلحين ومدعومين من الشرطة⁽⁵⁵⁾. يقول المنتقدون إن المراقبة المدعومة حكوميا لجماعة سالفًا جودوم أجبرت أكثر من 50 ألف شخصا على اللجوء إلى مخيمات اللاجئين على جانبي الطرقات⁽⁵⁶⁾.

الحرب الأهلية الهندية مثال واضح على التجمع الكارثي. يلتقي فقر أصبح أكثر سوءا بسبب الليبرالية الجديدة بمكافحة تمرد، وتواجه أزمة بيئية مدفوعة مناخيا بالقمع. لو فشلت أقطار المونسون، أو لو هطلت بشدة، فسيهدد الماويين وقوات المطاردة وسالفًا جودوم جميعهم بلعب دور من عدم الاستقرار المتزايد في السنوات القادمة. إنهم بالضبط أشكال من القوى النابذة غير المسؤولة، ومن الجريمة المنظمة التي يتركها التمرد ومكافحة التمرد خلفهما لتشويه النسيج الاجتماعي المشوه مسبقا. تطلق الحرب الشاملة على مستوى الجذور - وهي الآن الاستجابة المفضلة للأزمة الاجتماعية، والفوضى العنيفة - سياسة تنتج فسادا وانحرافا وأذى وأمراضا مدمرة - لا يفيد أي منها في مواجهة التغير المناخي.

الناكسال هم مصدر واحد فقط لعدم الاستقرار. كان رئيس الوزراء مانموهان سينغ مصيبا عندما قال بأن الهند قابلة للتشظي. على الرغم من الانتصار القوي للتحالف الذي يقوده حزب المؤتمر في انتخابات عام 2009، فإن سياسة البرلمان في البلد تحدد من قبل أحزاب سياسية إقليمية مستقلة بشدة، وبزعماء لهم حضور محلي قوي⁽⁵⁷⁾.

يشهد التوتر الاجتماعي عبر الريف الهندي. هناك عنف متشنج داخل المجتمعات بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين. تغذي الهجرة الجماعية للمسلمين من بنغلاديش إلى مناطق يهيمن عليها الهندوس من الهند القومية الدينية في المجتمعين. يتاجر حزب بهراتيا جاناتا BJP من المتعصبين الهندوس بفاشية الخوف من الإسلام. في الوقت نفسه تدعم باكستان مجموعات إرهابية مسلمة، وهناك في الشمال الشرقي انفصاليون مسلحون يقاتلون من أجل دولة مستقلة في آسام. عبر الشمال الجاف الوعر تستمر اللصوصية الاجتماعية، وفي المدن الضخمة المتنامية مثل دلهي ترتفع معدلات الجريمة بسرعة. هذه المشاكل تنتظر في أفق التاريخ الهندي، مهددة بأن تصبح أسوأ بكثير مع اشتداد تغير المناخ.

في مدن الجنوب أنتجت تقنية المعلومات والعملية الاقتصادية المثمرة طبقة من أصحاب المليارات الجدد⁽⁵⁸⁾. مع ذلك لا تستطيع القيادة السياسية الهندية، أو أنها لا تريد. تقديم الكهرباء والماء والرعاية الصحية والتعليم الأساسيين لغالبية السكان. وفقا لمؤشر الفقر متعدد الأبعاد الجديد للأمم المتحدة يعيش فقراء في ثماني ولايات هندية، أكثر مما يعيش في أفريقيا جنوب الصحراء بكاملها. على الطبقات الحاكمة في الهند أن تستيقظ، أو أن تغير المناخ سيحطمها. كيف يجب أن تكافح الهند الناكسال؟ بالتكيف مع تغير المناخ وإعادة التوزيع الاقتصادية والعدالة الاجتماعية والتنمية المستدامة.

الجزء الرابع
أمريكا اللاتينية

وجع ريو: من طقس عنيف إلى «كوكب من العشوائيات»

يجب أن يسعد موت الأشكال المعاصرة
من التنظيم الاجتماعي الروح بدلا من
أن يزعجها. لكن ما يخيف هو أن العالم
المغادر لا يترك وراءه وريثا، بل أرملة
حبلى. بين موت شخص وولادة شخص
آخر ستجري مياه كثيرة، وسيعبر ليل
طويل من الفوضى واليأس.

ألكسندر هيرزن (*)،

حول فشل ثورات 1848.

طوفت حوامة الشرطة السوداء فوق ريو.
وأمامنا لاح تمثال المسيح الضخم على قمة
الجبل بذراعيه الممدودتين نحو المدينة، وتحتنا
امتد شاطئ إيباننما الطويل الواسع. وبرا من
الأحياء الفخمة المطلة على الماء، ارتفعت جبال

(*) ألكسندر هيرزن (1812 - 1870)، كاتب ومفكر لقب بأبي
الاشتراكية الروسية. [المحررة].

«لفهم التجمع الكارثي، علينا أن نفهم
أولا الأزمة المؤسسة للعنف والفقير،
حيث يضاف إليهما الآن التغير
المناخي المتسارع»

المؤلف

شاهقة من صخور صلبة، تعلوها غابة خضراء. وعلى طول هذه المنحدرات الحادة، صفت عشوائيا الفافيلات favelas^(*)، وهي الأحياء المكتظة غير المنظمة للفقراء والطبقات العاملة.

إذا كانت المفارقة بين الشواطئ البيضاء والجبال المعتمدة تحدد جغرافية ريو على بطاقة السياحة، فإن عدم المساواة السريالية لشقق فاخرة تطل عليها عشوائيات فقيرة هي التي تحدد المشهد الاجتماعي لريو. الفافيلات الموبوءة بالفقر والجريمة، والتي بُنيت في البداية من قبل مستوطنين جاءوا من الريف الشمالي الشرقي، وسميت على اسم أعشاب صلبة من تلك المنطقة، هي الدمامل المفتوح على ابتسامة ريو المرحبة.

العيش في سكن عشوائي يطل على أحياء ثرية على الشاطئ هو تحريض بشدة فريدة. تجعل هذه المفارقة من ريو التجسيد الجغرافي لـ «الفقر النسبي». يبين علم الاجتماع أن العوز المطلق والفقر وحدهما لا يسببان العنف. إنه العوز المجرب بالعلاقة مع وضع الآخرين، أو بالعلاقة لما يمكن أن يكون، أو يجب أن يكون، أو كان مرة، هو الذي يؤلم أكثر، ويحرض على الجريمة والتمرد والعنف⁽¹⁾. لذا فالعوز النسبي يحطم التجانس الاجتماعي ضمن المجتمعات⁽²⁾.

كان رجال الشرطة يأخذونني في رحلة للاطلاع على هذه الجغرافيا الغريبة، ويشرحون لي كيف يديرونها بالعنف، وحول هجومهم الجديد ضد مسلحي الفافيلات. مع اقترابنا من فافيتا فيديغال، قاد الطيار الحوامة فوق الماء على شكل قوس دفاعي عريض. فيديغال «معادية»، وهي تحت سيطرة الكوماندو فيرميلهو، إحدى العصابات في ريو، التي اشتهرت بإطلاق النار على حوامات الشرطة. أكد الطيار الشاب المغرور، بلباس القفز الأزرق ونظاراته السوداء، على الإشارة إلى ثلاثة ثقب ثقب رصاص مرقعة حديثا قرب مروحة ذيل الحوامة قبل أن نطلع مباشرة. عطل مروحة الذيل، وستخرج الحوامة عن السيطرة.

في أكتوبر العام 2009 أسقط مسلحو الفافيلات مروحية للشرطة خلال يوم من إطلاق النار لمجموعتين متنافستين من العصابات مع الشرطة. قتل 3 ضباط شرطة

(*) فافيتا (Favela) من البرتغالية، حي من السكن العشوائي المنتشر في مدن البرازيل الكبرى، مثل ريو دي جانيرو. [المترجم].

وجرح 4 بشكل خطير. قتل 12 مدنيا أيضا، وفي المنطقة المحيطة فجر الشباب 10 حافلات. بعد عام تكرر الأمر: قتلت غارات الشرطة 13 شخصا، ثم حرق أعضاء العصابة 15 حافلة خلال 4 أيام من العنف⁽³⁾.

بالفعل تدير عصابات ريو الفافيلات وتجارة المفرق للمخدرات في المدينة. ضمن الفافيلات يخلون الرشاشات علنا كما لو كانوا من الشرطة، ويفرضون الضرائب على المجتمعات المحلية كما لو كانوا موظفي ضريبة الدخل، ويديرون محاكم غير رسمية، ويصدرون العقوبات كأن لديهم قانونا شرعيا. اسرق هاتفا خليويا، تحصل على طلقات على اليدين والقدمين. بلغ عن شخص؟ توقع الإعدام.

بحجمها المقارب، يبلغ معدل جرائم القتل في ريو 6 أمثاله في نيويورك. في العام 2009 قتل نحو 5000 شخص هنا. تدخل الشرطة الفافيلات لشن غارات قصيرة وعنيفة فقط - يصلون في الليل بقوافل مسلحة للسلب والتعذيب والقتل. في معظم العشوائيات لم يؤسسوا محطات ثابتة لهم. ووفق تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان هيومان رايتس ووتش تقتل شرطة ريو أكثر من 1100 شخص كل عام. لم يتم الحكم سوى على 4 ضباط من الشرطة في ريو بإساءة استعمال السلطة خلال العقد الماضي. لكن رجال الشرطة في ريو يواجهون مخاطر أخرى: مات نحو 90 شرطيا في أثناء تأديتهم الواجب في العام 2009.

إذا لم يكن هذا كافيا هناك الآن مصدر ثالث يغذي العنف: شكل رجال الشرطة والإطفاء وحراس السجون خارج الخدمة ميليشيات للتصدي للعصابات. يمكن لهؤلاء المتطوعين أن يكونوا مجرمين مثل أعدائهم. في العام 2008 عذبت ميليشيات كهذه صحافيين من أكبر صحيفة في المدينة. يبدو الوضع بصورة متزايدة وكأنه حرب منخفضة المستوى.

التجمع الكارثي في المدن

لماذا يوجد الكثير من الناس في ريو؟ لماذا هي عنيفة بهذا الشكل؟ وماذا سيفعل التغير المناخي لأماكن مثل ريو؟ قررت أن أستكشف هذه المدينة العملاقة، لأنها تبين كيف يتم التعبير عن الأزمة المناخية في الريف على شكل عنف في المدن. كان أحد أهم التحولات الكبيرة خلال الـ 50 سنة الماضية هو نمو المدن السريع في العالم.

تستمر هذه العملية، ويساعد تغير المناخ الآن على تغذية الهجرة من الريف إلى المدينة. تسمح ريو لنا بالتنبؤ بالقضايا السياسية المرتبطة بتغير المناخ، لأنها من نواح عدة مدينة ناجمة عن الطقس العنيف في أماكن أخرى. غذى غط قاس من الجفاف والفيضانات على بعد مئات الأميال في الشمال الشرقي الجاف من البرازيل، أو نورديست، نمو ريو. ومع ازدياد الطقس عنفا وفوضوية نتيجة الاحترار العالمي، ستزداد الهجرة من الريف إلى المدينة.

أدت اختلالات في أنماط نطاق التقارب بين المدارين إلى صدمات طقس عنيفة - فترات طويلة من الجفاف تخللتها فيضانات شديدة - جعلت زراعة الكفاف في الشمال الشرقي أكثر صعوبة. يتجه المزارعون المهجرون من المنطقة - لاجئو المناخ في الداخل - جنوبا إلى المدن العملاقة مثل ريو وساو باولو. هناك يحصرون ضمن المدن العشوائية (الفافيالات)، ويجذب الكثير من الشباب إلى دوامة الاقتصاد التحتي، كرنفال البنادق والمخدرات والمال والجنس والموسيقى والتضامن والاحترام. لذا بتهجير الناس إلى الفافيالات، يغذي الطقس العنيف المرتبط بتغير المناخ حروب الجريمة في ريو.

ريو أيضا تواجه طقسا عنيفا. بعد زيارتي مباشرة أسقطت عاصفة استثنائية 12 بوصة من الأمطار على المدينة خلال 24 ساعة تقريبا - وهو أسوأ هطول في تاريخها المسجل. غرقت الطرقات بمياه الصرف الصحي، وتوقفت المواصلات في الازدحام طوال اليوم، وسقطت قطع من مدن الصفيح إلى أسفل الهضبة، ومات أكثر من 100 شخص. وفي يناير شهدت ساو باولو طقسا مماثلا؛ حيث حطم نهران ضفتيهما، وأصبح الآلاف مؤقتا بلا مأوى، وغرق 64 شخصا⁽⁴⁾. لكن خط الجبهة الأمامية الحقيقي لتغير المناخ في البرازيل هو منطقة الشمال الشرقي الجافة.

نظم مناخ عادية جديدة

منذ السبعينيات عانى الشمال الشرقي جفافا متزايدا، وهو الآن يضرب بانتظام بالفيضانات الجارفة أيضا. شهد صيف العام 2010 فيضانات عارمة، وكذلك في السنة التي سبقتة. قتل نحو 50 شخصا وجعل 120 ألفا بلا مأوى ومسح 1200 ميلا من الطرقات، ودمر 80 جسرا على الأقل. كانت الأزمة سيئة لدرجة أن الرئيس لولا دي سيلفا اعتذر عن حضور مؤتمر قمة العشرين⁽⁵⁾.

يشكل هذا النمط العادي الجديد من الفيضانات والجفاف والعواصف الاستثنائية جزءاً من نموذج أوسع للطقس العنيف يقول العلماء إنه ناجم عن تغير المناخ بفعل الإنسان، ويتنبؤون بأنه سيضرب الشمال الشرقي من البرازيل بشدة أكبر. وعلى الرغم من تحفظهم في الإشارة فإنه لا يمكن إلقاء اللوم بشكل أكيد على تغير المناخ من حادثة واحدة للطقس، بيد أن النموذج الأوسع يمكن أن يكون نتيجة لتغير المناخ هذا. خذ نتائج التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC الذي يقول: «خلال العقود الأربعة الماضية خضعت أمريكا اللاتينية لتأثيرات متعلقة بالمناخ جراء ازدياد حدوث ظاهرة النينو... ازداد حدوث كوارث مرتبطة بالمناخ بنحو 2.4 مرة بين الفترات 1970 - 1999 و 2000 - 2005، متابعاً بذلك الميل الملاحظ خلال التسعينيات»⁽⁶⁾. ويلاحظ التقرير بعد ذلك أن تكرار دورات الجفاف الطويلة في الشمال الشرقي شبه الجاف من البرازيل أنتج هجرة من الريف إلى المدن لمزارعي الكفاف، وزيادة في انتشار الأوبئة.

يتحدر الكثير من سكان الفافيلات من المنطقة الشمالية الشرقية للبرازيل. ديجاسير ألفيس الذي قابلته على سلم في فافيلادو مورو دوس كابريتوس نموذج لذلك. هاجر إلى ريو من فارغوتا في سيارا «أتيت هنا للعمل، منذ عشرين عاماً تقريباً، كانت عائلتي تعمل بالزراعة، كانت لنا عائلة كبيرة، لكن بقي شخصان منا فقط يعملان في الأرض. يقومون بزراعة الكفاف. من الصعب جداً تدبر أمور المعيشة هناك. والآن تزداد الأمور صعوبة هناك بسبب زيادة الجفاف».

عمل ألفيس بـ «أنواع العمل جميعها» في ريو - البناء والخدمات وجمع التذاكر في الحافلات. ومتحدثاً من على هذه التلة المغطاة بالإسمنت، بطرقها المحاطة بالأسوار، وبتكتل بيوتها المبنية يدوياً، كان ألفيس يلبس نعلاً، وقميص كرة قدم أخضر؛ بدت الزراعة والأرض له بعيدين جداً من ذكريات الماضي.

في العهد الاستعماري ازدهرت المنطقة الشمالية الشرقية في البرازيل باقتصاد يقوم على المزارع الساحلية وصناعة القطيع. ثم حُرِضت دورات الجفاف في سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر الهجرة المستمرة لفقراء المنطقة. وخلال معظم القرن العشرين بقيت الزراعة البرازيلية متخلفة وبدائية. وعلى النقيض من العديد من دول أمريكا اللاتينية كالمكسيك وبوليفيا، لم تقم في البرازيل أبداً ثورة بورجوازية

حقيقية تحد من سلطة حكم الأقلية الإقطاعية، وتفرض الإصلاح على ملكية الأراضي. استهدف برنامج إعادة التوزيع في الثلاثينيات (إيستادو نوفو) عمال المدن والطبقات المتوسطة فقط⁽⁷⁾. جلب الانقلاب العسكري العام 1964 برنامجا تقوده الحكومة يهدف إلى التحديث السريع في الزراعة، لكنه لم يشمل إعادة توزيع الأراضي. حتى هذا اليوم يمتلك نحو 3 في المائة من السكان في البرازيل ثلثي الأرض تقريبا⁽⁸⁾. سبب التحديث الزراعي على شكل ثورة خضراء واستخدام الآلات بظالة ريفية متزايدة، وبالتالي زيادة الهجرة إلى المدن. وبحلول 1972 كانت المحاصيل الرئيسة كالقمح وفول الصويا مميكنة بنسبة 60 في المائة. انتقل العمال الريفيون المزارعون إلى المدن وبنوا الفافيلات⁽⁹⁾. في العام 1940 عاش 15 في المائة فقط من السكان في المدن. بحلول 1970 وصل هذا الرقم إلى 50 في المائة⁽¹⁰⁾. واليوم يعيش أكثر من 80 في المائة من البرازيليين في المدن. ونرى الآن نذر موجة جديدة من الهجرة مدفوعة بالطقس الغريب الناجم عن نظام مناخي منهار.

الاضطهاد في العشوائيات العملاقة

يعبر عن الضغط الاجتماعي في المدن - المدفوع إلى حد ما بأزمة مناخية اجتماعية في الريف الشمالي الشرقي - بالعنف الإجرامي والقمع الحكومي. بعد ترك الفيفلات راكدة لعقود، تتحرك الدولة الآن لإعادة السيطرة عليها. تعمل الاستراتيجية كما يلي: أولا تجتاح القوات الخاصة العسكرية لشرطة ريو - المعروفة بالمصطلح البرتغالي BOPE - الفيفلات، وتقمع العصابات. ثم تؤسس وحدات من الشرطة العسكرية النظامية قواعد دائمة لها، وتبدأ بالقيام بدوريات. ما إن يتم تأمين منطقة، حتى تنتقل إليها الخدمات الحكومية فورا - كالرعاية الصحية والتعليم والتجهيزات الثقافية والمحاكم المدنية. أو هذه هي الخطة على الأقل. يدعونها التهدة؛ إنها عملية مكافحة تمرد، بيد أن العدو شبح وتهديد هلامي وبيئة إجرامية وعصابات وفوضى وليس متمردا صلبا.

عندما كنت في ريو في أوائل 2010، كانت نحو عشرة من فافيلات المدينة البالغ عددها ألفا تقريبا تخضع لعملية التهدة. كان سكان الفافيلات منقسمين في رؤيتهم لهذا الاحتلال. لم تكن العصابات مسرورة، ولذلك كانوا يثأرون من المجتمع الأكبر

بإحراق حافلات النقل «على الأرصفة»، كما تدعى ريو خارج الفافيلات. «من يملك البنادق هو القانون». شرح كلوديو كارفالها، رئيس هيئة السكان في دو مورو في دوس كابريتوس. لسنوات، كانت هذه الفافيلات عرضة لصراع مستمر بين عصابة فيرميلهو، وعصابة منافسة تدعى آميغوس دوس آميغوس (أصدقاء الأصدقاء). «عندما يجرح واحد منهم، يرمونه جانبا - نصف ميت، وهو ينزف - على لجنة السكن، ويتوقع منا أن نأخذه إلى المشفى» شرح كلوديو.

في دونا مارتا، وهي أول فافيليا احتلت في نوفمبر 2008، وقيل إنها نموذج للبرامج الاجتماعية، قابلت مجموعة من الشباب العاطل عن العمل. ربما التحقوا أولا كجنود مشاة في الكوماندو فيرميلهو، لكنهم نظروا إلى الاحتلال على أنه عصا بالكامل من دون جزرة.

«إنهم يضربون الناس»، قال رجل قصير موشوم في الثالثة والعشرين من العمر يدعى ماكس. كان يلبس بنطالا قصيرا أحمر، ونعلا بلاستيكية، ويتكى على جدار الكوخ الخشبي القديم حيث يعيش مع زوجته أماندا. صدح راديو صغير بتيار ضئيل من موسيقى الهيب هوب البرازيلية الراقصة، بينما تغسل أماندا الصحون تحت صنوبر ماء خارج البيت، وخارج السلم الرئيس مباشرة. تجمع قلة من الشباب الآخرين بشورتات قصيرة من دون قمصان في الحرارة ونحن نتكلم.

«معظم الناس يريدون أن ترحل الشرطة من هنا، وتعثر على شخص آخر لتضطهده»، قالت أماندا «إنهم يعاملوننا كأننا مجرمون. إنهم يجبروننا على البقاء في البيت بعد الحادية عشرة. لو كنت تملك ما يعتقدون أنه كمية كبيرة من المال، فإنهم سيأخذونها منك».

«إنهم يدفعوننا كلما دخلنا إلى الجمعية أو خرجنا منها»، قال شاب آخر بذراعين موشومتين بكثافة يدعى المور (المغربي) «إنهم يعتقلوننا لجرائم صغيرة، يفسوننا ويقبضون على أعناقنا، ويفتشوننا ويركلون أبوابنا ويضربوننا. إنهم يفعلون ما يريدون. ولا يمكننا مقاومتهم وإلا قتلنا».

«إن هذه الرؤية الاجتماعية غير مدروسة بشكل جيد»، قال ماكس. «وعدونا بخدمات الحضانة والرعاية والمستوصفات والوظائف. لكن كل ما أراه هو الشرطة».

الانتكاسة على الطريقة البرازيلية

يحتاج العلماء بأن أزمة العنف في البرازيل متجذرة في تاريخها المتمثل في الرق، وغزو المناطق الحدودية . هذا صحيح، لكن الأصول الأحدث تقع في عدم المساواة الاقتصادية الشديدة في البلد، والصراعات الطبقيّة العنيفة التي حرضت عليها. قوبلت التنظيمات العمالية لفترة طويلة بالقمع الوحشي. من العام 1964 إلى العام 1985 عانت البرازيل ديكتاتورية عسكرية مباشرة، وعقد من «حرب قذرة»؛ ومن ذلك العصر من التمرد والقمع، تشهد الآن نوعاً من الانتكاس. في هذا التاريخ، نشاهد عنصرين من التجمع الكارثي يؤديان دورهما: إعادة هيكلة اقتصادية على طريقة الليبرالية الجديدة، وعنف الحرب الباردة.

تعود أصول قصة أضخم عصابة في ريو وأقدمها إلى الصراع المسلح للحرب الباردة، خاصة في قصة الديكتاتورية العسكرية اليمينية، والمقاومة الماركسية لها. بحسب مقاتليها القدامى، أسست عصابة الكوماندو فرميلهو CV في منتصف السبعينيات في سجن كانديدو ميندس في إلهاغراند عندما سجن رجال العصابات مع المجرمين العاديين.

وكمعظم دول أمريكا اللاتينية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، شهدت البرازيل صعود رجال عصابات المدن الذين عارضوا الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي. في العام 1968 نجح مغاوير من عصابة MR8 الصغيرة حتى في اختطاف السفير الأمريكي تشارلز إلبريك. الرجل الذي نسق عملية الاختطاف، فرناندو غابيارا، هو الآن صحفي مشهور، ومؤلف وسياسي يساري. بني الفيلم «أربعة أيام من سبتمبر» على هذه الأحداث. عنصر آخر مشهور في العصابات سابقاً وسجينة سياسية من تلك الحقبة، هي ديلما فانا روسيف، أول رئيسة للبرازيل.

لم يتوافر لكل ثوري مثل هذا المستقبل المهني اللامع. قابلت الديكتاتورية العسكرية اليساريين بعنف شديد من قبل فرق الموت والتعذيب والاعتقال. طبقت على نطاق واسع قانوناً فضفاضاً للأمن القومي، سمح باحتجاز أي شخص يظهر أدنى علامة من البوهيمية - يمكن لشعر طويل وغيتار أن يتسبباً في اعتقال شخص. يتوافر تاريخ كامل من القمع بفضل أرشيدوقية ساو باولو الكاثوليكية، التي جمعت فريقاً سرّياً من المحامين لنسخ وثائق ونشرها بطريقة غير شرعية من

707 محاكمة عسكرية سرية، تشمل 7367 متهما⁽¹¹⁾. أظهرت الملفات المختلصة أن التعذيب والقتل كانا شائعين، وعندما نشرت خلاصة عنها بعنوان «البرازيل: أبدا مرة أخرى»^(*)، أصبحت فجأة أفضل الكتب مبيعا⁽¹²⁾.

وبينما برزت بعض العناصر من الثورة يعد ذلك في مجال السياسة، شكلت بعض العناصر الأخرى المحرومة الجيل الأول من زعماء كومانندو فيرميلهو CV (تشكلت عصابات أخرى بعد ذلك بالانفصال عن CV). وكما يكتب بين بينغلازي «بمعنى مباشر نوعاً ما، كانت عصابة كومانندو فيرميلهو الطفل غير الشرعي لمحاولة الديكتاتورية قمع المعارضة السياسية المسلحة»⁽¹³⁾.

من مقاتلي حرب العصابات إلى عصابات

خلف القضبان نظم ناشطون سياسيون في سجن كانديدو مينديس أنفسهم ثم توحدوا مع المسجونين من عامة الشعب. شاهد المجرمون العاديون كيف حافظ السجناء السياسيون على وحدتهم، وكيف حصلوا من خلالها على القوة، وعلى مستوى أعلى من المعيشة. كان السجناء السياسيون «يتشاركون في أي طعام أو مال يتلقونه من خارج السجن، ويفرضون نظاما صارما يمنع السجناء من مهاجمة وسرقة بعضهم بعضا، وهي أمور شائعة في السجون. تضامن السجناء السياسيون أيضا مع بعضهم بعضا للدفاع عن أي معتقل سياسي يهاجم من الحراس، أو من سجناء آخرين، والمطالبة بظروف أفضل»⁽¹⁴⁾.

كان أول سجل مكتوب عن هذا التاريخ هو «أربعمئة ضد واحد»، وهي مذكرات وليام دي سيلفا الذي ساعد وهو شاب في السجن في بدء عصابة الكومانندو فيرميلهو CV. يصف دي سيلفا كيف أن أول مجموعة «حمراء» في السجن كانت كتائب ال LSN التي قتلت في العام 1979 زعماء عدد من المنظمات السياسية المنافسة، وتولت السيطرة على السجن بكامله، وأصبحت الكومانندو فيرميلهو CV، ثم فرضت قواعد ثورية جديدة. شملت هذه القواعد بحسب دي سيلفا «الموت لأي شخص يهاجم سجناء آخرين أو يغتصبهم، وترك النزاعات من الشارع خارج السجن، واستخدام العنف لمحاولة الهرب فقط، والنضال المستمر ضد الإهانة والاضطهاد»⁽¹⁵⁾.

(*) Brasil: Nunca Mais.

امتد هذا النظام وهذه الوحدة سريعا إلى الفافيلات. كانت الفكرة دعم السجناء المفرج عنهم، والتحكم بالمجتمعات، بما في ذلك تجارة المخدرات، استعدادا للقيام بثورة في ريو وما وراءها. عملت الـ CV كمنظمة سياسية وجمعية خيرية للسجناء والمحكومين سابقا. وصلت إلى المجتمعات المحلية، وتسلمت باسم الأمن الذاتي والثورة، وبدأت بفرض ضرائب على تجارة المخدرات⁽¹⁶⁾. قضي على الجيل الأول من زعماء الـ CV المتطرفين سريعا، وبحلول منتصف الثمانينيات كانت الكوماندو فورميلهو (CV) قد أصبحت مجرد عصابة أخرى من عصابات المخدرات، ولو أنها كانت كبيرة جدا، ومنظمة جيدا.

ومع بدء الـ CV بالصعود، بدأ الاقتصاد السياسي الأكبر للبرازيل بعملية تحول قوية باتجاه النمط الليبرالي الجديد. كانت سلسلة المراحل الأولى من تجمع كارثي في طور التشكل: عنف سياسي يواجه موجة جديدة من الفقر.

برازيل الليبرالية الجديدة

كان الوقت العام 1983، وكانت الياقات ماتزال واسعة، والسوالف طويلة، والمحتجون غاضبين. سار العمال الصناعيون العاطلون عن العمل حديثا - الآلاف منهم - في شوارع ساو باولو. تسقط الحكومة العسكرية! وصل هؤلاء الناس إلى أقصى قدرتهم على التحمل. هتف البعض: «الناس المتحدون لن يهزموا أبدا»، لكن آخرين صرخوا فقط «نحن جائعون!».

بينما كان الكوماندو فيرميلهو CV يتحركون نحو الفافيلات، كان الاقتصاد البرازيلي يجشو على ركبته، وكانت الاحتجاجات دليلا على ذلك. في الأسبوعين الأولين من يناير طرد 14860 عاملا في ساو باولو. في الوقت ذاته كانت الدولة تنفذ إجراءات تقشفية: قطع الخدمات العامة، والمعونة للفقراء، والدعم للصناعة. في أوائل أبريل تصاعد الغضب: سار العاطلون عن العمل محتجين، ليواجهوا بـ 10 آلاف من شرطة مكافحة الشغب. سرعان ما تحولت الهتافات والاحتجاجات إلى رمي الحجارة والسلب. ردت الشرطة بإلقاء وابل من قنابل الغاز المسيل للدموع، وبالهجوم والضرب المبرح. استمر العنف لمدة ثلاثة أيام، ونهب على الأقل 11 مخزنا كبيرا، والعشرات من المخابز. هاجم الآلاف من المحتجين - وهم يصرخون طلبا للوظائف - قصر حاكم الولاية. ألقت الشرطة القبض على أكثر من 450 شخصا، ووصلت الأضرار إلى 1.5 مليون دولار⁽¹⁷⁾.

كانت البرازيل تدخل في مرحلة مؤلمة من إعادة الهيكلة الاقتصادية. بانغماسها في الدين، توجهت الحكومة إلى صندوق النقد الدولي IMF والبنك الدولي WB للحصول على قروض جديدة، لكن المساعدة الطارئة جاءت مع شروط اقتصادية جديدة وصارمة. لموازنة الحسابات، كان على البرازيل أن تتحمل موجة من الفقر المدقع، والبطالة والجوع والتشرد والإحباط.

كان هذا هو السياق الذي تم فيه صعود تجارة المخدرات، والكوماندو فيرميلهو CV من سجون ريو إلى الفافيلات. لفهم التجمع الكارثي علينا أن نفهم أولا الأزمة المؤسسة للعنف والفقر اللذين يضاف إليهما الآن التغير المناخي المتسارع.

من تصنيع إحلال الواردات إلى صندوق النقد الدولي

كالعديد من الاقتصاديات النامية، اتبعت البرازيل منذ الثلاثينيات نموذجاً من التصنيع الموجه من الدولة بقصد إحلال الواردات ISI^(*). وصولاً إلى هذا النهج كرد فعل على انهيار أسواق صادراتها التقليدية خلال الكساد الكبير، شمل هذا النوع من التنمية الرأسمالية الموجه من الدولة تآلفاً صعباً بين أرباب العمل والعمال، تقوم فيه الدولة المتدخلة بدور الوساطة. ولقاء الانضباط في العمل، أنشأت الدولة برامج الضمان الاجتماعي، وسمحت برفع الأجور للنخب من العمال. نظم الاستثمار والتمويل، وكانت البنوك غالباً مملوكة للدولة. خلال الثلاثينيات والأربعينيات واستجابة للكساد الكبير والحرب العالمية الثانية، تجذرت أشكال من التعاون في أماكن عدة. نفذت أحياناً سياسات تشاركية في ولايات ديموقراطية، كشاهد على الصفقة الأمريكية الجديدة^(**). في أحيان كثيرة قدم التحالف التنموي بين العمال ورأس المال من قبل دول سلطوية «مستقلة نسبياً» كإيطاليا وإسبانيا والبرتغال واليابان وبوليفيا والأرجنتين في منتصف القرن العشرين.

كانت الصناعة والأسواق المحلية محمية بشدة. على سبيل المثال، بلغت التعرفة الجمركية في البرازيل على الواردات المصنعة العام 1960 تقريباً عشرة أمثال تلك التي كانت تفرضها السوق الأوروبية المشتركة EEC - 165 في المائة في البرازيل

(*) تصنيع بقصد إحلال الواردات Import - substitution industrialization (ISI).

(**) الصفقة الجديدة (New Deal) هي الإجراءات التي اتخذتها حكومة الرئيس روزفلت في الثلاثينيات للخروج

من الكساد الكبير. [المترجم].

مقابل 17 في المائة في ال EEC⁽¹⁸⁾. تمت حماية الصناعة الوليدة والمؤسسة جيدا بشدة ضد المنافسة الأجنبية. تحت هذا النظام تمت الصناعة بقوة، لكن من دون تساو. كانت بعض القطاعات ديناميكية وكفوءة ومبتكرة، «حصلت مجموعة من الشركات الرائدة على تفوق تنافسي في القطاع الصناعي»، بينما اختفت أخرى بسبب الاحتكارات الاصطناعية التي سمحت سياسة ال ISI بها. إجمالاً - وعلى النقيض من تأكيدات الأرثوذكسية الاقتصادية اليوم - ازدادت الانتاجية العمالية، وارتفعت مستويات المعيشة، ونما الاقتصاد ككل تحت نظام ال ISI⁽¹⁹⁾.

وصف ديفيد هارفي عصر التنمية التي تقودها الدولة كما يلي: «قدم هذا النظام معدلات عالية من النمو في الدول الرأسمالية المتقدمة، وولد بعض الفوائد التي امتدت للخارج (أكثر وضوحاً إلى اليابان، لكن أيضاً وبشكل غير متساو عبر أمريكا الجنوبية، وبعض الدول الأخرى في جنوب شرق آسيا) خلال «العصر الذهبي» للرأسمالية في الخمسينيات وأوائل الستينيات»⁽²⁰⁾. في أوائل السبعينيات واجه هذا النموذج بصورة المتعددة مشكلة - جزئياً بسبب مشاكل داخلية، وجزئياً بسبب أزمة عالمية من الإنتاج الفائض، والتراكم الزائد⁽²¹⁾.

ما دعي بالعصر الذهبي للرأسمالية، تقريباً من 1945 حتى 1973، كان أساساً قصة إعادة الإعمار بعد الحرب: كان الازدهار الطويل هو إعادة البناء الضخمة التي تلت الخراب في الحرب العالمية الثانية. لم تدمر الحرب 59 مليوناً من البشر فقط، لكنها بددت أيضاً كميات هائلة من رأس المال القائم: مصانع ومدن ومزارع ومرافق ومرافق غاز وشبكات مياه وطرق وسكك حديدية وأنظمة اتصالات. لست سنوات غدت العبقرية العلمية والقوة الصناعية الجبارة للاقتصاديات الرئيسة الحرب بشكل كلي. قدرت التكاليف الإجمالية بـ 1.5 إلى 2 تريليون دولار، لكننا لن نعرف أبداً التكلفة الإجمالية الحقيقية.

كان الازدهار الاقتصادي بعد العام 1945 أساساً إعادة بناء ضخمة، أو عملية تعاف كبيرة. عنت نهاية الحرب وجود طلب كبير والكثير من الاستثمار، وتمتع التخطيط الصناعي بشرعية واسعة. خلال عملية إعادة البناء الكبيرة، تمت الأجور والضرائب والأرباح كلها بعضها مع بعض. ومع ذلك، ففي منتصف الستينيات كان هناك العديد من الأشياء والقليل من الطلب⁽²²⁾. بحلول العام 1970 امتلك 99 في

المائة من المنازل الأمريكية الثلاثات والمكاوي الكهربائية والمذيعات. امتلك أكثر من 90 في المائة منها الغسالات والمكانس الكهربائية ومحمصات الخبز. و كما عبر أحد الاقتصاديين عن ذلك، «أدى الإشباع في إحدى الأسواق إلى إشباع أسواق أخرى، مع تطلع المنتجين إلى الخارج عندما تستنفد احتمالات التوسع في الداخل. كانت النتائج حملات تصدير متزامنة من قبل الشركات في الدول المتقدمة جميعها، بمنتجات متشابهة متطورة تقنيا تنتقل من سوق إلى آخر... صادرات متزايدة من دول نامية مثل تاوان وكوريا والمكسيك والبرازيل، زاد بشكل أكبر ازدحام أسواق الجملة في الاقتصاديات المتقدمة»⁽²³⁾. بحلول أوائل السبعينيات كانت الرأسمالية تختنق من نجاحها الصناعي. حول العالم وعبر الصناعات وجدت الشركات من الصعوبة المتزايدة الحفاظ على عوائدها المذهلة (إن لم تكن الشاذة) في فترة ما بعد الحرب⁽²⁴⁾.

قارة الديون

في أوائل السبعينيات دخل عامل جديد في المسألة: كانت هناك تخمة في السيولة النقدية في العالم. الكثير جدا من المال يتنافس على القليل جدا من فرص الاستثمار. ترجم هذا إلى قروض رخيصة ومتوافرة. استدانته البرازيل دوما لتمويل تصنيعها، لكن النمو الآن تباطأ، وأصبح رأس المال رخيصا. في العام 1973 جاءت ضربة أخرى: قادت هزيمة العرب في حرب يوم الغفران إلى حظر نفطي من مصدرين رئيسيين. ارتفع سعر النفط بمعدل أربعة أمثال في أقل من عام. ضرب هذا البرازيل بقوة. على الرغم من أن البرازيل أصبحت الآن منتجا رئيسا للنفط، فإنها في ذلك الوقت استوردت 80 في المائة من نفطها. قبل أن تستقر الأسعار سقط شاه إيران في ثورة مما تسبب في صدمة نفطية ثانية في العام 1979، حيث تضاعفت الأسعار تقريبا مرة أخرى. بحلول أوائل الثمانينيات كانت الحكومة البرازيلية تحاول جاهدة تشجيع اقتصادها بالاستدانة والإنفاق. أشارت صفحة الأعمال الاقتصادية في صحيفة ميامي هيرالد إلى عدم العدل في وضع الاقتصاد الكلي: «على النقيض من الأرجنتين والمكسيك، فقد ذهبت نسبة عالية من المليارات التي اقترضت هنا إلى المشاريع المنتجة كما يقول المحللون. كان العديد منها مشاريع «برازيل العظيمة» - محطات توليد

الطاقة النووية، وسدود كهرومائية، وطرق سريعة في الغابات، ومجمعات بتروكيميائية، وصناعة أسلحة موجهة للتصدير، ومصانع الفولاذ، وسكك حديدية بقيمة 3 مليارات دولار لتسهيل تصدير الفولاذ»⁽²⁵⁾. لكن البرازيل كانت خاضعة للتقشف ذاته الذي خضعت له دول افترضت بإنتاجية أقل.

ثم ضربت طبقة ثالثة من الأزمة. واجه الاقتصاد الأمريكي الرائد في العالم مشاكل عميقة أيضا. ترجمت القدرة الفائضة عالميا إلى انهيار العوائد على الاستثمار - انهيار الأرباح. «من ذروة بلغت 10 في المائة تقريبا في العام 1965، هوى متوسط الربح الاجمالي بعد حسم الضرائب للمؤسسات المحلية غير المالية إلى أقل من 6 في المائة خلال النصف الثاني من السبعينيات - وهو انخفاض بأكثر من الثلث»⁽²⁶⁾. بعد عشرين عاما من التوسع المستمر خلال فترة النقاها الطويلة بعد الحرب، بدأت الأرباح بالانخفاض في العام 1966، واستمرت بالانحدار بثبات حتى العام 1974، إلى أن وصلت إلى مستوى منخفض بنحو 4.5 في المائة⁽²⁷⁾. شوهد النمط نفسه من ألمانيا إلى اليابان مع مرور الدول الرأسمالية المتقدمة جميعها بتجربة انخفاض في الربح بعد الضريبة بين 20 إلى 30 في المائة.

وصف روبرت برينر، أحد العلماء الرواد في هذا التاريخ، الوضع على الشكل التالي: «بسبب دخول الاستطاعة الفائضة والإنتاج الفائض لم تتمكن أسعار المواد المصنعة العالمية أن تنمو بالتناسب مع أجور المنتج وكلفة المصنع والمعدات: كانت النتيجة هبوط أسهم الأرباح ونسبة المنتج إلى رأس المال، مما أدى إلى انخفاض معدلات الأرباح».

كيف عولج هذا الأمر؟

لكي تتعافى الأرباح يجب أن تنخفض الأجور، وليس الأجور فقط بل الأجور الاجتماعية - الحصاة من الإنتاج الوطني التي يعاد توزيعها على الطبقة العاملة على شكل خدمات مدعومة من الدولة، وتقدم للجمهور كالتهليم والرعاية الصحية والرفاه الاجتماعي. جاءت النجدة من بول فولكار، الرئيس الجديد للاحتياطي الأمريكي الاتحادي. بدءا من العام 1979 بدأ فولكار برفع الفائدة بشكل كبير من 7.9 في المائة العام 1979 إلى 16.4 في المائة العام 1981. كان لهذا تأثير خفض الاقتراض خلال الاقتصاد، وبذلك هبط الاستثمار والإنفاق الاستهلاكي فجأة أيضا.

وصلت البطالة إلى 10.8 في المائة بحلول ديسمبر العام 1982⁽²⁸⁾. في الوقت نفسه شن ريغان وتاتشر كلاهما هجوماً على سلطة المنظمات العمالية، وخفضوا النفقات الاجتماعية، وقلصوا الضرائب على الأغنياء. نتيجة لذلك غاص الاقتصاد الأمريكي في ما كان في ذلك الوقت أسوأ انحسار منذ الكساد الكبير⁽²⁹⁾. وفي هذه العملية سحب هذا الاقتصاد معه العديد من شركائه التجاريين مع تقلص الواردات الأمريكية بصورة كبيرة.

في أمريكا اللاتينية، عنت السياسة النقدية الجديدة أيضاً ارتفاع الفوائد المدفوعة على القروض القائمة. وبذا بدأت أزمة ديون أمريكا اللاتينية. من العام 1978 إلى نهاية العام 1982 ازدادت ديون أمريكا اللاتينية بأكثر من الضعف من 159 مليار دولار إلى 327 مليار دولار. تمت خدمة الدين - أي دفع الفائدة - بسرعة أكبر: استعملت دول أمريكا اللاتينية أكثر من 30 في المائة من عائداتها من التصدير لخدمة الدين فقط. دفعت البرازيل نحو 60 في المائة⁽³⁰⁾. شرح الصحافي أندري أوبنهايمر ذلك بالقول: «أدى ارتفاع الدين القديم إلى طلب المزيد من الدين، ولتلبية دفعات الفوائد كان على دول أمريكا اللاتينية الرئيسة أن تعتمد أكثر فأكثر على قروض طارئة من صندوق النقد الدولي، والبنوك التجارية. في الحقيقة كانت تتسلم بيد، لتعود وتدفعه باليد الأخرى»⁽³¹⁾. ومع ارتفاع الدين العام فقدت العملة البرازيلية قيمتها حتى أصبح الغلاء المزمن غلاءً فائقاً، ووصل إلى 1765 في المائة بنهاية الثمانينيات⁽³²⁾.

تقشف

جاء حل الأزمة على شكل إجراءات تقشفية مفروضة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. في العام 1983 كان للبرازيل أضخم دين للخارج في الدول النامية: 83.8 مليار دولار. ومن أجل خدمة دينها فقط، كان على البرازيل أن تقترض أكثر فأكثر بحلقة فارغة للأسفل. في أوائل العام 1983 توجهت البرازيل إلى صندوق النقد الدولي من أجل قرض بقيمة 6 مليارات دولار، كان يعد في ذلك الوقت أضخم قرض واحد في تاريخ الصندوق. في المقابل، وافقت البرازيل على برنامج تقشفي شديد: خفض الغلاء، وخنق النمو، وقلص الإنفاق العام، وخفضت قيمة العملة، وقيدت

الواردات، وخصصت الأملاك العامة، وشجعت الصادرات⁽³³⁾. في ساو باولو احتج العمال سريعاً⁽³⁴⁾. وخلال العقد التالي استمرت الأزمة.

دافعت حكومة البرازيل العسكرية قليلاً، مقاومة اشتراطات مؤسسات بريتون وودز^(*) الأكثر شدة. وكما شرح وزير المالية ديلسون فونارو في العام 1986، «الطريق للخروج من أزمة الديون هي من خلال النمو، وصيغ صندوق النقد الدولي IMF لا تقدم النمو»⁽³⁵⁾. لكن الليبرالية الجديدة انتصرت في النهاية، وحدد التقشف الكابح للغلاء وإزالة القيود والخصخصة والتصدير الهجومي والبطالة والأجور المتدنية والجوع والفساد والجريمة والهجرة كلها المشهد الاقتصادي.

لسوء الحظ، حدث الدفع نحو التصدير في البرازيل وسط انخفاض في أسعار المواد الأولية. أسهم عاملان في ذلك. كانت مؤسسات بريتون وودز في الوقت ذاته تضغط على دول العالم الثالث الأخرى لتصدير أكبر، وفي الوقت ذاته كبحت معدلات الفوائد المرتفعة في الدول الأغنى الاستهلاك. أدى الإمداد الزائد إضافة إلى الطلب المتناقص إلى انهيار الأسعار. انخفضت أسعار السكر والنحاس والألمونيوم والمواد الخام الأخرى كلها إلى مستوى متدن.

نجم عن برنامج التعديل الهيكلي المفروض من صندوق النقد الدولي ارتفاع البطالة وازدياد الفقر ونمو المدن مع هجرة الفقراء من الريف إلى المدن بحثاً عن العمل. من العام 1980 إلى العام 1990 كان المتوسط الكلي لنمو سكان ريو 8 في المائة، لكن سكان الفافيلات ازدادوا بمعدل 41 في المائة. وكما شرح الاقتصادي الخبير في أمريكا اللاتينية مارك فايزبروت «من العام 1960 إلى العام 1980 ارتفع دخل الفرد - وهو أكثر المقاييس أساسية لدى الاقتصاديين على التقدم الاقتصادي - في البرازيل بنحو 123 في المائة. ومن العام 1980 حتى العام 2000 نما بأقل من 4 في المائة». يقدر فايزبروت أنه لو لم تعتنق البرازيل النظام الليبرالي الجديد، «لكان لها اليوم مستوى المعيشة الأوروبي ذاته. ولكان لديها بدلا من 50 مليون فقير كما هو اليوم، القليل جدا منهم. ولكان الجميع تقريبا يتمتعون اليوم بمستويات معيشة أعلى، وبتعليم أرفع، وبرعاية صحية أفضل»⁽³⁶⁾. حتى لو بالغ فايزبروت قليلاً (أي أوروبا؟ هل هي الريف اليوناني؟ أم المدن الهولندية؟) بيد أن فكرته الأشمل بشأن التأثير المخرب لليبرالية الجديدة صحيحة.

(*) اتفاقية بريتون وودز (Bretton Woods) وقعت في العام 1944 لتنظيم العلاقات التجارية والمالية بين الدول الكبرى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. [المترجم].

التكلفة البشرية

لو لم تتبنَ البرازيل الليبرالية الجديدة، لكان العنف حتما قضية أقل أهمية. مع ازدياد الفقر ونمو الفافيلات، تعقدت العلاقات الاجتماعية ضمنها. وسط هذا التحول إلى الليبرالية الجديدة، نمت عصابة الكوماندو فيرميلهو CV والعصابات الأخرى لتصبح جيوشا غير نظامية، من دون عقيدة أو قضية سياسية، مستخدمة فقط أساليب حرب العصابات وتنظيماتها.

«بحلول العام 1991 أصبحت الـ CV منظمة إجرامية بحتة. لم تكن لديها أي عقيدة»، شرح القائد رودريغو أوليفيرا من القوات الخاصة المدنية لشرطة ريو عندما قابلته في مكتبه لمناقشة العصابات والحرب عليها. «هدفهم الآن هو السيطرة، بكل وضوح وبساطة - وليس الثروات الضخمة الخاصة لـ «مالكي» العشوائيات»، كما قال مستخدما المصطلح اللغوي الدارج لزعماء العصابات. «معظم هذا يدور فقط من أجل السلطة التنظيمية والأسلحة والمكانة».

يلاحظ المحللون الأكاديميون لعصابات ريو غياب مؤسسات الدولة أو فشلها. يحتاج آخرون، من أشهرهم انريكو ديزموند آرياس، بأن البنى الإجرامية في الفافيلات تجمع رجال العصابات مع الشرطة وزعماء المجتمعات وسياسيي التيار الرئيس ضمن شبكة من المصالح المفيدة المشتركة. نشأ مثل هذا الاتهام، تجريم الولاية المحلية بصورة أساسية، من أزمة الليبرالية الجديدة⁽³⁷⁾. وآرياس مصيب إلى درجة أن الإجرام في الفافيلات لا يصبح قضية نتيجة انسحاب الدولة، بقدر ما هو حالة من التعفن الاجتماعي - مجتمع بأكمله مصاب بغرغرينا الاقتصادات التحتية والفساد والعنف.

الشمال الشرقي - نورديست

يرفرف علم الثورة الأحمر من أعلى سارية في الريح الحارة. يقع تحته مخيم صغير أقامه مزارعون فقراء على أرض تخص مزارعا غنيا يسكن في مكان بعيد. أهلا بك إلى الأراضي الجرداء الحارة من النورديست، وإلى القرية الصغيرة بوكويراو في مقاطعة سيارا في البرازيل. تجثم القرية على درب ترابي باتجاه وحيد أسفل واد طويل تحده من الطرفين جبال شاهقة ذات صخور جرداء داكنة. لو نظرت في

خرائط غوغل لوجدت أن بوكويراو تقع تقريبا إلى الشمال من إيراكوبا، التي تقع على الطريق BR222. يبدو الوادي الطويل مثل ندبة شاحبة بين التلال الداكنة. على أحد طرفي الطريق هناك قرية مكونة من منازل صلبة صغيرة مدهونة بالأبيض، لها أرضيات إسمنتية ناعمة، وأسقف قرميذية حمراء. على الطرف الآخر هناك مخيم الناشطين من الفلاحين، أعضاء من حركة ناس من دون أرض MST. حركة MST هذه عبارة عن حركة اجتماعية مؤلفة من نحو 370 ألف شخص، منظمين ضمن أكثر من 1000 مجتمع محلي عبر البرازيل. هدفهم بسيط: إعادة توزيع الأراضي على المزارعين الجائعين. في السنوات العشرين الأخيرة أحرزوا نجاحا ملحوظا. كانت أساليبهم بسيطة أيضا: الانتقال إلى أرض، والبدء باستغلالها. هذا ما يحدث الآن هنا. استخدمت كوادرات الـ MST البلاستيك الأسود الصلب والحطب لبناء كوخين جماعيين. واحد للطبخ والأكل والاجتماع، والآخر ممتلئ بأسرة النوم. لا يترك المخيم أبدا من دون ناس.

أرض الجفاف

النورديست منطقة شبه جافة تتلقى كمية قليلة جدا من الأمطار. تقطع الفيضانات العارمة دورات جفافها المتكررة. من العام 1877 حتى العام 1879 قتل جفاف كارثي أكثر من 500 ألف إنسان، وأدخل الشمال الشرقي الزراعي في أزمة سياسية⁽³⁸⁾. أصبح الخوف من الجفاف الآن محفورا في ثقافة المنطقة. على سبيل المثال في أنحاء من سيارا انتهت السنة تقليديا بطقوس التنبؤ بالجفاف. في 13 ديسمبر، عشية يوم القديسة لوسيا، وضع رجل عجوز ست قطع من الملح الصخري على ورقة موز، بحيث مثلت كل قطعة شهرا من الفصل الممطر القادم. في الصباح التالي، تمثل القطع الملحية التي ذابت في الندى الشهور الممطرة من الفصل القادم. قال المزارع الذي شرح هذا التقليد لي أيضا: «يبدو أنها لم تعد تعمل بشكل جيد». على أي حال، يشير البحث إلى أن دورة الجفاف «أصبحت أكثر تكرارا خلال القرن الماضي، حيث سجلت خمس فترات جفاف خلال العقد الحالي»⁽³⁹⁾.

يستمر الفصل الممطر في سيارا من يناير حتى يونيو باختلاف كثير في المدة والتوقيت والشدة والأماكن. يهطل المطر مع تحرك نطاق التقارب بين المدارين إلى أدنى موقع جنوبي له⁽⁴⁰⁾. تجد دراسة في مجلة علم المناخ التطبيقي أن درجة حرارة سطح البحر هي العامل الرئيس المسؤول عن «الاختلاف في الهطول من سنة إلى

أخرى في شمال شرق البرازيل»، مما يعني من بين أشياء أخرى أن الجفاف «يميل إلى أن يتصادف مع الطور الدافئ من فترات تذبذب النينو الجنوبي ENSO» (41).

بصورة أشمل، تظهر دراسات إقليمية لميول درجات الحرارة في المنطقة «حدوث تغيرات تتفق مع الاحترار المتوقع، وبالأخص ليال أشد حرارة. «تجد معظم النماذج المناخية أن شمال شرق البرازيل يتوقع له أن يشهد احتراراً أسرع من المتوسط العالمي خلال القرن الحادي والعشرين». بحسب النموذج والمقادير المحتملة لغازات الدفيئة التي تضخ إلى الغلاف الجوي في العقود القادمة، فإن زيادات درجات الحرارة المتوقعة لهذا القرن تتراوح من 1°م إلى 6°م. بعبارات أكثر صلابة، تتوقع معظم التنبؤات أن تكون منطقة شمال شرق البرازيل تحت ضغط مائي شديد جداً بحلول العام 2050 (42).

فافيلا ريو مأهولة إلى حد كبير بأناس من هذه الأراضي الجافة. على الرغم من مناخها القاسي فإن منطقة الشمال الشرقي مأهولة بكثافة بالسكان (43). ومع طحن التغير المناخي لمزارعي الكفاف، يترك عدد أكبر من السكان المنطقة للبحث عن عمل إما في المدن المضغوطة من مناطقهم الساحلية القريبة مثل فورتاليزا وريسيفي، أو نحو الجنوب في المدن العملاقة مثل ساو باولو وريو. لذا فإن البعد الاجتماعي للأزمة البيئية في الشمال الشرقي (وهي جبهة أمامية لتغير المناخ) يعبر عنه في المدن على شكل بطالة وبيوت مؤقتة وتجارة مخدرات وعنف.

على ضوء ما تقدم يمكننا قراءة صراع المزارعين في بيكويراو أو على أنه صراع غير متعمد ضد العنف والانهيار الاجتماعي في المدن. في الوقت ذاته فإن صراعهم للتمسك بالأرض هو صراع من أجل العدالة الاجتماعية في إحدى أكثر الدول من حيث عدم المساواة في العالم. إنه أيضاً صراع من أجل التكيف مع التغير المناخي في بيئة متطرفة بالفعل، وبهذا فهو يغلف إمكانات الحياة البرازيلية ومخاطرها في مواجهة التجمع الكارثي.

تقنيات وتكيف

«شكراً لله أننا جميعاً أقوياء. نحن لا نأخذ القروض»، قال أوسمار كارينرو أروغو. كنا نجلس في ظل مطابخ مخيم الـ MST (44). وحولنا كانت الأرض في فترة ما

(*) حركة «ناس من دون أرض».

بعد الظهيرة هادئة وحارة. كل شيء بدا كأنه ينتظر غياب الشمس. أوسمار، زعيم المخيم الفعلي، كان في أوائل الأربعينيات، قصير القامة وغامق اللون بعيون منحرفة ومفكرة، وشارب أسود كثيف. هو الذي جاء بفكرة احتلال الأرض. قال:

مرت علينا عدة سنوات من دون جفاف. ثم في السنة السابقة - لم نشهد شتاء كهذا. لقد أمطرت حتى شهر أغسطس. بالنسبة إلى ارتفاع درجة الحرارة، لا يمكننا قياس ذلك، لكننا نحس بأنها أسخن. نشعر بالزيادة عبر السنين. وبالنسبة إلى الزراعة فإن هذا سيئ. السنة السابقة كانت سيئة حقاً. لأن الأرض غمرت، خسرنا 50 في المائة من الفاصولياء. الفاصولياء العريضة كانت جيدة. لكن كانت هناك وفرة في هذا المحصول، لذا كانت أسعارها منخفضة. المزارع الحقيقي يحتفظ دوماً ببعض البذور. نحن بخير على الرغم من السنة السابقة. لكن لو جاء طقس سيئ جداً مرة أخرى، فسيكون من الصعب علينا أن نتعافى.

في هذا المجتمع هناك سبع وعشرون عائلة معظمهم من الأقارب. في مواجهة الجفاف والفيضانات بدأوا بالتكيف تقنياً وسياسياً. أولاً تحولوا من زراعة المحصول الواحد للقطن أو الفاصولياء التي تتطلب حرق الحقول المتروكة، واستخدام مدخلات كيميائية غالية الثمن، إلى نوع من الزراعة البيئية لمحصول مختلط، وإدارة للغابات ومكافحة متكاملة للحشرات تستخدم القليل من المبيدات والأسمدة الكيميائية أو تستغني عنهما تماماً. إنهم يستخدمون أيضاً أشكالاً مبتكرة من تقنيات التقاط الماء وحصاد الأمطار.

يأخذني أوسمار وبعض من رفاقه عبر الطريق ليريني «النظام»، وبعض تقنياتهم البديلة لحصاد الماء. تشمل إحدى الطرق بناء «سدود جوفية». إنها تجري على الشكل التالي: أولاً يجد المزارعون جدولاً جافاً، أو منطقة طبيعية لتصريف المياه. في قاعدة هذه المنطقة، بعيداً عن منحدر التلة وأسفلها، يحفرون خندقاً طويلاً عبر الممر الطبيعي للتصريف. قد يكون الخندق بطول مائة إلى ثلاثمائة قدم، وعميقاً بما يكفي للوصول إلى الصخر - هنا، بعمق خمس إلى ست أقدام. ثم ضمن الخندق يبنون جداراً من الإسمنت والصخر - أو سداً - مغطى بطبقة بلاستيكية ثقيلة. ثم يعبأ الخندق بالماء ويظمر الجدار. هذا السد الجوفي يبطن بشكل كبير التصريف الطبيعي، ويخلق حقلاً رطباً وخصباً «أعلى الجدول».

محاصيل الزراعة الغابية هي مزيج من أشجار الفاكهة والذرة ومحاصيل الغطاء ومحاصيل العنب المتسلق. تبدو الحقول مهجورة من الناس بسبب الخليط المتشابك من أصناف النباتات. يلتقط هذا التشابك الكثيف الرطوبة، ويخلق توازنا بين الحشرات المتنافسة، بحيث يقلل من الحاجة إلى مبيدات كيميائية أو يستغني عنها. تناقص المردود خلال السنوات الثلاث أو الخمس الأولى، لكنه ازداد بعد ذلك مع تحسن التربة. وجلب المنتج العضوي أسعارا أعلى.

بالنسبة إلى النباتات المفردة التي تحتاج إلى ري يربط المزارعون علبا بلاستيكية فارغة ومثقبة على أعواد فوق النباتات العطشى. بهذا الشكل من الري بالتنقيط ذي التقنية البسيطة يمكن للمزارع أن يغذي نباتا مفردا ببعض الماء، ويسمح للسائل الثمين بالتنقيط ببطء وفوق النبات الذي يحتاج إليه فقط. قائمة المزارعين من الطرق المبتكرة طويلة، وتتطور جزئيا بفضل مجموعات مثل المنظمة غير الحكومية الكاثوليكية كاريتاس التي تعمل على نشر المعرفة بأفضل الأساليب بين المجتمعات. تستخدم هذه الأساليب في الزراعة البيئية أو زراعة الغابات التي تعيد إحياء الطرق القديمة وتطورها في أنحاء العالم كلها. تذكر اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC هذه الأساليب في تقريرها التقويمي الرابع: «تقدم الزراعة الغابية باستخدام الأساليب الزراعة البيئية إمكانيات قوية للحفاظ على التنوع البيولوجي في أمريكا اللاتينية، نظرا إلى التقاطع بين المناطق المحمية، والمناطق الزراعية»⁽⁴⁴⁾.

يحافظ «النظام» كما يدعو المزارعون على خصوبة الأرض والرطوبة، ويطورهما، ولأن الحقول لا تترك أبدا كأرض جرداء فإن ذلك يمنع عملية الحت. «يتكلم الناس عن الزراعة المستدامة لكن ذلك يستهلك المال والوقت» قال أوسمار «نحتاج إلى إصلاح ملكية الأراضي، والمساعدة في حصاد الماء، وتجهيزات تخزينه».

سياسة التكيف

خلال بقائي في بيكويراو لاحظت تناقضا. بينما تزعم أوسمار وآرون «النظام»، واستخدموا أساليب الزراعة الخضراء على جانب الطريق حيث يمتلكون الأرض، كانوا لايزالون يحرقون ويزرعون المحصول الواحد فقط على الأراضي التي احتلوها. يظهر السبب وراء ذلك كيف يرتبط التكيف بالعدالة الاجتماعية: تستغرق الزراعة الغابية

ما بين 3 و 5 سنوات لتصحيح مربحة. من دون حقوق على الأرض - أي من دون ملكية قانونية - لا تستطيع هذه العائلات استثمار دخلها القليل، ومجهودها النادر على المدى الطويل في مشروع كثيف العمالة من استصلاح التربة ورعايتها. في قرية أخرى أبعد شمالا على طول الطريق الترابي وجدت تأكيدا آخر على أن إصلاح ملكية الأراضي هو التكيف المناخي.

في قرية بوينو قابلت أنطونيو براغا موتا «النظام هو نظام متوازن؟ دهشت حقا لأننا لم نحتج فعلا إلى أسمدة ومبيدات لتحقيق ذلك»، قال أنطونيو ونحن نجول بين محاصيله المغطاة بدوالي العنب والأشجار: «كانت الطريقة التقليدية مخربة. الحرق يستنفد التربة. لسوء الحظ فعلت ذلك كثيرا». قال إنه حتى حيوانات التابير والطيور النادرة بدأت بالعودة. باستطاعته أن يتحمس للنظام لأنه يمتلك أرضا. لم يكن غنيا، لكنه يمتلك ما يكفي من الأرض ليحقق التحول من طرق عادية إلى الزراعة الخضراء.

في مخيم MST وجدت أيضا مثالا على الهجرة المعاكسة من الفافيلات إيابا إلى الأرض. مارسيو روميرو دو أروغا براغا مزارع شاب نحيل ترك الوادي في مارس 2003 من أجل أضواء ساو باولو اللامعة، حيث عمل في طلاء الأبنية.

«كانت الأمور جيدة وسيئة في المدينة»، شرح بينما كان يأخذ استراحة من نزع أشجار صغيرة على الأرض المحتلة حديثا. في ساو باولو قابل امرأة شابة وتزوجها. كانت تنحدر من باهيا الريفية وكان لهما ولد. «لكن الأمور كانت خطيرة. كان على زوجتي أن تعبر فافيل كل صباح للذهاب إلى العمل، كان هناك الكثير من العنف، وكانت المخدرات دوما في كل مكان، أفضل العمل في الأرض».

تحققت رغبة مارسيو في العودة إلى موطنه فقط عندما بدأ احتلال المزرعة غير المستثمرة. الآن هناك أرض يمكنه العمل بها. «حلمي أن أبقى هنا، وأستمر في الزراعة»، قال عندما سألته كيف يرى مستقبله. «عندما نربح هذا الصراع» - أشار إلى الحقل الذي كان ينظفه مع دزينة من الرجال الآخرين - «أستطيع أن أفعل ذلك».

إعادة الليبرالية الجديدة إلى الوراثة

خلال أعوامه الثمانية في الحكم، أخذ الرئيس لويس إيناسيو لولا دا سيلفا على عاتقه بجد مهمة إعادة التوزيع والتنمية الاقتصادية للبنى التحتية في البرازيل -

أي حاول إعادة الليبرالية الجديدة إلى الوراء. وعد بشيء يشبه الصفقة الجديدة للرئيس روزفلت، لكنه قدم شيئا أقرب إلى «الحرب على الفقر» للرئيس جونسون - مقدما فوائد حقيقية للفقراء من دون أن يؤذي الأغنياء. لم يعالج الرئيس لولا الأزمة المناخية ببرنامج طموح من التخفيف والتكيف. مع ذلك فقد وضع الأسس لمجهودات التكيف الحقيقية التي يمكن أن تأتي بعد ذلك.

تحت لولا سددت البرازيل ديونها الخارجية، وراكمت احتياطيا بلغ 240 مليار دولار. في العام 2005 أعلنت البرازيل أنها ستسدد ديونها إلى نادي باريس (الذي يضم أكبر تسعة عشر اقتصادا في العالم) وصندوق النقد الدولي المكروه جدا أيضا⁽⁴⁵⁾. أعاد هذا في الحقيقة توجيه تدفقات ضخمة من العائدات بعيدا عن المقرضين الأغنياء العالميين (الذين يكسبون المال من إقراض الآخرين)، ونحو الاستثمار الاقتصادي والاجتماعي ضمن البرازيل.

أحد برامج لولا الاقتصادية المركزية كان البولسا فاميليا، التي تعطي دفعات تصل إلى 104 دولارات في الشهر للعائلات الفقيرة. يدفع للأهات اللاتي تربين أولادهن المال لإرسالهم إلى المدرسة، والحصول على اللقاحات، واتباع تغذية جيدة. يقدم البرنامج الغذاء ليس للمشردين فقط، لكن للطبقة العاملة بقوة أيضا، وبالتالي يتمتع بتأييد واسع. بدأت البولسا في الحقيقة في التسعينيات من قبل الحكومات السابقة، وتوسعت تحت الرئيس فريناندو أنريك كاردوسو، ثم توسعت مرة ثانية كثيرا تحت لولا. بحلول العام 2010 اعتمد واحد من كل أربعة برازيليين على البولسا، مما ساعد في انتشار 21 مليونا من الفقر. التكلفة هي ضمن الحد الأدنى: تنفق البرازيل أقل من 1 في المائة من ناتجها القومي الإجمالي البالغ 1.6 تريليون دولار على برامج مكافحة الفقر. هذه عدالة اجتماعية بإعادة التوزيع، لكنها لا تحول العلاقات الاجتماعية المؤسسة إليها.

ربما كانت مبادرة لولا الأخرى الكبيرة أكثر عمقا. برنامج تسريع النمو PAC وهي سياسة على مستوى الاقتصاد الكلي، والبنى التحتية - الكينزية الكلاسيكية - بدأت في العام 2007 باستثمار أولي بلغ 4.2 مليار دولار، وهدفت إلى إعادة إصلاح البنى التحتية وتطويرها. بنت الـ PAC طرقا وسككا حديدية وخطوط الكهرباء والبيوت. في الشمال الشرقي تساعد المصدرين الزراعيين في احتجاز المياه والري والنقل وتسهيلات الموانئ.

ساعدت الـ PAC في الحفاظ على النمو الاقتصادي القوي للبرازيل: حتى خلال أسوأ حالات الركود الاقتصادي أخيراً في العالم عملت البرازيل بشكل جيد وانخفضت عدم المساواة فيها. تحت لولا، ازدادت نسبة الـ 10 في المائة الأغنى في البرازيل إلى 11 في المائة ، لكن الـ 10 في المائة الأدنى شهدوا ارتفاعاً للدخل بمعدل 72 في المائة. لكن تركيز الـ PAC على مشروعات ضخمة برأسمال مكثف، عنى الاعتماد على رجال أعمال يتمتعون باتصالات جيدة، وهذا يميل إلى إعادة ترسيخ الطبقة ضمن المجتمع⁽⁴⁶⁾.

يتطلب تغير المناخ والمهمة الصعبة في التكيف على مستوى القاعدة دوراً اقتصادياً موسعاً للدولة البرازيلية. مع ذلك، حتى أنشطة إعادة التوزيع البسيطة من قبل الدولة يمكنها بلا قصد إعادة تدعيم ديناميكية علاقة الراعي - الأجير البالغ عمرها خمسمائة عام، والتي أساءت إلى البرازيل. هل يمكن لمعونات التكيف المناخي في الشمال الشرقي أن تجبر الفقراء على الاعتماد على نخب محلية - زعماء سياسيين يعملون كوسطاء مع الدولة؟ أو هل ستعمل مع الحركات الاجتماعية؟ الوقت وحده سيبين ذلك.

كما اكتشف دونالد نيلسون وتيموثي فينان الخبيران في هذا الموضوع، تقدم أعمال الحكومة الآن الغذاء والماء والنقود إلى ضحايا الجفاف. استهدف الشمال الشرقي بمعونات الجفاف الطارئة، وبمشاريع البنى التحتية الكبيرة لتخزين الماء على مدى أكثر من مائة عام. «نتيجة لذلك لم تعد الوفيات المتعلقة بالجفاف ظاهرة، وانحسرت الهجرة الإجبارية بدرجة كبيرة، مما يشير إلى أن الدولة نجحت في تخفيف أسوأ التأثيرات في البيئة. مع ذلك، ونتيجة للمستويات العالية من التعرض، تبقى العائلات الزراعية معتمدة على جهاز الدولة السياسي (والنخب المحلية) خلال أيام الأزمة»⁽⁴⁷⁾.

كما تمثل MST و CV استجابتين متناقضتين على مستوى الجذور للتكيف مع المعاناة، بيد أن الصفقة الاستوائية الجديدة للولا والهجوم شبه العسكري للـ BOPE على الفافيلات مثالان على الإمكانيات المتعارضة للدولة البرازيلية. ستصبح المشاكل الاجتماعية الناجمة عن الفقر والعنف في البرازيل أكثر شدة مع ترسخ التغير المناخي. بعض القدر من القمع محتم. السؤال هو: أي اتجاه ضمن الدولة سيهيمن على سياستها في المستقبل: التوجه لتخفيف المعاناة، أو لاحتوائه وقمعه بعنف؟

غولغووثا ميكسيكانا(*) لاجئو المناخ والتجارة الحرة والحرب في الجوار

بدأ نهار جديد، ويبدو كأنه ليل.

تشارلز بودن، مدينة القتل

كانت الريح التي تهب من الصحراء
المكسيكية باردة ورملية. وتوارت شمس
شتوية شاحبة بعيدا، وامتدت ظلال خواريز
إلى مكان بعيد عبر الطرقات. كنت أركب مع
دورية للجيش المكسيكي في شاحنة عسكرية
تقفز وتتمايل فوق الأرض الوعرة. انتشرت
أكواخ من الخشب المحترق عشوائيا على
التلال الصغيرة والوديان المنحدرة. كنا نلف
ونلف بانتظار العنف. هذا ما يفعله الجنود
هنا: يسوقون في حلقات، ثم يتوقفون لتناول
وجبة سريعة، ثم يسوقون أكثر. سريعا تظهر

(*) غولغووثا أو جلجثة هي موقع صلب المسيح وفقا
للإنجيل. [المحررة].

«بلد أصيبت بنيته ومؤسساته
الاجتماعية بغرغرينا فساد
المخدرات ليس بلدا يمكنه التكيف
مع ارتفاع مستوى البحر والطقس
العنيف وانخفاض مردود المحصول
والهجرة الجماعية التي تحركها
هذه العمليات»

المؤلف

جثة مختربة بالرصاص. يظهر عدد منها كل ليلة، لأن هذه المدينة هي إحدى أعنف المدن في العالم.

كان لدى جندي يمضغ العلكة في مؤخرة الشاحنة، ويحمل بندقية G3 في يد تلبس الكفوف، ويمسك قضيب الشاحنة باليد الأخرى، خطة لخواريز: «أحكام عرفية». مسح بعينه الأسقف المنبسطة من خلال غطاء أصفر شاحب. «منع تجوال. التفتيش من منزل إلى منزل. أخذ الأسلحة كلها. لا شفقة».

يقولون إن هناك حربا في المكسيك، وعدد القتلى يجعلها كذلك. قتل ما يقارب من 30 ألف شخص هنا منذ العام 2006، عندما وضع الرئيس فيليبي كالديرون الجيش في المدن الحدودية للقتال في حرب المخدرات⁽¹⁾. بحلول العام 2009 كان أكثر من 1100 من القتلى هم من الجنود والشرطة وموظفي الأمن. وصف تقرير حكومي مكسيكي سري العام 2009 بأنه أشد الأعوام قتلا حتى ذلك التاريخ، حيث قتل أكثر من 9600 إنسان، وكانت السنة التي تلتها أسوأ⁽²⁾.

في نهاية العام 2009، عندما قضيت بعض الوقت أتجول في المنطقة الحدودية، سجلت خواريز - وهي مدينة متداعية وملطخة بالسواد ونصف مهجورة - الرقم المذهل المؤلف من 2600 قتيل⁽³⁾. شمل العديد من هذه الحوادث أيضا الخطف والتعذيب والتشويه. من ناحية أخرى سجلت مدينة الباسو أربعة اغتالات فقط. حدثت بعض الاغتالات في خواريز بمعدل ضحية واحدة كل مرة، وحدث بعضها على شكل مذابح قتل فيها حتى ثماني عشرة ضحية في وقت واحد⁽⁴⁾. حصل بعضها أواخر الليل، بينما تمت أخرى خلال زحمة السير في منتصف النهار. بدا أول يوم في العام 2010 بقتل جماعي: هاجم أكثر من دزينة من المسلحين بالبنادق حفلا في بيت لطلاب المدرسة الثانوية من الطبقة الوسطى، فقتلوا ثلاثة عشر شخصا، وجرحوا أربعة وعشرين⁽⁵⁾. ثم نُصب كمين لموظفين في السفارة الأمريكية، واغتيلوا بحلول أواخر أبريل 2010، كان قد قتل تسعة وعشرين ضابطا من الشرطة في خواريز، ثم كمن مسلحون لسيارتي شرطة في وسط المدينة، فقتلوا سبعة آخرين. وخلال الوقت ذاته أغار مسلحون على مكتب الجمارك في الجانب المكسيكي من الجسر الدولي الذي يربط كامارغو في المكسيك بريو غراندي في تكساس. في اليوم نفسه هوجمت الشرطة بالقنابل في لا يونيون، غويريرو. أعدم رئيس في الشرطة، ونائبان له في البلدة الزراعية

لوس الداماس في نيوفو ليون. قطع رأس رئيس الشرطة في بلدة قريبة. ثم خلال الوقت ذاته تقريبا كمن مسلحون لمساعد رئيس شرطة نوغاليس، سونورا، وقتلوه مع حارسه. في ولايتي تاموليپاس ونيوفو ليون شنت دزينات من مسلحي المخدرات هجمات متزامنة على معسكرين للجيش، وذكر أن ثمانية عشر من المهاجمين قتلوا. انفجرت سيارة مفخخة في خواريز، وذبح سبعة عشر مهاجرا في تامواليپاس على بعد مائة ميل تقريبا من براونزفيل بتكساس⁽⁶⁾. في هذه الأيام يقتل العمدة وضباط الشرطة والمرضى المتعافون من المخدرات المكسيكيون جميعهم بشكل روتيني وبأعداد كبيرة مروعة. يمكن لقائمة الأعمال الوحشية الغربية هذه أن تستمر.

صلات سياسية من بُعد

للوهلة الأولى يبدو أن هذه الأزمة من العنف لا علاقة لها بالتغير المناخي - لا يغتال مروجو المخدرات الشرطة لأن نطاق التقارب بين المدارين خرج عن وضعه الطبيعي. لكن بتفحص أدق يقدم الانهيار شمال المكسيك توضيحا آخر للتجمع الكارثي: سياسات تخلق الفقر والعنف تصطدم الآن بالحقائق الجديدة لتغير المناخ، ومع بعضها البعض تخلق هذه القوى الثلاثة أشكالا مخربة اجتماعيا من التكيف.

مع استكشافي لخواريز، أصبح واضحا أن التغير المناخي عامل مهم مسبقا في الأزمة. أولا وقبل كل شيء يهدد المناخ يهدد الزراعة وصيد الأسماك. ومع السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة، فإنه يزيد البطالة، ويدفع الناس نحو الشمال إلى الولايات المتحدة، وإلى مصائد اقتصاد المخدرات السري.

يضرب التغير المناخي المكسيك بشدة. وقع النصف الشمالي من البلد في قبضة أسوأ جفاف خلال ستين عاما، بينما تغمر المياه المناطق الجنوبية الشرقية. وجدت دراسة حديثة أنه لكل نقص بمقدار 10 في المائة في المحصول يهاجر 2 في المائة أكثر من المكسيكيين إلى الولايات المتحدة. تتنبأ الدراسة نفسها بأن 10 في المائة من سكان المكسيك الحاليين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين من العمر، يمكن أن يحاولوا الهجرة شمالا نتيجة ارتفاع درجات الحرارة⁽⁷⁾.

شهد العام 2010 طقسا أكثر شذوذا: خربت الأمطار معظم محصول الفاصولياء في ولايتي ساحل المحيط الهادئ ناياريت وسينالوا، دمرت الأنهار حوافها، وأغرقت

المحاصيل في ميشوكان. أغرق الإعصار اليكس منطقة شمال شرق المكسيك، فقتل ثلاثين شخصا على الأقل، وحزب المحاصيل. ضربت الفيضانات بالجملة تاباسكو للمرة الثانية خلال أربع سنوات. وفي العام 2007 غمرت مياه الفيضانات 80 في المائة من الولاية⁽⁸⁾.

هجرة

في العام 1990 تنبأت اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC بأن «أكبر تأثيرات التغير المناخي قد تكون تلك المتعلقة بالهجرة الجماعية». ازدياد العواصف وفترات الجفاف والفيضانات وانتشار الأمراض وارتفاع البحار كل ذلك سينشر الدمار للشواطئ الحضرية، والاقتصادات الزراعية في العالم. يقترح هذا مستقبلا يكون فيه ملايين الناس في حالة هجرة. سيؤدي ارتفاع بمقدار 1 متر في مستوى سطح البحر - وهو مؤكد تقريبا مع نهاية القرن، ما لم يحدث تدخل غريب من الطبيعة الأم مثل حدوث انخفاض إلى الحد الأدنى في الإشعاع الشمسي - إلى غمر أراض تؤوي حاليا نحو 10 في المائة من سكان العالم. ولن يستطيع الكثيرون الذين يعيشون بعيدا عن البحر على أراض زراعية شبه جافة التكيف وسيجبرون على الانتقال.

في ضوء هذا تصبح الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك قالبا نموذجيا لفهم ديناميكيات عالمية خطيرة. في كل أنحاء العالم تزداد الحدود وأنظمة الشرطة تصلبا لتوافق السياسات التي تقيد الهجرة مع السياسات التي تحرض على كره الأجانب. بحلول العام 2050 من المتوقع أن يبلغ عدد سكان العالم ذروة تصل إلى 9 مليارات إنسان، ومن المحتمل أن ترتفع درجة حرارة العالم إلى 2°م أسخن مما هي عليه الآن أو أكثر. كم سيصبح عدد اللاجئين البيئيين؟ كان تقرير منظمة الهجرة الدولية واقعيا حول عدم التأكد، ملاحظا أن «التقديرات الحالية تتراوح بين 25 مليونا و1 مليار من البشر بحلول العام 2050». يشرح التقرير أيضا أنه «كما كانت الحالة في السابق بالنسبة إلى اللاجئين السياسيين، من المحتمل أن يقع عبء تزويد لاجئي المناخ على عاتق أفقر الدول - تلك الأقل مسؤولية عن إصدارات غازات الدفيئة»⁽⁹⁾.

قدرت سترن ريفيو البريطانية للعام 2006 أن بين 200 و250 مليون إنسان سيقتلعون من أوطانهم بسبب تغير المناخ. وهذا يعادل 10 أمثال الرقم الحالي

للاجئين في العالم⁽¹⁰⁾. دع هذا يتغلغل في تفكيرك للحظة. كان الأكاديمي من بنغلادش عتيق رحمن مصيبا عندما حذر قائلا «سيتحرك ملايين الناس. ولن يستطيع أي قدر من الغواصات النووية إيقافهم»⁽¹¹⁾. قدر تقرير آخر أن هناك 214 مليوناً من اللاجئين الدوليين في العالم اليوم. «لو استمر هذا الرقم بالزيادة بالسرعة نفسها التي كان عليها خلال الـ 20 عاماً السابقة، فيمكن لعدد اللاجئين الدوليين أن يصل إلى 405 ملايين بحلول العام 2050»⁽¹²⁾.

تظهر الهجرة على شكل سلسلة من تأثيرات صادمة تخفي علاقات عرضية. في الدول الفقيرة، ليس من الضروري أن يكون الأفقر والأكثر تضرراً هم الذين يهاجرون أولاً وإلى أبعد مكان. «القدرة على الهجرة تتبع القدرة على التحرك والموارد (مالياً واجتماعياً). بعبارة أخرى، فإن الناس الأكثر تعرضاً لتغير المناخ ليسوا بالضرورة الأكثر احتمالاً للهجرة»⁽¹³⁾.

هنا يظهر التجمع الكارثي نفسه مرة أخرى: تضيف أزمة المناخ قوة دافعة إلى الإرث المخرب الذي ظهر مسبقاً لليبرالية الجديدة، وللمغامرات العسكرية أثناء الحرب الباردة. يعمل تغير المناخ كعامل عرضي إضافي في تشكيل تدفقات اللجوء المؤسسة مسبقاً. ولمواجهة ارتفاع موجات الهجرة، تتصلب الحدود وتتسلح بين الاقتصادات المركزية الغنية والدول النامية⁽¹⁴⁾.

من المهاجر المناخي؟

على الضفة الجنوبية من نهر ريو غراندي قابلت خوسيه راميرز. كان عاطلاً عن العمل بوجه متورد يرتدي الجينز وقميصاً بطاقيّة، يجلس القرفصاء ويحدق عبر النهر إلى الولايات المتحدة. كان صياداً في ميتشواكان، لكنه هاجر منها بسبب الصدمات الاقتصادية التي تلت النينو 1997-1998. تظهر قصته العلاقة بين الأزمات الاقتصادية والبيئية.

«أصبح البحر أحمر، واختفت الأسماك جميعها»، قال راميرز وهو يشرح سبب تركه موطنه. أصبح شاطئ ميتشواكان أدفاً، الأرض والبحر كلاهما. في البداية بقي هناك، لكن النينو جعله مديناً. كانت عائلة راميرز تدير مطعمًا صغيراً، لكنها اضطرت إلى إغلاقه عندما أصيب الكل بصدمة اقتصادية. أخيراً اضطر إلى بيع قاربه ومحركه.

ثم عمل على قارب ضخّم لصيد القريدس، لكن الدخل كان ضمن الحد الأدنى. لذا بعد عامين من صدمة الطقس بسبب النينو، انتقل شمالاً إلى خواريز قاصداً الذهاب إلى الولايات المتحدة وهذا ما فعله. لنحو السنة عمل بصورة غير قانونية بناء السطوح في لاس كرويسيس في نيو ميكسيكو، لكنه قبض عليه بعد ذلك وهجر. إنه يتحين الفرص للعودة الآن. «تكلّمت على الهاتف مع رب العمل القديم. قال إن لديه عملاً لي»، قال راميرز وهو ينظر عبر نهر ريو غراند الجاف إلى مركز الباسو. لكن من الصعب عبور الحدود هذه الأيام. إنه يحتاج إلى المال لاستئجار دليل محترف. لا يوجد عمل هنا في خواريز. بين التحول الاقتصادي العالمي وعنف المخدرات الشديد في المدينة تبقى الصناعة في حالة تراجع. يكسب راميرز ما يكفي للعيش فقط من عمل يومي بين الحين والآخر.

«القتل هنا يجعل الحياة صعبة جداً. رأيت طفلاً يقتل أمامي مباشرة. ليس بعيداً من هنا في أحد المخازن أطلقوا النار على رجل ثم على الطفل. لا أريد أن أتورط في المخدرات. أريد أن أقوم بعمل شريف فقط». قال راميرز.

ما الذي حدث لخوسيه راميرز؟ بعبارات بسيطة دفعه النينو إلى الدين، وهذا أجبره على الهجرة شمالاً. كما كررت خلال هذا الكتاب، من المستحيل القول إن العالم الأشد حرارة قد تسبب في حادثة طقس وحيدة. لكن نمط العلاقة واضح: يتعلق ارتفاع درجة الحرارة السطحية بحوادث أكثر من النينو.

يتجلى تغير المناخ في شكل جزء من شبكة من الحوادث. أطلقت المياه الدافئة للنينو ازدهار الطحالب الحمراء السامة التي قتلت الأسماك وحركتها بعيداً، وبالتالي أطلقت رحلة راميرز إلى الشمال. لكن الازدهار الطحلي السام لم ينتج بسبب الماء الحار فقط. لقد نشأ أيضاً من البر نتيجة التطوير الواسع للفنادق السياحية وملاعب الغولف ومزارع الفاكهة للتصدير، وكلها تطلق كميات أكبر من الصرف الصحي والفوسفات العضوي إلى البحر، مغذية نمو الطحالب السامة.

هذه الزيادة في التلوث العضوي يضاعفها الانحسار في الدفاعات الطبيعية على شكل غابات المانغروف والأراضي الرطبة. تنمو غابات المانغروف على مد منبسط، ومجرى مياه عذبة نظيفة بامتصاص المغذيات التي كانت ستغذي بطريقة أخرى الازدهار الطحلي. يعني انحسارها نمو المزيد من الطحالب. يزيل التطور المنفلت

نفسه الذي يضيف الملوثات العضوية إلى المياه الساحلية المانغروف أيضا. بحسب منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة امتلكت المكسيك 1.4 مليون هكتار من غابات المانغروف في العام 1971. وبحلول العام 1999 انخفضت مساحة هذه الأراضي الخشبية الساحلية بنحو النصف إلى 733 ألف هكتار فقط⁽¹⁵⁾.

بالمثل، لم تكن التأثيرات الاجتماعية للمد الأحمر حتمية، لكنها خلقت جزئيا نتيجة سياسات اقتصادية - سياسية. على سبيل المثال، لماذا لم يكن المخزون السمكي أكثر قوة؟ لأن مصايد المكسيك تدار بشكل سيئ، وهي في حالة تقهقر، وقد ثبت معدل التقاط الأسماك منذ العام 1980 على الرغم من الزيادة المستمرة في الاستثمار⁽¹⁶⁾. لماذا لم يكن هناك نظام عام للدعم لخوسيه راميرز خلال الأيام الصعبة؟ لأن المكسيك الآن مختبر اجتماعي لمؤيدي السوق الحر المتشددين.

سمك ليبرالي جديد

كانت الثورة المكسيكية تقدمية عموما في شخصيتها. بين إصلاحاتها المتعددة حُجزت أفضل مصائد الأسماك للأفراد الصيادين الصغار، وبعض التعاونيات المدعومة من الدولة. «خلال الثلاثينيات منحت التعاونيات باستمرار امتيازات للصيد في المصائد الوطنية، وهي عملية توجت بقانون الصيد عام 1947، الذي منحها حقوق الصيد الحصرية في أهم تسع مصائد محار وأسماك»⁽¹⁷⁾. حصل صيادو الكفاف أو الحرفيون على البقية. كيفية التقاط الأسماك وصنعها وبيعها كانت كمعظم الاقتصاد مغلفة بطبقات من التشريعات المحددة بالوطنية الاقتصادية. تحكمت مؤسسة شبه حكومية تدعى بروميكس في تغليف الأسماك وتصنيعها وفي الأسعار والتسويق⁽¹⁸⁾.

خلال أزمة الديون في أمريكا اللاتينية في الثمانينيات حررت المكسيك باستمرار اقتصادها. كان الهدف النهائي من العملية الوصول إلى اتفاقية التجارة الحرة مع الولايات المتحدة وكندا. وكجزء من هذا خصصت بروميكس كامل مصانع تعليبها وتغليفها وسفنها. سمحت عملية إزالة التحكم في القطاع المصرفي للشركات الخاصة بإبعاد التمويل الحكومي عن قطاع الصيد⁽¹⁹⁾. في العام 1989 سمح للملكية الأجنبية بـ 50 في المائة من صناعة الصيد وتصنيعه⁽²⁰⁾. أنهى احتكار التعاونيات مما اضطرها للمنافسة مع القطاع الخاص للحصول على حقوق الصيد الرسمية. خُفضت الدولة

الإنفاق العام ببيع المؤسسة الحكومية الرئيسة لتصنيع الأسماك وتصديرها إلى بنك خاص، وخفضت الدعم للصيادين الصغار. بشكل أوسع، خصصت أو جرت تصفية 940 مؤسسة قطاع عام من أصل 1155 مؤسسة بين عامي 1982 و1994، وفتحت الأسواق التي كانت من قبل مغلقة. مقابل هذا كله حصلت المكسيك على نفوذ أكبر إلى الأسواق الأمريكية⁽²¹⁾.

جاء النموذج الليبرالي الجديد لإدارة المصائد بتكلفة اجتماعية وبيئية عالية. انخفضت المخزونات بشدة، وازداد الفقر بين مجتمعات الصيادين. ومع تقليص الدولة لدورها، وانتقال رأس المال الخاص إلى قطاع متحكم فيه بشدة، نما الفساد والصيد غير المشروع للموارد البحرية⁽²²⁾.

التشريع القليل المتبقي جرى تجاوزه مرارا فيما دعاه صحافي «التايمز» المخضرم تيم وينر «الهوة السحيقة بين القوانين المكسيكية وآليات تنفيذها». قَدَّر المسؤولون أن نحو 12 ألف زورق صيد غير مرخصة كانت تعمل في بحر كورتس^(*) وحده⁽²³⁾. تستولي السفن الأجنبية على معظم الصيد: يمثل الأسطول المكسيكي أقل من 10 في المائة من الصيد الكلي، بينما تذهب البقية إلى سفن من الولايات المتحدة واليابان وكندا⁽²⁴⁾. جعلت هذه الإدارة السيئة للموارد السمكية أناسا مثل خوزيه راميرز عرضة للطقس الشاذ الجديد، وساعدت في دفعهم بعيدا عن أساليب معيشتهم الأولية نحو المدن المكسيكية والولايات المتحدة.

قصة خوسيه راميرز المتكررة عبر البلد هي قصة تغير مناخي يعبر عن نفسه من خلال الحقائق الاقتصادية السياسية الليبرالية الجديدة. وبينما يستحيل القول إن تغير المناخ هو سبب النينو 1997 - 1998، نعلم بأن كوكبا آخر من المحتمل أن يؤدي إلى حوادث طقس أشد عنفا كالتذبذب الجنوبي للنينو وازدهار طحلبي أكثر سمية. وبالإضافة إلى سياسات اقتصادية سيئة، يؤدي تغير المناخ مسبقا إلى تدفق لاجئي المناخ.

دفعوا من سيرا

على الطرف الجنوبي الشرقي لخواريز، حيث تزحف البيوت العشوائية إلى سيرا مادر، قابلت لاجئي مناخ آخرين في مستعمرة لهنود الراراموري. عُرفوا أيضا بالتاراهومار،

(*) خليج كاليفورنيا.

يأتي عداؤو المسافات الطويلة هؤلاء من سيرا مادري الغربية في جنوب تشيواوا. تمثل مستعمرتهم الحضرية قرية جبلية متمركزة حول ساحة، وكنيسة كاثوليكية ذات جدران صفراء. فوقهم يخيم جبل رمادي بارد ضخيم. على سياج علق جلدا بقر جافان لحيوانين ذبحا للعطلة. الكثير من رجال الراراموري عاطلون عن العمل، أو يقومون بأعمال متقطعة في النهار، والعديد منهم سكارى. انتقل الهنود إلى هنا لأن الوظائف جذبتهم شمالا، لكن الجفاف في موطنهم يدفعهم إلى الانتقال أيضا.

«لم تهطل أمطار هناك، لذا يأتي الكثير من الناس إلى هنا»، قال سيلسو نافا غاليندو. انتقل وهو في السادسة والثلاثين من قرية على بعد 7 ساعات تدعى بوكوينا إلى هنا. «لا مطر، لا ناس» قال غاليندو. «في موطننا نعيش على الزراعة ونتكلم لغتنا. لكن الجفاف يجعل العيش هناك صعبا جدا».

في العام 2008 لاحظ كاتب الرحلات ريتشارد غرانت الشيء نفسه: «غادر التراهومارا المنطقة الآن. إنها قصة تغير مناخي كأي شيء آخر. كانت هناك اثنتا عشرة سنة من الجفاف في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. أصبح من المستحيل على مزارعي الكفاف المحافظة على أنفسهم أحياء. من المشاكل والتحديات كلها التي واجهها التراهومارا كانت هذه هي الأكثر شدة»⁽²⁵⁾.

عندما استسلمت الزراعة للجفاف، عمل غاليندو بقطع الأخشاب طوال الوقت، لكن عندما أزيلت الأشجار فقد عمله. لذا جاء إلى خواريز - مثل الخشب الذي يأتي من موطنه الأصلي - وعمل في البناء. ومثل الرجال الآخرين في الساحة، شرح مسألة الجفاف بمصطلحات محلية وعملية: «الكثير من قطع الأشجار».

بالفعل تتعرض غابات سيرا التراهومارا لضغط شديد. يأتي نحو 90 في المائة من الخشب المنتج في ولاية تشيواوا من هناك. المكسيك، ككل التي لم تكن أبدا مزروعة بالغابات بكثافة، قطعت أكثر من ثلث غاباتها. شهدت الثمانينيات، وهي عقد الليبرالية الجديدة المستمرة التي قادت إلى اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا)، إزالة سريعة للغابات. بين العامين 1990 و2005 فقدت المكسيك 6.9 في المائة من غاباتها للأبد⁽²⁶⁾.

ربما كان الرجال في الساحة مصيبين باعتقادهم أن إزالة الغابات هي سبب الجفاف. غير أن المشاكل تمتد إلى أبعد من سيرا التابعة لهم. تعاني معظم المكسيك

من طقس جاف وشاذ، بما في ذلك فيضانات مفاجئة في مناطق مصابة من ناحية أخرى بالجفاف. سيكون تغير المناخ الديناميكية المركزية في الهجرة بصورة متزايدة. يشير معهد المراقبة الدولي وورلد ووتش إلى أن «التصحّر الذي يؤثر على الأراضي الجافة (في المكسيك) يدفع نحو 600 ألف إلى 700 ألف إنسان للهجرة كل عام». في العامين 2009 و2010 وقعت المكسيك بسبب النينو في قبضة أسوأ جفاف خلال عقود. في أنحاء عديدة من المكسيك كانت ملكية الماء أهم من ملكية الأرض⁽²⁷⁾. «تأثر نحو 40 في المائة تقريبا من الأراضي الزراعية التي فحصتها الحكومة بالجفاف، مسببة انخفاضات خفيفة في حصاد الذرة والفاصولياء والقمح والسمسم»، كما أشارت برقية عمل. أنفقت الحكومة المكسيكية أكثر من 100 مليون دولار على مساعدات لضمان المحصول في حالات الطوارئ للمزارعين⁽²⁸⁾. أعلنت الحكومة أن الجفاف أنقص حصاد الذرة البيضاء للغذاء في العام 2009 بنحو 10 في المائة، لكنها أصرت على أن «الإمدادات للاستهلاك البشري ستكون مضمونة»⁽²⁹⁾.

تفحصت مؤسسة كير CARE الدولية مسألة التصحر والهجرة في المكسيك ووجدت دلائل متزايدة على انزياحات سكانية بسبب تغير المناخ. «عندما يكون محصولنا سيئا، علينا أن نعتمد على أنفسنا»، شرح أحد المزارعين. «على الكثيرين منا أن يغادروا إلى كندا أو الولايات المتحدة... النقود التي جنيتهما هناك... كانت مساعدة قيمة لعائلتي. من دون ذلك الدخل، سيكون الأمر صعبا جدا». أخبر مزارع آخر مؤسسة كير: «جدي وأبي وأنا عملنا في هذه الأرض. لكن الزمن تغير... المطر أصبح يأتي متأخرا الآن، بحيث إننا ننتج أقل. الحل الوحيد هو أن نغادر بعيدا»⁽³⁰⁾. بعيدا إلى الجنوب تحصل الظروف ذاتها. ارتفاع درجة حرارة المحيط الهادئ قبالة شواطئ بيرو يعني أن تواجه غواتيمالا أسوأ جفاف خلال ثلاثة عقود. في العام 2009 فشل محصول الذرة في أربع مقاطعات. احتاجت 400 ألف عائلة فلاحية مساعدات غذائية. توسلت الحكومة للحصول على 100 مليون دولار على شكل معونات طارئة. في السلفادور جلب الإعصار «إيدا» فيضانات عارمة: هُجّر 15 ألف إنسان من مساكنهم، ومات أكثر من 200 منهم. لكن الدمار الحقيقي من تلك العاصفة سيصل لاحقا مع دفع التربة المهترئة، والمحاصيل الفاشلة، والديون العائلية المتزايدة، الناس بعيدا عن الأرض إلى المدن، وما وراءها إلى المكسيك، ثم إلى الشمال مرة أخرى.

عندما يواجه السكان النازحون قدرا أكبر من الفقر والبطالة والسكن في العشوائيات وإغراء تجارة المخدرات السرية وفساد الدولة وعدم المساواة ووسائل الإعلام الحافلة بالمادية والرجسية والجنس والتعطش للقتل، فإن الشذوذ والحرمان النسبي الذي يختبرونه يغذي فيهم الإجرام. تبرر الجريمة قمع الدولة المكسيكية، وكما سنرى لاحقا، تشدد الشرطة ضد الأجانب في الولايات المتحدة. بهذه الطريقة تتحول الأزمة في الأنظمة الطبيعية إلى أزمة عنف في المدن واضطهاد على الحدود. يربط التجمع الكارثي، كما يتجلى في شمال المكسيك، بين الهجرة والاقتصاد والعنف والمناخ. ولفهم الانهيار الاجتماعي المتمثل في حرب المخدرات المكسيكية التي يتدفق إليها لاجئو المناخ الآن، علينا فهم التاريخ الاقتصادي للبلد، لأن الطقس الجديد الغريب الذي يدفع الناس بعيدا عن أراضيهم يعبر عنه من خلال الحقائق الاقتصادية التاريخية. هذا واضح من حالة جاهزية راميرز الصياد من ميتشواكان، والمزارع سيلسو نافا غاليندو من الراراموري الذي تحول إلى خطاب ثم إلى عامل يومي في المدينة. لم يدفع المهاجرون على شاكلتهم بعيدا بسبب الجفاف والفيضانات والازدهار الطحلبي، بل جذبوا أيضا إلى دوامة سياسات الحدود والهجرة تحت إغراء العمل الصناعي. لذا يتطلب فهم تغير المناخ في المكسيك وعلى الحدود المسلحة الأمريكية، جولة في التاريخ الاقتصادي للثورة المكسيكية، وفي التحولات التي أحدثتها اتفاقية النافتا.

المكسيك المتمردة

منذ العام 1920، عندما صممت مدافع الثورة، وحتى أوائل الثمانينيات، تطور الاقتصاد المكسيكي بمؤسسات تقودها الحكومة وتتوجه إلى الداخل بنمط مماثل للبرازيل وشائع في أمريكا اللاتينية. تحت قيادة بورفيريو دياز قيل إن المكسيك بمنزلة أم للأجانب، وزوجة أب بالنسبة إلى المكسيكيين⁽³¹⁾. وكما وصف المؤرخ ومراسل صحيفة نيشن (الأمّة) كارلتون بيلز في السيرة الذاتية لدياز «كان لمجموعته فكرة أساسية واحدة، وهي السرقة، كثيرا ودائما بطريقة مدروسة»⁽³²⁾. كان هذا صحيحا خاصة بعد حرب الولايات المتحدة مع إسبانيا العام 1898، حيث انزلق دياز تحت الضغط التجاري من الشمال نحو السلطوية التي اشتهر بها. وقد ساءت

الأمر مع الركود الاقتصادي في العام 1903. جوبهت الإضرابات خلال فترة التعافي في العامين 1906 و 1907 بقمع عنيف. مزجت أساليبه - «الخبز أو العصا» - بين القمع والولاء الفاسد. خلال عقده الأخير في السلطة كانت السياسة الاقتصادية في حالة من الفوضى، واستجابة للأزمة الاقتصادية العالمية بين العامين 1893 و 1903 استدان دياز بشدة وبفوائد مرتفعة⁽³³⁾.

عشية الثورة كانت علاقات السلطة في المكسيك فاسدة. رسم بيلز صورة (ربما مبالغاً فيها) لإذلال لا يمكن تحمله: «في كل مكان كان للقائد الحق الأول على النساء. غالباً ما كان القائد أو المشرف على العمل، بعد الاستمتاع بفتاة دخلت سن البلوغ لفورها، يستدعي شاباً كادحاً ليقول له «هذه زوجتك»، وهكذا كان يتم الاحتفال بالزواج»⁽³⁴⁾. على قمة هذه الكومة من الفساد جلس دياز.

عندما اندلعت الثورة أخيراً كانت عملية فوضوية، مؤلفة قوى غير متجانسة جغرافياً وعقائدياً ضد دياز ومؤيديه: من ملاك المزارع والموظفين الفاسدين والرأسماليين الأجانب الكبار ومعظمهم من البريطانيين والأوروبيين⁽³⁵⁾. شمل المتمردون الليبراليين طالبوا بسياسة حرة، وفلاحين من الهنود طالبوا بالأرض، ورعاة بقر ورجال عصابات طالبوا بالغنائم، ورجال أعمال وطنيين بحثوا عن طريق نحو التنمية الاقتصادية الحديثة. وكما كتب فرانك تانينباوم في كتابه الكلاسيكي المعاصر «سلام عن طريق الثورة»: «كانت الثورة المكسيكية مجهولة الهوية. كانت من صنع الناس العاديين أساساً. لم يتأسسها أي حزب منظم عند ولادتها. ولم يصف مثقفون كبار برامجها، أو يصوغوا مبادئها، أو يلخصوا أهدافها»⁽³⁶⁾.

المادة 27 والدولة التشاركية

بعد الانتصار استقرت الثورة على خطة للتحديث الاقتصادي والتنمية الرأسمالية تمحورت بشكل ملحوظ على أول دستور اشتراكي في العالم⁽³⁷⁾. وتنص المادة 27 من وثيقة 1917 خصوصاً على ما يلي: «تعهد الملكية المباشرة للموارد الطبيعية كلها إلى الدولة». عنى هذا الأراضي والمواد الخام والغابات والمياه والأسماك جميعها. يتابع النص الفعلي بتفاصيل موسعة ليعدد «الأحجار الكريمة والصخور الملحية وتوضعات الملح المشكلة من مياه البحر... والنفط والهيدروكربونات الصلبة والسائلة والغازية

جميعها»⁽³⁸⁾. (حتى الصخور الملحية!) في لب المادة 27 كان إصلاح ملكية الأراضي الذي حرر معظم الفلاحين من سخرة الدين. بحلول العام 1940 ملكت 23 في المائة تقريبا من الأراضي كلها جماعيا ضمن نظام إيجيدو ejido (التعاونيات) حيث ارتفعت من 1.6 في المائة عند نهاية الثورة⁽³⁹⁾. في العام 1960 عملت نحو 20 ألف تعاونية بـ 2 مليون عضو «على أقل بقليل من نصف الأراضي المزروعة»⁽⁴⁰⁾.

حاولت الدولة المستقلة ذاتيا نسبيا تحفيز التنمية الاقتصادية من خلال سياسات التصنيع بإحلال الواردات (ISI). ومثل البرازيل والعديد من دول أمريكا اللاتينية الأخرى في القرن العشرين، ألقت المكسيك اندماجا محدودا بين العمال ورأس المال. امتلكت الدولة بعض الصناعات وفرضت تحكمها على أخرى. في النهاية، شكلت هذه المجموعة شبه الاشتراكية من التدخلات جزءا من «تحالف من أجل الربح» مع رجال الأعمال⁽⁴¹⁾.

مقابل التعاون مع نقابات العمال والتفاوض معهم، سمح للرأسماليين المكسيكيين بتشكيل احتكارات وتكتلات اقتصادية. أجبروا أيضا على الدخول في غرف تجارة تديرها الدولة. عززت الدولة الفعاليات الاقتصادية بالدعم والحماية الجمركية وتشريعات صممت لصد التأثيرات المخربة الناجمة عن التنافس المنفلت بين الشركات، وحماية الشركات المكسيكية من المنافسين الأجانب. سمحت ملكية الدولة الجزئية لقطاعات أقوى من الاقتصاد بدعم قطاعات أضعف⁽⁴²⁾.

قدمت الدولة قروضا رخيصة وثابتة مع «إحلال تدريجي للملكية الوطنية وملكية الدولة للنظام المصرفي محل الملكية الأجنبية»⁽⁴³⁾. سهل نظام الإقراض الجديد «التقدم في الإصلاحات الزراعية»، وطور نظام إقراض يقوم على المحصول بدلا من الأرض للملاك الصغار و«لفلاحين يمتلكون أراضي جماعية في القرى». بهذه الطريقة أمكنهم الحصول على قروض جاهزة، من دون أن تتحمل الأراضي الجماعية الأقساط⁽⁴⁴⁾. في هذه الأثناء كسبت نقابات العمال حقوقا قانونية، على الرغم من أن العناصر الأكثر تطرفا في التنظيمات العمالية هُمشت. رفعت الاحتجاجات العمالية والتفاوض المشترك الأجور. وحفزت هذه بدورها الاستهلاك، ونمو الأسواق الداخلية، وشجع هذا الاستثمار الأكثر إنتاجية، موفرا عمالة واستهلاكا وأرباحا أكبر، وهكذا دواليك⁽⁴⁵⁾. سمحت هذه الإصلاحات التقدمية كلها للصناعة المكسيكية بالمنافسة

مع المصالح البريطانية والأمريكية الأقوى التي سيطرت على الأعمال والتجارة (لكن ليس على الزراعة) تحت بورفيريو دياز⁽⁴⁶⁾.

كارديناس والنفط

تعمقت النسخة المكسيكية من التشاركية بشكل كبير أواخر الثلاثينيات تحت الرئيس لازارو كارديناس، الذي سرع بإصلاح ملكية الأراضي، وتأميم الصناعات الأساسية. «كان الافتراض وراء سياسات كارديناس أنه بينما تبقى الرأسمالية ضرورية للتنمية، غير أنه من الممكن التحكم برأس المال كالعالة وتنظيمه من قبل الدولة»⁽⁴⁷⁾. أكد كارديناس على «برامج لتحسين حالة الطبقات الأدنى خاصة الهنود من خلال التعليم وإعادة توزيع الأراضي وإقامة المزارع التعاونية (إيجيدو)، والحد من رأس المال الأجنبي، وإعطاء دور أكبر للمشاريع التي تديرها الدولة»⁽⁴⁸⁾.

بحلول العام 1937 أمم كارديناس السكك الحديدية، وصوب نظره إلى الجائزة الكبرى: النفط. جره ذلك إلى مواجهة مع شركات نيوجرسي ستاندارد أويل، وشل، والحكومة الأمريكية. لكن كارديناس انتصر، وصادر العمليات المكسيكية للشركات البترولية الدولية، لإنشاء شركة النفط الوطنية بتروليوس مكسيكانوس، أو بيميكس Pemex⁽⁴⁹⁾. لكن كانت لهذا النظام مشاكله. بتركيز السلطة واستبعاد رأس المال، لكن من دون تحطيمه، فتحت الدولة المكسيكية المجال لفساد خطير. كانت الفكرة أن تكون الدولة «موجهة للاقتصاد». أبعدت الأعمال الاقتصادية عن السياسة، ومنعتها من الوصول إلى دوائر عملية صنع القرار، ولم يسمح لمالكي الشركات الخاصة حتى بأن يكونوا جزءا من الحزب⁽⁵⁰⁾. لكن الاستبعاد الرسمي للقطاع الخاص من القنوات الرسمية للتأثير، شجع رجال الأعمال على رعاية اتصال ونفوذ غير رسميين. نتج عن هذا الفساد والوساطة.

مع حلول الستينيات أسست بعض الصناعات غرفا صناعية مستقلة عارضت تدخل الدولة في الاقتصاد. كانت الأقوى بينها لجنة رجال الأعمال التي شكلت العام 1962 ولجنة تنسيق رجال الأعمال التي أنشئت في العام 1975. ضمن هذه المجموعات النخبوية نمت الضغوط من أجل التحول في السياسة الاقتصادية نحو اليمين.

لعنة الازدهار النفطي

مر النموذج التشاري بأيام صعبة خلال السبعينيات. اجتمع النمو المتداعي والغلاء المرتفع مع تزايد الدين العام. في الوقت نفسه بدأ الازدهار النفطي يشوه الاقتصاد المكسيكي. في العام 1973 مباشرة، وبعد أن بدأت احتياطات نفطية جديدة في الإنتاج، ارتفعت الأسعار من 3 دولارات إلى 12 دولارا للبرميل⁽⁵¹⁾.

في الوقت ذاته كان الضغط الاجتماعي ينمو في المكسيك: شكل المزارعون والعمال وأكثر من هذا كله الطلاب وشباب المدن حركات اجتماعية نشطة. قوبلت احتجاجاتهم بالاعتقال والتعذيب والاغتيال، وحتى بالمذابح. قبل عشرة أيام من افتتاح دورة الألعاب الصيفية الأولمبية عام 1968 في المكسيك، فتح جنود النار على مظاهرة طلابية في ساحة لاس ترياس كلتوراس^(*) في تلاتيلوكو. قتل ما بين مائتين وثلثمائة وجرح مئات آخرون، وألقي القبض على المئات وضربوا، وأخذت أعداد من الجثث وأخفيت من قبل الجنود⁽⁵²⁾.

وسط التوتر المتصاعد بدأ لويس ايتشيفيريا رئاسته لست سنوات في العام 1970. ولتورطه شخصيا في قتل الطلاب المحتجين في تلاتيلوكو في العام 1968، حاول إيتيفيريا إحاطة شرعية الدولة ببرنامج شعبي جديد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية. كانت «التنمية المشتركة» هي العبارة الرائجة، وكان التوسع الضخم في الإنفاق العام الوسيلة لتحقيق ذلك. بين أشياء أخرى، ازداد عدد طلاب الجامعات بنحو 290 في المائة بين العامين 1970 و عام 1976.

جاء تمويل هذا التشجيع من عائدات النفط التي كانت ترتفع مع ارتفاع أسعار النفط عالميا. لكن إيتيفيريا احتاج إلى موارد أكثر. احتاج إلى جمع ضرائب أكثر من الأغنياء، لكنه لم يستطع ذلك لأن الكثيرين منهم خبأوا ثرواتهم في الخارج. لذا زادت الحكومة من الاقتراض من الأسواق الأجنبية⁽⁵³⁾. تحت إيتيفيريا ارتفعت الديون الخارجية من 3.2 مليار دولار إلى 16 مليار دولار. ومع التحفيز جاء الغلاء. في أغسطس من العام 1976 انفجرت فقاعة ديون إيتيفيريا، وخفض البيزو بمقدار 45 في المائة. كان معدل الغلاء منخفضا في المكسيك، لكن الأسعار بدأت في الارتفاع أوائل السبعينيات من متوسط 3.6 في المائة سنويا بين 1965 و 1970 إلى 30.5 في المائة بين 1977 و 1982. بحلول منتصف الثمانينيات وصل الغلاء عند 90 في المائة.

(*) أي، الثقافات الثلاث. [المحررة].

تابع الرئيس التالي خوسيه بورتيو عملية التوازن: قمع اليساريين المتطرفين لكنه سمح للحزب الشيوعي بالترشح للانتخابات. أنفق بسخاء على مشاريع التنمية واستثمر في قطاعات مهمة كالزراعة والإسكان والصحة والتعليم. مرة أخرى كانت أسعار النفط ترتفع بسرعة. بين 1979 و1980 نما دخل المكسيك من النفط بنحو الثلثين⁽⁵⁴⁾. مع ذلك بقيت الحكومة في حاجة إلى الاقتراض لدفع فواتيرها. كان الاقتصاد ينمو بمعدل 8 في المائة في العام، وكانت الشركات تعمل باستطاعتها القصوى، وكان سوق الأسهم الصغير في المكسيك يزدهر. منذ أوائل الستينيات مرورا بالسبعينيات تضاعف عدد المدارس الابتدائية، وانخفض معدل الأمية إلى 15 في المائة، وتراجع معدل وفيات الرضع إلى النصف بفضل زيادة بلغت 10 أمثال عدد الأطباء العاميين⁽⁵⁵⁾.

منطق القروض

نظريا، كانت إستراتيجية أخذ قروض مقابل عوائد النفط في المستقبل صحيحة. مع زيادة أسعار النفط العالمية، ازداد سعر احتياطات المكسيك من النفط. حاول المخططون المكسيكيون تجنب «لعنة المورد» بالتطور إلى اقتصاد غير متوازن يعتمد على النفط. راهن القادة السياسيون في المكسيك أنه بينما كانت القروض رخيصة ومردود النفط مرتفعا، يمكنهم تحديث القطاعات غير النفطية من الاقتصاد بديون مضمونة. بسبب الازدهار النفطي كانت القروض رخيصة: كانت الأسواق المالية تطفح بالنقد لأن معظم الدول النفطية افتقرت إلى القدرة على استثمار ثروتها الطارئة داخليا. أعيد تدوير ما دعي بالبترول دولار من خلال الأسواق المالية العالمية. كان من المفترض أن يسمح النمو الاقتصادي المتنوع والمتوازن للمكسيك بتوليد عوائد ضريبية يمكن بواسطتها تسديد ديونها. بهذه الإستراتيجية حاول التكنوقراط المكسيكيون تجنب «أخطاء فنزويلا» التي استهلكت معظم النفط المصدر خلال القرن، وبعثرت عوائده. كانت الحيلة هي استثمار دخل النفط المركزي في الإنتاج، وليس مجرد إنفاق المال على الواردات⁽⁵⁶⁾.

لكن مع الأسف لم تتناقص الواردات، ولم يرتفع الإنتاج المحلي. ارتفعت قيم البيزو مما جعل الواردات رخيصة: تضاعفت واردات القمح بين 1979 و1980،

وسحب قطاع النفط والخدمات معظم المواهب. أما الزراعة وهي قلب المجتمع المكسيكي، فقد ركبت وسط الازدهار، كما فعلت قطاعات أخرى غير نفطية. بقي الفقر شديدا وشائعا. وبحلول نهاية العام 1980 كانت المكسيك مدينة بـ 33 مليار دولار للبنوك الأجنبية. ومع اقتراب الأزمة أصر الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو على أن «اقتصادنا ليس قائما على النفط». لكنه في الحقيقة كان قائما على النفط: جاء نحو 75 في المائة من دخل الصادرات من النفط⁽⁵⁷⁾.

أصبح الاقتصاد المكسيكي الآن مثل نادل يندفع إلى الأمام بصينية مملوءة بالأطباق: استمر في الحركة، وأنت على ما يرام. لكن كما يقول المصرفيون «ليست السرعة هي التي تقتل، بل التوقف المفاجئ».

الانهيار

اتخذ التوقف المفاجئ شكل ذلك الركود المفروض الذي أطلق في العام 1979 عندما رفع الاحتياطي الفدرالي الأمريكي أسعار الفوائد. أطلق هذا ما عرف بأزمة ديون أمريكا اللاتينية (لكنه لم يسببها). ومع اشتداد الأزمة تدخل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وكما يشرح الفصل 13 حول البرازيل، جاءت المساعدة من مؤسسات بريتون وودز مقيدة ببعض الشروط: أعطيت قروض طارئة، لكن فقط إذا طبق التقشف وزيدت الصادرات. لكن زيادة الصادرات تعني زيادة العرض من المواد الأولية، وبالتالي انخفاض الأسعار. لذا ولدت أزمة الديون أزمة المواد الأولية، وهي فترة مطولة من الأسعار المنخفضة للمواد الأولية كالخشب والخامات المعدنية كالحديد وخامات الألمنيوم والقصدير والحبوب والأغذية مثل السكر والكافكاو والبن وإلى حد ما الزيت. حسب أحد التقديرات انخفضت الأسعار بمعدل 35 في المائة خلال الثمانينيات⁽⁵⁸⁾. نتيجة لذلك عانت العديد من الاقتصادات في عالم الجنوب - وهي التي تشعر الآن بتأثيرات التغير المناخي - ركودا نسبيا لمدة عقدين تقريبا. فقط تدفق الازدهار الصيني والتأثيرات الأولية لتغير المناخ كسرت أخيرا الركود منذ العام 2004، وتسارعت حتى أزمة الغذاء خلال العامين 2008 و2010⁽⁵⁹⁾.

كان لأزمة المواد الأولية ثلاثة أسباب: 1 - التباطؤ الاقتصادي في الدول المتقدمة، 2 - زيادة أنواع مخلقة من الدعم كنتيجة جزئيا لارتفاع أسعار النفط في السبعينيات

التي رفعت الحوافز لتقنيات هندسية صناعية جديدة، و3 - سياسات التعديل البنوي لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والتي أجبرت الدول المستدينة على زيادة الصادرات وتخفيض قيمة عملاتها⁽⁶⁰⁾.

في صيف العام 1981، مع تحول تأثير ضغط فولكر المالي عالميا، بدأت أسعار النفط في الانخفاض، وواجهت المكسيك عوائد متناقصة بشكل كبير، وأضخم دين خارجي في العالم: 70 مليار دولار. تنبأ الاقتصاديون المكسيكيون بأن الدولة ستمتلك عوائد نفطية حتى 20 مليار دولار في العام 1981، و27 مليار دولار في العام 1982 لكن النفط جلب 14 مليار دولار فقط، وكانت السنة التالية تحت الهدف أيضا⁽⁶¹⁾. استهلكت خدمة الدين الآن معظم مبيعات المكسيك المتوقعة من النفط، وبالتالي معظم إيراداتها الأجنبية⁽⁶²⁾. بحلول صيف العام 1982 كانت المكسيك مدينة بنحو 81 مليار دولار للبنوك الأجنبية، وكان هذا المبلغ يتنامى. لتجنب الفشل في الدفع خفضت الدولة قيمة البيزو، وفرضت تحكما محدودا في رأس المال. كان التخفيض الثاني خلال عام⁽⁶³⁾. أصيب الأفراد الأثرياء والشركات الخاصة بالهلع، ونقلوا إلى ثرواتهم خارج البلد.

في 12 أغسطس من العام 1982 أعلنت المكسيك أنها لن تستطيع تسديد ديونها، واتخذت الخطوات الأولى لإعلان فشلها، معلنة توقفها عن الدفع لمدة 90 يوما. خفض البيزو بمقدار 30 في المائة، وقبل نهاية العام خفض بـ 53 في المائة أخرى⁽⁶⁴⁾. وكما شرحت «النيويورك تايمز» «فإن فشل المكسيك في الدفع كان سيسبب تأثيرات خطيرة على النظام المصرفي الأمريكي، وعلى المصارف الأخرى في العالم. بحسب أحد المصرفيين الأمريكيين، فإن نحو 90 في المائة من رأسمال بعض المصارف الأمريكية كان على شكل قروض على المكسيك. حتى في مصارف أخرى مكشوفة بشكل صغير نسبيا، شكلت القروض المكسيكية 30 في المائة من رأسمالها»⁽⁶⁵⁾. أوائل سبتمبر أمم الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو النظام المصرفي الخاص في البلد، مجمدا المفاوضات مع صندوق النقد الدولي⁽⁶⁶⁾.

إنقاذ عام 82

شمل الحل الوسط في النهاية الاحتياطي الفدرالي الأمريكي، وصندوق النقد الدولي، ومعظم المصارف الـ 900 التي كانت المكسيك مدينة لها⁽⁶⁷⁾. مقابل تقديم

قرض بقيمة 12 مليار دولار، بدأت المكسيك سياسة التحرير الاقتصادي، وفرضت التقشف. خرج كينز، ودخل هايك^(*). باعت الحكومة 106 شركات ووكالات مملوكة من الدولة. شملت هذه مصانع السكر وأحواض السفن ومصانع الطاقة والنسيج، وأيضاً معامل تصنيع شبه حكومية، وشركة التصدير والتسويق أوشين غاردن بروداكتس التي كان الصياد العاطل عن العمل خوسيه راميرز يبيع صيده لها⁽⁶⁸⁾.

جلبت الخصخصة مالكين جددًا مزقوا الاتحادات العمالية وطرّدوا العمال وخفضوا الأجور. مع نهاية العقد تقلصت 1155 شركة أعمال إلى 400 فقط. كسبت الدولة أقل من 2 مليار دولار من هذه الخصخصة، ذهبت كلها لخدمة الدين⁽⁶⁹⁾. في الوقت نفسه خفضت الدعم على الأغذية، وقطعته نهائياً عن البيض والحليب وزيت الطبخ والسكر والفاصولياء والأرز. ضوعف سعر المفرق للغازولين والغاز الطبيعي⁽⁷⁰⁾. بحلول العام 1986 كانت القدرة الشرائية للمكسيكي المتوسط تبلغ نحو نصف ما كانت عليه في العام 1982⁽⁷¹⁾.

ومع ذلك، تقاعد الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو ليعيش في بيت على قمة جبل بقيمة 30 مليون دولار، وهو صرح للفساد والخيلاء يشتمل على مخزن مزود بـ «ثلاجة للفراء»، ومكتبة تتسع لمليون مجلد، و«مرصد فلكي أفضل تجهيزاً مما هو موجود في الجامعة الوطنية»⁽⁷²⁾.

نافتا

وجهت تجربة المكسيك بالدين مسيرتها الطويلة إلى اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا). توجت الاتفاقية عملية من التحرير الاقتصادي ولدت من أزمة الديون في العام 1982. على الطريق، عدلت المادة 27 من دستور العام 1917 من بين أشياء عدة أخرى، بحيث أصبحت الآن تسمح باستثمار أجنبي أكبر. في 1 يناير من العام 1994 طبقت اتفاقية النافتا⁽⁷³⁾. في الوقت نفسه، في ولاية تشيباس الجنوبية،

(*) جون كينز John Keynes اقتصادي بريطاني صاحب نظرية في الاقتصاد دعت إلى تدخل الدولة لإنقاذ الاقتصاد الرأسمالي من الركود وطبقت نظريته حتى السبعينيات، وفريدريش هايك Friedrich Hayek اقتصادي بريطاني من أصل نمساوي حاز جائزة نوبل في الاقتصاد، دعا على عكس كينز إلى الليبرالية الكلاسيكية في الاقتصاد. [المترجم].

ثار جيش زاباتيسا zapatista للتحرير الوطني ومعظمهم مجموعة من الفلاحين الأصليين ضد الحكومة، معتبرين النفطاً بمنزلة حكم بالإعدام على الهنود⁽⁷⁴⁾.

بحسب مروجها، رئيس المكسيك السابق كارلوس ساليناس، ستمكن نفثا المكسيك من «تصدير البضائع وليس البشر»⁽⁷⁵⁾. سيجري تحديث الاقتصاد الريفي، وسيستطيع المزارعون الذين لا يستطيعون التكيف العمل في قطاع الخدمات والقطاع الصناعي المتوسعين⁽⁷⁶⁾. لكن ماذا فعلت التجارة الحرة حقاً للمكسيك؟ أجاب مقال ساخر نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» في العام 2009 عن هذا السؤال بما يلي: «حققت النفطاً في بعض الحالات نتائج معاكسة تماماً لما وعدت به. على سبيل المثال فككت الصناعات المحلية، بسبب استيراد الشركات الدولية للقطع من مزوديه الخاصين. أخرج المزارعون المحليون من الأسواق بسبب الأغذية المستوردة من دون تعريف جمركية. تخلص الكثير من المزارعين المكسيكيين عن أراضيهم ببساطة، واتجهوا شمالاً»⁽⁷⁷⁾. تابعت المقالة لتلاحظ أنه على الرغم من أن صادرات المكسيك تضاعفت خمس مرات، خلال خمس عشرة سنة، أصبح نحو نصف مليون من الناس يهاجرون كل عام للبحث عن عمل، وجزء كبير منهم من الريف. بنحو ربع المجموع الكلي لسكان المكسيك، يمثل الريفيون 44 في المائة من جميع المهاجرين المكسيكيين المنتقلين إلى الولايات المتحدة⁽⁷⁸⁾.

تحت النفطاً فككت الحكومة معظم الوكالات التي قدمت المساعدات، وأدارت الدعم للمزارعين الصغار. «تقلصت برامج الإقراض من الحكومة والقطاع الخاص كليهما بـ 75 في المائة بعد العام 1994، عندما دخلت النفطاً حيز التنفيذ، بينما ازدادت الإفلاسات في الريف ستة أضعاف»⁽⁷⁹⁾. تسمح المادة 27 المعدلة الآن ببيع أراضي التعاونيات (إيجيدو) مما زاد من عدد من لا يمتلكون أراضي⁽⁸⁰⁾ وبحسب تقرير في العام 2010 لأوكسفام، أنفقت المكسيك 80 مليار دولار على استيراد الغذاء، ولها اليوم عوز في تجارة الغذاء يقدر بـ 435 مليون دولار⁽⁸¹⁾. تحول الإنتاج الزراعي المكسيكي من تأمين الغذاء للناس وللأسواق الداخلية إلى إطعام الحيوانات لتصديرها⁽⁸²⁾. فتحت أسواق الذرة والمحاصيل الغذائية التي كانت محمية من قبل الحكومة حتى اتفاقية النفطاً تماماً⁽⁸³⁾. طالبت المنظمات الفلاحية بإعادة مناقشة الاتفاقية⁽⁸⁴⁾.

منذ العام 1994 تباطأ النمو الاقتصادي في المكسيك. وهو الآن بمعدل 3 في المائة تقريباً. من العام 1921 إلى 1967 وصل النمو السنوي إلى نحو 5.2 في المائة، ولمعظم تلك الفترة كان أعلى من 6 في المائة⁽⁸⁵⁾. وبحسب أرقام البنك الدولي، «في العام 2004، كان 28 في المائة من سكان الريف فقراء جداً، و57 في المائة فقراء بشكل وسط»⁽⁸⁶⁾. شجعت المعاناة والاستقطاب الاجتماعيان، اللذان أنتجتتهما الليبرالية الجديدة، على الفساد، وفاقما الحرمان النسبي. هذا هو المسرح المعد مسبقاً والذي تدخل إليه الآن قضية التغير المناخي لتتجمع مع الأزمة الاقتصادية، وإرث الاضطهاد السياسي. بمجموعها تساعد هذه القوى كلها على دفع الهجرة إلى الولايات المتحدة وشمال المكسيك، حيث تنخر حرب المخدرات الفوضوية الآن في المجتمع.

حرب المخدرات: العد التنازلي نحو الفوضى

يطل كوخ تانيلا غارسيا على الولايات المتحدة الأمريكية من حافة خواريز الغربية. يتخذ المنظر مشهداً سياسياً متلونا، بسبب الهوة العميقة بين تخلف عالم الجنوب وثراء عالم الشمال الباهر. كانت للكوخ أرضية قذرة مغطاة بقطع من سجاد رمادي مأخوذ من مكاتب. غطيت جدرانه بطبقات من صناديق كرتونية منبسطة. ووضع بلاستيك شفاف ومعمم فوق الجدران الصغيرة لإبعاد رياح الشتاء الصحراوية. تنبعث من كل غرفة من غرف غارسيا، واحدة لها ولزوجها، وأخرى لأطفالهما الأربعة، وهما صبيان وفتاتان، روائح التعرق والثياب الوسخة. على مصطبة من الأرض فوق الكوخ يجثم بيت خارجي صنع من الألواح الخشبية. اشترت بيتها الصغير في مستعمرة أنابرا بما يعادل 2000 دولار. سورت باحته الجرداء بسياج مصنوع يدويا من العصي والأسلاك الشائكة ومرتبطة سلكية. على شجرة قصيرة جرداء علقت ثلاثة أقفاص خشبية لطيور غناء التقطتها: دُعي الطيران الحمراء والصغيران: غوريون، والأكبر تشيفو. تقفز الطيور بنزق إلى الأمام والخلف في قفص بحجم صندوق للأحذية. «أحب طريقة غنائها في الصباح»، قالت غارسيا. تعمل غارسيا بتنظيف البيوت، ويعمل زوجها عاملاً مياوماً في البناء. في ذلك الوقت لم تكن لديهما وظائف. وقفت إحدى ابنتيها وعمرها إحدى عشرة سنة بالقرب منها في أثناء شرحها لطريقة تدبرهم أمور معيشتهم: «نحتفظ بالطعام عندما يتوافر لنا».

تسحب الماء من صنوبر جارتها. أما الكهرباء فتسرقها من عمود قريب في شبكة الكهرباء. أسلاك التمديد القديمة التي تغذي بيتها، وضعت عشوائيا فوق الأغصان والسطوح. من المعروف أن ترتيبات مفرقة كهذه كهربت الأشخاص الذين يمشون بالقرب جدا منها على أرض موحلة خلال العواصف المطرية. متوسط الهطول السنوي هنا هو - في حده الأدنى - نحو 8 بوصات فقط، لكن أجزاء من غواريز والباسو ضربت بفيضانات مفاجئة أحيانا. عندما أُلقت السماء في أغسطس 2006 بأكثر من 15 بوصة على المنطقة، طفت حفر المراحيز وغرقت أكواخ غواريز بصرف صحي مكهرب.

على الطرف الآخر من المسكن الصغير يقع طريق رملي والجدار المعدني للحدود الأمريكية. ووراء ذلك هناك الخطوط المقوسة لسكة حديد الباسفيك الجنوبي، وعلى منحدرات جبال فرانكلين هناك ضواحي الطبقة الوسطى للطرف الغربي من إلباسو، تلال غورونادو وريدج كريست.

هذا المشهد متطرف جدا في تناقضاته الاجتماعية، ومرشد سياسيا، بحيث إنه ربما صمم من قبل ثوريين وواعظين أو صحافيين كسالي، لو لم يكن قد خلق مسبقا من قبل مهاجرين ومضاري أراض وسياسين وبيروقراطيين وشركات صناعية تبحث عن عمالة رخيصة. هذه هي خواريز: المدينة التي بنتها النفط ثم بدأت بقتلها. لكن تغير المناخ سينهي هذه المهمة، ربما بحدود 2050. وبينما يدفع التغير المناخي الناس بعيدا عن أراضيهم، يأتون هنا للبحث عن عمل وعبور الحدود. وبينما ينتظرون هنا يمتص اقتصاد المخدرات شبابهم.

ليست خواريز والحدود المسلحة التي تتكئ عليها نتاج التغير المناخي، لكن لاجئي المناخ الآن يعبرون من هنا ويعلقون هنا ويموتون هنا. ودوامة القتل التي تميز غواريز الآن هي نذير لعالم يتجاهل تخفيف التغير المناخي، ويأخذ فيه التكيف شكل فصل طبقي عنيف.

في البداية كان هناك قتل

جذب العنف السيئ الصيت في خواريز الاهتمام لأول مرة في العام 1993، عشية تطبيق النفط. بدا وكأن سفاحا كان يتعدى على شابات يعملن في مصانع تجميع

بالمدينة. عثر على النساء موتى بعد أن اغتصبن وشوهن. كانت عاملات المصنع مهددات بشكل خاص، كما قيل، بسبب تنقلهن في الصباح الباكر عبر مسافات مهجورة في صحراء مفتوحة، حيث يمكن اختطافهن بسرية ويسر. كان لخواريز جغرافيا مؤلفة من قطع مهجورة بشكل غريب، حصلت نتيجة قفز المضاربين على الأراضي من بقعة إلى أخرى بعيدا في الصحراء.

قبضت الشرطة على متهم بعد آخر. أولا عرف أن الجاني مجرم جنسيا: كيميائي مصري انتقل إلى خواريز من ميدلاند في تكساس. سجن، لكن القتل استمر. ثم ألقت الشرطة باللوم على عصابة من المراهقين المغتصبين، ثم على سائق باص. لكن القتل استمر. قدم فيلم وثائقي رائع بعنوان «الشابة المفقودة»^(*) من قبل لورديس بورتيو دليلا ربط عناصر من داخل الشرطة بالاغتصاب والقتل⁽⁸⁷⁾. تحولت القصة في السنوات الأخيرة السابقة إلى أبعد من ذلك: من نساء موتى إلى مدينة تموت بأكملها. يبدو للوهلة الأولى أن العنف الآن مدفوع بمعارك على الأرض، وصراع على الزعامة بين عدد لامتناه من تجار المخدرات. لكنه في الواقع أسوأ من ذلك.

وصف تشارلز باودن، مؤرخ خواريز لفترة طويلة، نوعية انعدام القانون التي تجري الآن: «تخيل العيش في مكان يمكنك فيه قتل أي شخص تريد، ولا شيء يحدث سوى موته. لن يقبض عليك. ولن يعلن عن اسمك في الصحف. يمكنك الاستمرار في الحياة وفي القتل. يمكنك أخذ امرأة واغتصابها لأيام، ولا شيء يحدث. لو أردت يمكنك إذا أزعجتك تلك المرأة بطريقة أو أخرى أن تقتلها بعد أن تغتصبها. كن على ثقة بأنه لا شيء سيحدث لك نتيجة أفعالك»⁽⁸⁸⁾. ثم يشرح بعد ذلك بشكل أكثر تجريدا: «لسنوات بحث الناس عن تفسير واحد للعنف في خواريز... نصر على أن تستبدل قوة بأخرى، وعلى أن تحل هيكلية محل هيكلية سابقة... حاول مرة أن تتخيل شيئا آخر، ليس هيكلية جديدة بل نموذج، وليس لهذا النموذج وظيفيا سقف أو أرض، ولا مركز أو حافة، ولا رب عمل أو خادم مطيع... يحدث العنف في خواريز مثل ريح لا تتوقف... العنف الآن محبوب في نسيج المجتمع، وليس له سبب وحيد، ولا دافع وحيد، ولا زر لوقفه»⁽⁸⁹⁾.

انعدام القانون هذا هو السياق الذي بدأ تأثير المناخ يؤثر ضمنه. إنه أيضا جزء مما يجعل المكسيك مهددة جدا بتغير المناخ. إذن، ما تاريخ عنف المخدرات الذي يخرب الآن شمال المكسيك؟

(*) Señorita Extraviada.

قيح التجارة الحرة

بحسب معظم الأوصاف، كانت للاحتكارات المكسيكية الضخمة جذور قديمة في التهريب، أو إنها بدأت كملحقات للمنظمات الكولومبية⁽⁹⁰⁾. خلال النصف الثاني من الثمانينيات أصبحت المكسيك نقطة عبور لواردات المخدرات غير الشرعية إلى الولايات المتحدة بعد حملة إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية DEA على طرق التهريب في فلوريدا بدءا من العام 1982. وبينما أغلقت فلوريدا فتحت المكسيك⁽⁹¹⁾. في العام 1988 ارتفعت مصادرات الكوكايين على طول حدود كاليفورنيا بنحو 700 في المائة في عام واحد، مع تحريك الكولومبيين الكوكايين خلال طرق الهيروين والماريوانا المعروفة باسم «خطوط الأنابيب المكسيكية». قدرت إدارة مكافحة المخدرات DEA أن 30 إلى 40 في المائة من الكوكايين الذي دخل إلى الولايات المتحدة يصل الآن عبر المكسيك⁽⁹²⁾. هذه النسبة سترتفع لاحقا بشكل كبير. على مدى سنوات سهل المكسيكيون شحن الكوكايين والماريوانا لمصلحة الاحتكارات الكولومبية الأقوى فقط⁽⁹³⁾. في منتصف التسعينيات تغيرت الظروف. بدأت الاحتكارات الكولومبية في التصدع. أولا سجن زعيم احتكار، ميدلين بابلو اسكوبار، ثم هرب وقتل من قبل قوات المغاوير التابعة لإدارة مكافحة المخدرات EDA. وبهذا بدأت منظمته في التشطي، وأزيحت من قبل احتكار كالي، الذي يقال إنه فتح الطريق خلال المكسيك، لكن سرعان ما اعتقل زعماء هذا الاحتكار أيضا⁽⁹⁴⁾. بعد شهر من مقتل بابلو اسكوبار وقعت الولايات المتحدة والمكسيك على اتفاقية النافتا. نشر الراحل كين ديرموتا - وهو صحفي أمريكي كبير قابل المسجون بابلو اسكوبار، وغطى حرب المخدرات الكولومبية بشكل أفضل من الكثيرين - تقريراً عن كيفية انتظار احتكار ميدلين لاتفاقية التجارة الحرة بحماس يشبه حماس الأطفال عشية عيد الميلاد. وبسماعه أن اتفاقية النافتا قادمة أخبر مهرب مخدرات اسمه خوان فيرناندو تورو الصحفي ديموتا: «قريبا سأستطيع الشحن عبر المكسيك إلى الولايات المتحدة!»⁽⁹⁵⁾.

بدأ معاونو المنظمات الكولومبية من المكسيكيين في النضج حالا، وأصبحوا أكثر دهاء واستقلالية⁽⁹⁶⁾. كانت السنة التي أدت إلى النافتا في العام 1993 هي أيضا السنة التي أسس فيها آمادو كاريللو فوينتس، «ملك السماء»، احتكار غواريز. بعد

عام قدرت إدارة مكافحة المخدرات DEA أن 80 في المائة من الكوكايين المشحون إلى أسواق الولايات المتحدة دخل عبر المكسيك، مما جعلها المركز الجديد لتجارة المخدرات في نصف الكرة الغربي من العالم⁽⁹⁷⁾. وجد تقرير سري دعي «تهريب المخدرات والتجارة والنافتا على الحدود الجنوبية الغربية» صدر في العام 1998 من قبل أوبوريشين أليانيس، وهي قوة مهام تقودها منظمة الجمارك الأمريكية، أن المهربين كانوا يستخدمون «أعمالا لها علاقة بالتجارة... لاستغلال المد المتنامي من التجارة عبر الحدود»⁽⁹⁸⁾. شرح فيل جوردون، وهو موظف سابق في إدارة مكافحة المخدرات DEA أنه «بالنسبة إلى عصابات المخدرات المكسيكية، كانت النافتا صفقة أنجزت في جنة للمخدرات. لكن بما أن الولايات المتحدة والمكسيك كليهما ملتزمة جدا بالتجارة الحرة، لا يود أحد أن يعترف بأنها ساعدت أرباب التهريب الكبار. إنها موضوع محرم... بينما كنت في إدارة مكافحة المخدرات EDA، تلقيت تعليمات صارمة بعدم إبداء أي رأي سلبي حول التجارة الحرة»⁽⁹⁹⁾.

وصل ديرموتا بين النقاط: «في الفترة الحرجة التي شهدت بداية نافتا، ازدادت واردات المكسيك من البضائع القانونية من كولومبيا من 17 مليون دولار في العام 1990 إلى 121 مليون دولار في العام 1995، بينما تضاعفت تجارة المكسيك مع الولايات المتحدة». من الواضح أن الكثير من زيادة التجارة كان غطاء للمهربين الكولومبيين حيث يملك العديد منهم شركات قانونية، ويستخدمونها لنقل الكوكايين إلى المكسيك. في العام 1995 سأل ديرموتا السفير الأمريكي في كولومبيا إذا كان المسؤولون الأمريكيون قلقين من أن التجارة الحرة ربما تزيد من تدفق المخدرات. شرح السفير: «شعر أولئك الذين أيدوا النافتا، ومن قبل إدارة كلينتون، بأن استخدام الحجة بأن أي زيادة في التجارة يمكن أن يزيد من تهريب المخدرات وغسل الأموال ليس حجة كافية للتغلب على حاجة الولايات المتحدة إلى زيادة الأسواق لصادراتها في الخارج، وللانخراط أكثر في تجارة أكبر مع دول المنطقة»⁽¹⁰⁰⁾.

بحلول العام 1996 وصفت الـ DEA اتحادا مكسيكيا للمخدرات مؤلفا من أربعة احتكارات كبيرة: منظمة تيخوانا واحتكار سونورا واحتكار خواريز ومجموعة غولف. بنهاية العقد قيل إن احتكار خواريز واحتكار تيخوانا هما الأقوى. بقي الكوكائين ينتج في الإنديز، لكن أزهار الهيروين والماريوانا أصبحت تزرع وتصنع

في مناطق قليلة وسط المكسيك وشمالها، خاصة في ولايات ميتشواكان وسينالوا وتشياوا. سمح تنظيم الاحتكار وديبلوماسيته للجيل الجديد من المهربين بغرس جذور عميقة في بنية السلطة السياسية، ونسيج الحياة اليومية. تعمق الفساد بطرق خطيرة. وأصبح المهربون بعد النفط أكثر احترافاً وتشابكاً مع الدولة.

رسم روبرت كولير محرر الشؤون الخارجية في صحيفة سان فرانسيسكو صورة هزلية قائمة لفساد الشرطة اليومي الذي يميز الحياة الآن: «في مراكز الشرطة الاتحادية... يلبس العملاء كلهم تقريباً مجوهرات ذهبية ثقيلة وساعات ذهبية ويسوقون سياراتهم رباعية الدفع من آخر طراز. يعمل ثلاثة شباب يلمعون الأحذية دوماً في قاعات المراكز، محافظين على لمعان أحذية العملاء المصنوعة من جلد التمساح». عندما سأل كولير شرطياً كيف يمكنه شراء سيارة جيب تشيرويكي جديدة بمرتب 500 دولار في الشهر، أجاب «لدي الكثير». وعندما سأل كولير قائد شرطة اتحادية كان مشغولاً باعتقال مزارعي الماريوانا الصغار حول أمادو كاريللو فوينتيس أجاب: «لست على دراية بأي مشاكل مع السيد كاريللو... ليست هناك منظمات تهريب كبيرة في هذه الولاية»⁽¹⁰¹⁾.

في أواخر التسعينيات وأوائل القرن الحادي والعشرين أصبح الميثامفيتامين أيضاً جزءاً من الصناعة. مرة أخرى كانت الحملة شمال الحدود هي التي دفعت العمل إلى الجنوب. دفعت تقييدات جديدة في الولايات المتحدة على بيع الأدوية الباردة من الألفيدرين والسيودوايفيدرين - وهما العنصران الأوليان لإنتاج الميثامفيتامين - معظم طبخ هذه المادة على المستوى الصناعي إلى المكسيك، حيث كانت التجارة في هذه المواد لصنع المخدرات رائجة⁽¹⁰²⁾.

إزالة الاستقرار

لم يكن الاستقرار النسبي لهذه الاحتكارات على نمط الشركات ليدوم. أولاً: مات أمادو كاريللو فوينتيس خلال عملية تجميلية فاشلة. نتج عن ذلك صراع على السلطة بين أتباعه، وحاولت الاحتكارات المنافسة الانتقال إلى احتكار خواريز⁽¹⁰³⁾. في السنوات الأخيرة كان احتكارا السنالوا والخواريز، والعصابات التي تعمل لمصلحتهما مثل أرتيكاس يتقاتلون للتحكم في سيوداد خواريز. بعد مرحلة استقرار قصيرة بدأ العنف في الازدياد مرة أخرى.

استجابة للأزمة أرسل رئيس المكسيك اليميني فيليبي كالديرون، المتحدر من ثقافة رعاة البقر في تشيواوا، الجيش المكسيكي. ربما بدت هذ خطوة كبيرة، لكنها كانت مجرد مسرحية سياسية. جاء وضع الجيش من دون إستراتيجية حقيقية، ومن دون موارد إضافية كالمدعين العامين والقضاة، أو المال للتطوير. لا يهيئ القمع العسكري المسرح لإعادة بناء القانون والنظام، وإزاحة المؤسسات المدنية الفاسدة. لم يغير وجود القوات من حقيقة أن القليل جدا من الناس عوقبوا لارتكاب القتل في خواريز. ويبدو أن العنف قد ازداد فقط.

مسبقا، تحولت عناصر من وحدات النخبة في الجيش المكسيكي إلى احتكارات المخدرات: الزيتاس قوات خاصة سابقا، خدمت المهربين كقوة حماية، أصبحت عصابة خاصة وانخرطت مباشرة أحيانا في تهريب المخدرات. بعد سقوط ثلاثين ألف قتيل اتضح أن حملة الرئيس كالديرون فشلت تماما⁽¹⁰⁴⁾. إنها تتظاهر بأنها تقدم حلا، لكن الوضع يزداد سوءا فقط.

أخبر أنتوني بلاسيدو، المدير المساعد للاستخبارات في إدارة مكافحة المخدرات DEA أعضاء مجلس الشيوخ بأن «أكبر عائق وحيد للتأثير بجد في مشكلة تهريب المخدرات في المكسيك هو الفساد... في الحقيقة فرض القانون في المكسيك غالبا جزء من المشكلة بدلا من أن يكون جزءا من الحل. ويصدق هذا بشكل خاص على مستوى حكومة الولاية والبلدية»⁽¹⁰⁵⁾. ربما كان أبرز مثال على ذلك هو إلقاء القبض على نوي راميرز الرئيس السابق للوكالة المكسيكية المتميزة ضد المخدرات. اتهم بقبول رشوة من 45 ألف دولار لتسريب معلومات عن زملائه القدامى إلى عصابات المخدرات⁽¹⁰⁶⁾. أصبح الأمر الآن واضحا: يوجد عفن في لب الدولة المكسيكية.

أي طريق للمكسيك؟

في ديسمبر 2008 وصفت مجلة فوربس المكسيك بأنها «دولة فاشلة». كتب باري ماكافري قيصر المخدرات في عهد الرئيس السابق كلينتون مذكرة وصف فيها المكسيك بأنها «تقاتل من أجل البقاء ضد إرهاب المخدرات». في يناير من العام 2009 نشر مخططون مع القوات الأمريكية الخاصة تقريرا تقويميا للتهديد قال: «بحسب سيناريو أسوأ حالة... هناك دولتان كبيرتان ومهمتان مهددتان بانهيار

سريع ومفاجئ: باكستان والمكسيك... تبدو الإمكانية المكسيكية أقل احتمالا، لكن الحكومة وسياسيها وشرطتها وسلطات القضاء فيها، كلهم تحت هجوم مستدام وضغوط من قبل عصابات إجرامية واحتكارات مخدرات. كيفية تجلي ذلك الصراع الداخلي خلال السنوات العديدة القادمة سيكون لها تأثير رئيس على استقرار الدولة المكسيكية. أي انحدار من قبل المكسيك نحو الفوضى سيستدعي استجابة أمريكية مبنية على التأثيرات الخطيرة على الأمن الوطني»⁽¹⁰⁷⁾.

أبدت الحكومة المكسيكية امتعاضا فوريا وشديدا ضد هذا التصريح: دعاه الرئيس كالديرون «سخيفا»⁽¹⁰⁸⁾. جورج كاستانيدا - الرجل الذي يفسر الأشياء المكسيكية والسياسية كلها لمجتمعات النميمة في أمريكا الشمالية - رفض أيضا هذا الوصف، معطيا الأمريكيين الثقة بأن المكسيك «تتحكم اليوم في ترابها الوطني بأكمله... وتمارس شبه احتكار على استخدام القوة ضمن حدودها»⁽¹⁰⁹⁾.

ظهر تقويم مختلف جدا في كلمة المحرر على الصفحة الأولى في صحيفة خواريز الرئيسة الدياريو بعد أن قتل قاتل مأجور شابا آخر من صحافييها. في رسالة مفتوحة موجهة إلى ملوك المخدرات في المدينة، بعنوان «ماذا تريدون منا؟»، أقرت الأسطر الأكثر تأثيرا من حيث المضمون بهزيمة العقل والقانون في خواريز. «ما الذي يفترض أن ننشره أو لا ننشره، بحيث نعرف ما علينا أن نلتزم به؟» توسل مقال المحرر «أنتم في هذا الوقت السلطة على الأرض في هذه المدينة، لأن السلطات القانونية لم تستطع إيقاف قتل زملائنا»⁽¹¹⁰⁾.

ليست المكسيك دولة فاشلة، لكن أزمته الهلامية من العنف وانعدام القانون تستبعد أي استجابة عقلانية أو تكيف متدرج مع تغير المناخ. من الصعب رؤية كيف يمكن لهذه البنية الاجتماعية أن تبقى خلال الخمسين سنة المقبلة، إذا بقيت إصدارات الغازات الدفيئة بمعدلاتها الحالية على مسار استهلاك غير مخفف للوقود الأحفوري. بلد من أصحاب المليارات ومن الجماهير الجائعة، ومن الجفاف والفيضانات، بلد أصيبت بنيته ومؤسساته الاجتماعية بغرغرينا فساد المخدرات، ليس بلدا يمكنه التكيف مع ارتفاع مستوى البحر والطقس العنيف وانخفاض مردود المحصول والهجرة الجماعية التي تحركها هذه العمليات.

جدران وغوغاء أمريكيون

هجرة غير شرعية؟ انصب سياجا، وابدأ
بإطلاق النار

سام ورزلباخار، المعروف بجو السباك (*)

أخذني خوسيه روميرو، وكيل الجمارك
وحماية الحدود الأمريكية CBP في قسم الأمن
الوطني DHS بالسيارة إلى قطاع إلباسو من
الحدود مع المكسيك - بطول 260 ميلا
وبـ 86 ميلا من السياج المعدني. ليس بعيدا
جدا على الطرف الآخر يقع كوخ تانيلا غارسيا.
كان روميرو كما تتوقعه: تشيكانو (***) من
الجيل الثالث، يلبس بدلة بنية غامقة، وأمريكا
بالكامل عقائديا، ومضيفا لطيفا.

(*) هو مواطن أمريكي اشتهر على جانب حملة جون ماكين الانتخابية
في العام 2008 كنموذج لمواطن من الطبقة الوسطى. [المحررة].
(**) Chicano، أي أمريكي من أصول مكسيكية. [المحررة].

«هذا الاقتصاد الرأسمالي عموما،
مع كل استغلاله وظلمه، أنتج
ثراء وتقنية كبيرين. هل من
المستحيل حقا تصور طريقة
لإعادة استخدام هذه الثروات
والإمكانات وإعادة توزيعها؟»

المؤلف

«لو مر مهاجرون غير شرعيين من هنا، لاستطعت التقاطهم من آثارهم إذا مروا من هذه الخروقات. ثم يمكن للعملاء أن ينتقلوا إلى المقطع التالي للبحث عن مكان عبورهم مرة أخرى». قال روميرو وهو يريني الحزام الترابي العريض المشط جيدا لالتقاط المهاجرين الراكضين شمالا».

سيزيد تغير المناخ من عدد الناس الذين يحاولون دخول الولايات المتحدة. يذكر التقدير الذي يقول إنه بحلول العام 2050 سينتقل ما بين 250 مليونا ومليار شخص بسبب تغير المناخ⁽¹⁾. قدرت ستيرن ريفيو البريطانية لعام 2006 أنه بحلول النصف الثاني من هذا القرن سيخلق تغير المناخ عشرة أضعاف عدد المهاجرين الحالي⁽²⁾. بهذا الصدد ستصبح الحدود نصا يمكن منه قراءة المستقبل - أو نسخة منه. هنا نرى كيف يخلق التجمع الكارثي في الوقت ذاته فشل الدولة في عالم الجنوب، وتصلب سلطوية الدولة في عالم الشمال.

تغير المناخ دافع مهم بشكل متزايد للهجرة. كتب أندرو روس يصف الغسيل الأخضر^(*) لكرهية الأجانب في جنوب غرب الولايات المتحدة: «هجر مسبقا ما يقدر بخمسين مليونا من الناس تحت تأثير تغير المناخ، وسيتسارع الرقم في السنين المقبلة. في شمال المكسيك وهي مصدر رئيس للمهاجرين إلى أريزونا، تهترئ التربة بسرعة من نقص الهطول، وتتنبأ الدراسات بأن هطول الأمطار في المنطقة يمكن أن يتناقص بـ 70 في المائة في نهاية القرن. هل الإصدارات التي تضخ في جو الصحراء فوق وسط أريزونا مسؤولة مسبقا، ولو بصورة غير مباشرة، عن جزء من الـ 500 ألف مهاجر غير مسجل في الولاية؟»⁽³⁾، وبينما تبقى الأسباب الأعمق للأزمة البيئية - توسع المدن والاستهلاك الزائد - غير معالجة، يبرز الاضطهاد والمراقبة والعنف على أنها الأشكال المفضلة للتكيف، فضلا عن تخفيف الإصدارات كاستجابة للهجرة. تشبه معظم الـ 1969 ميلا من الحدود المكسيكية - الأمريكية مسبقا خطوط المواجهة في حرب هادئة. يتميز جانب منها ببؤس الأكواخ المرصوفة على طول السياج في مدن الحدود الكبرى مثل تيخوانا وميكسيكالي ونوغاليس وماتاموروس وخواريز. هنا يجاهد أناس مثل تانيلا غارسيا من أجل إطعام أنفسهم، بينما يجتاح

(*) يقصد بالغسيل الأخضر Greenwashing نشر معلومات مضللة عن تعامل حكومة أو منظمة أو شركة مع البيئة بغرض تقديم صورة إيجابية للرأي العام. [المحررة].

مد متصاعد من العنف المجتمعي، ويشل قدرته. إلى الشمال يميز 700 ميل من السياج الفولاذي ومجسات الاستشعار للحركة، وكاميرات الأشعة تحت الحمراء، وسماء مراقبة بطائرات الدرون، ومروحيات الحرس الوطني، هذا الخط⁽⁴⁾.

كانت التسعينيات سنوات نمو جذري لعسكرة الحدود، ولأساليب قمع المهاجرين كلها. شهدت ميزانية وزارة العدل زيادة بأكثر من الضعف بين 1991 و2002. ومنذ الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001 وإنشاء جهاز الأمن الداخلي (DHS) ازداد تمويل تطبيق مكافحة الهجرة. شرح عالم الحدود بيتر أندريس: «شكل فرض القانون المجال الأسرع لتوسع الحكومة الاتحادية منذ نهاية الحرب الباردة، وكانت مكوناتها الأكبر هي التحكم في الهجرة ومكافحة المخدرات ومقاومة الإرهاب». «الأصناف كلها التي تتغذى طفيليا على «الحدود» كمشروع سياسي وفضاء مسلح وعلى فكرة الخوف من الأجانب»⁽⁵⁾. أسلوبنا الحالي في تطبيق مكافحة الهجرة - والتي سيجلب تغير المناخ بالتأكيد المزيد منها - هو الحد من الحريات المدنية، وبالتالي تحويل أمريكا جذريا، والعودة بالبلد إلى حالته الأكثر بدائية: ديموقراطية نخبوية مبنية على الفصل العنصري، والعنف الروتيني، حيث يغطي العرق والقومية على سلطة طبقية فجوة. يشكل تسليح الحدود والضبط الداخلي المنطقة الرمادية من القانون التي تقلص قانون الحريات الأمريكية جذريا. المهاجرون هم بمنزلة طيور الكناري في منجم الفحم السياسي، والهجرة هي الوسيلة التي بواسطتها يهرب منطق «حالة الطوارئ» إلى الحياة والقانون والسياسة اليومية.

روح الحرب

الطوارئ أو الحالة الاستثنائية فكرة ضرورية في النظرية السياسية للدول الاستبدادية. برر كارل شميدت بشكل مشهور الأساس الشرعي للديكتاتورية في ألمانيا النازية استنادا إلى هذه الفكرة. على هذا التقليد فإن حالة الطوارئ هي الوسيلة التي تهرب بها الديموقراطيات سياسات القانون السلطوية والشمولية، وإجراءات تنفيذها. يحتاج المنظر السياسي جيورجيو أغامبين بأن «الإنشاء الطوعي لحالة دائمة من الطوارئ (على الرغم من أنها ربما غير معلنة بالمعنى التقني) أصبح أحد الإجراءات الضرورية في الدول المعاصرة، بما فيها ما يدعى بالدول الديموقراطية»⁽⁶⁾. في الولايات المتحدة دفع الانجراف نحو السلطوية حتى الآن بالحالات الطارئة على

الواقع بصورة أقل، وبشكل أكثر بالمواقف السياسية الفجة للمرشحين والموظفين المنتخبين. شاهد على سبيل المثال إعلان العام 2005 لـ «طوارئ على الحدود» من قبل بيل ريتشارسون وجانيت نابوليتانو حاكمي نيومكسيكو وأريزونا، وكلاهما من الحزب الديمقراطي⁽⁷⁾.

تشتمل الضوابط ضد الهجرة على خيمياء غريبة، حيث تتسلل وسائل الحرب والافتقار إلى إجراءات قانونية على الحدود، إلى الواجبات المعتادة لفرض القانون، وتعيد تشكيل الإجراءات اليومية التي تتخذها الدولة لفرض سلطتها. يتطلب تطبيق إجراءات الحدود معدات جديدة، وسلطات بوليسية موسعة، وتعاوناً غير مسبوق بين الأجهزة. تعمل شرطة الهجرة في جهاز الأمن الداخلي DHS - إدارة الهجرة والجمارك ICE والجمارك CRP - بقوة مشتركة مع مكتب التحقيقات الفدرالي FBI وإدارة مكافحة المخدرات DEA والشرطة المحلية وعناصر من القوات المسلحة. توجد منطقة الحدود بكاملها الآن ضمن ضباب من الشرعية، حيث لم يعد دستور الولايات المتحدة يطبق بالضرورة.

فكر في هذا: الحدود «كحيز قانوني» هي الآن شريط بعرض 100 ميل يلتف حول الحدود البرية والبحرية للولايات المتحدة كلها، وبالتالي يضم ثلثي سكان الولايات المتحدة». - أو 197.4 مليون شخص، وتسع من عشر أضخم مناطق المدن الكبرى في البلد.

عادة يحظر التعديل الرابع للدستور التفتيش العشوائي والاعتباطي. لكنك عندما تعبر إلى الحدود الدولية تطبق قواعد مختلفة - حتى المواطنين هناك لا يملكون حقوق المادة الرابعة المعدلة بكاملها. لدخول البلد على المرء أن يظهر هويته، ويسمح بتفتيش أغراضه. لا تحتاج السلطات إلى سبب محتمل أو شك معقول. بفضل التغييرات الإدارية بعد 11 سبتمبر، مدت قواعد مماثلة على طول «المنطقة الحدودية»، على الرغم من أن هذه القواعد على الواقع لا تستخدم بشكل منتظم إلا في الجنوب الغربي فقط.

مع ذلك، حتى على الحدود الكندية، توقف دوريات الحدود الآن الحافلات، وتدير نقاط التفتيش على الطرقات السريعة، وتستجوب السائقين على سفن العبور غير الدولية في ولاية واشنطن وبحيرة تشامبلين، بين فيرمونت ونيويورك. من الوجهة القانونية فإن هذه «توقيفات إدارية»، حيث يسمح لدوريات الحدود فقط بالتثبت

من الهوية الوطنية. لكن الإيقافات كثيرا ما تذهب إلى أبعد من ذلك. البحث الذي يبدأ إداريا يمكن أن يتصعد بسهولة إلى أن يجد المسؤولين هذا التفصيل أو ذاك مثيرا للشك. وعندما إدارة الجمارك وحماية الحدود CBP مع قوات الشرطة الأخرى، فإن سلطاتها الخاصة المتعلقة بالحدود تحول بالضرورة إلى «وكالاتها المساعدة».

الحدود الحضرية

تغلق الآن القطاعات الحضرية من الحدود بينى تحتية رادعة من الأبراج المحروسة. تتألف من جدران بارتفاع 18 قدما، توضع أعلاها في بعض الأماكن لفات ثلاثية من الأسلاك الحادة، وكاميرات تلفازية تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وميكروفونات حساسة جدا، وآلاف مجسات الحركة بتقنية عالية، وعدد من أضواء الملاعب الرياضية الكشفية الجديدة والمتحركة. يتجول على الخط 20 ألف عميل، لمراقبة الحدود مدعومين بأكثر من 37 ألف موظف مدني، ومفتش جمركي. لدى الـ CBP أكثر من 500 طيار و250 طائرة، مما يجعلها أكبر قوة جوية غير عسكرية لفرض القانون في العالم⁽⁸⁾. هناك أعداد متباينة من قوات إدارة مكافحة المخدرات DEA وشرطة الكحول والتبغ والأسلحة النارية موجودون في المنطقة الحدودية في أي وقت للبحث عن مهاجرين مخالفين للقانون. وهناك أيضا 6000 عسكري مع معداتهم: مدافع رشاشة وهامفيز وسيارات سترايكر وطائرات⁽⁹⁾. يبني مهندسو القوات البحرية والحرس الوطني طرقا للوصول، ويقومون بعمليات مسح، بينما تستخدم وحدات نظامية من الحرس الوطني العمليات الحدودية كتدريب لها قبل فرزها خارجا إلى العراق وأفغانستان⁽¹⁰⁾. بعيدا عن الحدود المباشرة - في مقاطعات كاليفورنيا وأريزونا ونيو مكسيكو وتكساس - تشمل عملية متعددة الأجهزة فرق إغارة تكتيكية مدججة بالسلاح مدعومة بمروحيات وكلاب، وتنجم عنها اعتقالات جماعية.

في أوائل 2006، أمرت إدارة الهجرة والجمارك الـ ICE فرق عمليات المطاردة التابعة لها المؤلف كل منها من سبعة أعضاء (FOTs)، والتي قصد منها أن تكون مدفوعة للتحري، ودقيقة في أساليبها، برفع حصتها السنوية من الاعتقالات من 125 إلى 1000 شخص في العام! بين عشية وضحاها كان المتوقع منهم أن يصبحوا أكثر إنتاجية بـ 8 مرات⁽¹¹⁾. وسرعان ما تبعت ذلك موجة من الغارات الجماعية.

بين مواقع أخرى اقتحمت فرق الـ FOT ستة مصانع تعليب لحوم في تكساس وكولورادو ومينيسوتا وأيووا ويوتا ونبراسكا. خلال الغارة في نبراسكا، جمع 12 ألف عامل بعضهم مع بعض تحت فوهات البنادق، ومنعوا من الوصول إلى الهواتف ودورات المياه والعائلات والمستشارين القانونيين، بينما استجوبتهم الـ ICE واحدا بعد الآخر. في هذه العملية، كان لدى الـ ICE أمر بالقبض يحدد 133 عاملا كانوا يستخدمون بطاقات تعريف مسروقة. وكما شرح تقرير من منظمة الغذاء والعمال التجاريين المتحدة لاحقا، كان في إمكان العملاء الاتحاديين - كما فعلوا قبل أسبوع في مصنع سويفت في لوفيل كينتاك - الذهاب إلى مكتب الموارد البشرية، وطلب سحب المتهمين المحددين من خط الإنتاج بحيث يمكن استجوابهم واعتقالهم إذا كان ذلك ضروريا. لكن أمر القبض للـ ICE في ديسمبر 2006، كان وسيلة لاحتلال العناوين العريضة وتحريك الهستيريا حول الهجرة والمهاجرين أكثر من كونه أداة لتنفيذ القانون»⁽¹²⁾.

بين أولئك المعتقلين كان مايكل غريفس، وهو أمريكي - أفريقي ولد في الولايات المتحدة. أخبر غريفس لجنة القضاء في الكونغرس حول الهجرة والمواطنة واللاجئين وأمن الحدود والقانون الدولي: «لقد حبسوني هناك ثماني ساعات. لا سبب. ولا حتى سبب محتمل. كان الوضع كأنه خارج المصنع قد تحول إلى سجن أو مركز احتجاز. أنا مواطن أمريكي. لقد ولدت وترعرت في هذا البلد. وقد عوملت كمجرم في يوم عادي، نهضت فيه من الفراش وذهبت إلى العمل». سجل محتجز آخر شهادته: «احتُجزت ست ساعات من دون ماء أو طعام»⁽¹³⁾.

أخبر المواطنون من أصل لاتيني أن عليهم أن يظهروا جوازات سفرهم أو بطاقاتهم الوطنية. ونقل أولئك الذين لم يستطيعوا ذلك إلى قاعدة عسكرية تبعد 300 ميل عن جونستون، أيوا. أدت الحصّة الجديدة التي أعطيت للـ ICE إلى ارتفاع حاد في عدد المهجّرين من 69226 في السنة المالية 1996 إلى نحو 400 ألف في العام 2009⁽¹⁴⁾.

هذا ما تبدو عليه «دولة الاستثناء» للمنظرين السياسيين عمليا. لديها الإمكانية لتقييد الحياة اليومية في عالم يفشل في تخفيف إصدارات غازات الدفيئة، ويختار - في مرحلة متأخرة من اللعبة - نوعا من التكيف المسلح.

الاحتجاز

الكثير من الذين يلقي القبض عليهم عند الحدود، يلقون بسرعة على الجانب الآخر. مع ذلك، فالدخول غير الشرعي الآن جريمة يعاقب عليها، وتحتجز الـ ICE الكثير من المهاجرين من دون وثائق قبل أن تطردهم إلى الخارج. تحتجز الـ ICE نحو 29 ألف معتقل في أي يوم، وهذا أكبر بـ 50 في المائة مما كان عليه في العام 2005⁽¹⁵⁾. ووفق جهاز الأمن الداخلي DHS فإن أكثر من 80 في المائة من هؤلاء المحتجزين لم يرتكبوا أي جريمة سوى الدخول غير الشرعي⁽¹⁶⁾. وكسجناء مدنيين - وليس إجراميين - ليس لهم حق توكيل محام ممول من الحكومة، ومعظمهم فقير جدا لاستئجار محام خاص. عندما حللت الأسوشيتيد برس قاعدة بيانات رسمية لإدارة الهجرة والجمارك ICE تم الحصول عليها تحت قانون حرية المعلومات، وجدت عدد المحتجزين يبلغ 32 ألف عشية 25 يناير في العام 2009. ولم تكن هناك لـ 18690 من هؤلاء المحتجزين إدانة بأي جريمة على الإطلاق - ولا حتى جريمة دخول غير شرعية سابقة. أكثر من 400 من مجموع أولئك السجناء الأبرياء تماما، سجنوا لمدة عام أو أكثر⁽¹⁷⁾.

تدير إدارة الهجرة والجمارك ICE شبكة مؤلفة من أكثر من 500 مركز احتجاز تكلف 1.7 مليار دولار وموزعة عبر البلاد. معظم هذه المراكز عبارة عن فنادق صغيرة متداعية لكنها محصنة، أو مجمعات مكاتب مدنية محولة، معروفة كلها بظروفها السيئة وازدحامها الشديد والعنف فيها⁽¹⁸⁾. تدار معظم هذه المرافق من قبل حكومة الولاية أو الحكومة المحلية وشركات خاصة متخصصة مثل كوريكشين كوربوريشين الأمريكية، التي تدير 60 مركز احتجاز من أنواع مختلفة. الإساءة في هذه السجون ومراكز الاعتقال شائعة، على الرغم من أن المساجين، وكلهم فقراء وينتظرون الطرد، يصعب عليهم تقديم الشكايات أو الدعاوى القانونية ضد سجانينهم. لذا من الصعب معرفة ما الذي يحدث فعلا داخل معتقل الـ ICE.

مع ذلك هناك إشارات. نعلم عن رجلين مكسيكيين متخلفين عقليا قضيا سنوات في الاحتجاز لغير سبب سوى إعاقتهم العقلية. أنهيت قضيتا ترحيلهما في العامين 2005 و2006 على التوالي، مع ذلك فكلاهما لديه القدرات العقلية لطفل صغير فقط، وهما لم يعرفا متى سيتم الإفراج عنهما، ولم يلحا على سجانينهما، وبالتالي ضاعا «نقلا عبر شبكة من السجون ومشافي المجانين ومراكز الاحتجاز»⁽¹⁹⁾.

تصف نساء في مقاطعة ماريكوبا في أريزونا الإساءة الجسدية، بما في ذلك تقييدهن خلال الولادة⁽²⁰⁾. في مارس من العام 2008 احتجز غارود هانكينز، عامل محكمة قسم الشرف في مقاطعة واشنطن، مهاجرة مكسيكية من دون وثائق تدعى أدريانا توريس فلوريس في خلية احتجاز صغيرة تابعة للمحكمة. ثم نسي هانكينز سجينته، بينما عانت من دون طعام أو ماء لمدة 4 أيام. كانت تنام على الأرض، وتشرب بولها لتبقى حية⁽²¹⁾. حتى العام 2008 على الأقل، كان ضباط الـ ICE يحقنون بانتظام المبعدين بالمهذئات العقلية قبل رحلات طيران إبعادهم. كان «كوكتيل الطيران» قويا جدا أحيانا، بحيث كان على عملاء الـ ICE أن يستخدموا الكراسي المتحركة لوضع المطرودين المخدرين في الطائرة⁽²²⁾.

أحيانا يفور اليأس بين المحتجزين. في 12 ديسمبر من العام 2008 اندلعت أحداث شغب في أحد المواقع الخاصة في بيكوس، تكساس، يدار من قبل مجموعة جيو GEO. كان المهاجرون المحتجزون يحتجون على موت جيساس مانويل غاليندو بسبب الافتقار إلى العناية الطبية. وبوصفه كـ «أكبر مكان احتجاز/ تأهيل تحت إدارة خاصة في العالم»، فإن هذا المجمع المترامي مسور بأسلاك شائكة، ويحتوي على خلايا اعتقال لـ 3700 مهاجر بلا وثائق، لكنه لا يحوي أي مستوصف أو عيادة. في 2 فبراير 2010 ذهب الصحافي توم باري للتحري، وبالمصادفة قام المحتجزون بأعمال الشغب للمرة الثانية محرقين وحدة سكنية بأكملها⁽²³⁾. وصف باري شبكة احتجاز المهاجرين على أنها «الوجه الجديد للسجون في أمريكا... ولأنها تعتمد على عوائد المشروع بدلا من عوائد الضرائب، فإنها لا تحتاج إلى موافقة الناخبين. بدلا من ذلك فإنها تسوق من قبل مستشاري السجون إلى الحكومات المحلية وحكومات المقاطعات على أنها أدوات تطوير اقتصادي تعد بخلق فرص عمل، وعوائد جديدة من دون ضرائب»⁽²⁴⁾.

الخاصة الأخرى لشبكة احتجاز الـ ICE هي النقل المستمر للسجناء. على الرغم من أنهم يحتجزون عادة على الحدود أو قرب منازلهم في مدن الشمال الشرقي وكاليفورنيا، بيد أن المهاجرين الملتقطين ينقلون روتينيا إلى تجهيزات احتجاز بعيدة وريفية في أريزونا ولويديانا وتكساس، على بعد مئات أو آلاف الأميال من العائلات والمحامين المتعاطفين معهم. وجدت منظمة هيومان رايتس ووتش أنه نُقل 1.4 مليون على الأقل من العام 1999 إلى العام 2008⁽²⁵⁾. فيما إذا كان ذلك يتم بتصميم سياسي، أو كعادة بيروقراطية، فإن سياسة النقل هذه آلية سادية للتحكم والإحباط.

هذا هو وجه تغير المناخ. الجفاف والفيضانات في المكسيك وأمريكا الوسطى يعبر عنها بشكل متأخر وفي كل مكان على شكل معسكر احتجاز للـ ICE. مع احتراز الكوكب فإن الأورام السياسية للسلطوية الأمريكية واضطهادنا الحالي للمهاجرين ستنتشر. ويصيب مرض مشابه أوروبا، وسوف يشتد تغير المناخ حتى لو بدأ التخفيف الضروري أخيرا. رأينا مسبقا الأشكال التي يأخذها التكيف في العالم المتقدم. سيتسارع تصلب الدولة السلطوية المشفرة عنصريا على الواقع، مغلفة بالحرب على المهاجرين، بينما تصبح الهجرة المدفوعة بتغير المناخ قضية أكثر إلحاحا.

بلد الحديث العنيف

تسليح الحدود واعتقال المهاجرين ميليشويا وشبكة احتجاز إدارة الهجرة والجمارك ICE المخصصة عموما - هي كلها انتهاكات لحقوق الإنسان. لكنها أيضا سياسة كمشهد عقائدي. عندما تعامل الحكومة الناس الملونين الأبرياء كمجرمين فإنها تضيي الاحترام على العنصرية. الناس المولودون محليا، وعلى الأخص البيض منهم، تصلهم هذه الرسالة، ويشعرون بأنهم مدعوون إلى التنفيس بالتضامن القبلي خصوصا خلال الأوقات الصعبة.

تدفع الناس من الجنوب إلى الشمال - أناس استؤصلوا من أماكنهم بالعنف المركب لاقتصادات الليبرالية الجديدة وعسكرة الحرب الباردة والآن تغير المناخ - لا يواجه بالجدران والدوريات المسلحة وخلايا السجون فحسب، بل بالافتراءات والكرهية والحديث العقائدي لغوغائيين من الجناح اليميني. لا شيء يوضح هذا أكثر الإذاعات الأمريكية. طوال النهار والليل وعلى مدار الساعة يمكن للمرء أن يسمع خطابا فجا ممتلئا بالكرهية. غلين بيك وراش ليمبو ومايك سافيج هم فقط الأكثر شهرة من الذين يتحدثون بالكرهية كوسيلة للعيش. كل يوم يستمع عشرات الملايين من الناس إلى رسائل اليمين المتعصب التي تنقيؤها موجات الأثير. وبينما يقودون سياراتهم أو يعملون أو يشتغلون في القبو أو يرقدون مستيقظين في الليل يستذكرون مشاكلهم الشخصية، يتابع الأمريكيون الإذاعات بإيقاعها المستمر حول الخوف والكره والمبالغة وأصولية السوق الحرة.

موضوع محوري في هذا الاحتفال الساخط هو مشهد الهجرة. الخوف من الأجانب والوطنية المتعجرفة هي تقاليد أمريكية قديمة. اكتشفها توكوفيل منذ

العام 1835: «لا شيء أكثر إزعاجا في مسار الحياة العادي من هذه الوطنية النزقة للأمريكيين. يوافق الأجنبي بسرور على امتداح الكثير في بلدهم، لكنه يود لو يسمح له بأن ينتقد شيئا، وهذا مرفوض تماما»⁽²⁶⁾. النسخة الحالية من هذه الوطنية النزقة تظهر في عالم يزداد احتارا حيث ينتقل السكان بازدياد. من المؤكد أن سرعة الهجرة وشدتها والرغبة بها ستزداد بشكل كبير خلال هذا القرن. لذا، تصبح الكراهية في السياسة الأمريكية تعبيرا عن التجمع الكارثي. من التعقل الاستماع إلى الإذاعات مع أخذ المستقبل بعين الاعتبار، ومع فهم لعلم المناخ. من المهم أيضا تذكر أن اليمين الكاره للأجانب، على الرغم من رداءته، فإنه يستغل قضايا حقيقية: الاقتصاد السياسي في عالم غير عادل، والهجرة قضية اجتماعية تزداد تعقيدا وتتطلب سياسة جديدة - أي القول بتكيف مناخي مبني على عدالة اجتماعية.

خذ مرة أخرى كلمات ضباط المخابرات ورجال الجيش والسياسيين السابقين الذين كتبوا ذلك التقرير الموجه إلى البنتاغون حول تغير المناخ المسمى «عصر العواقب». ها هو جيمس ووزلي، الرئيس السابق لإدارة الهجرة والجمارك، يكتب في CIA فصلا يعالج فيه سيناريو أسوأ حالة من نمو غير مخفف لإصدارات غازات الدفيئة:

لو صعب على الأمريكيين التوصل إلى تسوية معقولة حول تشريع الهجرة اليوم، فكر بما سيكون عليه مثل هذا النقاش لو كنا نعاني من إعادة توطين الملايين من مواطنينا - هجروا بسبب ارتفاع المياه في خليج المكسيك وجنوب فلوريدا ومعظم الساحل الشرقي وصولا إلى نيو إنغلاند - حتى ونحن نشاهد الهجرة شمالا لأعداد كبيرة من السكان من أمريكا اللاتينية والكاريبية. مثل هذه الهجرة يحتمل أن تكون إحدى العواقب الاجتماعية المبكرة لتغير المناخ، وارتفاع مستوى البحر بهذه المقادير في نصف الكرة الغربي. القضايا الناجمة عن غمر قدر كبير من أراضينا، مع الهجرة نحو حدودنا للملايين من جيراننا الجنوبيين العطش والجائعين، من المحتمل أن تهيمن على المشاكل الأمنية والإنسانية في الولايات المتحدة. عالميا أيضا، سيهاجر السكان من مناخات تزداد حرارة وجفافا إلى أخرى أكثر اعتدالا⁽²⁷⁾.

التكيف على شكل زورق نجاة مسلح ممكن فقط لو فكر الأمريكيون بطرق معينة، وليس بطرق أخرى. يثير هذا السؤال حول كيفية تثقيف وسائل الإعلام للأمريكيين

البالغين؟ من المفيد قراءة الرسائل التي تبث من الإذاعات عبر الأمة، لأن هذا هو السياق السياسي الذي يمكن بواسطته فهم الهجرة وتغير المناخ. عندما برز إصلاح الهجرة للنقاش في العام 2006، وظفت معظم وسائل الإعلام الأمريكية نفسها على شكل فقاعة مملوءة بالكراهية. في العام 2010 برزت الهجرة مرة أخرى للنقاش، وثار الجدل من جديد. تقدم هذه الحوادث لمحة عن كيفية تصور صانعي الرأي العام لأزمة الهجرة في المستقبل.

متاريس عقائدية

يمكنك سماع مستقبل قارب النجاة المسلح السيئ من كلمات برندا ووكر، التي تصنف نفسها على أنها كاليفورنية شمالية مناصرة للبيئة والمرأة. ووكر مالثوسية (*) متعصبة للبيئة استلهمت أفكارها السياسية بعد قراءتها كتاب بول أرليش «القبلة السكانية». قالت وهي تتكلم في برنامج بيتر بويلز الإذاعي، الذي يبث من دنفر: «إذا كان هناك شيء واحد يجيده المكسيكيون فهو تأسيس بنى تحتية للتهريب. يمكنهم تمرير - كما تعلم بالطبع - ملايين الأجانب غير الشرعيين، وأسلحة الدمار الشامل أيضا» (28).

أو خذ تعليقات وليام غين، رئيس «أمريكيون من أجل هجرة شرعية» على البرنامج نفسه: «انظر، سأخذ الأمر إلى أبعد من هذا يا بيتر. دعني أذكر شيئا حول هؤلاء النازيين ذوي اللون البني... اخرجوا من بلدي - الآن. افهم الإشارة. ارحل. ليس علي القول «لا تدع بوابة الحدود تضربك وأنت تخرج منها». وأنا أعني ذلك. إنني جاد جدا حول هذا. الأمريكيون هم اليهود» (29).

إليك أكذوبة أخرى من مقدم البرامج الإذاعية جي سيفيرن (جي سيفيرينو سابقا): «لذا الآن بالإضافة إلى الأمراض التناسلية، وصادرات المكسيك الرئيسة الأخرى - النساء والشوارب والأمراض الجنسية - لدينا الآن إنفلونزا الخنازير». وفي مناسبة أخرى عبر عنها بهذه الطريقة: «عندما نكون مركز جذب للبدايين في العالم - وهي بالمناسبة ليست خطيئة البدايين، فأنا لا ألومهم على كونهم بدائيين - إنني فقط أقدم ملاحظة على أنهم بدائيون... إنهم ملايين العلاقات من بلد بدائي

(*) توماس مالثوس Thomas Malthus قس وعالم بريطاني في الاقتصاد السياسي والسكان حذر من أن نمو السكان المتسارع سيؤدي إلى الحرب أو المجاعة أو الأمراض بسبب قدرة الأرض المحدودة على تلبية متطلباتهم. [المترجم].

يأتون هنا ليلعقوك، ومعها يخربون المدارس والمشافي والكثير من نواحي الحياة في أمريكا»⁽³⁰⁾. دوما وضع السكان الأصليين مهدد ومضغوط ومحتاج ومتغلى عنه ومكتسح تقريبا. بصورة متزايدة يرى السكان الأصليون أنفسهم المدافعين الأقوياء عن الطبيعة، والحصن الأخير أمام هجوم الجراد البشري.

خذ هذيان مديع آخر مؤيد وطنيا هو لاعب الأسطوانات مايكل ألان وينر، الذي يعرف الآن بالاسم الأكثر جرمانية من حيث اللفظ مايك سافيج: «احرق علما مكسيكيا من أجل أمريكا، احرق علما مكسيكيا من أجل أولئك الذين ماتوا حتى تكون لديك هوية وسيادة، اخرج للشارع وبرهن أنك رجل، احرق عشرة أعلام مكسيكية، لو استطعت أن أوصي بذلك. ضع واحدا في النافذة بالمقلوب، وقل لهم أن يعودوا من حيث أتوا!»⁽³¹⁾ هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الأمريكيين الحقيقيين يكتبون تحت شعار موقع على الإنترنت بعنوان «حدود ولغة وثقافة». في سياق مختلف، يمكن لهذه الثلاثية المنزلة أن تمر على شكل عنوان فرعي أكاديمي بعد حدائي، لكنه هنا يستذكر نهاية العصر الأنغلو ساكسوني على غرار «نهاية السلالة العظيمة»^(*) لماديسون غرانت⁽³²⁾. يصف سافيج نفسه على أنه «محافظ غيور» ويدعي أن لديه 100 مليون مستمع في الأسبوع. مصادر أكثر موضوعية مثل مجلة توكرز تحدد جمهوره بثمانية ملايين - مازال رقما كبيرا جدا.

ما الذي يقترح كارهو الأجانب فعله؟ يقول نيل بورتز، أحد كبار مقدمي البرامج الإذاعية في البلد: «لن يشحنوا إلى بلادهم. أعني، يا رويال (مخاطبا منتج البرنامج) فكر في هذا - قبل كل شيء، المكسيك لا تريد عودتهم. فكر ما الذي سيحصل لو قبضنا عليهم - قبل كل شيء، أين سنضع 11 مليون هسباني ينتظرون فقط شحنهم إلى نيكاراغوا وكولومبيا وكوستاريكا والمكسيك. أين سنخزنهم؟... في القبة الكبيرة! تماما. وفي القبة الفلكية في هيوستن. تلك هي الأماكن التي سنضعهم فيها»⁽³³⁾. وخلال حديث إذاعي العام 2006 عالج الموضوع نفسه: «عندما نهزم قانون العفو عن الأجانب غير الشرعيين هذا، وعندما نسحب سجادة الترحيب، ويبدأون جميعهم بالعودة إلى المكسيك، دعنا جميعا نقدم لهم كهدية وداع صندوقا من الفضلات النووية. أعطهم كلهم القليل من الفضلات النووية، ودعهم يأخذونها معهم إلى المكسيك. أخبرهم أنها يمكن - أن تدفئ التورتिला (رقاق). أو شيئا كهذه»⁽³⁴⁾.

(*) The Passing of the Great Race.

شخصيات التيار السائد هم بالسوء نفسه تقريبا. هنا لو دوبس، من تلفاز السي إن إن CNN سابقا، ومضيف الأخبار الاقتصادية في فوكس حاليا: «هناك بعض المواطنين المكسيكيين وبعض المكسيكيين الأمريكيين الذين يريدون رؤية كاليفورنيا ونيومكسيكو وأنحاء أخرى من جنوب غرب الولايات المتحدة تعطى للمكسيك. هذه المجموعات تدعوها «ريكونكوستا» وهي الكلمة الإسبانية لإعادة الاحتلال. وينظرون إلى ملايين الأجانب غير الشرعيين المكسيكيين منهم بشكل خاص الذين يدخلون الولايات المتحدة على أنهم جيش محتمل من الغزاة لتحقيق هذا المشروع»⁽³⁵⁾. دوبس - مرددا مخاوف الناس في القرن التاسع عشر من انتشار الدودة الشريطية بين المهاجرين الصينيين على الساحل الغربي - يحب تشبيه الهجرة بالبواب المعدي: «يهدد اجتياح الأجانب غير الشرعيين صحة الكثير من الأمريكيين. تعبر أمراض معدية جدا الآن حدودنا بعد عقود من القضاء عليها في بلادنا»⁽³⁶⁾.

غلين بيك، متعصب محترم آخر ضمن التيار العام السائد. هنا يتكلم عن المسلمين: «حسنا. ها هو. الخبر الحصري الليلة: خلال عشر سنوات سينظر المسلمون والعرب إلى الغرب من خلال سياج من الأسلاك الشائكة... من الأفضل للجالية الإسلامية أن تجد متكلما ليس مسلما لا يقول «نعم، ولكن». عليهم ألا يفهموا حتى كلمة «لكن»، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإن صورتهم ستصبح أسوأ عندما تسخن الأمور، وستأتي الأسلاك الشائكة»⁽³⁷⁾.

مثل دوبس، انغمس بيل أو رايلي - وهو محترم أكثر من بيك بوجهه الطفولي وتنظيره للمؤامرة وصراخه وعربدته - في رهاب إعادة الاحتلال المكسيكي. في 1 مايو من العام 2006 بينما كان اللاتينيون يحتجون من أجل حقوقهم في كاليفورنيا، حذر أو رايلي بعضا من مشاهديه الـ 3.25 مليون في الأسبوع: هناك أيضا الأجندة العسكرية المتشددة التي تقول: «لقد سرقتم أرضنا، أيها الأمريكيون السيئون». هذا ما يقوله منظمو الاحتجاجات: «الحدود؟ لم نعبر الحدود، الحدود هي التي عبرتنا. هاهو شعارهم، لقد سرقتم أرضنا والآن سنستردها منكم عن طريق الهجرة الضخمة جدا إلى الجنوب الغربي. وسنتحكم بتلك المناطق، لأنكم سرقتموها منا، وهذه هي الخطة وراء هذا»⁽³⁸⁾. أحيانا يصبح خطابه القتالي أكثر تحديدا: «ليست لديك أي سياسة ما لم يكن لديك أمن حدودي... لذا الآن أصبحت القضية حربا عنصرية. هذه

ما أصبحت - حربا عرقية. أنت ترى نصف مليون إنسان يظهرون في لوس أنجلوس، ويلوحون بالأعلام المكسيكية. وهم يقولون «لدينا حق هنا. لا، ليس لكم ذلك. إذا كنتم غير شرعيين، فليس لكم الحق في البقاء هنا»⁽³⁹⁾.

فصل من الكراهية، مرة أخرى

في العام 2010 ازدادت السياسة سخونة مرة أخرى مع مرور قانون المجلس التشريعي في أريزونا رقم 1070، والذي أمر ضباط الشرطة كلهم بإيقاف أي شخص يشكون في أنه بلا وثائق واستجوابه. أكثر من ذلك، سمح القانون للمواطنين بمقاضاة أي ضابط يشعرون بأنه تهاون في جهوده ضد الهجرة⁽⁴⁰⁾. جسد القانون 1070 سياسات الزورق المسلح في التكيف. عالميا كان وجه هذا القانون هو الحاكمة جان بروير بشعرها المشقر وجلدها المبخوخ وابتسامتها المكشرة التي تعطيها تأثيرا يجعلها أشبه بالروبوت. كانت الخلفية وراء هذا كله هي الأزمة الاقتصادية في أريزونا: كان لديها ثالث أعلى معدل إفلاس في الولايات المتحدة، ووصل معدل البطالة فيها إلى 10 في المائة في يوليو 2010.

مع القانون الجديد، هرب الآلاف من اللاتينيين المذعورين بلا وثائق من الولاية. قال منتقدون إن القانون سيجعل أريزونا، من بين أشياء عديدة أخرى، أقل أمنا لأنه سيكون من الصعب على الشرطة أن تكتشف الجرائم لو بدأ اللاتينيون بتجنبهم. دافعت بروير عن الحملة بالادعاء أن المهاجرين يقطعون رؤوس الضحايا الأبرياء. لكن لم ترتكب مثل هذه الجرائم. لم تستطع هي ولا أي شخص آخر العثور على أي دليل يدعم ادعاءها. ثم حظرت الحاكمة بروير الدراسات العرقية في مدارس أريزونا على أسس وصفها الناطق باسمها: «يجب على طلاب المدارس العامة أن يتعلموا معاملة بعضهم بعضا، وتقديرهم كأفراد، وألا يتعلموا بغض العناصر أو الطبقات الأخرى أو الحقد عليها»⁽⁴¹⁾.

دافع بيل أو رايلي عن اضطهاد المهاجرين بتكرار المقولات حول عنف هؤلاء: «على أريزونا أن تفعل شيئا. في العاصمة فينيكس خرجت الجريمة تماما عن نطاق التحكم... جعل اغتيال متهم أجنبي غير شرعي لمزارع من أريزونا أخيرا، وإطلاق النار المزعوم من تاجر مخدرات أجنبي على نائب شريف - الوضع ميثوسا منه تقريبا»⁽⁴²⁾. لاحقا، بدأت قصة نائب الشريف المجروح بالانهيار، كما حصل لقصة بروير حول

قطع الرؤوس. لاحظ الأطباء الشرعيون وجود حروق ناجمة عن مسحوق على جلد الشريف، مما يشير إلى أن فوهة المدسد كانت ملاصقة لجسمه عندما أطلق النار، وليست من 25 ياردة كما ادعى مسبقاً⁽⁴³⁾.

حتى كريس ماثيوز اقترح وهو يجادل آمي غودمان: «التغير الثقافي ليس شيئاً يقبله أي مجتمع بسهولة، أو حتى بأي نوع من المشاعر الإيجابية»⁽⁴⁴⁾. شجع ماثيوز أيضاً كتاب بات بوكانان «حالة طوارئ: غزو العالم الثالث لأمريكا واحتلالها». بشكل مناسب، يشير عنوان هذا الكتاب، مهما كان ذلك مشفراً، إلى نظرية كارل شميدت لتبرير النازية قانونياً. وكما يوحي العنوان، يقول الكتاب إن الهجرة تحطم أمريكا⁽⁴⁵⁾. وإليك، بالتشذيب قليلاً، التاريخ العريض كما يرى من المحددات الضيقة لعقل بوكانان:

من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، كتب الغرب تاريخ العالم. من دول أوروبا الغربية جاء المستكشفون والمبشرون والغزاة والمستعمرون الذين بحلول القرن العشرين حكموا العالم كله تقريباً. لكن انحلال الغرب بدأ. كانت الإمبراطورية الإسبانية أول من سقط... وبحلول العام 1918 انهارت الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية، والإمبراطورية الروسية. جعلت الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية تنزفان ثم تتجزآن. واحدة بعد الأخرى بعد نهاية الحرب، بدأت المواقع الاستراتيجية البعيدة في الإمبراطورية - السويس ومنطقة القنال وروديسيا وجنوب أفريقيا وهونغ كونغ - بالسقوط. وخلال ثلاثة عقود كان انسحاب أوروبا من آسيا وأفريقيا تاماً.

من العام 1989 إلى 1991 سقطت إمبراطورية الاتحاد السوفييتي، وانقسمت إلى خمس عشرة قطعة، نصف دزينة منها دول إسلامية لم تكن موجودة من قبل. الآن بدأ الأفريقيون والآسيويون والمسلمون والهسبانيون الذين حكمهم الغرب فيما مضى في التوطن بالدول الأم... تتألف أزمة الحضارة الغربية من ثلاثة أخطار وشيكة قاتلة: سكان يموتون وثقافات تتداعى واجتياح لا يقاوم... وكما انهارت روما فإن الغرب ينهار الآن للأسباب نفسها، وبالطريقة نفسها. ما كان يمثل الدانوب والراين بالنسبة إلى روما يمثل نهر ريو غراند والبحر الأبيض المتوسط بالنسبة إلى أمريكا وأوروبا. لم تعد الحدود الأمامية للحضارة محمية⁽⁴⁶⁾.

في أمكنة أخرى يعج الكتاب بالكثير من الشيء نفسه: «نحن نشهد كيف تختفي الأمم. نحن ندخل المشهد الأخير من حضارتنا. المشهد الأخير هو تدمير الأمم. المشهد

قبل الأخير الذي يحدث الآن هو الاجتياح من دون مقاومة». «وأوضح العنصريون من التشيكانو والعملاء المكسيكيون هدفهم من خلال السكان والثقافة في استرداد ما خسرته أسلافهم بالحرب... نحن وسط حرب ثقافية شديدة حيث تفقد القيم المحافظة مواقعها لجيلين»⁽⁴⁷⁾.

ليس بوكاتان من الهامش المجنون. بدلا من ذلك فإنه شخصية رئيسة في الحياة الأمريكية، ومساعد لرؤساء جمهورية، وقوة في الحزب الجمهوري، ومحلل سياسي لتلفاز الـ MSNBC. تمثل سياساته تيارا عريضا من الرأي العام.

أسلوب جنون العظمة واستخداماته العقلانية

أهلا بكم في دولة الشعب الأمريكية الجديدة. هنا يلبس الكره ابتسامة، ويعمل باسم العدل والحرية. الحرب على الهجرة هي حرب أفكار. شرح ريتشارد هوفشتادتر العناصر لهذه النظرة إلى العالم منذ جيل مضى في كتابه «معاداة الفكر في التاريخ الأمريكي»، ثم في مقال مشهور جاء من الكتاب نفسه، «أسلوب جنون العظمة في السياسة الأمريكية». هذا ما كتبه هوفشتادتر في العام 1964 - لاحظ كم يبدو النقد معاصرا:

يرى المتحدث المصاب بجنون العظمة مصير المؤامرة بمصطلحات تنبؤية مرعبة - ينتقل بين ولادة عوالم وموتها بأكملها، وأنظمة عالمية بأكملها، وأنظمة من القيم الإنسانية بأكملها. يقوم دوما بحراسة متاريس الحضارة. يعيش باستمرار عند نقطة تحول. ومثل الدينين المعتقدين بالألفية أو بنهاية العالم، يعبر عن قلق أولئك الذين يعيشون خلال الأيام الأخيرة، ويميل أحيانا إلى تحديد تاريخ لهذه النهاية... استلبت أمريكا عموما منهم ومن أمثالهم، على الرغم من أنهم مصممون على إعادتها إليهم، وإيقاف الفعل المخرب الأخير من التدمير. أقصيت الفضائل الأمريكية القديمة مسبقا من قبل المثقفين وسكان المدن، ونسفت الرأسمالية التنافسية القديمة تدريجيا من قبل المتأمرين الاشتراكيين والشيوعيين، وحطم الأمن والاستقلال الوطنيان القديمان بمؤامرات خائنة، لم يكن أعظم عملاتها من الخارج والأجانب كما في الماضي، بل كانوا سياسيين رئيسين في مركز السلطة الأمريكية. اكتشف سابقوهم مؤامرات؛ أما اليمين المتطرف الحديث فيجد أن المؤامرة هي على شكل خيانة تأتي من الأعلى⁽⁴⁸⁾.

ترعى هذه العقلية كره الأجانب الحالي. في العام 2010 وجد استفتاء بيو (Pew Poll) أن 67 في المائة من الأمريكيين قالوا إنهم «يوافقون على السماح للشرطة باحتجاز أي شخص لا يستطيع إثبات وضعه القانوني»، بينما وافق 62 في المائة على «السماح للشرطة باستجواب الأشخاص الذين يعتقد أنهم في البلد بصورة غير شرعية». وقال 59 في المائة إنهم يوافقون على قانون أريزونا في الاعتقال⁽⁴⁹⁾.

وليس من قبيل المصادفات أن بعض أكبر الداعمين الماليين لكره الأجانب ولـ«أسلوب جنون العظمة» هما قطبا النفط، والأكثر شهرة بينهم هما الأخوان كوك (Koch Brothers). بدأ هذان المليارديرات الهادئان ذوا الطباع المعتدلة حركة «أمريكيون من أجل الازدهار» وهي متجر للدفاع عن السوق الحرة، بتحويل 5 ملايين دولار على الأقل كبداية مالية لحزب الشاي^(*). اتبعت عائلة كوك لزم من طويل نظريات المفكر هايك ضد الدولة، وشجعت أخيرا على إنكار تغير المناخ. الموقفان بالطبع مترابطان: أن تحترم السوق وتحترق الدولة هو أن تعارض القيود القانونية على إصدارات غازات الدفيئة. خلال الثمانينيات والتسعينيات أنفق الأخوان كوك أكثر من 100 مليون دولار لمساعدة شبكة من 34 منظمة سياسية يمينية متطرفة، بينها معهد كاتو ومؤسسة هيريتيغ ومنتدى النساء المستقل ومعهد المشاريع الأمريكي⁽⁵⁰⁾. الضجة التي تصدر عن هذه المجموعات هي خليط من التعصب للسوق الحرة وإنكار تغير المناخ وكره الأجانب. أما الإذاعات والتلفزيونات فهي بمنزلة مكبرات صوتية لها.

أوروبا الحصن

في أوروبا أيضا فإن اليمين الكاره للأجانب قوي ونشط. الزعماء شبه النازيين القدماء مثل جان ماري لوبان مؤسس الجبهة الوطنية في فرنسا، ويورغ هايدر زعيم حزب الحرية النمساوي لمدة طويلة يختفيان الآن⁽⁵¹⁾. لكن جيلا جديدا من الزعماء يتسلمون التيار الرئيس للرسالة القديمة: من بينهم السياسي الهولندي غيريت ويلدرز، وزعيم حزب الشعب الدنماركي بيا كغاريزغارد⁽⁵²⁾. ربما الأكثر مدعاة للقلق هو تبني السياسات العنصرية علنا من قبل حكومات الوسط اليميني: شاهد على

(*) Tea Party حزب الشاي حركة سياسية أمريكية شعبية ظهرت في العام 2009 اشتقت اسمها من حزب الشاي في بوسطن في العام 1773 الذي ثار على البريطانيين. [المترجم].

سبيل المثال طرد الرئيس نيكولا ساركوزي لثمانية آلاف روماني من فرنسا، وتصريح المستشار أنجيلا ميركل بأن التعددية الثقافية في ألمانيا قد «فشلت تماما»، وتسوير الجالية الرومانية في جمهورية التشيك⁽⁵³⁾.

مغازلة نهاية العالم

حتى بين الليبراليين الجيدين يجد المرء الإغراء لاعتناق مبدأ قارب النجاة المسلح. اعتبر الكاتب والناشط البيئي بيل ماكينين الذي قام بعمل ممتاز بجلب واقع علم المناخ لجمهور واسع، وبدأ مجموعة نشطاء المناخ العالمية 350.org. في كتابه الأخير تعثرت سياسته عندما عالج مسألة الأمن المناخي:

إذا فكرت في المستقبل المتأزم لفترة كافية، يمكنك، على سبيل المثال أن تنتهي باقتناع هو أنك ستقف فوق مزرعة خضارك وبيدك بندقية، تصد بها العصابات المغيرة التي تريد سرقة جزرائك... لن تساعدك القوات البحرية هنا - إنهم غير مهئين لماكس المجنون^(*) - لكن جيرانك قد يساعدونك. إن تصور حياة محلية في عالم صعب يعني تصور أخذ مسؤولية أكبر، ليس من أجل طعامك فقط بل لحمايتك أيضا. (اعتبر سويسرا على سبيل المثال حيث كل رجل بالغ هو جندي). الميليشيا كلمة قبيحة للعديد منا، لكن من الجدير أن يتذكر على الأقل أولئك الذين يحتفظون منا بقبعات ثلاثية الزوايا في خزائنهم أن الميليشيا المحلية هي التي خاضت الحرب في ليكسنكتون غرين⁽⁵⁴⁾.

هذه هي صورة لأمريكا كدولة فاشلة. يجب أن يكون هناك حقا خيار أفضل. تمتلك الحضارة مع كل عيوبها الكثير مما يستحق، والكثير ضمنها الذي يجب الدفاع عنه. الحضارة العالمية، هذا الاقتصاد الرأسمالي العالمي عموما، مع كل استغلاله وظلمه، أنتج ثراء وتقنية كبيرين. هل من المستحيل حقا تصور طريقة لإعادة استخدام هذه الثروات والإمكانات وإعادة توزيعها؟

(*) [إشارة إلى فيلم (أو سلسلة أفلام) ماد ماكس Mod Max التي تتناول صورة متخيلة عن أستراليا بعد نهاية الحضارة كما نعرفها. [المحررة].

تضمينات واحتمالات

في الحقيقة، بدا تصميم الفنان على
الشكل التالي: نظرية نهائية لي، مبنية
جزئياً على آراء مجمعة لعدد من كبار
السن الذين تحدثت معهم حول
الموضوع. تمثل الصورة قبطان سفينة
في عاصفة هوجاء؛ حيث ترى السفينة
المتزنة نصف الغرقى بأشرعتها الثلاثة
المطوية لوحدها؛ وحوت هائج يريد
القفز فوقها بمجهود كبير ليغرز نفسه
فوق رؤوس الأشرعة الثلاثة.

هيرمان ميلفيل، موبي ديك

الحضارة في أزمة، على الرغم من أن
التأثيرات لم يحس بها كاملة بعد. استقلال
الاقتصاد العالمي غير منسجم أساساً مع
استقلاب الطبيعة. وهذا تهديد مميت لكليهما.
في الصفحات السابقة، أوضحت كيف أن

«إما أن تبدأ الرأسمالية بالتعامل
مع الأزمة الآن، وإما سنواجه انهيار
الحضارة عند بداية هذا القرن»

المؤلف

التأثيرات الاجتماعية لتغير المناخ هي معنا مسبقا، وتعبّر عن نفسها من خلال أزمات موجودة من الفقر والعنف اللذين نجما عن عسكرة الحرب الباردة واقتصاد الليبرالية الجديدة. يشكل مجموع هذه العوامل وتراكبها وتسارعها المتبادل التجمع الكارثي. وكجزء من التجمع الكارثي نرى بروز أشكال من التكيف العنيف.

في عالم الجنوب يكون التكيف على شكل مطامح عرقية وتعصب ديني وتمرد وقطع طرق وتجارة مخدرات وحروب صغيرة على الموارد كالمناوشات اليائسة على الماء والقطيع التي قتل فيها راع من التوركانا إيكارو لورومان. في عالم الشمال تظهر أزمة متعددة الطبقات على شكل قارب نجاة مسلح: استعدادات لمكافحة عمليات تمرد مفتوحة، وحدود مسلحة، ومراقبة عدائية ضد المهاجرين، وانتشار رئيس لكره الأجانب اليميني. تذكر الحقيقة الأساسية: حتى لو توقف إصدار غازات الدفيئة كلها فورا - أي لو انهار الاقتصاد العالمي اليوم، ولم يشغل مصباح خفيف واحد، ولا محرك غازولين واحد أبدا - هناك مسبقا كمية كافية من غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي لتسبب احترارا مهما وتغيرا مخربا للمناخ ومعه فقر وعنف وانزياح اجتماعي وهجرة إجبارية وثورة سياسية. لذا علينا أن نعثر على وسائل إنسانية وعادلة من التكيف، أو سنواجه مصائر مروعة.

لن أقدم برنامجا من التنمية الخضراء، ولا حركة لنزع السلاح وبناء السلام على مستوى القواعد، ولا قائمة من منظمات غير حكومية تشير إلى الطريق قدما عبر مجهوداتها الطيبة. مثل هذه المجهودات يجب توليدها في سياقاتها الملائمة من قبل أبطال الدراما المحلية المحددة. ليست أزمنا قضية افتقار الجمهور القارئ إلى أسماء مجموعات للعمل معها وعناوينها. بالمثل هناك أمثلة لا حصر لها تقريبا لأشكال صغيرة الحجم وعلى مستوى القاعدة من تكيفات عادلة اجتماعيا تستخدم تقنيات ملائمة، وداخلة ضمن ديموقراطية تشاركية. لكن هذه ستبقى ضئيلة حتى تصبح مركزية بالنسبة إلى سياسات الدولة، وخطة عمل رسمية لإعادة توزيع اقتصادي على المستوى العالمي. أكثر من ذلك، فالتفكر والتمعن في مجموعات العمل النبيلة والتقنيات الجديدة المناسبة قد يفقدنا هدفنا. أزمة المناخ ليست مسألة تقنية، ولا حتى مشكلة اقتصادية إنها في الأساس مسألة سياسية.

اعتبر هذه العوامل واحدا بعد الآخر.

التقنية

هل هناك تقنية كافية للتخفيف، أو لتحقيق الانتقال إلى اقتصاد محايد بالنسبة إلى الكربون؟ نعم، فالتقنيات التي تخلق كميات ضخمة من الطاقة المحايدة كربونيا موجودة مسبقا. وأنتم تعلمون ما هي: الرياح والشمس والحرارة الجوفية و طاقة المد الحركية كلها، تغذي شبكة كهربائية كفؤة وذكية، تغذي بدورها سيارات كهربائية وأبنية أكثر كفاءة طاقيا. التقنية النظيفة ليست من دون مشاكل لكنها هنا الآن ومتوافرة مسبقا وتعمل على المستوى الصناعي. هل يمكن لمواطني عالم الشمال خصوصا الأمريكيين أن يبقوا مبشرين كما هم الآن؟ لا. علينا أن نستخدم الطاقة والموارد بحذر أكبر.

يرى البعض أن التخفيف يعتمد على تحقيق اختراق تقني عال. ملياردير البرمجيات العظيم بيل غيتس والعالم البيئي جيمس لافلوك وحتى جيمس هانسن من ناسا يعلقون آمالهم على المفاعلات النووية بعيدة المنال من الجيل الرابع (المعروفة بـ IV Gen). مثل هذه التقنية ستكون بالتأكيد أكثر أمنا من المفاعلات القديمة المتداعية الحالية، ويمكن أن تكون مجدية بعد عقود عدة، واستثمار مئات المليارات من الدولارات. لكن التطبيق الصناعي لمفاعلات IV Gen سيصل متأخرا جدا ليتجنب نقاط التحول البيئي. مكتب الطاقة الأمريكي DOE، وهو مشجع رئيس لكل ما يتعلق بالطاقة النووية، يعطي في العام 2021 كأقرب تاريخ محتمل لافتتاح محطة طاقة نووية من النوع IV Gen⁽¹⁾. تذكر أنه لم تبني حتى الآن محطة طاقة نووية في الوقت المخطط، وضمن الميزانية المرسودة لها. لذا فإن تنبؤات مكتب الطاقة الأمريكية DOE متفائلة جدا.

يخبرنا العلم بأن علينا أن نبدأ بإجراء تخفيضات قوية للإصدارات فورا. يجب أن تصل الإصدارات إلى الذروة في العام 2015، ثم تتناقص بسرعة، إذا أردنا تجنب تغير خطير في المناخ. مثل هذا الإطار الزمني يعني أن علينا أن نزيد من حجم التقنية النظيفة الحالية. سيتطلب هذا استثمارات هائلة وتخطيطا جديا - لكن مثل ذلك المشروع قد بدأ مسبقا. تبقى الولايات المتحدة مترددة، لكن الاقتصادات الرائدة الأخرى في العالم بدأت بالتحول.

ماذا عن النواحي التقنية للتكيف؟ في كل أنحاء العالم يمكننا أن نجد غالبا

مشاريع صغيرة على مستوى القاعدة تشير إلى الطريق نحو الأمام. نشر زميلي الصحافي البيئي مارك هيرتزغارد تقريراً حول «المعجزة الخضراء» لطريقة في الزراعة تعتمد على الشجرة تحول منطقة الساحل الغربي. كانت المجتمعات الزراعية التي زارها في بوركينا فاسو في أزمة بطيئة الحركة منذ الجفاف الهائل للعام 1972-1984، عندما أنقص انخفاض بمقدار 20 في المائة في متوسط هطول الأمطار السنوي الإنتاج الزراعي خلال الساحل، وحول مساحات واسعة من السافانا إلى صحراء، وتسبب في موت مئات الآلاف من الجوع. لكن التكيف الواسع لـ «الزراعة الغابية» الجديدة أو لـ «إعادة التوليد الطبيعية المدارة من قبل المزارع» FMNR - وهي أساساً الأساليب نفسها التي رأيناها تطبق في شمال غرب البرازيل، لكنها طورت وفق السياق الأفريقي - أدى إلى إعادة توليد ضخمة لغطاء الأشجار عبر أجزاء من مالي والنيجر وبوركينا فاسو. وبهذا، وعلى الرغم من نمو السكان محلياً، ارتفع مستوى المياه الجوفية فعلاً بين خمسة إلى سبعة عشر متراً⁽²⁾. وهذا إنجاز مذهل حقاً.

هناك أمثلة أخرى على التغير الإيجابي في محفظة برنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDP حول الخدمة البيئية العالمية GEF الذي يوزع منحا صغيرة لمشاريع تكيف وتخفيف تقترح من المجتمع. لـ UNDP- GEF أعمال تجري في 29 بلداً. تشمل مشاريعها مشاريع غابية تعتمد على المجتمع، ومشاريع لزيادة كفاءة الطاقة في كينيا وكهرباء مبنية على الرياح والشمس، وتوليد كهرباء بالطاقة الشمسية للحلول محل الفحم والديزل، وإدارة مطورة لجمع المياه ومحاربة التصحر وحماية التنوع الحيوي. في بوليفيا يؤسس برنامج الأمم المتحدة 22 مشروعاً ريفياً لتوليد الكهرباء بالتقنية النظيفة مزودا الطاقة لـ 200 ألف بيت ريفي، وبذلك ستمنع من إصدار 21 ألف مليون طن من غاز ثاني أكسيد الكربون خلال الـ 25 سنة القادمة⁽³⁾.

لكن كما في مشاريع الزراعة الغابية التي رأيناها في البرازيل تبقى هذه المشاريع كلها صغيرة، وتعمل على هامش سياسة الدولة. هذا يحتاج إلى تغيير. حققت البرازيل تحت رئاسة لولا خطوات كبيرة في معالجة الفقر، إلى حد كبير برفضها الوصفة العلاجية الأخلاقية والكارهة للتخطيط من العقيدة الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة⁽⁴⁾. لكن الإصلاحات نصف الاشتراكية والوردية قليلاً على النموذج البرازيلي يمكن أن تعمل

كتكيف عادل اجتماعيا فقط إذا كان التصالح مع الطبيعة في مركز خطة العمل.

الاقتصاد

هل هناك ما يكفي من المال للتخفيف والتكيف؟ في الحقيقة نعم: هناك مقادير ضخمة من المال تتدفق ضمن النظام المالي العالمي الذي يبحث عن مخارج مربحة، وفي العملية تخلق فقاعات من المضاربة الخطيرة التي تهدد الاستقرار. في مايو 2010 نشرت الواشنطن بوست تقريرا يقول إن «الشركات غير المالية تجثم على 1.8 تريليون دولار نقدا، وهو أكثر بالربع تقريبا مما كان متوفرا في بداية الركود»⁽⁵⁾. لكنها كما استمر المقال بالإشارة، لم تكن تستثمر في خلق وظائف جديدة. وفق بيانات الاحتياطي الاتحادي في أواخر العام 2010، لم تحتفظ الشركات الأمريكية بمثل هذا القدر من النقد غير المستثمر منذ العام 1956⁽⁶⁾. انشغل العديد من المصارف الكبيرة في السنوات الأولى من الانحسار الكبير بـ «تجارة حمل» عالمية، باستدانة المال من الاحتياطي الاتحادي الأمريكي بفوائد منخفضة، ثم إقراضها مرة أخرى إلى الحكومة الأمريكية - أي بشراء سندات الخزينة. هذا الأسلوب السلبي والطفيلي من المضاربة، بدلا من الاستثمار في رأسمال حقيقي، كان الأساس لسنتين من الأرباح العالية في سوق وول ستريت للأسهم. في العام 2010 دفعت أكبر 25 شركة في وول ستريت 135 مليار دولار على شكل تعويضات لتجارها ومحلليها⁽⁷⁾. وفي هذه الأثناء كان الاقتصاد راكدا. يبقى الفحم الحجري والغاز الطبيعي مصادر الوقود المهيمنة، ولم تكن هناك سياسة للدولة للمساعدة في بناء موجة جديدة من الاستثمار الخاص في تصنيع مؤسس على تقنية نظيفة، وتوجيهها وتشجيعها ومراقبتها.

وأنا أكتب، تزداد برك المال تلك على شكل فقاعة من المضاربات في المواد الأولية كالصوب والخامات المعدنية. «بين العام 2003 و2008 نمت كمية المال الموظف في المضاربات في المواد الأولية من 113 مليار دولار إلى 317 مليار دولار، وهي زيادة بمقدار 2300 في المائة»⁽⁸⁾. ارتفع مؤشر سعر المواد الغذائية بنحو 75 في المائة بين 2006 ونهاية 2010⁽⁹⁾. ارتفعت أسعار القمح بـ 56 في المائة خلال النصف الثاني من 2010 فقط. جاء هذا جزئيا أيضا نتيجة أزمات مناخية - فيضانات في باكستان وأستراليا، وحرائق غابات في روسيا - أدت إلى خفض الإمدادات وارتفاع حاد في

الطلب. ما إن بدأ السعر بالارتفاع، حتى بدأ المضاربون الغارقون حتى آذانهم بالمال النقدي والضمانات الرخيصة، بدفعه للارتفاع أكثر⁽¹⁰⁾.

لم تفشل الحكومة في دفع رأس المال الخاص للاستثمار في تقنية نظيفة فحسب، لكنها فشلت في الاستثمار فيها بنفسها. نعاني نقصا شديدا من المال العام الذي يستثمر مباشرة في التقنية النظيفة، وليس هناك نظام قوي للدعم. في الوقت نفسه، لم تفعل سياسة الضريبة الاتحادية شيئا تقريبا لمعاقبة المضاربة أو منعها. تمتلك الحكومة الأمريكية موارد متوافرة للتحويل، حتى من دون فرض ضرائب على المضاربين. خذ الموازنة العسكرية مثلا. عندما وقعت الموازنة الاتحادية للعام 2010 لتصبح قانونا في 28 أكتوبر في العام 2009 كان الحجم النهائي لموازنة وزارة الدفاع 680 مليار دولار. ويشكل الإنفاق المرتبط بالدفاع من أجزاء أخرى من الحكومة الاتحادية - مثل اختبار الأسلحة وتخزينها من قبل الـ DOE، والحماية لوزارة الداخلية في مناطق القتال، والرعاية الصحية للجرحى من الجنود القدامى، ووظائف مكافحة الإرهاب لوزارة الأمن الوطني، ونواح أخرى من عمل ناسا..... إلخ - بين 300 - 600 مليار أكثر وفق تقديرات مختلفة، مما يجعل إجمالي الإنفاق على الدفاع بين 1 إلى 1.3 تريليون دولار في السنة المالية 2010. يمكننا القول بأمان إن الإنفاق العسكري المباشر زائد تكاليف مكافحة الحرب الإضافية زائد برنامج DOE للأسلحة الذرية بلغ 722 مليار دولار في العام 2010⁽¹¹⁾. باختصار، هناك مال وافر - إذا أردنا أن نحصل عليه. يجب ألا نسمح لقضية الدين الحكومي أن تخدعنا للتفكير بأن الاقتصاد يفتقر إلى المال للاستثمار في التخفيف والتكيف كليهما. لمعظم القرن العشرين، كان معدل الضريبة الهامشية الأعلى في الولايات المتحدة فوق 50 في المائة وكثيرا ما بلغت 90 في المائة. منذ بداية الصفقة الجديدة العام 1933 حتى العام 1980 لم ينخفض المعدل الأعلى عن 70 في المائة. في العام 1993 رفع كلينتون معدل الضريبة الهامشية الأعلى من 31 في المائة إلى 39.6 في المائة وبذلك سدد الدين، وبحلول عام 1998 أصبحت الحكومة الاتحادية تمتلك فائضا من المال⁽¹²⁾. لو رفعت الضرائب على الشريحة الأكثر غنى، لأمكن للحكومة الأمريكية أن تخفض الدين الوطني، وأن تمتلك المال للاستثمار في تقنية نظيفة.

السياسة

هل هناك إرادة سياسية لإجراء التحول؟ للأسف، لا. مصالح الشركات الكبيرة - شركات الوقود الأحفوري، والمصارف الضخمة المدللة على سبيل المثال - لا تريد أن ترى إعادة توزيع للثروة والسلطة نحو الأسفل، ولا إلغاء اقتصاديا لرأس المال الغارق كله، وهو اقتصاد الوقود الحفوري. القليل من القضايا يجسد هذه المشكلة السياسية أفضل من قصة إنكار قضية تغير المناخ التي تشجعها صناعة الوقود الأحفوري.

على مدى عشرين عاما مولت مجموعة ضغط الوقود الأحفوري حملات ضد قضية تغير المناخ ونظمتها. بشكل أبرز، منحت إكسون بين 1998 و2008 مبلغ 23 مليون دولار دعما لحملة تنكر تغير المناخ⁽¹³⁾. في العام 2006 طالبت الجمعية الملكية، وهي أهم الهيئات العلمية مكانة في المملكة المتحدة - أن تتوقف شركة إكسون عن تمويل المعلومات الخاطئة. وعدت الشركة أن تقوم بذلك، لكنها استمرت فيه على أي حال. في العام 2009 أعلنت منظمة السلام الأخضر أن إكسون قدمت 1.3 مليون دولار لمنظمات لها تاريخ في إنكار تغير المناخ، بما في ذلك مؤسسة هيريتيغ ومعهد الأعمال الأمريكي ومؤسسة واشنطن القانونية⁽¹⁴⁾.

مصدر آخر للتشكيك في المناخ هو ثروة الأخوين كوك، مالكي مجموعة شركات ضخمة خاصة تعمل في التصنيع والتكرير وتوزيع المواد الكيميائية والبتروولية إضافة إلى الطاقة والبلاستيك والخامات والأسمدة. تعد شركة صناعات كوك ثاني أكبر شركة خاصة في الولايات المتحدة بعد كارغيل، وليس من المستغرب أن تصنف بين أكبر 10 شركات تلويثا للهواء في الولايات المتحدة⁽¹⁵⁾. باتباع نمط استثماراتهم، يتبرع الأخوان كوك بسخاء لأنواع مختلفة من اليمينيين المتشددتين الذين يتبعون هايك، ويمولون مجموعات تحرض على إنكار تغير المناخ⁽¹⁶⁾. وجد تقرير لجمعية السلام الأخضر أنه بين العامين 2005 و2008 ساهمت مؤسسات يتحكم بها الأخوان كوك بـ 24.9 مليون دولار لمنظمات تشجع إنكار المناخ. يبدو أن الحملة نجحت. وجد استفتاء بحثي لمؤسسة بيو في العام 2006 أن 77 في المائة من الذين تم سؤالهم وافقوا على وجود دليل على تسخن الأرض: بحلول العام 2009 انخفض هذا الرقم إلى 57 في المائة⁽¹⁷⁾.

أين القوة المعادلة؟ حركات العدالة المناخية في الولايات المتحدة في حالة سبات عموما، وتعرض للهجوم. وهي في أوروبا أقوى نوعا ما، على الرغم من أنها تتعرض للضغوط هناك، واخترقت من قبل الشرطة. أظهرت فضيحة في بريطانيا أخيرا أن خمسة عشر ضابط شرطة على الأقل اخترقوا الحركات الخضراء وخربوها في ذلك البلد⁽¹⁸⁾. مع ذلك فللخضر على مستوى القاعدة في المملكة المتحدة وأوروبا حركة قوية نسبيا باتجاه العدالة المناخية.

في الولايات المتحدة هناك أيضا حركة للعدالة المناخية، على الرغم من أنها صغيرة، وعانت بعد صعود من هزائم. وكما يشير بريان توكر: «بدأ تغير ملحوظ في الفهم في الفترة 2005-2006 عندما أغرق الإعصار كاترينا نيو أورلينز». ثم جاء كتاب آل غور التوثيقي الذي قرئ على نطاق واسع «حقيقة غير مريحة» وتبعه في العام 2007 التقرير التقويمي الرابع الموثق والمعتدل للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC حول علم المناخ وعواقبه. أجبر مزيج من هذا كله مؤقتا دخول موضوع تغير المناخ إلى محور النقاش الوطني⁽¹⁹⁾.

في هذه الأثناء كانت الجهود لإنشاء اتفاقية ثالية لبروتوكول كيوتو تحرز تقدما. انتخب باراك أوباما، جزئيا بسبب وعده باستثمار 150 مليار دولار خلال السنوات العشر القادمة لإطلاق نهضة صناعية تعتمد على التقنية النظيفة. وبحلول العام 2009 بدا من الممكن التوصل إلى اتفاقية عالمية شاملة. محليا بدأ الديمقراطيون بالدفع إلى إصدار تشريعات وطنية تتعلق بتغير المناخ، ما دعي بـ «غطاء وتجارة»، لكن تلك الجهود عطلت وعدلت بشكل سيئ من مجموعات الضغط التابعة للشركات. مالت مجموعات «الأخضر الكبير» - التي تميل إلى المال - إلى رؤية اللغة التشريعية على أنها كأس مملوءة إلى النصف، بينما نظرت مجموعات «الأخضر الصغير» التي تميل أكثر إلى اليسار إلى هذه القوانين على أنها ناقصة بشكل خطير. تدفع معظم الأعمال الكبيرة - ممثلة في غرف التجارة واتحاد المصنعين الوطنيين، ولجنة الوقود الغربية ومعهد النفط الدولي - إلى الوراثة بقوة ضد تشريعات المناخ. وكما نشرت صحيفة الغارديان - لندن، زادت صناعة النفط والغاز والفحم الحجري بحلول صيف 2009 من موازنتها لممارسة الضغط ضد الخضر بنحو 50

في المائة. «حيث أنفق اللاعبون الكبار 44.5 مليون دولار في الثلاثة أشهر الأولى» لذلك العام⁽²⁰⁾. فشل التشريع المناخي الشامل في الولايات المتحدة بالفعل. وساعد ذلك في نفس محادثات منظمة اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية حول تغير المناخ UNFCCC في كوبنهاغن العام 2009 وفي كانكون في السنة التالية.

لمواجهة هذه النكسات أعاد بعض الخضر في أمريكا التركيز على استراتيجيات أكثر محلية وأشد هجومية. مثال على ذلك المعركة حول الفحم الحجري خلال العقد الأول من هذا القرن، والتي قادها نادي سييرا وشبكة العمل حول الغابات المطرية وعدد من الهيئات المحلية وحديثا حركة السلام الأخضر. استخدمت الحملات ضد الفحم الحجري هذه الاحتجاجات الجماهيرية، والأعمال المباشرة كاحتلال أعالي الجبال، والضغط المالي والسياسي لوقف بناء 130 محطة جديدة تعمل على الفحم الحجري⁽²¹⁾.

توجد أيضا منظمات أخرى موجهة إعلاميا بشكل أكبر مثل. org350 - حيث يشير الاسم إلى 350 جزءا في المليون من غاز CO2 في الغلاف الجوي، والذي يصبح تغير المناخ بعده أمرا محتملا. قامت تلك المجموعة التي أطلقها الكاتب البيئي بيل ماكيبين وبعض طلابه في كلية ميدلبيري بعمل مذهل في تثقيف الرأي العام العالمي حول الحقائق العلمية لتغير المناخ، وفكرة الحدود القصوى، ونقاط التحول. لكن كما يقول هنري ميللر في نهاية كتابه «مدار الجدي»: «فحوى الرموز أن تكون رمزيا»⁽²²⁾. السلطة السياسية كالسلطة الاقتصادية مصنوعة في النهاية من مادة أثخن - هياكل وعمل وطبيعة، وأشياء وأماكن بنتها الهياكل، والعنف الفيزيائي الذي يتحكم بها كلها.

المقاومة جنوبا

المشهد الأول

كان الوقت أواخر مايو 2005، وكانت بوليفيا في قبضة احتجاجات جماهيرية لعدة أسابيع - كان معظم الناس من هنود الكويشان والأيماران الذين يطالبون بتأميم صناعة الغاز الطبيعي في بوليفيا. دُعي إلى إضراب عام. والآن هناك مسيرة ضخمة تنحدر من إل التو إلى لاباز. كان المحتجون من نقابات العمال وعمال المناجم والمعلمين وفلاحين من دون أراض. كان مقصدهم المجلس التشريعي وقصر الرئاسة، حيث وقفت أمامهما دبابات مكتظة لشرطة مكافحة الشغب.

مع اقترابهم حطم المتظاهرون نوافذ الحافلات الصغيرة القليلة التي تجاهلت أمر الحركة بالإضراب. عندما قابلوا صفوف الشرطة رمى بعض عمال المناجم شحنت صغيرة من الديناميت، اهتزت النوافذ للأعلى والأسفل في المجمع، رجعت الشرطة إلى الوراء، وصدوا المتفجرات بدروعهم البلاستيكية، ثم ردوا بقذائف الغاز المسيل للدموع، والرصاص المطاطي. استمرت المعركة في التقدم والتقهقر لمدة ثلاثة أسابيع. ومع حصار لاباز ومعظم المدن البوليفية الرئيسة الأخرى، انخفضت إمدادات الغذاء والوقود، وتوقفت الحافلات وسيارات الأجرة. احتل المحتجون عددا من حقول الغاز ومحطة أنابيب. كانت هذه الاحتجاجات نتيجة خمسمائة سنة من السرقة والإساءة، وطالب سكان بوليفيا الأصليون بالعدالة.

المشهد الثاني

بعد ستة أشهر عدت إلى بوليفيا. مستيقظا في فندق رث في لاباز بعد سفر طويل بالطائرة ليلا، أدت مفتاح التلفاز. لدهشتي على الشاشة جلس راول برادا، وهو مثقف ماركسي قصير وثنخين، يلبس نظارات محنية بشكل دائم. كانت آخر مرة شاهدت برادا فيها حين كان في الشارع يتفادى قنابل الغاز مع الجماهير. الآن هو مستشار للرئيس إيفو موراليس - نعم رئيس، ما أكبر الاختلاف الذي يحدثه عام واحد - كان برادا يشرح لماذا أمتت الحكومة جزءا كبيرا من صناعة الغاز في بوليفيا. جرت هناك تغييرات أخرى أيضا. وعد موراليس أن يمضي إلى أبعد من الغاز، حيث أعلن عن خطط لتأمين تعدين المناجم وإدارة الغابات ومصادرة المزارع غير المستثمرة وإعادة توزيعها، ورفع الحد الأدنى للأجور، وزيادة الإنفاق على الرعاية الصحية. بعد عقود من تقشف مفروض من قبل صندوق النقد الدولي، كانت إحدى أولى تصرفات الحكومة الجديدة السماح بإنهاء صفقة تمويل لمدة ثلاث سنوات مع الصندوق - كان ذلك يعني طرده فعليا من بوليفيا.

في غرفة استقبال باردة في القصر الجمهوري، قابلت نائب الرئيس ألفارو غارسيا لينيرا. في الثانية والأربعين من العمر فقط، تمتع لينيرا بسيرة ذاتية تضمنت مهمات على شكل مقاتل عصابات وسجين ومؤلف للسلطة ومثقف. «الشركات العالمية مرحب بها في بوليفيا»، شرح نائب الرئيس ذو الوجه الصبياني. «لكنها لن تسيطر

تضمينات واحتمالات

على الاقتصاد. يجب عليهم أن يتوقعوا دفع الضرائب والخضوع لتشريعات بيئية واجتماعية معقولة. لكنهم سيظلون يحققون الأرباح أيضا». كما شرح غارسيا لينيرا فإن كل ما تستطيع الدولة فعله هو فرض التوازن والحد الأدنى من الإنسانية على وحشية الرأسمالية البوليفية وفوضويتها، وتنمية الاقتصاد بنسخة تقدمية وخضراء من الكينزية. العديد من الصناعيين في لاباز - مالكو إمداد مواد البناء، ومصانع رقائق البطاطا، ومعامل الصهر الصغيرة «البورجوازية الوطنية» إن شئت - بدأت تدرك فضائل هذه الاستراتيجية. وضمن حدود هذه الواقعية، تتلمس بوليفيا الطريق لنموذج جديد من الاقتصاد المختلط⁽²³⁾.

المشهد الثالث

بحلول عام 2010 كانت بوليفيا على الأخبار مرة أخرى، هذه المرة لأنها كانت تستضيف مؤتمر الشعوب العالمي حول تغير المناخ، في توقع لاجتماع مؤتمر الأطراف COP 16 الذي كان سيعقد في كانكون في ديسمبر من ذلك العام. في السنة السابقة عمل وفد بوليفيا من دون كلل مع الـ G77 - المجموعة الرئيسة المكونة من 77 دولة نامية وفقيرة من عالم الجنوب - لتحقيق تخفيضات عميقة في الإصدارات، وتحويل قوي لرأس المال والتقنية إلى عالم الجنوب، كجزء من اتفاقية ملزمة. بدلا من ذلك تميز اجتماع COP16 بما دعاه جون فيدال «بخطابات فارغة حول أن تكون أخضر»، وأنتج اتفاقية غير ملزمة وغير مناقشة من قبل النخب. اعترفت الاتفاقية كما وصفها أحد المراسلين «بالحالة العلمية لإبقاء ارتفاع درجة الحرارة أقل من 2°م»، لكنها لم تطلب تخفيض الإصدارات، أو معونة من الشمال إلى الجنوب للمساعدة على التكيف⁽²⁴⁾.

مع اختتام COP 16 في كانكون انهار البحث عن اتفاقية ملزمة. بدلا من ذلك كان العالم الآن يتصارع حول «اتفاقية» طوعية بدلا من معاهدة ملزمة. وبجمعها كلها، فإن كل التخفيضات الطوعية (وبالتالي غير المحتملة) في الإصدارات التي تعهدت بها أكبر الاقتصادات في العالم مازالت تسمح بارتفاع متوسط درجة الحرارة العالمية بـ 3.2°م، حتى وإن كانت اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC ترى زيادة بمقدار 2°م الحد الأقصى للأمان. حتى زيادة 2°م يمكن أن تكون كبيرة جدا، وتسبب تغيرا مناخيا منفلتا.

كانت بوليفيا الدولة الوحيدة التي رفضت الانضمام إلى هذه التمثيلية. عبر مفاوضها الرئيس - مندوب بوليفيا العبوس والمتوتر إلى الأمم المتحدة بابلو سولون - عن موقف بلاده في صحيفة الغارديان. في شرحه لـ «التزامه بتنحية الديبلوماسية جانبا، وقول الحقيقة» كتب ما يلي:

اعتبر العديد من المعلقين اتفاق كانكون «خطوة في الاتجاه الصحيح». نحن لا نوافق على ذلك: إنها خطوة هائلة للوراء. يستبدل النص آليات ملزمة لخفض إصدارات غازات الدفيئة بتعهدات طوعية غير كافية تماما. تناقض هذه التعهدات الهدف المعلن المتمثل في وقف ارتفاع درجة الحرارة عند 2°م، وتوجهنا بدلا من ذلك إلى 4°م أو أكثر. النص مملوء بالثغرات بالنسبة إلى الملوثين، والفرص لتوسيع أسواق الكربون، وآليات أخرى مشابهة.... نشعر بمسؤولية عميقة بعدم التوقيع على أي ورقة تهدد ملايين الناس⁽²⁵⁾.

وهكذا خلال خمس سنوات أصبح الاحتجاج في شوارع لاباز احتجاجا على المسرح العالمي. هل ترجمت الثورة الديمقراطية في بوليفيا إلى حركة قوية نحو الأمام على المسرح العالمي؟ لا. لكن التزام بوليفيا بسياسات تقدمية للتخفيف المناخي، يقدم قيادة جريئة وحيوية كانت من قبل مفقودة. حتى مالديفيس الذي كان شجاعا، دخل في مفاوضات سرية مع الولايات المتحدة لتقديم العون المالي وتقاعد فعليا من المهمة، وصادق على اتفاق كانكون. في الوقت ذاته قطعت الولايات المتحدة 3 ملايين دولار من المساعدات عن بوليفيا بسبب جهود دولة الأنديز في معارضة الاتفاق الطوعي وغير الملزم. ضغطت الحكومة الأمريكية على الأوروبيين ليفعلوا الشيء نفسه⁽²⁶⁾.

في المضمون تحاول بوليفيا مواجهة التجمع الكارثي بمعالجة المشاكل التي يعبر تغير المناخ من خلالها عن نفسه. وإذا حصل تقدم أكبر للتوصل إلى اتفاقية دولية تخفف الإصدارات وقول التكيف، فسيكون بفضل المثال الشجاع لدولة بوليفيا الصغيرة الفقيرة، والمحصورة برا إلى حد كبير. أن تقوم دولة بهذا الفقر وهذا التخلف وهذا التهميش الاقتصادي، مقيدة بأمية وأمراض وجوع منتشر، وبقيت سياستها لزمان طويل مصابة بالعنصرية والاستغلال والديكتاتورية، بتنظيم نفسها وتجنب الحرب الأهلية، والتقدم نحو طريق جديد من التنمية

الاقتصادية المختلطة، وتبدأ بأخذ قضايا البيئة بجد، ثم تنقلها كلها إلى المسرح العالمي بكرامة، إنما هو إنجاز بمقياس بطولي وملحمي.

التخفيف الآن

أصابني إدراك ثقيل، لكنه واضح، وأنا أكتب هذا الكتاب. التكيف التقدمي والسلمي مقابل التكيف السيء والعنيف خيار صعب، لكنه صراع مبني في حد ذاته على تخفيف قوي. ومن دون تخفيف نخاطر بإطلاق عملية تغير مناخي منفلة وذاتية التغذية، لن يكون بالإمكان التكيف بنجاح معها.

كما نوقش مسبقا، يعتقد العلماء أن تثبيت النظام المناخي يتطلب عودتنا إلى تركيز لغاز ثاني أكسيد الكربون في الجو أقل من 350 ج. ف. م. الأخبار السيئة جدا هي أننا الآن عند 390 ج. ف. م. حددت منظمة الأرصاد الجوية العالمية عام 2010 على أنه أحد أحر الأعوام المسجلة على الإطلاق. طوال العام ضرب الطقس العنيف نصف الكرة الشمالي. أضف إلى هذا التدفق المستمر لتقارير علمية جديدة حول الحالة السيئة لمحيطات العالم والكتل الجليدية والغابات. تقول اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC إن على دول غنية كالولايات المتحدة أن تخفض الإصدارات بـ 25 في المائة إلى 40 في المائة تحت مستويات العام 1990 بحلول العام 2020، وأن تقوم بعدها بتخفيضات كبيرة لتصل إلى الإصدار صفر تقريبا.

إذا لم نتصرف الآن، فمن المحتمل أن يرتفع متوسط درجة الحرارة في العالم بأكثر من 2°م، وهذا سيطلق مجموعة من دارات التغذية الراجعة الإيجابية التي ستطلق تغيرا مناخيا منفلة ذاتي التركيب. على سبيل المثال، لو استمرت التربة المتجمدة في القطب الشمالي بالذوبان، واستمر إطلاق غاز الميثان CH_4 من المخزونات الهائلة تحتها، فسيتسارع الاحترار العالمي جذريا، لأن الميثان «أكثر كفاءة في حبس الحرارة في الجو بـ 20 مرة من ثاني أكسيد الكربون»⁽²⁷⁾. في هذه اللحظة تبقى هذه المخزونات الضخمة من الميثان محصورة تحت الجليد وتحت التربة المجمدة وقاع المحيطات. لكن هذا الغطاء من الطين المتجمد ينصهر الآن مهددا باحترار سريع، وما يصحب ذلك من ارتفاع في مستوى سطح البحر وتدمير للزراعة وإحداث للفوضى الاجتماعية.

مع ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة عام 2011، يجري القليل من التخفيف. لب المشكلة في المجهود الدولي لخفض الإصدارات هو أساسا تعنت الولايات المتحدة: لقد فشلت في التصديق على بروتوكول كيوتو، ولعبت دورا معيقا في المفاوضات اللاحقة. داخليا كان التقدم بطيئا أيضا، على الرغم من التأييد الجماهيري الواسع لحماية البيئة. منذ هذه الكتابة لم تصدر تشريعات حول المناخ في الولايات المتحدة. ليس لدينا ضريبة على الكربون، ولا أي برنامج من الاستثمار القوي في التقنية النظيفة. حتى التخفيض الضريبي على الحد الأدنى من الإنتاج للطاقة النظيفة المولدة بالشمس أو الرياح أو الطاقة الكهرومائية، لم يوضع على شكل التزام طويل الأمد. نتيجة لذلك يتطور استثمار القطاع الخاص في التقنية النظيفة بشكل خجول. الصين من ناحية أخرى، وهي الآن ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وأضخم ملوث بغازات الدفيئة، تتقدم للأمام بصناعة قوية وسريعة النمو في مجال التقنية النظيفة - أي بالتخفيف. نما قطاع الرياح الصيني باستمرار منذ 2001. وفي العام 2009 نما هذا القطاع بحوالي 113 في المائة بحسب تقرير طاقة الرياح العالمية. يأتي هذا النمو جزئيا نتيجة دعم قوي من الحكومة: استثمرت الصين 200.8 بليون دولار في تمويل مشاريع التقنية النظيفة. تتراوح التقديرات لتمويل تشجيع التقنية النظيفة في الولايات المتحدة بين 50 و 80 مليار دولار⁽²⁸⁾.

يتحرك الاتحاد الأوروبي أيضا لإنشاء شبكة كهربائية ضخمة على مستوى أوروبا، ويخطط لإنفاق 1 تريليون يورو للقيام بذلك⁽²⁹⁾. تتحرك ألمانيا والبرتغال خصوصا بقوة لتوسيع قطاع التقنية النظيفة الواسع مسبقا في كليهما. العمل في الاقتصاديات الصناعية الرئيسة ضروري، لأنها وحدها تمتلك البنية التحتية التي تمكنها من دفع ثورة التقنية النظيفة، وتحويل الاقتصاد العالمي.

دروب للأمام

على الرغم من التصلب السياسي في الولايات المتحدة والاعتقاد بالوقود الأحفوري، هناك دروب للتقدم نحو الأمام. أولا وقبل كل شيء هناك وكالة حماية البيئة. بفضل ضغط الناشطين الخضر، ودعاويهم القانونية، اضطرت وكالة حماية البيئة الأمريكية EPA الآن لتنظيم إصدارات غازات الدفيئة. لو أريد للـ EPA أن

تعمل بقوة يمكنها أن تحقق تخفيضات مهمة وفورية في الإصدارات باستخدام القوانين القائمة والتقنيات الحالية فقط.

بحسب كيسي سيغل من مركز التنوع البيولوجي «يمكن لقانون الهواء النظيف أن يحقق كل ما نحتاج إليه: تخفيض بمقدار 40 في المائة من غازات الدفيئة فوق مستوى 1990 بحلول عام 2020»⁽³⁰⁾. الشيطان الأكثر أهمية للذان يمكن للـ EPA أن تعملهما هما وقف أي سماح لبناء محطات طاقة جديدة تعمل بالفحم الحجري - هناك خمسون محطة جديدة تقريبا تطلب الموافقة اثناء ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة - وإجبار التجهيزات التي تعمل بالفحم الحجري حاليا كلها على التحول إلى الغاز الطبيعي. لا يتطلب «تحويل الوقود» هذا سوى القليل، أو لا يتطلب، من إعادة تجهيز محطات الطاقة القائمة. لو حدث هذا، ستتنخفض الإصدارات الإجمالية من غير وسائط النقل بنحو 13 في المائة أو أكثر خلال عام أو عامين كما يقول خبراء عديدون. كوقود، فإن تلويث الغاز الطبيعي عموما أقل من نصف تلويث الفحم الحجري. لكن كما في حالة المحطات القديمة غير الكفوة التي تعمل بالفحم الحجري، فإن التحويل إلى الغاز يمكنه أن يخفض الإصدارات بنحو الثلثين.

على الرغم من أن الحفر لاستخراج الغاز الطبيعي كثير المشاكل فإنه مع التشريعات يمكن أن يصبح أقل تلويثا. وهناك الكثير من الغاز الطبيعي: أغرقت الاكتشافات الأسواق، وانخفضت الأسعار بأكثر من 60 في المائة من ذروتها. ليس الغاز حلا فهو ليس نظيفا. يقدم الغاز فقط «وقودا مرحليا» واقعيا أكثر نظافة، بينما ننتقل نحو طاقة مولدة من الرياح والشمس والحرارة الجوفية والمصادر المائية.

الشراء الكبير للأخضر

طريقة أخرى متوافرة للتحويل هي شراء الحكومة مباشرة للتقنية النظيفة. حاليا تبقى التقنية النظيفة الرائدة أعلى بقليل من التقنيات القديمة الوسخة البديلة. يوقف ما يُدعى «فارق السعر» هذا إنتاج التقنية النظيفة على المستوى الكبير. الحقيقة البسيطة هي أن الاقتصادات الرأسمالية لن تحول إلى الطاقة النظيفة ما لم تصبح أرخص من الوقود الأحفوري.

تنتج الفجوة في السعر جزئياً من تاريخ دعم التقنية الوسخة (72.5 مليار دولار بين عامي 2002 و2008)، وجزئياً من اقتصادية الإنتاج الكبير التي تتمتع بها صناعة الوقود الأحفوري. إن أسرع طريق لإغلاق فجوة السعر هذه هي إنشاء أسواق كبيرة للتقنية النظيفة تسمح باقتصاد مماثل من الإنتاج الكبير. والطريقة الأسرع لفعل ذلك هي في إعادة توجيه الشراء الحكومي بعيداً عن طاقة الوقود الأحفوري، ونحو الطاقة والتقنية النظيفتين - لاستخدام قدرة الحكومة الكبيرة على الإنفاق لخلق سوق للتقنية النظيفة.

بعد كل شيء، لم تقم الحكومة بتمويل اختراع المعالج الصغير فقط، بل كانت أيضاً المستهلك الرئيس الأول لهذا الجهاز. لم تقم بخلق التقنية فقط، بل خلقت السوق لها أيضاً. خلال الخمسينيات جاء أكثر من دخل الـ«آي بي أم» IBM من عقود الحكومة. ومع المال قدّمت هذه العقود سوقاً مضمونة مستقرة لـ IBM ومزوديه. وبالتالي ساعدت في استدراج الاستثمار الخاص لهذه التقنية - وهذا كله جعل IBM رائدة السوق⁽³¹⁾.

الآن اعتبر حجم المشكلة: تزدهم شرايين النقل الأسفلتية بـ 250 مليون عربة تتحرك بالغازولين، تستهلك سنوياً ما تتراوح قيمته بين 200 و300 مليار دولار من الوقود من أكثر من 121 ألف محطة تعبئة. أضف إلى هذا تكلفة تدفئة الأبنية وتبريدها والسفر بالطائرة والشحن بالسفن وصناعة الطاقة، والطاقة التي تلتهمها مخدّمات الإنترنت وحواسبها، وسيصل اقتصاد الطاقة في الولايات المتحدة إلى رقم سنوي مذهل يعادل 2 إلى 3 تريليونات دولار.

هذه مبالغ هائلة، لكن الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات والمجالس المحلية تشكل أكثر من 38 في المائة من الناتج القومي الإجمالي. أنفقت الحكومة الاتحادية نحو 3.6 تريليون دولار عام 2010. بمصطلحات أقوى فإن الحكومة الاتحادية هي أكبر مستهلك للطاقة والمركبات في العالم - فهي تمتلك أو تستأجر أكثر من 430 ألف بناء معظمها أبنية ضخمة للمكاتب و650 ألف عربة. نتيجة لذلك، فإنها أكبر مصدر لغازات الدفيئة في البلد. وإذا أضفت نشاطات حكومات الولايات والمجالس المحلية فسوف تنمو هذه الأرقام مرة أخرى بحوالي الثلث.

ستخلق إعادة توجيه الشراء الحكومي أسواقا ضخمة للطاقة النظيفة والسيارات الكهربائية والأبنية الكفؤة ولأثاث وورق ومواد تنظيف وألبسة رسمية وأغذية وخدمات أكثر استدامة. لو اشترت الحكومة الأخضر، فسيخفض هذا سعر التقنية النظيفة، وسينمو الزخم نحو تقنية خضراء مدعوما ذاتياً، وسيمتد إلى القطاع الخاص.

تمتلك الحكومة قدرة هائلة لتفعيل المشتريات الخضراء لأنها لا تحتاج إلى ضرائب وبرامج جديدة أو إنفاق، وليست رهينة الكأس المقدسة الممثلة بـ 60 صوتاً في مجلس الشيوخ. إنها ببساطة مسألة تغيير كيفية شراء الحكومة لطاقتها وعرباتها وخدماتها.

رأسمالية ضد الطبيعة؟

هناك سؤال ضروري أخير. تذهب تيارات عدة من الفكر الأخضر إلى أن الرأسمالية غير قادرة على التوصل إلى علاقة مستدامة مع الطبيعة، لأنها كنظام اقتصادي يجب أن ينمو أسياً، بينما موارد الطبيعة محدودة⁽³²⁾. تجد هذه الحجة في أدبيات الاشتراكية البيئية والبيئية العميقة والفوضويين البيئيين. تدافع الحجة نفسها كثيراً من قبل الأخضر الليبراليين بمصطلحات غير تاريخية وغير نظرية، إذ إنهم بينما يشككون بالنظام الاقتصادي يتجنبون غالباً ذكر ذلك. بالعودة إلى أوائل السبعينيات، أكد كتاب نادي روما «حدود النمو» على مخاطر «النمو»، لكنه تجنب عموماً شرح لماذا تحتاج الرأسمالية إلى النمو، أو كيف يرتبط النمو بالملكية الخاصة والربح والتنافس بين الشركات. فيما إذا كانت هذه الأدبيات تصف المشكلة على أنها «مجتمع صناعي حديث» أو «ثقافة للنمو» أو «نظام الربح»، فإن لديها غالباً الوصفة المماثلة: نحتاج إلى نظام اقتصادي مختلف تماماً، إذا رغبتنا العيش في توازن مع الطبيعة.

كان ماركس وإنجلز من أوائل من قالوا بهذه الحجة. جاءوا إلى نظريتهم البيئية من خلال فحص المشكلة المحلية حول العلاقة بين الريف والمدينة - والتي عبر عنها في الوقت نفسه على أنها تلوث مديني، وتدهور التربة في الريف. في استكشاف هذا السؤال اعتمدا على العمل الرائد لكيميائي التربة جوستس فون ليبغ. ومن هذه

المشكلة الصغيرة طورا فكرة «الانفصام الوظيفي» الكلي للرأسمالية مع الطبيعة⁽³³⁾.
هكذا يشرح ماركس هذه المعضلة:

يجمع الإنتاج الرأسمالي السكان بعضهم مع بعض في مراكز كبيرة، ويتسبب في تحقيق تزايد متنام لسكان المدن. لهذا نتيجتان. فهو من جهة يركز القوة الدافعة التاريخية للمجتمع، وهو من جهة أخرى يؤثر في التفاعل الوظيفي بين الإنسان والأرض. أي أنه يمنع العناصر المكونة للتربة والمستهلكة من قبل الإنسان على شكل غذاء ولباس، من العودة إليها، وبالتالي هو يمنع عمل الطبيعة الدائم للإبقاء على خصوبة التربة... التقدم في الزراعة الرأسمالية كله، هو تقدم في الأسلوب ليس لسرقة العامل فقط، لكن لسرقة الأرض أيضا⁽³⁴⁾.

من هذا نأخذ الاعتقاد الماركسي أن الرأسمالية ككل في حالة تناقض تام مع الطبيعة، وأن النظام الاقتصادي يخلق صدعا في توازن التبادل، أو في وظيفة وصل المجتمع الانساني بالأنظمة الطبيعية. كما بالنسبة إلى «سرقة التربة»، كذلك بالنسبة إلى مخزون الأسماك والغابات وإمدادات المياه والوراثة الجينية والتنوع الحيوي وتراكيز الغلاف الجوي. خرج النظام الطبيعي عن التناغم، ويعاد ترتيب عناصره وتوزيعها لتنتهي على شكل فضلات وتلوث.

وكما عبرت ماري دوغلاس، متصرفة بعبارات وليام جيمس: «القذارة قضية خارج محلها»⁽³⁵⁾. على مقياس كبير بما يكفي، يهدد ذلك الإخلال بالعناصر بكارثة بيئية. قد يكون هذا صحيحا: ربما تكون الرأسمالية في النهاية غير قادرة على تكييف نفسها مع حدود العالم الطبيعي.

لكن هذا ليس السؤال نفسه فيما إذا كانت الرأسمالية قادرة على حل أزمة المناخ. بسبب حجمها الكبير يمكن أن تبدو أزمة المناخ كأنها مجموع الأزمات البيئية كلها - زيادة استغلال المحيطات وإزالة الغابات والاستغلال الزائد للمياه العذبة وتدهور التربة وفقد الأنواع الحية ومواطنها والتلوث الكيميائي والتلوث الجيني بسبب الهندسة البيولوجية عبر الجينات. لكن وقف إصدار غازات الدفيئة هو قضية أكثر تحديدا، إذ إنها قطعة واحدة فقط من البانوراما الكارثية. وعلى الرغم من أن هذه المشاكل كلها مترابطة، فإن الأكثر إلحاحا والأكثر شمولية من بينها هو تغيير المناخ بفعل الإنسان.

الحقيقة أن الوقت قد استنفد بالنسبة إلى قضية المناخ. إما أن تحل الرأسمالية الأزمة، أو أنها ستحطم الحضارة. إما أن تبدأ الرأسمالية بالتعامل مع الأزمة الآن، وإما سنواجه انهيار الحضارة عند بداية هذا القرن. لا يمكننا انتظار ثورة اشتراكية أو شيوعية أو فوضوية أو بيئية عميقة، أو بدائية جديدة، ولا تحول محلي مبني على الحنين للعودة إلى اقتصاد البلدة الصغيرة في أمريكا ما قبل الثورة الصناعية، كما يحتاج البعض باختصار، لا يمكننا الانتظار حتى نقوم بتحويل كل شيء - بما في ذلك كيف نخلق الطاقة. بدلا من ذلك يجب علينا أن نبدأ فورا بتحويل اقتصاد الطاقة: التغييرات الضرورية الأخرى يمكنها أن تبدأ من هناك، وستفعل ذلك.

لا أمل؟ لو نحينا السؤال حول حدود الرأسمالية جانبا، وتعاملنا مع إصدارات غازات الدفيئة فقط، فستبدو المسألة أقل صعوبة. بينما لم تحل الرأسمالية الأزمة البيئية - بمعنى التناقض الرئيس بين إمكانية النمو اللامتناهي للسوق، والعوامل المحدودة للكوكب - فقد حلت في الماضي أزمات بيئية محددة. حركة الصحة العامة في الحقبة التقدمية مثال على ذلك.

بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر أصبحت المدن الصناعية حواضن مثالية للأمراض المعدية، وخصوصا الكوليرا والحمى الصفراء. وكتغير المناخ اليوم، ضربت هذه الأمراض الفقراء بقوة أقسى، لكنها أضرمت أيضا الأغنياء وقتلتهم. قدمت الامتيازات الطبقيّة بعض الحماية، لكنها لم تكن ضمانا للأمان. ونتيجة لذلك بدأ أفراد محسنون من الطبقة الوسطى سلسلة من الإصلاحات حذت من الأوبئة في المدن ودحرقتها في النهاية.

أولا منعت الخنازير التي تأكل الفضلات القذرة من شوارع المدن، ثم بدأت برامج الصحة العامة لجمع الفضلات، وبنّت مجاري الصرف الصحي، وزودت البيوت بالمياه النظيفة، ووطورت معايير قياسية للبيوت وطبقتها. وفي النهاية توقفت أوبئة الكوليرا. وكذلك تم التخلص نهائيا من أمراض معدية أخرى كالسل الرئوي والحمى التيفية والتيفوئيد⁽³⁶⁾.

لذا، على مستوى المدن، حل المجتمع الرأسمالي أزمة بيئية من خلال التخطيط وإنفاق المال العام. أما تغير المناخ فهو أزمة على مستوى مختلف تماما من الحجم، لكن الحلول الماضية لأزمات بيئية أصغر تقدم دروسا في ذلك.

في النهاية، سيتطلب حل أزمة المناخ - مثل الانتصار في القرن التاسع عشر على قذارة المدن والأوبئة - إعادة الشرعية لدور الدولة في الاقتصاد. سنحتاج إلى التخطيط، وإعادة توزيع الثروة نحو الأسفل. وكما وضّحت في الأعلى، هناك طرق متوافرة مسبقاً لمعالجة الأزمة فوراً - لو بذلنا الجهد لإجبار زعمائنا السياسيين على التصرف. ندين بمثل هذا المجهود لأناس مثل إيكارو لورومان الذين عانوا مسبقاً وماتوا على خطوط المواجهة للتجمع الكارثي، وندين به للجيل التالي الذي سيرث الفوضى. وندين به لأنفسنا أيضاً.

الهوامش

الفصل الأول

- (1) بالنسبة إلى أفريقيا تكتب اللجنة الدولية للتغيرات المناخية (IPCC) ما يلي: «من المحتمل جدا أن يكون الاحترار خلال معظم القارة الأفريقية وفي الفصول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمي، بحيث تكون المناطق تحت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاستوائية الأربط. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السنوي في معظم أفريقيا البحر الأبيض المتوسط، وشمال الصحراء الكبرى، ويزيد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من ساحل البحر. من المحتمل أن يتناقص الهطول في معظم مناطق هطول الأمطار الشتوية والمناطق الهامشية الغربية في أفريقيا الجنوبية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة الساحل الأفريقي، وشاطئ غينيا، وجنوب الصحراء». سوزان سولومون وداهي كين ومارتن مانينغ واللجنة الدولية للتغيرات المناخية (IPCC)، مجموعة العمل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأساس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى في التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.
- (2) جيمس هانسن، «عواصف أحفادي: الحقيقة حول كارثة تغير المناخ القادمة، وفرصتنا الأخيرة لإنقاذ البشرية» (نيو يورك: دار نشر بلومباري 2009).
- (3) انظر «حول العلم والتأثيرات»، مركز بيو حول تغير المناخ العالمي: www.pewclimate.org/science-impacts/about
- (4) خفضت الـ IPCC كما هو معروف توقعاتها حول ارتفاع سطح البحر بين تقريرها التقويمي الثالث والرابع. لكن المجال الأخفض للارتفاعات المتوقعة في تقريرها التقويمي الرابع انتقد باعتباره متفائلا، لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار دليلا جديدا على الذوبان السريع جدا للجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي. لخصت مجلة نيو ساينتست مشكلة التنبؤ بارتفاع سطح البحر بما يلي: «لأن نمذجة الكيفية التي تتفاعل بواسطتها ألواح الجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي مع ارتفاع درجات الحرارة صعبة جدا، لم تدخل الـ IPCC أيا منهما في تقديراتها. ليس هذا حذف بسيط: يحتوي الغطاء الجليدي في غرينلاند وهو الأصغر بين الاثنين والأقل استقرارا، على كمية من المياه تكفي إذا ذابت كلها لرفع مستوى سطح البحر بـ 6 أمتار بالمتوسط خلال الكرة الأرضية». يتابع المقطع نفسه باقتباس إيريك ريغنوت من جامعة كاليفورنيا في إرفاين، ومختبر الدفع النفاث لناسا بالقول «نتيجة لتسارع انطلاق المياه من الجليديات في مناطق واسعة، تساهم ألواح الجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي مسبقا في ارتفاع مستوى سطح البحر بمعدل أعلى وأسرع مما تم توقعه مسبقا... لو استمر هذا المنحى، فمن المحتمل أن نشهد ارتفاع مستوى سطح البحر بـ 1 متر أو أكثر بحلول العام 2100». انظر كاثارين براهيك - ارتفاع مستوى سطح البحر يمكنه نقض تقدير الـ IPCC، نيو ساينتست (مارس 2009).
- (5) جون فيدال، «يسبب الاحترار العالمي موت 300 ألف شخص في العام»، «الغارديان»، 29 مايو 2009.
- (6) جيانجن ين وآخرون، «إسقاطات نموذج الارتفاع السريع لسطح البحر على الشاطئ الشمالي الشرقي للولايات المتحدة»، نيتشر جيوساينس 2 (15 مارس 2009): 262

- 266 - في العام 2007 تنبأ التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC بناء على بيانات أخذت قبل نشر التقرير بسنوات، أن غرينلاند والقطب الجنوبي لن يفقدا كميات مهمة من الجليد بحلول العام 2100. في الواقع يفقد كلاهما كميات من الجليد بسرعة كبيرة، ومن هذه البيانات الجديدة تأتي هذه الإسقاطات الجديدة.
- (7) كوكو وارنر وآخرون «في البحث عن مأوى: تفحص تأثيرات تغير المناخ على هجرة البشر وانزياحاتهم»، معهد الأرض في جامعة كولومبيا - مايو 2009.
- http://ciesin.columbia.edu/documents/clim-migr-report-june09_media.pdf
- (8) كريستينا ستيفانوف «ارتفاع مستوى البحر في المحيط الهادئ يخلق موجة من المهاجرين»، «واشنطن تايمز»، 19 أغسطس 2009.
- (9) مقتبس من ورقة لسوزان جورج بعنوان «العولمة والحرب» (ورقة قدمت في المؤتمر العالمي للأطباء العالميين لمنع الحرب النووية، نيودلهي، 10 مارس 2008)، «تغير المناخ والصراع» تقرير مجموعة الأزمة العالمية، نوفمبر 2007.
- www.crisisgroup.org/en/key-issues/climate-change-and-conflict.aspx
- (10) دان سميث وجاناني فيفيكانادا، مناخ من الصراع: العلاقة بين تغير المناخ والسلام والحرب (ستوكهولم: الوكالة السويدية الدولية للتعاون في التنمية، فبراير 2008)، 7. يمكن تنزيل هذه النشرة أو طلبها من:

www.sida.se/publications

- (11) إحصائيا، انخفضت «الوفيات المرتبطة بالحروب» عالميا منذ الحرب العالمية الثانية، وخصوصا منذ نهاية الحرب الباردة، والتي كانت غالبا ساخنة في خطوط المواجهة في دول عالم الجنوب. لكن أنواعا غير منتظمة أخرى من العنف مرتبطة بالانهيار الاجتماعي أخذة بالانتشار. خذ حالة الحرب الأهلية في السلفادور التي استمرت 12 عاما وانتهت العام 1993، لكن «حالات الموت بالقتل في حقبة ما بعد الحرب فاقت في مرحلة ما معدل القتل خلال الحرب نفسها»، وما زالت بالمعدل المرتفع نفسه اليوم. أو خذ حالة كاراكاس، في السبعينيات تعرضت فنزويلا لسلسلة من حروب العصابات الصغيرة، وفي الحقيقة حارب المظلي الشاب هوغو تشافيز رجال العصابات الماويين حول بحيرة ماريكيبو. اليوم تعد فنزويلا في «حالة سلم»، لكن أحياء كاراكاس على التلال تضج بالجريمة. وكاراكاس أكثر عنفا الآن مما كانت عليه في حقبة الحرب الأهلية. يبلغ معدل القتل في كاراكاس 130 شخصا لكل مائة ألف من السكان. في العام 2008 قتل ما مجموعه 2415 شخصا وجرح 5098 آخرون. انظر على سبيل المثال سارا ميللر لانا «هل سيؤدي معدل القتل في فنزويلا شافيز؟»، كريستيان سيانس مونيتور، 3 ديسمبر 2008، عنوان رئيسي: «الجريمة في فنزويلا، قضايا المخدرات 29 يونيو - 5 يوليو»، وصلة أخبار العالم (وزارة التجارة الأمريكية، 5 يوليو 2009).

الفصل الثاني

- (1) «تصريح لسجل الدكتور توماس فينغر»، مكتب مدير المخابرات العامة، 25 يونيو 2008.
- www.dni.gov/testimonies/20080625_testimony.pdf
- تم الحصول عليها في 25 يونيو 2008؛ كيفين وايتلو، «سيكون لتغير المناخ عواقب

- مهدة للاستقرار، تحذر وكالات الاستخبارات»، تقرير أخبار أمريكا والعالم، 25 يونيو 2008. دعي التقرير «تأثيرات تغير المناخ على الأمن القومي العام 2030».
- (2) لورا سوليفان «اقتصاديات السجون تساعد في دفع قانون هجرة أريزونا»، برنامج أول ثينغز كونسدر (راديو NPR) 28 أكتوبر 2010.
- (3) هذا التقرير متوافر على الشبكة - على سبيل المثال على موقع شبكة الأعمال الاقتصادية العالمية
www.gbn.com/GBNDocumentDisplayServlet.srv?aid=26231&url=/
UploadDocumentDisplayServlet.srv?id=28566
- (4) حول قصف القنابل ومفاوضات باريس، انظر غابريل كولكو «تحليل حرب: فيتنام - الولايات المتحدة والخبرة التاريخية الحديثة» (نيويورك: نيو برس 1985) 440 - 444، ستانلي كارناو، «فيتنام: تاريخ» (نيويورك: بنغوين 1997).
- (5) جيف غوديل، «كيف نبرد الكوكب: الهندسة الجيولوجية والبحث الجريء لإصلاح مناخ الأرض» (نيويورك: هوتون ميفلين هاركورت، 2010).
- (6) لمناقشة عميقة لنظام الدوران الحراري في المحيطات، انظر التالي: تيم فلانيري «صنعو الطقس: كيف يغير الإنسان المناخ، وماذا يعني ذلك بالنسبة إلى الحياة على الأرض» (نيويورك: هاربر: هاربر كولينز 2006)؛ إليزابيث كولبرت، «ملاحظات عقلية حول كارثة: الإنسان والطبيعة وتغير المناخ» (نيويورك: دار نشر بلومزباري 2006)؛ إيوجين ليندن، «رياح التغيير: المناخ والطقس وتحطيم الحضارة» (نيويورك: سايمون وشوستر 2006)؛ آل غور، «حقيقة غير مريحة» (نيويورك: كتب روديل 2006)؛ جورج مونبيوت، «الحرارة: كيف نوقف احتراق الكوكب» (نيويورك: دويل داي 2006).
- (7) بيتر شفارز ودوغ راندال، «تقرير حول تغير مناخي مفاجئ، وتأثيراته على الأمن القومي للولايات المتحدة» (تقرير أعد لمكتب البنتاغون حول التقدير الإجمالي، شبكة غلوبال بزنس، فبراير 2003) 2.
- (8) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ» (ألكساندريا، شركة CNA: VA: 2007) 44.
- (9) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ»، 16.
- (10) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ»، 60.
- (11) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي» (واشنطن دي سي: مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية، ومركز الأمن الأمريكي الجديد 2007) 35.
- (12) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي»، 9.
- (13) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي»، 85 - 86.
- (14) جوناثان بيرلمان وبين كوبي، «الدفاع يحذر من صراع المناخ»، سيدني مورنينغ هيرالد، 7 يناير 2009؛ تحليل قوات الدفاع الأسترالية بعنوان «تغير المناخ: البيئة والموارد والصراع»، أتم في نوفمبر 2007.

(15) «تغير المناخ والأمن العالمي» (ورقة من المفوض السامي والمفوضية الأوروبية إلى اللجنة الأوروبية، 14 08/S113 مارس 2008) 1-2. هذا التقرير متاح على الموقع:

www.consiliumeuropa.eu/ue.docs/cms_data/docs/pressData/en/reports/99387.pdf

(16) «تغير المناخ والأمن العالمي» 3 - 5.

(17) توماس بارنيت، «خارطة البنتاغون الجديدة»، اسكواير، مارس 2003. من المغربي إسباج تناسق ذي على السياسة الخارجية الأمريكية لا تمتلكه بالضرورة. على الرغم من الاتفاق المسبق على الأهداف العريضة، وهي عرض القوة الأمريكية بهدف حماية المصالح الاقتصادية الأمريكية، إلا أن دوائر صانعي السياسات منقسمة إلى مدارس مختلفة من حيث الفكر والرمز والشبكات المتنافسة على التأثير في الرؤى المتعارضة.

(18) إيمانويل وولرشتاين، «النظام العالمي الحديث 1: الزراعة الرأسمالية ومصادر الاقتصاد العالمي الأوروبي في القرن السادس عشر» (نيويورك: أكاديميك برس 1974).

(19) جون ستيوارت ميل، «مبادئ الاقتصاد السياسي» (نيويورك: لونغمان غرين وشركاؤهم 1909) 685.

(20) لاري إلبوت ومارك تران، «تقرير من الأمم المتحدة يحذر من تهديد تغير المناخ على التقدم البشري»، «الغارديان»، 4 نوفمبر 2010.

الفصل الثالث

(1) مقابلة مع الكولونيل غاري أندرسون، USMC مارس 1999 وفرانك جونز، «القضايا المدنية للقوات البحرية وحرب الثلاث كتل»، مجلة القوات البحرية 86 عدد 3 (1 مارس 2002). ديريك سامارفيلد، «التأثيرات النفسية للصراع في العالم الثالث»، التنمية في العمل 1، عدد 3 (خريف 1991): 150-173.

(2) مؤسسة CNA، «الأمن القومي وخطر تغير المناخ» (ألكساندريا، مؤسسة 44 VA:CNA، 2007). أضيف تأكيد. كان ذلك الجنرال أنتوني زيني وهو يفكر في التأثيرات العسكرية لتغير المناخ، لكن ووسلي بانيرتا وآخرين جميعهم يدلون بتصريحات مماثلة.

(3) «تكتيكات مكافحة التمرد» (24.2-FM-3)، الكتيب الحقلي العسكري الأمريكي لمكافحة التمرد (واشنطن دي سي: وزارة الدفاع 2009) صفحة viii.

(4) جون نيغل، «تعلم أكل الحساء بالشوكة: دروس مكافحة التمرد من ماليزيا وفيتنام» (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو 2005)؛ ديفيد كيلغولين، «حرب العصابات الطائرة: خوض حروب صغيرة وسط حرب كبيرة» (أكسفورد: نشر جامعة أكسفورد 2009)، توماس ريكس، «المقامرة: الجنرال ديفيد باتريوس والمغامرة العسكرية الأمريكية في العراق 2006 - 2008» (نيويورك: بنغوين برس، 2009). لتاريخ رائع ونقدي لمكافحة التمرد في كولومبيا، انظر فورست هيلتون «الخطة كولومبيا: مقياس النجاح»، مجلة «براون للقضايا العالمية»، الجزء XVII، عدد 1 (خريف/ شتاء 2010): 99115.

(5) من أجل مناقشة كلاسيكية للشذوذ انظر روبرت ميرتون، «البنية الاجتماعية والشذوذ»، المجلة الأمريكية الاجتماعية 3 عدد 5 (أكتوبر 1938): 672-682.

- (6) جوزيه هاريس، «الحرب والتاريخ الاجتماعي: بريطانيا والجمهورية الداخلية خلال الحرب العالمية الثانية» التاريخ الأوروبي المعاصر 1، عدد 1 (مارس 1992) 17-18:35.
- (7) بالفعل هذا ما يصفه «زوار» غير محظوظين لدى طالبان مثل جيري فان دايك. حسب وصفه، تعطي طالبان الانطباع بأن هجمات الدرون تعزز التضامن على الأرض، على الرغم من أنها تجهد شبكات قيادة طالبان. جيري فان دايك، «سجين: أيامي كسجين لدى طالبان» (نيويورك: كتب تايمز 2010).
- (8) سامرفيلد، «التأثيرات النفسية للصراع»، 159-173: 2.
- (9) أفكر هنا بشكل أكثر تحديدا بالإسلام السياسي. انظر أوليفر روي، «فشل الإسلام السياسي» (كامبردج MA: نشر جامعة هارفارد 1994)، حيث يناقش العالم الفرنسي روي أن الإسلام السياسي حين يصبح في السلطة يقلل بالضرورة من تطرفه، لأنه لا توجد طريقة «إسلامية» لإدارة اقتصاد حديث، أو دولة حديثة، لأن الإسلام ليس نظرية اجتماعية، بل هو نظرية أخلاقية.
- (10) روبرت بانكر، «تغير تاريخي: الحرب على التنظيم الاجتماعي والسياسي»، باراميتيز 27 (صيف 1997) 15-25.
- (11) كما يحدث غالبا أثناء الاستعمار، حصلت مقاومة وتكيف خلاق من قبل الشعوب المستعمرة. وكما وصف ثيدا بيردو ومايكل غرين في كتابهما الرائع «أمة التشيروكي ودرب الدموع»، استخدم التشيروكي العملية «المتحضرة» وحولوها لمصلحتهم الوطنية. تبينوا طرق الزراعة الحديثة ومعدات، كما خلقوا كتابة وصحافة ودستورا ودولة حديثة ذات سيادة تشيروكية. عملوا بالتجارة بعيدة المدى وتعاملوا بالاقتصاد النقدي، حتى أنهم اشتروا العبيد وامتلكوهم، وجلبوا أجراء من البيض لإدارة مزارعهم. لكنهم قاوموا محاولات خصخصة أراضيهم، وتمسكوا بلغتهم وعاداتهم، وبالتالي هزموا الاحتلال من خلال تحضرهم الجزئي. من المفيد أن الكيكيو في كينيا والتشاك في تنزانيا قاوموا الاستعمار أيضا، وتكيفوا معه بطريقة مشابهة للتشيروكي. عن التشيروكي انظر ثيدا بيردو ومايكل غرين، «أمة التشيروكي ودرب الدموع» (نيويورك: فايكنغ 2007).
- (12) إرفينغ غوفمان، «مناطق اللجوء: مقالات عن الوضع الاجتماعي للمرضى العقليين والسجناء الآخرين» (نيويورك: أنكور 1961). اقتبس من الجنرال جورج كروك في كتاب جون ناغل «دروس مكافحة التمرد من ماليزيا وفيتنام: تعلم أكل الحساء بالسكين» (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو، 2005).
- (13) لو بدا هذا على أنه إيمان بالآخرة على الطريقة اليهودية - المسيحية فإنه يعود إلى التأثير المهم للكنيسة المورمونية، وللغربة، للشيكز Shakers من الزعماء المؤسسين لمذهب رقصة الشبح، مثل نبي بيوت Paiute فوفوكا. انظر فرانك ماكان، «رقصة الشبح، الأمل الأخير لقبائل الغرب، إطلاق المأساة النهائية»، مونتانا: مجلة «التاريخ الغربي» 16 عدد 1 (شتاء 1966): 25-34. لمسح تاريخي للمراجع حول رقصة شبح لاكوتا انظر مايكل سيفرز، «تاريخ الحقن الدموي... الذي احتفظ بسر الكلمة الأبدية: ركبة مجروحة»، تاريخ جنوب داكوتا 6، عدد 1 (1975): 33 - 54، ريموند ديمالي «رقصة شبح لاكوتا: وصف تاريخي عرقي»، ذا باسيفيك هيستوريكال ريفيو 51، عدد 4 (نوفمبر 1982): 385-405.

- (14) الكابتن إي دي سوينتون، «الدفاع عن انجراف دافر» (واشنطن دي سي: مؤسسة مشاة الولايات المتحدة، 1916) 9.
- (15) سوينتون، «الدفاع عن انجراف دافر»، 36.
- (16) هانز شميدت، «البحار المستقل: الجنرال سميدلي بتلر وتناقضات التاريخ العسكري الأمريكي» (ليكسنغتون: نشر جامعة كنتاكي، 1998).
- (17) للمزيد عن هذا الموضوع انظر دونبار أورتز، «الحقوق الأصلية والاستقلال الذاتي في نيكاراغوا الثورية»، مشهد أمريكا اللاتينية 14، عدد 1 (شتاء 1987) 43-66، وجين فريلان «الثورة الوطنية والحقوق العرقية: هنود المسكيتو لساحل نيكاراغوا الأطلسي»، ربعية العالم الثالث 11 عدد 4 (أكتوبر 1989): 166-190. مخترع شهير لتكتيكات الحروب الصغيرة وعقيدتها هو الجنرال ميريت إدسون (USMC) الذي قاد حملة 1928 لتهدة ريو كوكو في نيكاراغوا، وكتب عنها بعد ذلك.
- (18) في المثال الأخير انظر المقال الرائع لشين باور «فرق الموت الجديدة في العراق» الأمة، 22 يونيو 2009.
- (19) قوات البحرية الأمريكية، «كتيب الحروب الصغيرة» (واشنطن دي سي: مكتب الطباعة الحكومية، 1940) 2.
- (20) هذا من تقرير من قائد فرقة برادي يعود إلى أكتوبر 1919، اقتبس هانز شميدت في، «احتلال الولايات المتحدة لهايتي 1915 - 1934» (نيو برونزويك، نشر جامعة روتجرز نيوجرسي 1995) 105.
- (21) مثل فرق الخيالة، ركزت القوات البحرية على وحدات متحركة صغيرة تبنت طرقاً محلية للانتقال - على أنهار ودروب جبلية أو طرقاً برية. خفضت إعادة التموين، وعاشت القوات البحرية من نتاج الأرض - وهذا يعني من السكان المحليين. بمناقشة مكافحة القوات البحرية للعصيان في هاييتي خلال الاحتلال الأمريكي المتقطع الذي دام 14 عاماً، يقدم ليسر لانغلي هذا الوصف لتكتيكاته. «على قائدي القوات البحرية التكيف مع تكتيكات رجال العصابات. يمكن لدورية أن تسافر لمسافة 20 إلى 30 ميلاً في اليوم، متحركين على نسق رجل واحد على طول دروب محاطة بنباتات كثيفة، متوقفين عادة للاستراحة في فترة ما بعد الظهر. بما أن البغال المحملة تتحرك عادة أبطأ من الرجال، خفض عدد الحيوانات إلى الحد الأدنى اللازم لحمل الأغذية والطعام والذخيرة... ضحى بكل شيء من أجل السرعة على الطرق، والحفاظ على الرجال في حالة استعداد للمعركة... وما لم يتم أخذه براً أحضر بواسطة الطائرات». ليستر لانغلي «حروب الموز: تدخل الولايات المتحدة في الكاريبي 1898-1934» (واشنطن: DE SR 2002) 207. كان هذا زمن ديبلوماسية السفن الحربية، ويشير الكتيب بصورة خاصة إلى الطبيعة الإمبريالية لمثل هذه التدخلات. «تنفذ الحروب الصغيرة عادة، كجزء من مسؤوليات الرئيس لحماية مصالح الأمريكيين وحياتهم وممتلكاتهم في الخارج، وتتم بطرق مختلفة عن الحروب الكبيرة. في الحروب الصغيرة لم تتوقف الدبلوماسية عن العمل، ومارست وزارة الخارجية تأثيراً مستمراً ومتحكماً على العمليات العسكرية. الدخول في الحروب الصغيرة كقاعدة هو عمل رسمي لرئيس السلطة التنفيذية، الذي يعطي شخصياً التعليمات من دون تدخل من الكونغرس».

- (22) لويس غانيت، «في هاييتي»، الأمة، 28 سبتمبر 1927.
- (23) شميدت، «البحار المستقل»، 2.
- (24) أرستو دي غيفارا، «حرب العصابات» (لينكولن: كتب بيسون، 1998) 19.
- (25) أرستو دي غيفارا، «حرب العصابات»، 10.
- (26) أرستو دي غيفارا، «حرب العصابات»، 10-11.
- (27) دانيلو فالاداريس، «عصابات الشباب - جيش احتياطي للجريمة المنظمة»، خدمة إنتر برس، 21 سبتمبر 2010.
- (28) دينيس رودجرز، «العيش في ظل الموت: عصابات وعنف ونظام اجتماعي في مدن نيكاراغوا 1996-2002»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 38، عدد 2 (2006): 267 - 292.
- (29) هنا عينات عشوائية لقصص عن العنف في فترة ما بعد الحرب: «المسلحون يقتلون 14 لاعب كرة قدم»، الإندبيندنت (UK) 1 نوفمبر 2010؛ فالاداريس «عصابات الشباب»؛ نيك ميروف ووليام بوث، «العنف يرافق عصابات تهريب المخدرات المكسيكية مع انتقالها إلى الجنوب» واشنطن بوست، 27 يوليو 2010. وهنا مقالات أكاديمية تحلل الأزمة: سونجا وولف، «قمع الديمقراطية: حكم النخبة والقيود على المشاركة السياسية في سلفادور ما بعد الحرب»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 41، عدد 3 (2009): 425-465، رودجرز، «العيش في ظل الموت».
- (30) تيم روجرز، «دوامه العنف في أمريكا الوسطى»، مجلة Z، سبتمبر 2000.
- (31) مارك باودين، سقوط بلاك هاوك: قصة الحرب الحديثة (بيركلي كاليفورنيا: أتلانتيك برس الشهرية، 1999).
- (32) مايك ديفيس، «البنتاغون كرب بيوت عشوائية عالمي»، 19 TomDispatch.com أبريل 2004.
- www.alternet.org/story/18457
- (33) انظر في كتاب غريغ غراندين الرائع، «حلقة عمل: أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة وصعود الإمبريالية الجديدة» (نيويورك، ميتروبوليتان، 2005) 87 - 88.
- (34) بيتر ماس، «تحويل العراق إلى السلفادور؟»، مجلة نيويورك تايمز، 1 مايو 2005.

الفصل الرابع

- (1) حول أفريقيا تكتب ال-IPCC، «من المحتمل جدا أن يكون الاحترار خلال معظم القارة وفي الفصول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمي، بحيث تكون المناطق تحت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاستوائية الأربط. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السنوي في معظم أفريقيا على البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى، ويتزايد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من ساحل البحر. من المحتمل أن يتناقص الهطول في أفريقيا الجنوبية في معظم مناطق هطول الأمطار الشتوية والمناطق الهامشية الغربية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة الساحل، وشاطئ غينيا وجنوب الصحراء». سوزان سولومون وداهي كين ومارتن مانينغ واللجنة الدولية

- للتغيرات المناخية IPCC مجموعة العمل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأساس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى إلى التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.
- (2) موانغي نديرانغو، «الثلج المتلاشي على جبل كينيا» ديلي نيشن، (نيروبي) 17 ديسمبر 2009.
- (3) م. بوكو وآخرون، «أفريقيا»، في «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض. مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC»، تحرير أم. أل. باري وآخرين (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 440.
- (4) جون فيدال، «تغير المناخ قائم. إنه حقيقة»، «الغارديان»، 3 سبتمبر 2009.
- (5) تتألف قبيلة الكالينجين من الكيبسيغيس والناندي والتوغن والكايو والماراكويت والبوكوت (دعيت في الماضي سوكت) والسابت والتيريك. يعيش العديد من هذه القبائل في منطقة جبل الجون حيث تتقاطع الحدود الأوغندية الكينية. شكلت هذه القاعدة السياسية لدانيل أراب بوا. بدأت هوية كالنجين السياسية بالتشكل في الأربعينيات بين قبائل مستقلة لكنها متشابهة في اللغة والثقافة. ترجم كالنجين تقريبا إلى «أخبرك»، ويبدو أنها نشأت بين أناس وظفوا للقتال مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية. خاطب هؤلاء الناس بعضهم بعضا بـ كالي (والتي تشير إلى شخص قتل عدوا له في معركة). أثنت الإذاعات أثناء الحرب عليهم بمناذاتهم بالجمع كالينجوك. بعد الحرب تشكل ناديا كالينجينيا سياسيا في مدرسة أليانس العليا، وفي كلية ماكيري. من البداية اتحد الكالينجينيون لموازنة قوة الكيكيو، الذين فقدوا معظم أراضيهم للبريطانيين، ثم قادوا تمرد حركة الماو ماو، وسيطروا على الحياة الاقتصادية والسياسية بعد الاستقلال. بحلول العام 1948 كان هناك اتحاد كالنجين في إيلدورت، ومجلة شهرية دعيت كالينجين في الخمسينيات. انظر بنجامين كييلورير، «ماراكويت كينيا» (نيروبي: ناشرو أفريقيا الشرقية التربويون 1982).
- (6) «مناوشات حول غارات على قطيع في شمال كينيا تقتل 26 شخصا»، أسوشيتد برس ورلدستريم، 1 أغسطس 2008.
- (7) بالنسبة إلى سكان هذه الثقافة وجغرافيتها انظر اليوت فراكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية في حالة تحول: حالات ماسي وبوران ورينديل»، مجلة دراسات أفريقية 44، عدد 3 (ديسمبر 2001): 1 - 25. يكتب فراكين «يحتل الرعاة 70 في المائة من أراضي كينيا و50 في المائة من تنزانيا و40 في المائة من أوغندا جميعها. لكن عددهم قليل (أقل من 1.5 مليون من 30 مليون كيني و35 مليون تنزاني و23 مليون أوغندي) ويجدون أنفسهم مهمشين اقتصاديا وضعفاء سياسيا في السياسة الداخلية التي تهيمن عليها المجتمعات الزراعية. تشمل مجموعات الرعاة في أفريقيا الشرقية الماسي التي تحتفظ بالقطيع (300 ألف في جنوب كينيا و150 ألفا في شمال تنزانيا) والسامبورو (75 ألفا) والتوركانا (200 ألف) والبوران والأورما (75 ألفا) والكاريموجونغ والدودث والتيسو والجي في أوغندا (مجموعهم 200 ألف). يحتل رعاة الجمال المناطق الأجدف في شمال شرق كينيا وجنوب إثيوبيا والصومال، ويشملون الغابرا الذين يتكلمون الآسيوية - الأفريقية (25 ألفا) والريندل (25 ألفا) والرعاة الصوماليين (نحو 1 مليون من سكان الصومال الـ 6.5 مليون). إضافة إلى ذلك تربي عدة مجموعات زراعية في أفريقيا الشرقية قطعانا كبيرة من الماشية بمن فيهم المتكلمون بالكالينجينية (ناندي،

- كيسيسيغي، بوكوت) في غرب كينيا، والمتكلمين بالبانتو با انكولي في غرب أوغندا والتوتسي في رواندا وبوروندي» (3-4).
- (8) فرانكلين، «الرعي في أفريقيا الشرقية»، 8.
- (9) إينور بيرك وسامون براون ونيكولاس كريستيدس، «نمذجة التطور الحديث للجفاف العالمي والتنبؤات للقرن الحادي والعشرين بنموذج مركز هايدلي للمناخ»، مجلة الهيدرولوجي، 7، عدد 5 (أكتوبر 2006): 1113 - 1125.
- (10) ديفيد كيميني، «الحياة على حافة التغير المناخي: مصيبة الرعاة في شمال كينيا»، كريستيان ايد، 13 نوفمبر 2006، ص 2.
- (11) موانكي واهومي، «من أجل الزراعة يجب تخصيص ميزانية أكبر»، الأمة، 12 يونيو 2008. انظر أيضا مقدمة فيكتور أوريندي وأنتوني نيونغ وماريو هيريرو، «تكيف حياة الرعي مع الجفاف وتدخلات المؤسسات في كينيا»، في «مكافحة تغير المناخ: التضامن البشري في عالم مقسم» (ورقة طارئة، مكتب تقرير التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، 2007 / 2008).
- (12) USAID FEWS NET، تقدير تأثيرات مخاطر الطقس في أفريقيا، ديسمبر، 20-13، 2007.
- (13) جيفري غيتلمان، «موجات من الصراع تحيط بجزيرة صغيرة في شرق أفريقيا»، نيويورك تايمز، 17 أغسطس 2009.
- (14) بارنباس بيل وكينيدي ماسيبو، «ارتفاع قتلى اللصوص إلى 74 الآن»، الأمة، (كينيا) 5 أغسطس 2008: «ستنزع كينيا السلاح بالقوة من رعاة وادي ريفت»، وصلة الأخبار العالمية، 3 أغسطس 2008: «قتل 11 شخصا أثناء مطاردة المغيرين»، الأمة، (كينيا) 20 أغسطس 2008: بيتر نيغيتش «موت 10 رعاة في غارة بالقنابل»، الأمة، (كينيا) 22 أغسطس 2008: «المغريون السودانيون يقتلون 8 أشخاص في شمال غرب كينيا» (نص من تقرير من محطة تلفاز KTN الكينية الخاصة في 30 أغسطس)، تقارير الـ BBC الدولية 30 أغسطس 2008: بيتر نيغيتش وأوليفر ميثينجي، «قتل جنديين احتياطيين في غارة»، الأمة، (كينيا) 2 سبتمبر 2008: بيتر نيغيتش، «قتل اثنين أثناء سرقة مغيرين لقطيع»، الأمة، (كينيا) 4 سبتمبر 2008.
- (15) كلير ماكيفوي ورايان موري، «قياس الخوف وانعدام الأمن: نظرة على العنف المسلح شرق خط الاستواء وتوركانا في الشمال»، مختصرات نشرة السودان 14 (يوليو 2008): 10:14.

الفصل الخامس

- (1) موهيندي وآخرون، «أطلس الهطول في كينيا» (نيروي: مركز مراقبة الجفاف، 2001)، 5.
- (2) حيث تتصادم الرياح التجارية ويرتفع الهواء نجد منطقة من الهدوء الغريب تعرف للبحارة بالمنطقة الراكدة.
- (3) موهيندي وآخرون، «أطلس الهطول في كينيا»، 7: جون أوليفر، «موسوعة المناخ العالمي» (نيويورك: سبرينغر) ص 430.

(4) تذكر الأساسيات: مع دوران الأرض المائلة على محورها حول الشمس خلال العام، تركز الشمس بقوة أكبر على أحد نصفي الكرة الأرضية ثم على الآخر. وأثناء هذه العملية تنتقل ببطء شمالا وجنوبا عبر خط الاستواء. خلال الصيف يميل نصف الكرة الشمالي نحو الشمس، وبذا ينسحب نطاق التقارب بين المدارين شمالا نحو مدار الجدي. مع تغير الفصل يتلقى نصف الكرة الجنوبي كمية أكبر من أشعة الشمس، ويسحب نطاق التقارب بين المدارين جنوبا عبر خط الاستواء نحو مدار السرطان.

(5) حول أفريقيا تكتب الـ IPCC: «من المحتمل جدا أن يكون الاحترار خلال معظم القارة وفي الفصول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمي، بحيث تكون المناطق تحت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاستوائية الأربط. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السنوي في معظم أفريقيا على البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى، ويتزايد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من ساحل البحر. من المحتمل أن يتناقص الهطول في أفريقيا الجنوبية في معظم مناطق هطول الأمطار الشتوية والمناطق الهامشية الغربية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة الساحل، وشاطئ غينيا وجنوب الصحراء». سوزان سولومون وداهي كين ومارتن مانينغ واللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC مجموعة العمل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأساس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى إلى التقرير التقويمي الرابع للهيئة ما بين الحكومات حول تغير المناخ» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.

(6) كاثرين هورالد، «كينيا: 10 ملايين تحت خطر المجاعة بعد فشل الحصاد»، أسوشيتد برس، 9 يناير 2009.

(7) «أمطار عنيفة ستؤثر على مئات الآلاف من الناس»، 14 IRIN، نوفمبر 2008.

(8) الفقرة السابقة مؤسسة على كتاب جيمس هانسن «عواصف أحفادي: الحقيقة حول كارثة تغير المناخ القادمة، وفرصتنا الأخيرة لإنقاذ البشرية» (نيويورك: دار نشر بلومباري 2009)؛ بيل ماكيبين، «الأرض: صنع حياة على كوكب جديد قاس». (نيويورك: هنري هولت وشركاؤه 2010)؛ تيم فلانيري، «صانعو الطقس: كيف يغير الإنسان المناخ، وماذا يعني ذلك بالنسبة إلى الحياة على الأرض» (نيويورك: هاربر: هاربر كولينز 2006)؛ إليزابيث كولبرت، «ملاحظات عقلية من كارثة: الإنسان والطبيعة وتغير المناخ» (نيويورك: بلومزباري برس 2006)؛ أيوجين ليندن، «رياح التغير: المناخ والطقس وتحطيم الحضارة» (نيويورك: سايمون وشوستر 2006)؛ آل غور، «حقيقة غير مريحة» (نيويورك: كتي روديل 2006)؛ جورج مونبيوت، «الحرارة: كيف نوقف احتراق الكوكب» (نيويورك: دويل داي 2006)؛ تغير المناخ 2007: «مجموعة العمل 1: أسس العلم الفيزيائي: دوافع تغير المناخ الطبيعية والبشرية». التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC:

www.ipcc.ch/publications_and_data/ar4/wg1/en/spmssp-human-and.html

من أجل أحدث تركيز لـ Co2 انظر:

www.esrl.noaa.gov/gmd/ccgg/trends

(9) «نحو هدف إحداث استقرار في تغير المناخ»، فصل 13 في مراجعة سترن حول اقتصاديات تغير المناخ (خزانة حكومة بريطانيا، 2006).

- (10) كليف هاميلتون وتشارلس ستيوارت أستاذ الأخلاقيات العامة، مركز الفلسفة التطبيقية والأخلاق العامة في الجامعة الوطنية الأسترالية، «هل أصبح من المتأخر جدا منع تغير مناخ كارثي؟» (محاضرة لاجتماع الجمعية الملكية للفنون، سيدني، أستراليا 21 أكتوبر 2009) 11. متوافر على www.clivehamilton.net.au (تم الاطلاع عليه في 19 يناير 2011).
- (11) كيفن أندرسون وآخرون، «من أهداف بعيدة المدى إلى أساليب إصدار تراكمية: إعادة صياغة سياسة المناخ البريطانية»، سياسة الطاقة 36، عدد 10 (2008): 3714 - 3722.
- (12) حول تفاصيل عن هذا النشاط، انظر الموقع org.350. يمكن العثور على ورقة حسن عند هانسن وآخرين، «الهدف هو تركيز CO2 في الجو: إلى أين يجب أن تهدف البشرية؟»، مكتبة جامعة كورنل، 15 أكتوبر 2008 www.aerxiv.org/abs/0804.1126
- (13) من أجل مراجعة المراجع وأساليبها في البحث انظر نيلز بيتر غليدتش، «الصراع المسلح والبيئة: نقد المراجع»، مجلة بحوث السلام 35، عدد 3 (مايو 1998): 381-400.
- (14) «الآلاف يهربون وسط مخاوف من القتال على طول الحدود»، IRIN، 29 نوفمبر، 2008.
- (15) هذا النقاش مغطى جيدا في أدانو وأريو روبا وكارين ويتسنبرغ، «التغلب على انحدر الرعي: توطين الرعاة وإدارة الموارد الطبيعية وتنوع مصادر العيش في مقاطعة مارزابيت في شمال كينيا» (لامبيتير: أدوين ميللر برس 2008) 735.
- (16) فال بيرسيغال وثوماس هومر - ديكسون، «الندرة البيئية والصراع العنيف: حالة جنوب أفريقيا»، مجلة بحوث السلام 35، عدد 3 (مايو 1998): 279-298: 281.
- (17) كينيدي أغادي مكوتو، «بنادق وحكم في الوادي المتصدع: صراع رعاة وأسلحة صغيرة» (بلومينغتون: نشر جامعة إنديانا، 2008) 7.
- (18) ديفيد أندرسون «سرقة القطيع والاقتصاد الأخلاقي في كينيا الاستعمارية»، أفريقيا: مجلة المعهد الدولي الأفريقي 56، عدد 4 (1986): 399-416: 406.
- (19) أندرسون، «سرقة القطيع» 408، لمناقشة عملية مشابهة في تنزانيا انظر مايكل فلايشر، «إغارة على قطيع: تحول رأسمالي ومادي وتشكل الجريمة بين الرعاة - المزارعين في شرق أفريقيا»، دراسات مقارنة في التاريخ والمجتمع 42، عدد 4 (أكتوبر 2000): 745-769.

الفصل السادس

- (1) فوربس مونرو، «شحن المساعدات وضمانات السكك الحديدية: وليام ماكينون، أفريقيا الشرقية والمحيط الهندي، 1860-93»، مجلة التاريخ الأفريقي 28، عدد 2 (1987): 209-230: 210. يناقش مونرو بقوة ضد الاعتذارات النموذجية العرجاء التي فسر بها ماكينين الذهاب إلى أفريقيا من مصالح اقتصادية جديدة. في الحقيقة أديرت الشركة من قبل مالكي سفن وتجار استفادوا من توسيع التجارة بسبب فتح أفريقيا الشرقية، حتى لو أن الشركة نفسها أفلست.

- (2) مقتبس من مونغيم، «رد فعل قبائل ماسي وكيكيويو على تأسيس الإدارة البريطانية في محمية أفريقيا الشرقية»، مجلة «التاريخ الأفريقي» 11، عدد 1 (1970): 127-143: 136.
- (3) باكلي، «استيطان محمية أفريقيا الشرقية وريها». المجلة الجغرافية 21، عدد 4 (أبريل 1903): 349-371، 350، 355-356.
- (4) جون لونسدیل وبروس بيرمان، «التعامل مع المتناقضات: تطور الدولة المستعمرة في كينيا 1895-1914»، مجلة التاريخ الأفريقي 20 عدد 4 (1979): 487-505.
- (5) لونسدیل، «سياسة الاحتلال: البريطانيون في غرب كينيا، 1894 - 1908»، المجلة التاريخية 20، عدد 4 (ديسمبر 1977): 841 - 870: 851.
- (6) كما عبر لونسدیل وبيرمان عنها في «التعامل مع المتناقضات»، «كان استعمار أواخر القرن التاسع عشر لأفريقيا آخر حملة التقط بواسطتها النظام الرأسمالي العالمي آخر قارة بقيت جزئيا خارج قبضته. كان النظام مؤلفا في ذلك الوقت كما هو الآن من ترتيب هرمي لنماذج عديدة مختلفة من الإنتاج مرتبطة عند مستوى التبادل وتخضع كلها لسيطرة أكثر أشكال الرأسمالية تقدما، سواء كان ذلك مؤسسا في سلطة استعمارية مسؤولة رسميا، أو في إحدى منافساتها من الدول الصناعية» (486).
- (7) لونسدیل، «سياسة الاحتلال».
- (8) جون لونسدیل وبروس بيرمان، «التعامل مع المتناقضات».
- (9) كولن لين، «التخلف في كينيا: الاقتصاد السياسي للاستعمار الجديد» (بيركلي: نشر جامعة كاليفورنيا 1975).
- (10) فرانك كورفيلد، «أصول حركة الماو ماو وغموها: مسح تاريخي» (نيروبي: الحكومة الكينية 1960).
- (11) كارولين الكينز، «فائتورة حساب الاستعمار: القصة غير المحكية للحصار في كينيا» (نيويورك: كتب أولز 2005).
- (12) ديفيد أندرسون، «سرقة القطيع والاقتصاد الأخلاقي في كينيا المستعمرة»، أفريقيا: مجلة المعهد الدولي الأفريقي 56، عدد 4 (1986) 399-416: 405.
- (13) حول الجهود في الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال لخلق القانون والنظام في التنمية بين الرعاة انظر فراكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية»، لإثبات أن الغارات زادت منذ العام 1980 انظر الدكتور باول غولدسميث، «تصور كلفة صراعات الرعاة في شمال كينيا» (سيميريد، كينيا: مركز تنمية حقوق الأقليات مارس 2005). محاولات لتحويل الرعاة الرحل إلى مزارعين ومربي أبقار أكثر استقرارا مرتبطة لسوء الحظ بتدهور سريع للتربة.
- (14) «الإطاحة بأوبوتي في انقلاب عسكري للجيش الأوغندي»، نيويورك تايمز، 26 يناير 1971.
- (15) «حاكم أوغندا العسكري الجديد»، نيويورك تايمز 28 يناير 1971.
- (16) «أمين، زعيم أوغندا الجديد يتهم تنزانيا بأنها تخطط للهجوم»، نيويورك تايمز، 28 يناير 1971.

- (17) باتريك تشابال وجين باسكال دالوز، «أعمال أفريقيا: الفوضى كأداة سياسية» (أكسفورد: نشر جامعة إنديانا/ معهد أفريقيا الدولي 1999) 15.
- (18) «سقوط عيدي أمين»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية، 14، عدد 21 (26 مايو 1979) 907-910: 907.
- (19) «تصويت مجلس الشيوخ على رفع العقوبات الاقتصادية التي طبقت على أوغندا خلال فترة حكم الرئيس السابق عيدي أمين»، نيويورك تايمز، 8 مايو 1979: «نزاع بين رئيس أوغندا عيدي أمين والولايات المتحدة بشأن منع الأمريكيين من المغادرة»، نيويورك تايمز، 6 مارس 1977.
- (20) «عندما تفقد دولة عقلها»، نيويورك تايمز 2 مايو 1979، «سقوط عيدي أمين»، جون دارتون، «الغزاة في أوغندا يطبقون على العاصمة»، نيويورك تايمز، 5 أغسطس 1979.
- (21) غريغوري جين «النبوءة الأفريقية»، نيويورك تايمز، 16 نوفمبر 1980.
- (22) مصطفى ميزيلير وكروفورد يونغ، «سياسة الرعي في منطقة الحدود الشمالية الشرقية من أوغندا: AK-47 كوسيط للتغيير»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 38، عدد 3 (سبتمبر 2000): 407-429: 416.
- (23) باري شيلاختار، «محاربون أوغنديون يصبحون مزارعي أوساخ في مخطط للتوطين»، أسوشيتد برس، 4 أغسطس 1985.
- (24) جين، «النبوءة الأفريقية».
- (25) ديفيد كاري، «مغزو قطع مسلحون جيداً يرهبون قرى أفريقيا الشرقية»، AP 17، online نوفمبر 1986.
- (26) كونان بوسينغ، «400 ألف بندقية غير شرعية في التداول»، رؤى جديدة (أوغندا) 19 ديسمبر 2008.
- (27) «حيث تمضي الكارثة الطبيعية والمدفوعة بشريا بعضها مع بعض»، الإيكونوميست، 14 يونيو 1980.
- (28) بالنسبة إلى البنادق، انظر ميزيلير ويونغ، «سياسة الرعي في منطقة الحدود الشمالية الشرقية»، بالنسبة إلى الجفاف انظر اليوت فراكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية في تحول: حالات ماسي، بوران ورينديل»، مجلة الدراسات الأفريقية 44، عدد 3 (ديسمبر 2001): 1-25: 8.
- (29) جين، «النبوءة الأفريقية».
- (30) جين، «النبوءة الأفريقية» 417.
- (31) الإيكونوميست، «حيث تمضي الكارثة الطبيعية والمدفوعة بشريا بعضها مع بعض».

الفصل السابع

- (1) أي. أم. لويس، «دم وعظام: دعوة القرابة في المجتمع الصومالي» (ترينتو نيو جرسى: نشر البحر الأحمر 1994) 150؛ لويس، «القومية الصومالية تحولت من الداخل للخارج»، تقارير MERIP عدد 106 (يونيو 1982)؛ لويس، «ديموقراطية رعوية: دراسة الرعي والسياسة بين الصوماليين الشماليين في القرن الأفريقي» (لندن: نشر

- جامعة أكسفورد (1962)؛ لويس، «التاريخ الحديث لبلاد الصومال: من أمة إلى دولة». (نيويورك: بريغر 1965)، ديفيد ليتين وسيد ساماتار، «الصومال: أمة تبحث عن دولة». (بولدر كولومبيا: فيستيفو برس 1987)؛ أبدي إسماعيل ساماتار، «تدمير الدولة والمجتمع في الصومال: ما بعد المؤتمر القبلي»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 30، عدد 4 (ديسمبر 1992) 641-625.
- (2) جون ماركاكيس، «الاشتراكية العسكرية: حالة إثيوبيا»، تقرير MERIP عدد 79 (يونيو 1979):5.
- (3) روبرت باتمان، «الاتحاد السوفييتي في القرن الأفريقي: دبلوماسية التدخل والانعزال» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1990) 49.
- (4) جيان كارلو باجيتا، «مقابلة حول إثيوبيا والصومال»، مجلة اليسار الجديد 1، عدد 107 (يناير - فبراير 1978):43-45؛ إميليو سارزي أمادي، «درب إثيوبيا المتعب»، مجلة اليسار الجديد 1، عدد 107 (يناير - فبراير 1978):40-43.
- (5) «الخروج السوفييتي من مصر»، التايم، 31 يوليو 1972.
- (6) «الدولة الاشتراكية النموذجية التي تصلي خمس مرات في اليوم»، الإيكونوميست، 14 مايو 1977.
- (7) بيرو غلايجيسيس، «مهمات متعارضة: هافانا وواشنطن وأفريقيا 1959-1976» (تشابل هيل: نشر جامعة نورث كارولينا 2002)، هذا الكتاب إنجاز مهم مبني على عشر سنوات من البحث باستخدام معلومات أمريكية سرية ومقابلات مع لاعبين رئيسين، والأكثر أهمية وثائق كوبية لم تعلن قبلها من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والقوات المسلحة ووزارة الخارجية.
- (8) «الكوبيون في أفريقيا»، نيوزويك، 13 مارس 1978.
- (9) ديفيد أوتواي، «يقال إن السوفييت يضغطون على الصومال لوقف إطلاق النار في إثيوبيا»، واشنطن بوست، 4 أغسطس 1977؛ غيرو تاريقي، «إعادة زيارة الحرب بين إثيوبيا والصومال لعام 1977»، المجلة الدولية للدراسات الأفريقية التاريخية 33، عدد 3 (2000) 667:642-635.
- (10) بامبلا فولك، «كوبا في أفريقيا»، شؤون خارجية 65، عدد 5 (صيف 1987) 1077-1096.
- (11) ديفيد أوتواي، «تأييد السوفييت لإثيوبيا قد يدفع الصومال باتجاه الولايات المتحدة»، واشنطن بوست، 28 فبراير 1977؛ موراى ماردر، «السوفييت: كارتر شوه الدور في الصومال»، واشنطن بوست 14 يناير 1978؛ «كوبا والصومال تعيدان العلاقات الدبلوماسية»، خدمة الأخبار العامة، وكالة أنباء شينخوا، 1 أغسطس 1989.
- (12) هاري أوبودا، «سياسات الصومال المحلية وعلاقاتها الخارجية منذ حرب أوغادين 1977-1978»، دراسات شرق أوسطية 21، عدد 3 (يوليو 1985): 285-297.
- (13) لتفاصيل عن الحرب انظر إلى تاريقي «مراجعة الحرب بين إثيوبيا والصومال للعام 1977»، وديفيد ليتين «الحرب في أوغادين: التأثيرات على دور سياد بري في التاريخ الصومالي»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 17، عدد 1 (مارس 1979): 95-115.

- محمد خليف، «سياسة المجاعة في أوغادين»، مجلة الاقتصاد السياسي الأفريقي 27، عدد 84 (يونيو 2000): 337-333؛ لويس، «أوغادين وهشاشة الوطنية الصومالية المجزأة»، شؤون أفريقية 88، عدد 353 (أكتوبر 1989): 579-573؛ جيفري كلارك، «تعرقل في الصومال»، شؤون خارجية 72، عدد 1 (1993-1992): 109-123؛ أوبودا، «سياسات الصومال المحلية وعلاقاتها الخارجية».
- (14) «الصومال تقول إن بلدين قصفتا بالطائرات الإثيوبية»، واشنطن بوست، 29 ديسمبر 1977.
- (15) ديفيد أوتاواي، «ينظر إلى كاسترو كوسيط في المحادثات الأفريقية»، واشنطن بوست، 18 مارس 1977، «أياد حمراء مقابل البحر الأحمر»، الإيكونوميست، 26 مارس 1977؛ أرنود دي بورشغريف، «مشاكل في القرن الأفريقي»، نيوزويك 27 يونيو 1977.
- (16) كلارك «تعرقل في الصومال».
- (17) أبدي إسماعيل ساماتار، «التعديل البنوي كإستراتيجية تنمية - الموز والازدهار والفقر في الصومال»، الجغرافيا الاقتصادية 69، عدد 1 (يناير 1993) 25-43:27.
- (18) تشارلز ميتشيل، «إثيوبيا تقصف البلدات الصومالية»، يونايتد برس إنترناشونال، 25 مايو 1984.
- (19) كلارك، «تعرقل في الصومال»، 111.
- (20) أرقام البنك الدولي مقتبسة في ساماتار، «تعديل بنوي كإستراتيجية تنمية».
- (21) إسماعيل أحمد وريغينالد غرين، «أثر الحرب وانحيار الدولة في الصومال وأراضي الصومال: تأثيرات على المستوى المحلي وتدخلات خارجية وإعادة بناء»، ربعية العالم الثالث 20، عدد 1 (فبراير 1999): 113-115:116-127.
- (22) تيرانس ليونز وأحمد إسماعيل ساماتار، «انحيار الدولة وتدخلات متعددة الأطراف وإستراتيجيات لإعادة البناء السياسي» (واشنطن: معهد بروكينغز 1995)، 1. من أجل مناقشة الدولة وموظفي الدولة وسياسة الحوار، انظر ستيفان هارني «عمل الدولة: الإدارة العامة والوعي الجماهيري» (دراهم: نشر جامعة ديوك 2002).

الفصل الثامن

- (1) مارتين دوغارد، «إلى أفريقيا: المغامرة الأسطورية لستانلي وليفنجستون» (نيويورك: برودواي 2004).
- (2) دول فاشلة: تبدو هذه العبارة كأنها ملك مثقفين مؤيدي الحرب والأمن القومي ومخططي البنتاغون الذين يرون مستقبلا لعمليات مكافحة تمرد مفتوحة. بما أنها يمكن أن تحمل مسحة عنصرية وإشارة للوم الضحية، ويعارض البعض من اليسار الفكرة. انظر نعوم تشومسكي، «دول فاشلة: إساءة استخدام القوة والهجوم على الديمقراطية» (نيويورك: كتب متروبوليتان 2006).
- (3) ماكس فيبر، «نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي» (نيويورك: فري برس 1964) 154.
- (4) ستيفان هارني، «عمل الدولة: الإدارة العامة والوعي الجماهيري» (نيويورك: مراجعة شهرية 2002). يبين هارني أن الدولة فكرة تنتج على شكل مؤسسة كنتيجة فقط لعمل موظفيها.

- (5) ماكس فيبر، «السياسة كمهنة» في «من ماكس فيبر: مقالات في علم الاجتماع»، حرر من قبل غيرث ورايت ميلز (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد 1959) 77 - 128.
- (6) نورمان كانتور، «على أثر الوباء» (نيويورك: هاربر بيرينغال 2002)؛ باربارا توكمان، «مرآة بعيدة: القرن الرابع عشر الكارثي» (نيويورك: كتب بالانتاين 1987). الجدير بالذكر أن روما سقطت ببطء، حيث أضعفت بالفساد والهرمية والتفاعل الإمبراطوري القوي وتوسعت كثيرا قبل نهيبها. عبر القوط الغربيون الدانوب لأول مرة ليس كجيش غاز لكن كلاجئين مسلحين هاربين من الهون الذين كانوا يضغطون عليهم من الشرق. دخلوا إلى روما وخرقوا شروط الأمان واحتفظوا بأسلحتهم ثم بدأوا بشن الحرب مرة أخرى. انظر على سبيل المثال الفصل 2 من فريدريك أوستن، «أوغ. كتاب مرجعي حول تاريخ العصور الوسطى: توضيحات موثقة عن الحياة الأوروبية ومؤسساتها من الاجتياح الجرمانى حتى عصر النهضة» (نيويورك: شركة الكتاب الأمريكي 1908).
- (7) والت روستو، «مراحل النمو الاقتصادي: بيان غير شيوعي» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1990).
- (8) تشارلز تيللي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شكل جريمة منظمة»، في «إرجاع الدولة» من تحرير بيتر إيفانز وديتريش روشيماير وثيدا سكوكبول (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1985) 169-191.
- (9) تيللي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شكل جريمة منظمة»، 170.
- (10) تيللي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شكل جريمة منظمة»، 183.
- (11) أنتوني غيدن، «دولة الأمة والعنف»، جزء 2 من «نقد معاصر للمادية التاريخية» (بيركلي: دار نشر جامعة كاليفورنيا 1987).

الفصل التاسع

- (1) كنا في قرية توتو الصغيرة في مقاطعة شيرزاد. شكلت خوغياني من تجمع أحياء: بيهسد، خوغياني، شيرزاد، باتي كوت، بشير وأغام، وفقا لمن يشرح المنطقة، أجزاء من تشاباربار وسورخ رد.
- (2) ماثيو سافاج وآخرون، «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان»، قسم التنمية الدولية ومعهد البيئة في أستوكهولم DFID CNTR 08 8507، ملخص تنفيذي 2.
- (3) «فيضانات في باكستان» (طباعة مجموعة الاتصالات الإنسانية، الأمم المتحدة، 4 أكتوبر 2010).
- (4) ناغي سيفال، «دراسة مناخية إجمالية للأمطار الموسمية الصيفية الآسيوية في أفغانستان»، «الحوليات الجغرافية: سلسلة A، الجغرافيا الفيزيائية 59، عدد ½ (1977) 67-87: الخريطة على الصفحة 76.
- (5) سافاج وآخرون، «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان»، 5.
- (6) راجا أنور، «مأساة أفغانستان» (لندن: فيرسو 1988)، 69.
- (7) لويس دوبري، «أفغانستان» (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد، 2002).

- (8) جيمس ستيربا، «الأطفال الجوعى الأفغان ينتظرون الموت على قارعة الطريق»، نيويورك تايمز، 16 يونيو 1972، 1. بريد من ستيربا للمؤلف في 9 أبريل 2009.
- (9) هنري كام، «الأفغان يحاولون مساعدة مناطق المجاعة»، نيويورك تايمز 19 نوفمبر 1972، 28.
- (10) «ثورة في كابول»، نيويورك تايمز، 20 يوليو 1973، 30.
- (11) «البرلمان الأفغاني في حالة انعقاد لمدة عام ولم يصوت على أي تشريع»، نيويورك تايمز، 22 نوفمبر 1970.
- (12) جيمس ستيربا، «الأفغان يبدأون التحقيق في توزيع الأغذية للتخفيف من المجاعة»، نيويورك تايمز 11 يوليو 1972، 6.
- (13) «احتجاج يساري يؤثر في وصول أغذية إلى كابول: الطلاب في العاصمة الأفغانية يفشلون في إيقاف موكب الترحيب بالضيف الزائر»، نيويورك تايمز 7 يناير 1970.
- (14) «قرية أفغانية» أنتج من قبل نورمان ميللر بالمشاركة مع أفلام توريلي شفق أفغان وحكومة أفغانستان، 1974.
- (15) «الإطاحة بملك أفغانستان: إعلان جمهورية»، نيويورك تايمز 18 يوليو 1973.
- (16) كام، «الأفغان يحاولون مساعدة مناطق المجاعة».
- (17) «انقلاب في أفغانستان يطيح بالملكية»، تقارير MERIP عدد 19 (أغسطس 1973): 18.
- (18) «الأفغان يبدون سعداء بذهاب الملك»، نيويورك تايمز 24 يوليو 1973.
- (19) أموري دي راينكورت، «الهند وباكستان في ظل أفغانستان»، شؤون خارجية 61، عدد 2 (شتاء 1982): 416-437.
- (20) أنور، «مأساة أفغانستان»، 78-81.
- (21) قصة مرتضى بوتو مشروحة بتفصيل تاريخي وشخصي في كتاب راجا أنور، «الأمير الإرهابي: حياة مرتضى بوتو وموته» (لندن: فيرسو 1997)، وأيضاً في كتاب فاطمة بوتو «أغاني الدم والسيف» (نيويورك: كتب نيشن 2010).
- (22) سونيل، «أنفر باشا وحركة باسماجي في آسيا الوسطى»، دراسات شرق أوسطية 26، عدد 1 (يناير 1990): 52-64؛ مارثا أولكوت، «الباسماجي أو ثورة الأحرار في تركمانستان 1918-1924»، دراسات سوفيتية 33، عدد 3 (يوليو 1981) 352-369؛ وليام ريتير، «المرحلة الأخيرة في القضاء على المقاومة ضد السوفييت في طاجيكستان: إبراهيم بيك والباسماجي 1924-1931»، دراسات سوفيتية 37، عدد 4 (أكتوبر 1985) 484-493.
- (23) للمزيد حول هذا التاريخ انظر ستيف كول، «حروب شبحية: التاريخ السري للـ CIA في أفغانستان وبن لادن من الغزو السوفييتي حتى 10 سبتمبر 2001» (نيويورك: بنغوين 2004).
- (24) سافاج وآخرون، «التأثيرات الاجتماعية - الاقتصادية لتغير المناخ في أفغانستان»، 5.
- (25) ماثيو كنغ وبنجامين شيرتفاغن، «الاستخدام الأمثل لأحواض الأنهار في أفغانستان: فرص لتعاون على مستوى المنطقة» (نيويورك: معهد الغرب والشرق 2010) 17.

- (26) سافاج وآخرون «التأثيرات الاجتماعية - الاقتصادية لتغير المناخ في أفغانستان» 21.
- (27) إيمّا غراهام هاريسون وسو بليمينغ «مشهد الجفاف الأفغاني يجلب مخاوف من المجاعة وزراعة المخدرات»، رويترز، 14 يناير 2010.
- (28) «الفيضانات تدمر 3 آلاف بيت في تاخار عبد الماطن سارفاراز»، أخبار باجهاوك الأفغانية، 9 مايو 2010.
- (29) ستيف غولتار، «فيضان البؤس: علاقة باكستان الصعبة»، شبكة الجزيرة 9 أغسطس 2010.
- (30) غراهام هاريسون وبليمينغ، «مشهد الجفاف الأفغاني»؛ صديق الله بدر، «الجفاف في أفغانستان أرباح الخشخاش تسبب نقصا في القمح»، خدمة إنتر برس، 7 أغسطس 2006.
- (31) غراهام هاريسون وبليمينغ، «مشهد الجفاف الأفغاني».
- (32) مقتبس في يوهان هاري، «شرعها: لماذا تحطم الخشخاش والمزارعين الأفغان إذا كان العالم في حاجة إلى مخدرات قانونية؟»، لوس أنجلوس تايمز، 6 نوفمبر 2006.
- (33) أحمد رشيد، «انحدار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى» (نيويورك: فايكنغ 2008) 401.
- (34) مايك رينير، «تحديات المياه في جنوب وسط آسيا»، مختصر سياسة نوريف، عدد 4 (أوسلو: مركز بناء السلام النرويجي، ديسمبر 2009).

الفصل العاشر

- (1) مقتبس في تيمور توكتوناليف وعظم الدين أحمدنيانوف، «لماذا هاج الغضب أخيرا في قرغيزستان»، برادينتون هيرالد (فلوريدا)، 20 أبريل 2010.
- (2) لوك هاردينغ، «المعارضة القرغيزستانية تستولي على السلطة بعد يوم من الاحتجاجات»، الغارديان، 9 أبريل 2010، لاحظت عدة تقارير الارتفاعات الحادة في أسعار الخدمات، لكن عددا قليلا تتبع تاريخها وأسبابها. انظر مايكل شفاريتز، «قرغيزستان تطلب مساعدة روسيا لمواجهة العنف المستمر»، نيويورك تايمز، 13 يونيو 2010؛ انظر أيضا «قرغيزستان: نظام أجوف ينهار»، مختصر آسيا، عدد 102، مجموعة الأزمات الدولية، 27 أبريل 2010، www.crisisgroup.org/en/regions/asia/kyrgyzstan/B102-kyrgyzstan-a-hollow-regime-collapse.aspx
- (3) مايكل شفاريتز، «قتال عنيف في قرغيزستان يشكل تحديا للحكومة»، نيويورك تايمز، 12 يونيو 2010.
- (4) «الحكومة القرغيزية تدعو إلى زيادة أسعار الخدمات»، يومية روسيا و CIS الاقتصادية والمالية، (برقية إخبارية) 2 أبريل 2008.
- (5) أندرو كرمير، «إعادة الاستيلاء على بناء حكومي في قرغيزستان»، نيويورك تايمز، 14 مايو 2010؛ «أوزبكستان: القلق من المشاكل العرقية في قرغيزستان»، تقرير معهد الحرب والسلام، 25 مايو 2010؛ جونيك كادامجايوف، «وادي فرغانة: برود العلاقات والحدود بين القرغيز والأوزبك تصبح أكثر عنفا»، 9 مارس 2010

www.eurasianet.org/departments/civilsociety/articles/eav030910a.shtml

(6) لوك هاردينغ، «قرغيزستان تدعو لمساعدة روسيا في إنهاء الاضطرابات العرقية»، الغارديان (UK)، 12 يونيو 2010.

(7) «أين العدالة؟ العنف بين الأعراق في جنوب قرغيزستان وما وراءه»، مراقبة حقوق الإنسان، 16 أغسطس 2010.

www.hrw.org/en/reports/2010/08/16/where-justice-0

(8) كريم، «إعادة الاستيلاء على بناء حكومي في قرغيزستان»؛ «أوزبكستان: القلق من المشاكل العرقية في قرغيزستان».

(9) «قطع الكهرباء ليلا في قرغيزستان لستة أشهر: تصريح وزير»، وكالة فرنسا للأخبار، 14 أبريل 2008؛ «بقايف يدعو لنهاية قطع كهرباء متنقل في قرغيزستان»، أخبار وسط آسيا العامة / انترفاكس 12 يناير 2010.

(10) بيتر ليونارد، «الأوزبك يرفضون انتقاد انسحابهم من شبكة الكهرباء»، أسوشييتد برس، 3 ديسمبر 2009.

(11) غلنارا مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء مع قدوم الشتاء في قرغيزستان: تهديد بانقطاعات أكبر للكهرباء على الرغم من الجهود لتجميع الماء لتوليد الطاقة قبل فصل الشتاء»، نشرة RCA 557، معهد تقارير السلم والحرب، 3 ديسمبر 2008.

http://iwpr.net/report_news/energy_fears_kyrgyz_winter_approaches

(12) مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(13) مقتبس من مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(14) مقتبس من مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(15) «القرغيز يحتجون على ارتفاع أسعار الكهرباء»، إذاعة أوروبا الحرة / إذاعة الحرية 25 فبراير 2010.

www.rferl.org/content/Kyrgyz_Protest_Electricity_Price_Hike_/1968192.html

(16) «محافظ بيشكك يعتقد أن رفع أسعار الكهرباء والتدفئة يدفع الفقراء إلى حافة العدم»، وكالة AKI للأخبار، 13 نوفمبر 2009.

(17) أحمد رشيد، «نيران العقيدة في آسيا الوسطى»، مجلة السياسة العالمية 18، عدد 1 (ربيع 2001): 45-55.

(18) مارتن سبيكلر، «اقتصاديات آسيا الوسطى: مسح»، دراسات اقتصادية مقارنة 50، عدد 1 (1 مارس 2008): 30-50.

(19) أحمد رشيد «الصراع الجديد في آسيا الوسطى: دليل للمختارين»، مجلة السياسة العالمية 17، عدد 4 (شتاء 2000-2001): 33-42.

(20) «الملايين في آسيا الوسطى يعيشون تحت خط الفقر»، تايمز آسيا الوسطى (قرغيزستان)، 10 أغسطس 2010.

(21) سبيكلر، «اقتصاديات آسيا الوسطى».

- (22) غاريث إيفانز، «القوة ليست الوسيلة لمجابهة التهديد الإسلامي في آسيا الوسطى»، هيرالد تريبيون العالمية، 10 مارس 2001.
- (23) سونيل، «إنفر باشا وحركة الباسماجي في آسيا الوسطى»، دراسات شرق أوسطية 26، عدد 1 (يناير 1990): 52-64؛ مارثا أولكوت «الباسماجي أو ثورة الأحرار في تركمانستان 1918-1924»، دراسات سوفيتية 33، عدد 3 (يوليو 1981) 352-369؛ وليام ريتير، «المرحلة الأخيرة في القضاء على المقاومة ضد السوفييت في طاجيكستان: إبراهيم بيك والباسماجي 1924-1931»، دراسات سوفيتية 37، عدد 4 (أكتوبر 1985) 484-493؛ لويس دوبري، أفغانستان (نيويورك: أكسفورد 2002).
- (24) أحمد رشيد، «جهاد: صعود الإسلام المسلح في آسيا الوسطى» (نيويورك: بنغوين 2002) 44.
- (25) رشيد، «جهاد» 96.
- (26) «رئيس ال KGB يزور مناطق الحدود السوفيتية التي هاجمها الثوار الأفغان»، أسوشيتد برس، 30 أبريل 1987.
- (27) «متطرفو الأوزبك» المتعصبون «في باكستان»، أخبار 29، BBC، أكتوبر 2009. www.news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/8331860.stm
- (28) «حجم المياه في خزان توكتوغل يتجاوز 19.472 مليار متر مكعب»، zprtssrg.com، 2 أغسطس 2010.

الفصل الحادي عشر

- (1) ستيفان فاريس، «القشة الأخيرة»، سياسة خارجية (1 يوليو 2009).
- (2) فيليبس تالبوت، «كشمير وحيدر آباد»، سياسة العالم 1، عدد 3 (أبريل 1949) 321-332: 323.
- (3) تالبوت، «كشمير وحيدر آباد» 327. قيل إن كلا الطرفين قبل أخيراً اتفاقاً لتثبيت الحدود بين الهند وباكستان على طول خط التحكم العام 1971. لكن عندما نجحت باكستان أخيراً في إطلاق سراح سجنائها الـ 90000 في الحرب شرق باكستان وبنغلاديش تراجعت عن الاتفاق.
- (4) أليس ثورنر، «النزاع في كشمير»، مجلة الشرق الأوسط 3، عدد 1 (يناير 1949): 17-30: 18.
- (5) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 19.
- (6) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 25.
- (7) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 25.
- (8) روبرت ترامبلول، «استخدام النظاميين المعدين لباكستان»، نيويورك تايمز 18 يوليو 1948.
- (9) مقتبس في أوندولا ألام، «تحري منطق حروب المياه: دراسة حالة اتفاقية مياه نهر السند»، المجلة الجغرافية 168 عدد 4 (ديسمبر 2002): 341-353.

- (10) سوميت غانغولي، «نزاع لا ينتهي: التوتر بين الهند وباكستان منذ العام 1947» (نيويورك: دار نشر جامعة كولومبيا 2002)؛ ديشباندي، «الحديث مع باكستان»، الاقتصاد والسياسة الأسبوعية 36، عدد 16 (21-27 أبريل 2001): 1303 - 1306.
- (11) ألام، «تحري منطق حروب المياه».
- (12) ألام، «تحري منطق حروب المياه».
- (13) ألام، «تحري منطق حروب المياه».
- (14) ألام، «تحري منطق حروب المياه».
- (15) من يونيو إلى منتصف أغسطس 2010، قتل 57 متظاهرا. إيجاز حسين، «مدح ضابط في كشمير الهندية لرميه حذاء»، أسوشيتد برس، 16 أغسطس 2010؛ طارق علي، «لم تهزم، فقط أهملت»، مراجعة كتب لندن 32، عدد 14 (22 يوليو 2010).
- (16) جيسيك سترن، «ثقافة الجهاد في باكستان»، شؤون خارجية 79 عدد 6 (نوفمبر - ديسمبر 2000): 115-117:126.
- (17) سترن، «ثقافة الجهاد في باكستان».
- (18) بن أمولدي، «مشكلة كشمير الأخرى: نزاع الهند وباكستان حول المياه»، كريستيان ساينس مونيتور، 11 أغسطس 2010.
- (19) شرياد دارماديكاري، «جبال من الاسمنت المسلح: بناء سد في الهمالايا» جدول 3، شبكة الأنهار العالمية، ديسمبر 2008.
- www.internationalrivers.org
- (20) «الهند تبني 52 سدا على مياه باكستانية»، الأمة، 9 أبريل 2010.
- (21) أندرو بانكومبي وعمر وارش، «الهند تسرق مياه الحياة - تقول باكستان»، الإندبندنت (UK) 26 مارس 2009.
- (22) أثار بارفيز، «اتفاقية مياه السند توجب الكشميريين»، إنتر برس سيرفيس، 15 أكتوبر 2008.
- (23) أفراح كازمي وماريا فاطمة، «الماء - وفر آخر قطرة»، بيزنس ريدر، 29 مايو 2010.
- (24) مانبيادما جينا، «لا قطرة وحيدة للشرب»، التلغراف (كلكتا، الهند) 6 مايو 2010.
- (25) كارين بروليارد، «الخطاب يسخن حول نزاع المياه بين الهند وباكستان»، واشنطن بوست، 28 مايو 2010.
- (26) أم. ذو القرنين، «على باكستان أن تحتفظ بخيار القوة في نزاعها حول المياه مع الهند»، برس ترست الهند، 10 مايو 2010.
- (27) «المتطرفون في باكستان يحذرون الهند حول نزاع المياه»، برس ترست الهند 30 مايو 2010.
- (28) أحمد رشيد، «انحذار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى»، (نيويورك: فايكنغ 2008) 221.
- (29) كريستيان بارينتي، «أفغانستان: حرب الآخرين»، الأمة، 27 مارس 2006.
- (30) بارينتي، «أفغانستان»، انظر أيضا الفيلم الوثائقي «المثبت: أخذ أجمال نقشبندي»، أخرج من قبل إيان أولدر (HBO، 2009).

- (31) مارت والدمان، «الشمس في السماء: العلاقة بين ISI باكستان والثوار الأفغان»، (ورقة نقاش 18، مركز كار لسياسة حقوق الانسان ومدرسة كينيدي حول الحكومة، جامعة هارفارد، يونيو 2010) 1؛ انظر أيضا ديكلان ولش، «المساعدة العسكرية لطالبان تحمل بصمات باكستانية»، الغارديان، 5 يوليو 2010.
- (32) دينيس بلير، «التقويم السنوي للتهديد لمجتمع الاستخبارات الأمريكية»، شهادة أمام لجنة مختارة من مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، 2 فبراير 2010.
- (33) «الولايات المتحدة تبحث عن موازنة مصلحة الهند في أفغانستان»، رويترز 31 مايو 2010؛ عبدالواحد وفا وألان كويل، «مسلح يضرب العاصمة الأفغانية بالقنابل: موت 41 على الأقل»، نيويورك تايمز، 8 يوليو 2008؛ أناند غوبال، «ضرب السفارة الهندية في كابول بالقنابل»، مجلة وول ستريت، 9 أكتوبر 2009؛ أمان شرما، «الهنود هدف سهل في كابول»، ميل توداي (الهند) 28 فبراير 2010.

الفصل الثاني عشر

- (1) أولدهام، «تطور الجغرافيا الهندية»، المجلة الجغرافية 3، عدد 3 (مارس 1894): 169-192: 180.
- (2) أعلنت الصحافة الغربية انحذار حركة الماويين منذ ولادتها. على سبيل المثال انظر كاستوري رانغان، «انحذار الحركة الماوية في الهند»، نيويورك تايمز، 5 أغسطس 1972. ثم بعد ثلاث سنوات يخبر المؤلف نفسه في الصحيفة نفسها «الماويون المتطرفون في الهند بعد أن كانوا هادئين لمدة 3 سنوات تقريبا أصبحوا نشيطين مرة أخرى». كاستوري رانغان، «الماويون يستأنفون العنف في الهند»، نيويورك تايمز، 9 يونيو 1975.
- (3) انظر الشكل 2.5 في التقرير الرئيس الجزء 1 من «الجفاف في اندرا براديش: إستراتيجيات تأثير وتكيف على المدى الطويل. تقرير أخير» (واشنطن دي سي: قسم البيئة والتنمية الاجتماعية لجنوب آسيا، البنك الدولي، سبتمبر 2005)، 28.
- (4) «حيدر آباد: اليوبيل الفضي لدوربار»، تايمز، 22 فبراير 1937 www.time.com. على الرغم من فساد نظام، إلا أنه أظهر أحيانا اهتماما بالشأن العام. عندما ثار الأديفاسيس في الثلاثينيات أرسل عالم إنسانيات ألماني كريستوفر فون فورير هايمندورف لفهم مشاكل السكان المحليين بشكل أفضل، عاد هايمندورف بتوصية للاستثمار في التعليم والرعاية الصحية كطريقة لمعالجة عزلة القبليين الاجتماعية والاقتصادية. ولمصلحته فقد اتبع نظام هذه التوصية، وشهد شعب الغوند في مقاطعة عادل آباد تحسن ظروفهم بشكل كبير. حتى هذا اليوم يتذكر الغوند هايمندورف بشغف، كما لو كان واحدا منهم.
- (5) جودهيا، «دور القروض في مساعدة المزارعين ضد المخاطر في المناطق الجافة وشبه الجافة من الهند»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 16، عدد 43/42 (17-24 أكتوبر 1981): 1696-1709؛ ريان وآخرون، «النواحي الاجتماعية - الاقتصادية للتنمية الزراعية في المناطق المدارية شبه الجافة»، ورقة مقدمة في حلقة العمل الدولية حول الأنظمة الزراعية، ICRISAT، حيدر آباد، الهند، 21-28 نوفمبر 1974.

(6) إدوارد دويكر، «عصابات قبلية: السانتال في البنغال الغربية وحركة الناكسالايت» (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد 1987).

(7) «فوضى في البنغال الغربية»، نيويورك تايمز، 18 مارس 1970. حول تردد الحزب الشيوعي في الهند (الماركسي اللينيني) في الحكم بالفعل، انظر «الحكام المترددون»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 2، عدد 10 (11 مارس 1967) 511-510، وليامز بوردرز، «ولاية هندية كانت مضطربة وأصبحت هادئة تحت حكم الأحمر»، نيويورك تايمز، 28 يناير 1978؛ كاستوري رانغان، «ائتلاف من خمسة أحزاب ماركسية يسيطر على الحكم في بنغال الغربية»، نيويورك تايمز، 22 يونيو 1977.

(8) جوزف ليليفيلد، «الشيوعيون اليساريون في بنغال الغربية منقسمون بعمق»، نيويورك تايمز، 5 يوليو 1967، كانت أساليب الناكسالايت مزيجا من حماس عقائدي حديث وذرائعية تفكر في القتل لعصابات البنغال الغربية الاجتماعية: بولان ديفي زائد «الكتاب الأحمر الصغير». لمصلحتهم، نظم الناكسالايت أيضا حركات جماهيرية سلمية استخدمت طرقا مباشرة لاحتلال الأراضي ومواجهة الاقطاعيين وإقامة حواجز على الطرقات من أجل المطالبة بالعدالة وإنهاء القمع والحصول على تنازلات اقتصادية من الدولة.

لعبت الأحزاب الماركسية عبر الهند أدوارا مهمة في الحكومات الائتلافية أو إنها سيطرت عليها. في كثير من الأحيان أدت إصلاحاتهم التقدمية إلى تنمية حقيقية. لم تكن هذه الإصلاحات تقدمية في المضمون فقط، لكنها غالبا ما كانت جذرية في الشكل: لم تقدم السياسات فقط من الأعلى للأسفل، لكن استخدمت الحشود الجماهيرية على مستوى القاعدة. تحت أول حكومة للجبهة المتحدة في بنغال الغربية أوائل السبعينيات، أمسكت أربعة أحزاب ماركسية بتوازن القوى، ثم انتخب الائتلاف نفسه تقريبا على شكل الجبهة اليسارية. في تلك الأيام المثيرة أعطي جيوتي باسو من الحزب الشيوعي (الماركسي) حقيبة وزارة الداخلية، لذا كان يتحكم بشرطة الولاية. استخدم هذه القوى لمساعدة الفلاحين في تسهيل الاستيلاء على الأراضي ولعب دور الحكم خلال المواجهات العنيفة أحيانا مع طبقة أرباب العمل، لكن الاندفاع التنموي لمعظم الشيوعيين الهنود لم يكن كافيا بالنسبة إلى المتطرفين الناكسالايت. من وجهة نظرهم، كانت الأحزاب الشيوعية الرئيسة مستسلمة للإمبريالية على النمط السوفييتي. فضل الناكساليون الطريق الصحيح للزعيم ماو. في تلك الأيام، كانت بنغال الغربية في حالة غضب حمراء مجنونة لوسط اليسار ضد اليسار وهذا ضد اليسار المتطرف وذاك ضد اليسار السري.

(9) هاربال سينغ، «الغوند على طريق التقدم»، هندو، 20 أبريل 2009؛ «ساكسينا الهند نحو الفوضى 1967-1992» (نيودلهي: منشورات ابهيتاف 1993) 76.

(10) «الماركسيون يستهدفون جونا مرة أخرى»، هندوستان تايمز، 5 أبريل 2010.

(11) «أنندرا براديش تتلقى كمية من الأمطار أعلى بـ 27 في المائة خلال فترة الأمطار الموسمية»، خط الأعمال الهندوسي، 27 يوليو 2010.

(12) أورفل شيل، «الرسالة من الجليديات»، نيويورك ريفيو للكتب، 27 مايو 2010.

- (13) كوندزيفيكس وآخرون، «مصادر المياه العذبة وإدارتها»، «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض، مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويي الرابع للـ IPCC»، تحرير باري وآخرين (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2007) 187، متوافر على www.ipcc.ch/pdf/assessment-report/ar4/wg2/ar4_chapter3.pdf
- التقديرات هي أن 120 مليوناً من 1.2 مليار إنسان في آسيا سيواجهون عوزاً مائياً متزايداً بحلول منتصف العام 2020.
- (14) جيمس لامونت وآخرون، «الهند توسع الخلاف المناخي مع الغرب»، فاينانشال تايمز، 23 يوليو 2009.
- (15) يتنبأ بعض العلماء أنه بنهاية القرن، ستشهد الهند ارتفاعاً في درجة الحرارة بمعدل 3-5°م، ومعه زيادة بمعدل 20 في المائة في هطولات أمطار المونسون الصيفية.
- (16) دينيس بلير، «التقويم السنوي للتهديد لمجتمع الاستخبارات الأمريكية»، شهادة أمام لجنة مختارة من مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، 2 فبراير 2010.
- (17) شيل، «الرسالة من الجليديات».
- (18) كوندزيفيكس وآخرون، «مصادر المياه العذبة وإدارتها»، 493.
- (19) إيميلي واكس، «الاحترار العالمي يهدد بتجفيف الغانج»، واشنطن بوست، 24 يونيو 2007.
- (20) جاء التوصيف من تشارلز كينيل، الإستراتيجي الرئيس في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو، معهد الحلول المستدامة ومدير سابق لمعهد سكريبس لعلم المحيطات. اقتبس ستيفان ليبي، «تغير المناخ: الغطاء الثلجي يتحول إلى بحيرة في الهمالايا»، خدمة إنتر برس، 7 مايو 2009.
- (21) إيغو داي، تاوتاو غيان وكيفن ترنير، «تغيرات في تصريف المياه القارية من 1948-2004»، المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي، بولدر، كولورادو، 18 نوفمبر 2008، أيضاً مراسلات شخصية من دكتور إيغو داي من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي.
- (22) «مستويات المياه تنخفض في بعض الأنهار الرئيسة مع تغير المناخ»، مؤسسة الجامعة لبحوث الغلاف الجوي، 21 أبريل 2009، www.ucar.edu/news/release/2009/flow.jsp
- فحص علماء من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي تدفق الأنهار من العام 1948 حتى العام 2004، ووجدوا تغيرات مهمة في نحو ثلث أنهار العالم الرئيسة. من هذه، فاق عدد الأنهار بتدفقات متناقصة تلك بتدفقات متزايدة بنسبة 2.5 إلى 1. يخدم عدداً من الأنهار التي تتناقص مياهها مجموعات كبيرة من السكان، بما في ذلك النهر الأصفر شمال الصين والغانج في الهند والنيجر في أفريقيا الغربية وكولورادو في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة. في المقابل، أخبر العلماء عن تدفقات أكبر في مناطق متفرقة السكان بالقرب من محيط القطب الشمالي، حيث يذوب الجليد والثلج بسرعة.
- (23) «مستويات المياه تنخفض في بعض الأنهار الرئيسة مع تغير المناخ»، مؤسسة الجامعة لبحوث الغلاف الجوي، 21 أبريل 2009، www.ucar.edu/news/release/2009/flow.jsp

- فحص علماء من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي تدفق الأنهار من العام 1948 حتى العام 2004 ووجدوا تغيرات مهمة في نحو ثلث أنهار العالم الرئيسية. من هذه، فاقت الأنهار بتدفقات متناقصة تلك بتدفقات متزايدة بنسبة 2.5 إلى 1. يخدم عدد من الأنهار التي تتناقص مياهها مجموعات كبيرة من السكان بما في ذلك النهر الأصفر شمال الصين والغانج في الهند والنيجر في أفريقيا الغربية والكونغورو في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة. بالمقابل أخبر العلماء عن تدفقات أكبر في مناطق متفرقة السكان بالقرب من محيط القطب الشمالي، حيث يذوب الجليد والثلج بسرعة.
- (24) ديفيد موس، «حكم وتمثيل: تحول في إدارة المياه المشتركة في جنوب الهند البريطانية»، مجلة الدراسات الآسيوية 65، عدد 1 (2006): 61-90: 63.
- (25) كارل ويتفوجل، «الاستبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة الشاملة» (نيوهافن: نشر جامعة ييل يونيفر 1957) 15، الاستبداد الهيدروليكي لويتفوجل هو امتداد لفكرة ماركس عن «النمط الآسيوي في الإنتاج».
- (26) موراي ليف، «الري والسلطة في راجيستان»، أثنولوجي 32، عدد 2 (أبريل 1992): 115 - 132.
- (27) كاثلين كوغ، «أنماط الإنتاج في جنوب الهند»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 15 عدد 7/5 (فبراير 1980): 337-364؛ ثافاراج، «مبدأ النمط الآسيوي في الإنتاج: أهميته بالنسبة للتاريخ الهندي»، العالم الاجتماعي 12، عدد 7 (يوليو 1984): 26-34.
- (28) موس، «حكم وتمثيل» 65.
- (29) آمي والدمان، «الديون والجفاف يدفعان المزارعين الهنود نحو اليأس»، نيويورك تايمز، 6 يونيو 2004.
- (30) أنورادا ميتال، «حصاد الانتحارات: كيف تدفع قواعد التجارة العالمية المزارعين الهنود نحو اليأس»، مجلة جزيرة الأرض (22 مارس 2008)، انظر أيضا سوميني سينغوبتا، «حول مزارع الهند الياثسة، موجة من الانتحارات»، نيويورك تايمز، 19 سبتمبر 2006.
- (31) سينغوبتا، «حول مزارع الهند الياثسة».
- (32) ريفاثي، «انتحارات المزارعين»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية، 23 عدد 20 (16-22 مايو 1998): 1207. حسبت هذه الكميات عند 36 روبية للدولار، والذي كان معدل الصرف عندما كتب المقال المقتبس منه.
- (33) «تأثيرات تغير المناخ على مناطق متأثرة بالجفاف والفيضانات: دراسات حالة منطقة جنوب آسيا في الهند» (وحدة إدارة الريف الهندي، قسم التنمية المستدامة، وحدة الإدارة الاجتماعية والبيئية والمائية، وثيقة البنك الدولي، التقرير رقم IN 1 43946 يونيو 2008) 40.
- (34) روستو، «مراحل النمو الاقتصادي: بيان غير شيوعي» الطبعة 3 (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2008).
- (35) برنارد غلاس، «إعادة زيارة الثورة الخضراء: نقد وبدائل» (لندن: الان وأونين 1987).
- (36) نينان وتشاندراسيكار، «الثورة الخضراء وزراعة الأراضي الجافة والتنمية المستدامة: أفكار من الهند»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية 28، عدد 13/12 (20-27 مارس 1993): A2- A7.

- (37) أرنست فيدار، «ثورة ماكنمارا الخضراء الصغيرة: مخطط البنك الدولي للتصفية الذاتية لفلاحي العالم الثالث»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية 11 عدد 14 (3 أبريل 1976).
- (38) تشاكرافارتي، «الثورة الخضراء في الهند»، حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين 63، عدد 3 (سبتمبر 1973) 330-319. لنقد الثورة الخضراء، انظر فرانس مور لابي، «المساعدات كعائق» (اكسفورد CA: كتب الغذاء أولا 1980).
- (39) فامزي فاكولابهارانام، «افقار النمو: العولمة والتغيير الزراعي في تيلينغانا بين 1985 و2000» (أطروحة دكتوراه جامعة ماساتشوستس أمهيرست قسم الاقتصاد 2004).
- (40) فاكولابهارانام، «إفقار النمو».
- (41) فاكولابهارانام، «إفقار النمو»، iv-vii أو لاقتباس فاكولابهارانام: «أولا حتى مع انحدار أسعار المحاصيل بحسب السوق بين 1991 و2000 (خلال مرحلة العولمة) كانت المساحة المزروعة المخصصة لإنتاج هذه المحاصيل تزداد بسرعة. ثانيا بين 1985 و2000 كان معدل النمو السنوي الأسّي للمردود الزراعي الفعلي في منطقة التيليثون من جنوب الهند، أعلى بأكثر من 4 في المائة من معظم دول العالم الثالث خلال الفترة ذاتها حتى لو كانت أغلبية من السكان الزراعيين قد منيت بخسارات كبيرة في الدخل/الاستهلاك، عبر عنه مأساويا في انتحار أكثر من ألف مزارع».
- (42) فاكولابهارانام، «إفقار النمو» 107.
- (43) لاكشمان يابا، «ما هي البذور المحسنة؟ دراسة معرفية للثورة الخضراء»، الجغرافيا الاقتصادية 69، عدد 3، البيئة والتنمية، الجزء 1 (يوليو 1993): 254-273.
- (44) راماشاندر غوبيا، «حرب في قلب الهند»، الأمة، 27 يونيو 2007: «الناكسالايت يتخلون عن قطار ركاب من دون يلحقوا به أي أذى»، هندو، 15 مارس 2006؛ سونالي داس، «الناكسالايت يفرجون عن ركاب القطار»، تايمز الهند 22 أبريل 2009؛ ميهول سريفاستفا، «الماويون في الهند يفجرون خطوط الأنابيب، واضعين 78 مليار دولار في خطر»، بلومبرغ، 29 يوليو 2010.
- (45) على سبيل المثال، انظر قائد سلاح الجو أرجون سابرامانيام، «قوة جوية للقتال في حرب عصابات»، أخبار سيفي 13 فبراير 2009. هذه القطعة نشرتها الصحف الهندية ويمكن العثور عليها في
- maoists-in-india-blow-up/29-07-www.bloomberg.com/news/2010-pipelines-as-75-billion-in-resources-threatened.html
- (46) بالنسبة إلى الأيام الأولى من فرقة المطاردين غرايهاوند، انظر بالاغوبال، «نذر كلاب الصيد ذات اللون الرمادي»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 23، عدد 28 (9 يوليو 1988)؛ شاتروغنا، «NTR والناكسالايت»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 24، عدد 28 (15 يوليو 1989).
- (47) جيسون موتلاخ، «تحول الماويين في الهند لمهاجمة الشرطة»، واشنطن تايمز 22 نوفمبر 2007؛ جيسون موتلاخ، «الماويون في الغابة: تقفي ثوار الهند الانفصاليين»، ربعية ريفيو فرجينيا 84، عدد 3 (1 يوليو 2008): 102-129.
- (48) «البنادق تزدهر مرة أخرى في أندرا براديش»، خدمة أخبار اندو آسيان، 3 أبريل 2005.
- (49) سومانتا بانيرجي، «الناكسالايت: وقت لإعادة التفحص»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 38، عدد 44 (1-7 نوفمبر 2003): 4635-4636.

- (50) عمر فاروق، «ولاية اندرا براديش في الهند تعلن عن وقف إطلاق النار ضد الثوار الشيوعيين»، أسوشيتد برس، 16 يونيو 2004.
- (51) راكيش سينغ «مركز جديد يخطط لحل قضية ناكسال»، وصلة الأخبار العالمية، 6 أغسطس 2006؛ «على جبهة التنمية قرر المركز تخصيص 116 مليون دولار خلال الخطة الخمسية الحادية عشرة لتطوير البنية التحتية في المناطق التي ضربها الناكسال. سيتم التأكيد على تحسين الطرق والدروب القائمة في مناطق يصعب الوصول إليها وتأمين مناطق تخيم في مواقع إستراتيجية». ديفياني سريفاستافا، «الإرهاب في الهند» (يناير - مارس 2008). IPCS (الحكومة الهندية) تقرير خاص رقم 54، يونيو 2008.
- (52) «البنادق تزدهر مرة أخرى في اندرا براديش»، «اتهام شاعرين آخرين، غادار وكاليان راو، بالقتل السياسي».
- (53) «رجال سالفا - جودوم يطاردون المتعاطفين مع الماويين»، هندو، 13 مارس 2006.
- (54) أنشومان دوتا، «الاحتفاظ بالدولة كرهينة»، الهند: انتشار «التطرف اليساري يشجع الولايات على رفع وحدات الكوماندوس»، وصلة الأخبار العالمية، 21 مايو 2006.
- (55) «سالفا جودوم، مذبحة قبائل تشاتيسغارث: لجنة»، هندو، 28 يناير 2009.
- (56) «سالفا جودوم، مذبحة قبائل تشاتيسغارث».
- (57) فرحان بخاري وجيمس لامونت، «حقيقة مغيرة»، فاينانشال تايمز، 12 مايو 2009.
- (58) من المعترف به أن هذه الطبقة أو النخبة من الأثرياء جدا أصيبت بضربة قوية العام 2009 مع التقاط الاقتصاد الهندي أخيرا عدوى الانحدار الاقتصادي الذي بدأ في الغرب، نازين كارمالي، «انخفاض مليارديري الهند» 11 Forbs.com. مارس 2009 www.forbes.com/2009/03/11/india-financial-loss-billionaires-india.html

الفصل الثالث عشر

- (1) للاطلاع على هذه المراجع انظر جون نيف غيرني وكاثلين تيرني، «الحرمان النسبي والحركات الاجتماعية: نظرة نقدية على مدى 20 سنة من النظرية والبحث»، ربعية نفسانية 23، عدد 1 (شتاء 1982): 33-47. حول العنف في المدن، انظر ساسكيا ساسن «عندما تصبح المدينة نفسها تقنية حربية»، نظرية، ثقافة ومجتمع 27، عدد 6 (17 ديسمبر 2010).
- (2) سيليا لاندمان سفاركفالد وآخرون، «عدم المساواة في الدخل ومعدلات القتل في ريو دي جانيرو في البرازيل»، المجلة الأمريكية للصحة العامة 89، عدد 6 (يونيو 1999): 849.
- (3) «عصابات المخدرات في ريو تقاتل الشرطة، قتل 13 شخصا»، رويترز، 24 نوفمبر 2010.
- (4) «الأمطار والفيضانات في سان باولو تقتل 64 شخصا»، وكالة فرنسا للأخبار، 29 يناير 2009.
- (5) «لولا يلغي مشاركته في قمة العشرين بسبب الفيضانات المميتة في البرازيل»، تايمز عمان (روترز)، 27 يونيو 2010؛ فيليب دانا، «البرازيل: سكان قرية صغيرة يقفون أحياء برغم الفيضانات الضخمة بالتشبث بأشجار فاكهة»، الأخبار الكندية، 24 يونيو 2010.

- (6) ماغرين وآخرون، «أمريكا اللاتينية»، في «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض، مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC». تحرير بيري وآخرين، (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2007) القسم 13.2.2، «أزمات الطقس والمناخ».
- (7) أنتوني بيريرا، «الإصلاح الزراعي في البرازيل: ابتكار ديمقراطي أم استرجاع لحكم أقلية مستعدة؟»، سياسة أمريكا اللاتينية ومجتمعها 45، عدد 2 (صيف 2003): 41 - 65: 42.
- (8) غاري دافي، «أوقات متغيرة بالنسبة لمن لا يملكون الأراضي في البرازيل»، أخبار الـ BBC، 23 يناير 2009، www.news.bbc.co.uk/2/hi/7845611.stm
- (9) فاغنر وجون وورد، «التمدين والهجرة في البرازيل»، المجلة الأمريكية في الاقتصاد والاجتماع 39، عدد 3 (يوليو 1980): 249-259: 256.
- (10) فاغنر وجون وورد، «التمدين والهجرة في البرازيل»، 249.
- (11) أنتوني بيريرا، «المساجلات في المحاكمات السياسية للنظام العسكري البرازيلي»، ريفيو لوسو برازيليان 41، عدد 2 (2005): 162 - 183.
- (12) بالإنجليزية، انظر الأردوشيقية البرازيلية في سان باولو، «تقرير صادم حول الاستخدام البشع للتعذيب من قبل الحكومات العسكرية البرازيلية 1964-1979» أعدت سرا من قبل أردشوق سان باولو، حررت من قبل جون داسين، ترجمت من قبل جيمي رايت (أوستن: نشر جامعة تكساس 1998).
- (13) بين بنغلاني، «الابن غير الشرعي للديكتاتورية: كومانندو فيرميلهو ومولد ثقافة المخدرات في ريو دي جانيرو»، ريفيو لوسو برازيليان 45، عدد 1 (2008): 118-145: 125.
- (14) بنغلاني، «الابن غير الشرعي».
- (15) بنغلاني، «الابن غير الشرعي»؛ لوك داودني «أطفال تجارة المخدرات: دراسة حالة لأطفال في عنف منظم مسلح في ريو دي جانيرو» (ريو دي جانيرو: 7 ليتراس 2003)؛ لويس كونتوس وديفيد برازرتون، تحرير، «موسوعة العصابات» (سانتا باربرا كاليفورنيا: غرينوود 2007): 16 - 18.
- (16) إنريكي «ديسموند» أرياس، «المخدرات والديموقراطية في ريو دي جانيرو: التوزيع والشبكات الاجتماعية والأمن العام» (تشابل هيل: نشر جامعة نورث كارولينا 2006)؛ انظر أيضا كارلوس أموري، «كومانندو فيرميلهو، التاريخ السري للجريمة المنظمة»، (ريو دي جانيرو، فوزيس 1991)؛ وليام دا سيلفا «كوانترو سينتوس كونترا أوم» (ريو دي جانيرو، فوزيس 1991)، داودني، «أطفال تجارة المخدرات»؛ عزيز فيلهو وفرانيسكو ألفيس فيلهو، «الجريمة والعنف في البرازيل المعاصرة»، (ريو دي جانيرو، لومين جوريس، 2006).
- (17) جيمس بروك «البرازيل تزرع تحت وطأة الديون»، ميامي هيرالد 7 فبراير 1983. نقد جيد للبرازيلية الجديدة في البرازيل قدمه جيمس بيتراس وهنري فيلنميير كاردوسو، «برازيل: بلد للبيع» (لأنهام: رومان ولتلفيلد 2003)، «مظاهرة للعاطلين عن العمل في سان باولو تتحول إلى عملية نهب، موت شخص»، ميامي هيرالد 6 أبريل 1983.

- (18) ريناتو كوليسيتي، «إعادة زيارة التصنيع بقصد إحلال الواردات في البرازيل: نمو الإنتاجية والتعلم التقني في سنوات ما بعد الحرب» (مشروع ورقة أعدت لمؤتمر «أمريكا اللاتينية، العولمة والتاريخ الاقتصادي»، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس 24 و25 أبريل 2009)، 7، متوافر على www.international.ucla.edu/economichistory/summerhill/colistete.pdf
- (19) كوليسيتي، «إعادة زيادة التصنيع بقصد إحلال الواردات في البرازيل»، 32.
- (20) ديفيد هارفي، «الليبرالية الجديدة كأداة للتخريب الخلاق»، الحوليات الجغرافية 88، عدد 52 (1 يونيو 2006) 145:148:145.
- (21) فيليب آرمسترونغ وأندرو غلين وجون هاريسون، «الراسمالية منذ 1945» (أكسفورد: بيسل بلاكويل 1991) 155. من أجل قصة نجاح التنمية التي تقودها الدولة، انظر أليس أمسدن، «علاقات آسيا التالي: كوريا الجنوبية والتصنيع المتأخر» (أكسفورد: نشر جامعة أكسفورد 1992).
- (22) جوليت شور، «أمريكا المثقلة بالعمل: تدهور الراحة غير المتوقع» (نيويورك: كتب بيسيك 1992)، 111.
- (23) تشارلز سيبل مقتبس في بينيت هاريسون وباري بلوستون، «دورة U الكبيرة: إعادة تشكيل المؤسسات واستقطاب أمريكا» (بولدر كولورادو: كتب بيسيك 1990) 10.
- (24) حول الاستطاعة الفائضة أو التراكم الزائد انظر آرمسترونغ، غلين وهاريسون، «الراسمالية منذ 1945»، خاصة الفصل 11.
- (25) بروك، «البرازيل ترزح تحت وطأة الديون».
- (26) هاريسون وباري بلوستون، «دورة U الكبيرة»؛ 7؛ انظر أيضا نورمان غليكمان، «المدن والتقسيم العالمي للعمل»، في «المدينة الرأسمالية»، تحرير بيتر مايكل سميث (أكسفورد: بلاكويل 1987) 71.
- (27) سامويل باولز وديفيد غوردن وثوماس فايزكوبف، «بعد الأرض اليباب: اقتصاد ديمقراطي للعام 2000» (آرمونك نيويورك: شارب 1990) 45. انظر الشكل 4.4 «انحدار الربح بعد منتصف الستينيات»؛ أندرو غلين وآخرون، «صعود العصر الذهبي وسقوطه» في «العصر الذهبي للرأسمالية: إعادة تفسير فترة ما بعد الحرب»، تحرير ستيفان مارغليين وجولييت شور (أكسفورد: نشر كلاريندون 1990) 77، الشكل 2.10.
- (28) جون موريس، «الأسواق تتعافى من الخسائر، لكن المستقبل مظلم»، المصير في الأمريكي، 6 ديسمبر 1982.
- (29) بول فولكر مقتبس من قبل ستيفن راتز، «فولكر يؤكد أن على الولايات المتحدة أن تخفض مستويات المعيشة»، نيويورك تايمز، 18 أكتوبر 1979، A1.
- (30) جورج هانك، «تفحص الأزمة المصرفية في الثمانينيات وأوائل التسعينيات، الجزء 1 من تاريخ الثمانينيات» (آرلينغتون: FDIC مركز المعلومات العام 1999) 199.
- (31) أندريس أوبنهايمر، «ركود، الديون تضرب أمريكا»، ميامي هيرالد 18 أبريل 1983.
- (32) «الغلاء في البرازيل يسجل رقما قياسيا»، نيويورك تايمز 29 ديسمبر 1989.

- (33) جيمس بروك، «ثمة العمالة الجنوبيين يبطأ بخطط تقشف»، ميامي هيرالد، 18 أبريل 1983.
- (34) أوبنهايمر، «ركود، الديون تضرب أمريكا».
- (35) جوان دي أونيس، «البرازيل تطلب قروضا جديدة، ليست خارج الضغوط»، لوس أنجلوس تايمز، 23 يونيو 1986.
- (36) مارك فايزبروت، «من الذي سيقود البلاد إلى الأمام؟»، ورقة من سان باولو (البرازيل)، 27 أغسطس 2010.
- (37) إنريكي «ديسموند» أرياس، «ديناميكية الحكم بالجريمة: شبكات وأنظمة اجتماعية في ريو دي جانيرو»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 38، عدد 2 (مايو 2006) 293-325.
- (38) للتفاصيل انظر مايك ديفيس، «أهوال العصر الفيكتوري المتأخر: مجاعات النينو وخلق العالم الثالث» (لندن: فيرسو 2002).
- (39) تيموثي فينان، «الجفاف والديماغوجية: بيئة سياسية للتغير المناخي في شمال شرق البرازيل»، (ورقة قدمت في ورشة عمل «الفلسفة العامة والبيئة والعدالة الاجتماعية»، لجنة كارنيغي حول الأخلاق والشؤون الدولية، 21-22 أكتوبر 1999) 3.
- (40) ليكيانغ سون وآخرون، «تغير المناخ ومحصول القمح في منطقة سيرا شبه الجافة في البرازيل»، مجلة المناخ التطبيقي 46، عدد 2 (1 فبراير 2007) 226-239.
- (41) سون وآخرون، «تغير المناخ» 227.
- (42) روب ويلبي، «مراجعة سيناريوهات تغير المناخ في شمال شرق البرازيل»، (مختصر تقني لتيرفاند، تيدنغتون، بريطانيا، يونيو 2008) 2، ساولو أروجو، «دروس من شمال شرق البرازيل: لا يمكنك محاربة البيئة»، القواعد عالميا، 2 مارس 2009، www.grassrootsonline.org/news/blog/lessons-northeast-brazil-you-can't-fight-environment
- (43) جوزيف بيج، «البرازيليون» (نيويورك: نشر دا كابو 1996) 186.
- (44) القسم 13.5.1.1، «الأنظمة البيئية الطبيعية»، في ماغرين وآخرين، «تغير المناخ» 2007.
- (45) إدموند كونواي، «الاقتصاد، صندوق النقد الدولي يحذر أنه قد يفسد قريبا»، الديلي تلغراف، 5 مايو 2006. العنوان لهذا المقطع يأتي من الكتاب الرائع لثيدا سكوكبول وبيتر إيفانز وديتريتش روشيماير «إعادة إدخال الدولة» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1985).
- (46) كريستيان بارينتي، «إعادة أخذ ريو»، الأمة، 11 مايو 2010.
- (47) دونالد نيلسون وتيموثي فينان في منطقة سيرا شمال شرق البرازيل، «الأنثروبولوجست الأمريكي» 111، عدد 3 (سبتمبر 2009) 302-316: 305.

الفصل الرابع

- (1) دارلين سوبرفيل، «ميشيل أوباما تطلق خطة عمل وحيدة في زيارتها للمكسيك»، أسوشيتد برس، 14 أبريل 2010.

- (2) تشارلز باودن حول الديمقراطية الآن، 14 أبريل 2010.
- (3) كيفين جونسون «العنف ينخفض في مدن الولايات المتحدة القريبة من المكسيك»، USA اليوم، 28 ديسمبر 2009.
- (4) «مذبحة جواريز: أين سيكون هجوم الاحتكارات التالي؟»، الباسو تايمز، 2 فبراير 2010.
- (5) اليزابيث مالكين، «مسلحون في المكسيك يقتلون 13 في حفلة»، نيويورك تايمز، 31 يناير 2010.
- (6) وليام بوث، «عصابات المخدرات في المكسيك تتحول للهجوم ضد السلطات»، واشنطن بوست، 2 مايو 2010.
- (7) شوازيهانغ فينغ، ألان كروغار ومايكل أوبنهايمر، «صلات بين تغير المناخ ومردود المحاصيل والهجرة عبر الحدود المكسيكية - الأمريكية»، مداولات الأكاديمية الوطنية للعلوم 107، عدد 32 (10 أغسطس 2010) 14257-14262.
- (8) ناشا كاتان، «تغير المناخ سيزيد من هجرة المكسيكيين إلى الولايات المتحدة، كما تقول إحدى الدراسات»، كريستيان ساينس مونيتور، 27 يوليو 2010.
- (9) أولي براون، «الهجرة وتغير المناخ» (جينيف: المنظمة الدولية حول الهجرة 2008) 10.
- (10) سام نايت، «التسونامي البشري»، فاينانشال تايمز، 19 يونيو 2009.
- (11) مقتبس في آمي كازمين، «ارتفاع في مستوى سطح البحر يؤثر على المعيشة في بنغلاديش»، فاينانشال تايمز، 22 سبتمبر 2009.
- (12) وليام لاسي سوينغ، «دعنا نستثمر الآن في هجرة الغد»، «الهجرة» (مجلة المنظمة الدولية حول الهجرة) شتاء 2011.
- (13) كازمين، «ارتفاع في مستوى سطح البحر يؤثر على المعيشة في بنغلاديش».
- (14) يمكن قول قصة مشابهة وإن كانت مختلفة عن انتقال الأفريقيين والشرق الأوسطيين إلى أوروبا. مازال أفضل كتاب حول هذه التحركات هو لساسكيا ساسين، «انتقال العمالة ورأس المال» (نيويورك: نشر جامعة كامبردج 1990).
- (15) مخطط طولي في العام 2007 يرسم ضياع المانغروف في المكسيك بعنوان «مانغروف أمريكا الوسطى والشمالية 1980-2005: تقارير البلد»، يمكن العثور عليه على موقع منظمة الأغذية والزراعة <ftp://ftp.fao.org/docrep/fao/010/ai446t/ai446t00.pdf>
- للمزيد عن الأزمة انظر «الرئيس فيليب كالدرون يوقع تشريعا لحماية الأراضي الرطبة الساحلية وحكام الولايات يهددون بتحديد قانون جديد»، أخبار وتحليل الاقتصاد المكسيكي، 14 فبراير 2007.
- (16) تحتفظ منظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة ببيانات حول المصائد السمكية. يلاحظ تقريرها حول المكسيك ما يلي: «الوضع الحالي للإنتاج المتناقص في مردود المصائد هو نتيجة الاستغلال الزائد والإدارة السيئة، وزيادة في مجهود الصيد، والافتقار إلى المراقبة، وتغيرات تحدث بشكل طبيعي في كل مستودع سمكي والتنوع البيئي لبيئة البذور الأسماك التي تنتج في مراكز تربية البذور السمكية الحكومية والتي نجم عنها تناقص حجم الأسماك وتهجينها»، يمكن العثور على هذا من «نماذج الصيد والتربية السمكية للدول: المكسيك» FAO قسم مصائد وتربية الأسماك،

www.fao.org/fishery/countrysector/FL_CP_MX/en

ولرسم بياني يوضح مجمل الصيد على مر الزمن انظر:

www.fao.org/fishery/countrysector/FL_CP_MX/3/en

(17) الونسو أغويلار إيبارا وكريس ريد وآندي ثورب، «الاقتصاد السياسي لتطور الصيد البحري في البيرو وتشيلي والمكسيك»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 32، عدد 2 (مايو 2000): 527-503: 521.

(18) من أجل مناقشة كاملة للمؤسسات المكسيكية وسياسة الصيد انظر إيميلي يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استخدام الموارد المشتركة: تطوير المصائد في باجا كاليفورنيا والمكسيك»، حوليات هيئة الجغرافيين الأمريكيين 91، عدد 2 (يناير 2001): 306-283: 242.

(19) إيبارا، ريد وثورب، «الاقتصاد السياسي لتطور الصيد البحري» 526.

(20) جون رايت، «المكسيك تعلن تحرير قواعد الاستثمار الخارجي» AP online 15 مايو 1989.

(21) يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استخدام الموارد المشتركة» 288.

(22) يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استخدام الموارد المشتركة» 300.

(23) تيم وينر، «في المكسيك، الجشع يقتل الأسماك في البحر المملوء»، نيويورك تايمز 10 أبريل 2002.

(24) تيم ميريل ورامون ميرو، «تحرير المكسيك: دراسة البلد» (واشنطن دي سي مكتب الطباعة الحكومي، 1996).

(25) ريتشارد غرانت، «إصبع الإله الوسطى: في القلب من دون قوانين لمنطقة سيرا مادري»، (نيويورك: سامون وشوستر 2008) 242.

(26) فقدت المكسيك 6.9 في المائة من تقديرات الـ FAO لعام 2005، «سؤال متعلق بالجغرافيا الاقتصادية هو درجة الارتباط بين السياسات الليبرالية الجديدة والتدهور البيئي. هناك حاجة لبحث علمي لربط مثل هذه السياسات بشكل تجريبي مع صناعة القرار المحلي من أجل تقويم الآثار، وللمساهمة في فهم كيف تدفع ديناميكيات مختلفة عمليات تغيير استخدام الأرض؟»، مارتن ريكار، «دور الغابات المكسيكية في تخزين الكربون للتخفيف من تغير المناخ». صناعة الغابات وموارد الغابات في سيرا مادري. مركز تكساس لدراسة السياسات، ديسمبر 1999.

www.texascenter.org/publications/forestal.pdf

(27) رينيه دومونت، «المكسيك: تخريب الإصلاح الزراعي»، مراجعة اليسار الجديد 17/1 (شتاء 1962) 46-63.

(28) اليزابيث مالكن، «المكسيك تعاني الآن أسوأ جفاف منذ سنوات»، نيويورك تايمز 12 سبتمبر 2009.

(29) «المكسيك تقول إن موارد الحبوب لن تهدد بالجفاف»، EFE خدمة الأخبار العالمية، 5 يناير 2010.

- (30) كوكو وارنر وآخرون، «البحث عن مأوى: مسح تأثيرات تغير المناخ على الهجرة البشرية»، (تقرير من CARE الدولية وجامعة الأمم المتحدة 2009)
- <http://ciesin.columbia.edu/documents/ClimMigr-rpt-june09.pdf>
- (31) هيربرت أنغرام بريستلي، «البرنامج المعاصر للتأمين في المكسيك»، مراجعة تاريخ الباسيفيك 8، عدد 1 (مارس 1939) 59-74:60. مع ذلك لم تكن المكسيك برئاسة دياز جمهورية موز، في الحقيقة بدأ دياز كليبرالي تقدمي من نمط القرن التاسع عشر، وقام ببعض التطويرات المفيدة - شجع السكك الحديدية والتلغراف والمصانع الأساسية - لكنه انحدر بعد ذلك نحو الفساد.
- (32) كارلتون بيلز، «صورة دياز: ديكتاتور المكسيك» (فيلادلفيا: ليبينغوت 1932) 307.
- (33) بول غارنر، «صورة دياز» (لندن: لونغمان 2001).
- (34) بيلز، «صورة دياز» 334.
- (35) أدولفو جيلي، «الثورة المكسيكية» (نيويورك: نيو برس 2005)؛ جون وماك، «زاباتا والثورة المكسيكية» (نيويورك: فينتيج 1970) كان هناك في الحقيقة شيء من الدفع خلف الستار والتنافس بين الرأسماليين الأجانب لتأييد حكومة دياز أو الثورة. حتى بين الشركات الأمريكية التي أيدت عموما الرئيس فرانسيكو ماديرا كان هناك انقسام وذرائع. جون سيكيرياس، «السكك الحديدية والنفط والمصالح الأجنبية الأخرى في الجمهورية المكسيكية 1911-1914»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 35، عدد 1 (فبراير 2003): 25:51.
- (36) فرانك تانينباوم، «السلام عن طريق الثورة: تفسير للمكسيك» (نيويورك: نشر جامعة كولومبيا 1933) 115.
- (37) COSYDDAC، «صناعة الغابات وموارد الغابات».
- (38) يمكن العثور على ترجمة لدستور المكسيك للعام 1917 على www.latinamericanstudies.org/mexico/1917-constitution.htm
- (39) جيلي، «الثورة المكسيكية»، 338.
- (40) دومونت، «المكسيك».
- (41) ريموندا بينسابات كلاينبرج، «التحالف الإستراتيجي: العلاقات بين الدولة ورجال الأعمال في المكسيك تحت نظام الليبرالية الجديدة والأزمة»، نشرة بحوث أمريكا اللاتينية 18، عدد 1 (يناير 1999) 71-87: 72.
- (42) كلاينبرج، «التحالف الإستراتيجي».
- (43) تيري ماكنلي وديانا ألكركون، «تأمين بنك المكسيك»، رؤية أمريكا اللاتينية 20، عدد 3 (صيف 1993): 80-82:80.
- (44) بريستلي، «البرنامج المعاصر للتأمين في المكسيك»، 66.
- (45) بريستلي، «البرنامج المعاصر للتأمين في المكسيك»، 62.
- (46) بالطبع كما يذكرنا أحد الأكاديميين «لم تعمل مكسيك ما بعد الثورة على مسارات تشاركية صرفة. كانت بعض القطاعات في المجتمع مرتبطة بهذه الترتيبات بشكل أكبر من قطاعات أخرى». جيمس سامستاد، «التشاركية والانتقال الديمقراطي:

الدولة والعمالة خلال إدارتي ساليناس وزيديللو»، سياسات أمريكا اللاتينية ومجتمعها 44، عدد 4 (شتاء 2002): 1-28: 3، انظر التاريخ الجذري الكلاسيكي لجيلي، «الثورة المكسيكية».

(47) للاطلاع بشكل أفضل على العلاقة المتغيرة بين الدولة ورأس المال في المكسيك انظر كلاينبرغ، «تحالف إستراتيجي»، 72.

(48) كما وصفها ليو بانيتش في مقالة كلاسيكية فإن التشاركية «بنية سياسية ضمن رأسمالية متطورة تكمل مجموعات الإنتاج الاجتماعية الاقتصادية المنظمة من خلال نظام من التمثيل والتفاعل التعاوني المتبادل على مستوى القيادة والحشد والتحكم الاجتماعي على مستوى القاعدة»، ليو بانيتش «تنظير حديث للتشاركية: آراء حول صناعة النمو»، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 31 (1980): 159-187: 173. للمزيد حول الموضوع وارتباطاته بالدول السلطوية، انظر ديفيد كولير (تحرير)، «السلطوية الجديدة في أمريكا اللاتينية» (برنستون نيو جيرسي: نشر جامعة برنستون، 1980).

(49) جورج فيليب، «النفط والسياسة في أمريكا اللاتينية: الحركات الوطنية وشركات الدولة» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1982)؛ جورج غريسون، «النفط وسياسة المكسيك الخارجية». (بيتسبرغ بنسلفانيا: نشر جامعة بيتسبرغ 1988). خلال هذه الأزمة من التأميم تشكل الحزب الحاكم الحالي حزب العمل الوطني PAN من تحالف مجموعات يمينية بما في ذلك المصرفيون والرأسماليون الصناعيون وملوك الأراضي والعناصر الدينية وحتى أعضاء من حزب كاثوليكي على نمط الكتائب الفاشية. مايكل ديون، «الأصول السياسية للضمان الاجتماعي في المكسيك خلال إدارتي كارديناس وأفيلا كاماشو»، دراسات مكسيكية 21، عدد 1 (شتاء 2005): 59-95.

(50) كلاينبرج، «تحالف إستراتيجي» 72.

(51) جورج غريسون، «النفط والعلاقات الأمريكية - المكسيكية»، مجلة دراسات العلاقات بين الأمريكيين والقضايا العالمية 21 عدد 4 (نوفمبر 1979): 427-456: 428؛ آرثر هاو، «قبضة أوبك على صانعي النفط تنحسر»، فيلادلفيا إنكوايرر، 7 ديسمبر 1983.

(52) حول حركات حرب العصابات في المكسيك، انظر أو نيل بلاكار، «حرب باردة في الريف: نزاع في غويرو في المكسيك»، الأمريكيتان 66، عدد 2 (أكتوبر 2009): 181-210؛ حول العمالة، انظر ديل هاثاواي، «حلفاء عبر الحدود: جبهة عمالة المكسيك الأصلية والتضامن العالمي» (بوسطن: منشورات الطرف الجنوبي 2000).

(53) آدم ديفيد مورتن «التغير البنيوي والليبرالية الجديدة في المكسيك: ثورة محايدة في الاقتصاد السياسي العالمي»، ربعية العالم الثالث 24، عدد 4 (أغسطس 2003): 631 - 653.

(54) وليام تشيزلت، «الذهب الأسود يغذي التحول الاقتصادي»، غلوب أند ميل، 26 مايو 1980. في العام 1978 بدا كأن نظام شاه إيران ينهار ولو انحدرت إيران إلى الفوضى فسترتفع أسعار النفط. وبينما كانت أسعار النفط ترتفع، وجدت شركة بيميكس المكسيك مخزونا نفطيا ضخما آخر. بنهاية العام 1976، كانت المكسيك تنتج 800 ألف برميل من النفط يوميا وتصدر 94 ألف برميل كل يوم. بحلول العام 1980 اقترب الإنتاج من 2.2 مليون برميل في اليوم، وازدادت الصادرات بـ 10 أضعاف إلى 850 ألف برميل في اليوم. كانت هذه أسرع زيادة في إنتاج النفط في تاريخ العالم.

- (55) جون كرويدسون وفينسينت شودولوسكي، «ثمن الإصلاح يشل المكسيك»، شيكاغو تريبيون، 23 نوفمبر 1986.
- (56) تشيزليت، «الذهب الأسود يغذي التحول الاقتصادي».
- (57) مان ريدينغ، «تطويع حماس المكسيك للمزيد»، نيويورك تايمز 12 سبتمبر 1982.
- (58) مايكل كيفين، «المواد الأولية في أزمة: أزمة المواد الأولية في الثمانينيات والاقتصاد السياسي لسياسات المواد الأولية العالمية من قبل ألفريد ميزيل»، التطور الاقتصادي والتغير الثقافي 45، عدد 1 (أكتوبر 1996) 205:208.
- (59) جيمس ثومبسون وشين أو غريدي، «أزمة المواد الأولية تثير المخاوف من غلاء الأغذية في سوق الأسهم»، الإندبيندنت (UK) 10 أغسطس 2010، لمخطط تاريخي حول أسعار المواد الأولية انظر مؤشرموندي www.indexmondi.com يمكن العثور على مؤشر أسعار المواد الأولية للـ IMF على الموقع نفسه.
- (60) والدين بيلو، «انتصار مظلوم: الولايات المتحدة والفقر في العالم» (أوكلاند: كتب الغذاء أولا 1999).
- (61) أوكلاند روس، «انخفاض أسعار النفط تترك المكسيك في متاعب اقتصادية»، غلوب آند ميل، 6 أغسطس 1982.
- (62) مايكل فابلي، «كارثة اليوم» غلوب آند ميل، 20 أغسطس 1982.
- (63) مارليز سايمونز، «تخفيض قيمة البيزو المكسيكي للمرة الثانية في 6 أشهر»، نيويورك تايمز، 7 أغسطس 1982.
- (64) ألان رايدنغ، «المكسيك تخفض البيزو بـ 30 في المائة»، نيويورك تايمز، 19 فبراير 1982.
- (65) روبرت بينيت، «المكسيك تحاول تأجيل جزء من الدين»، نيويورك تايمز، 20 أغسطس 1982.
- (66) ريتشارد ميزلين، «المكسيك تبيع أسهما تملكها بنوك مصادرة»، نيويورك تايمز 22 مايو 1984.
- (67) «البيزو المكسيكي ينخفض بشدة»، غلوب آند ميل، 20 أغسطس 1982؛ روبرت بينيت، «الضغط على المصرفيين لمساعدة المكسيك»، نيويورك تايمز 21 أغسطس 1982.
- (68) «المكسيك تخطط لـ 160 إغلاقاً»، نيويورك تايمز 17 نوفمبر 1982؛ حول إساءة استغلال منتجات نباتات المحيطات انظر يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استغلال الموارد المشتركة»، 288.
- (69) كاثارين اليسون، «المكسيك تصرف اعتماداتها»، أخبار سان جوزيه ميركوري، 22 أكتوبر 1989.
- (70) ألان رايدنغ، «المصرفيون يشيدون بخطط التقشف في المكسيك»، نيويورك تايمز 3 ديسمبر 1982.
- (71) جون كرويدسون وفينسينت شودولوسكي، «ثمن الإصلاح يشل المكسيك».
- (72) بيني لينوكس، «إنقاذ مهمة مستحيلة: دروس من إنقاذ المكسيك»، الأمة 6 أكتوبر 1984.

- (73) ستيفان زاهنيسر وزاكاري كراغو، «NAFTA عند 15: بناء حول التجارة الحرة»، تقرير رقم WRS-09-03 مارس 2009.
- (74) نعوم تشومسكي، «الربح فوق الناس» (نيويورك، نشر القصص السبعة 1999).
- (75) اليزابيث مولكين، «وعد النفط لم يتحقق»، نيويورك تايمز، 23 مارس 2009.
- (76) تيموئي وايز، «حقول التجارة الحرة: المزارعون الصغار في المكسيك داخل الاقتصاد العالمي»، دولارز آند سنس، ديسمبر 2003.
- (77) مولكين، «وعد النفط».
- (78) مولكين، «وعد النفط».
- (79) وايز، «حقول التجارة الحرة».
- (80) جورج دايار ليل وانطونيو يونز نودي، «النفط والحفاظ على تنوع الذرة في المكسيك»، لجنة التعاون البيئي في أمريكا الشمالية 2003.
- www.cec.org/page.asp?PageID=11808Contentid=&SiteNodeID=472
- (81) ماتيلد بيريز، «مسألة المكسيك الغذائية»، اليوم، 2 يناير 2010.
- www.jornada.unam.mx/2010/01/02/index.php?section=politico&article=008n2pol
- (82) تشومسكي، «الربح فوق الناس».
- (83) دايار ليل ويونز نودي، «النفط والحفاظ على تنوع الذرة في المكسيك».
- (84) أوليفيه بافون، «البرتو كاردیناس ينصح بالتعامل بقلب مفتوح»، لا كرونیکا دي هوي، 20 ديسمبر 2007.
- www.cronica.com.mx/nota.php?id_nota=338675
- (85) جيلي، «الثورة المكسيكية»، 337.
- (86) «الفقر الريفي في المكسيك»، جزء 4، من «المكسيك: توليد الدخل والحماية الاجتماعية للفقراء»، تقرير رقم 32867، (البنك الدولي، واشنطن 2005) 170. يسجل كتاب الحقائق حول العالم للـ CIA معدلات الفقر عند «18.2 في المائة باستخدام تعريف للفقر مبني على الغذاء، أما الفقر المبني على الممتلكات فيبلغ أكثر من 47 في المائة (2006)».
- (87) مارك سميث، «القتل المتسلسل مصدر للخوف والغموض / موجة جديدة من القتل تحير الشرطة الذين يحتفظون بمشبهه»، هيوستن كرونیکال 31 مارس 1996؛ سام ديون، «الاغتصاب والقتل يطارد النساء في شمال المكسيك»، نيويورك تايمز، 18 أغسطس 1998؛ جودي بيزار، «القبض على 9 في جواريز بتهمة ذبح 6 مراهقين بين المشتبهين بالقتل المتسلسل»، أخبار سان أنطونيو السريعة، 7 مايو 1998.
- (88) تشارلز بودن، «مدينة القتل: سيوداد جويريز وحقول القتل الجديدة في الاقتصاد العالمي» (نيويورك: كتب الأمة 2010).
- (89) «بودن مدينة القتل»، 104-105.
- (90) جين فيليبس، «الاحتكارات على الطرف المجاور»، مجلات الأم جونز، يوليو/ أغسطس 2009.

- (91) وارن ريتشي، «مهربو المخدرات يغيرون الطرقات مع زيادة الضغط في الولايات المتحدة»، سان سينتينال جنوب فلوريدا، 24 نوفمبر 1989؛ جولي وليامز، «حرب حدود الولايات المتحدة على المخدرات تنتقل إلى تكساس»، أخبار جبال روكي دينيفر، 15 أكتوبر 1989؛ وليام أوفيريند، «مغامرات في تجارة المخدرات»، مجلة لوس أنجلوس تايمز، 7 مايو 1989.
- (92) «مهربو المخدرات الكولومبيون يستخدمون الأنابيب المكسيكية»، سان فرنسيسكو كرونيكال، 1 يناير 1988.
- (93) آستيان روتيل، «بارونات حرب عصابات دموية»، لوس أنجلوس تايمز، 4 يونيو 1993.
- (94) جيمس بروك، «دفن تاجر مخدرات كبطل شعبي»، نيويورك تايمز، 4 ديسمبر 1993؛ «زعماء احتكار كالي كوكائين يعرضون صفقة استسلام»، نشر وكالة فرنسا، 17 ديسمبر 1993.
- (95) كين ديرموتا، «اقتصاد الثلج: المخدرات وروح الرأسمالية»، مجلة السياسة العالمية 16، عدد 4 (شتاء 1999-2000): 15-24: 15.
- (96) أنيتا سنو، «مهربو المخدرات المكسيكيون يصبحون أكثر ذكاء»، تايمز كونترا كوستا، 17 سبتمبر 1995.
- (97) مكتب شؤون المخدرات العالمية وتطبيق القانون، «تقرير استراتيجية التحكم بالمخدرات العالمية 1996»، وزارة الخارجية الأمريكية www.state.gov/www/global/narotics_law/1996_narc_report/index.html
- (98) هورهي تشابات، «حرب المكسيك على المخدرات: لا هامش للمناورة»، حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم الاجتماعية والسياسية 582 (يوليو 2002): 134-148: 136.
- (99) تريسي إيتون، «النافتا ترتبط بتهريب المخدرات: قوة المهام الأمريكية تقول إن المهربين يستغلون الزيادة في التجارة عبر الحدود»، دالاس مورننغ نيوز، 11 مايو 1998.
- (100) ديرموتا، «اقتصاد الثلج»، 16.
- (101) روبرت كولير، «إمبراطور المخدرات الجديد في المكسيك»، سان فرانسيسكو كرونيكال، 26 فبراير 1996.
- (102) نيك ريدينغ، «ميتلاند: موت وحياة بلدة أمريكية صغيرة» (نيويورك: دار نشر بلومزباري 2009).
- (103) مارك فاينمان، «إمبراطورية مخدرات مكسيكية ضخمة للأخذ»، لوس أنجلوس تايمز، 29 يوليو 1997.
- (104) هورهي كاستانيدا، «ما الاسم الإسباني للمستنقع؟»، سياسة خارجية 177 (1 يناير 2010).
- (105) مقتبس في «المكسيكيون يجفلون من ضربة الولايات المتحدة على الفساد، لكنهم يعترفون بأنها دقيقة»، EFE خدمة الأخبار العالمية، 15 يونيو 2005.
- (106) ديفيد لوهناو وجوسيه دو كوردوبا، «المكسيك تحتجز نائب رئيس شرطة مكافحة مخدرات سابق»، مجلة وول ستريت، 22 نوفمبر 2008.

(107) سلسلة تصريحات موضوعة من قبل هورهي كاستانيدا، «الخطر عبر الحدود» نيوزويك (نسخة عالمية)، 2 فبراير 2009، قيادة عامة للقوات الأمريكية، «بيئة العمليات المشتركة العام 2008: تحديات وعواقب لمستقبل القوة المشتركة» (سافولك: قيادة القوات المشتركة، مركز المستقبل المشترك، ديسمبر 2008) 36.

(108) جينز إيريك غولد، «كالديرون» يرفض تقارير «سخيفة» عن حرب مخدرات في المكسيك»، 12 مارس 2009

www.bloomberg.com/apps/news?pid=newsarchive&sid=axUJKcbAt82w

(109) كاستانيدا، «الخطر عبر الحدود».

(110) «ما الذي يريدونه منا؟»، إل دياريو، 19 سبتمبر 2010.

الفصل الخامس عشر

- (1) أولي براون، «الهجرة وتغير المناخ» (جنيف: المنظمة الدولية للهجرة 2008) 10.
- (2) سام نايت، «التسونامي البشري»، فاينانشال تايمز، 19 يونيو 2009.
- (3) أندرو روس، «غسيل أخضر للمحلية»، الأمة 29 يوليو 2010.
- (4) ميليسا ديل بوسك، «الانغماس في الدولارات»، تكساس أوبزرفر، 20 أغسطس 2010.
- (5) بيتر أندرياس، «إعادة رسم الخط: الحدود والأمن في القرن الحادي والعشرين»، الأمن الدولي 28، عدد 2 (خريف 2003): 78 - 111: 88.
- (6) جيورجيو أغامبن، «حالة استثناء»، (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو 2005) 2؛ غوبال بلاكريشنان، «العدو: صورة عقلية لكارل شميدت» (فريسو: لندن 2000).
- (7) «طوارئ على الحدود»، واشنطن بوست، 26 أغسطس 2005.
- (8) CBP الوحدة الجوية والبحرية تحصل على مروحيات جديدة من أجل تأمين الحدود، الفضاء يوميا وتقرير الدفاع 223، عدد 23 (2 أغسطس 2007).
- (9) «تأمين الحدود الأمريكية، السنة المالية لـ 2009 CBP في صفحة مراجعة الحقائق»، CBPgov، 24 نوفمبر 2009

www.cbp.gov/xp/cgov/newsroom/news_releases/archives/2009_news_xml.5_11242009/releases/nov_09

- (10) «جنود سترايكر يتدربون في جنوب نيو مكسيكو»، الأخبار الأمريكية الاتحادية، 15 نوفمبر 2006.

(11) «تظهر مذكرات وبيانات سرية في السابق أن غارات الهجرة في حقبة بوش فشلت في تطبيق القانون»، (تقرير من عيادة عدالة الهجرة، مدرسة كاردوزو للحقوق، نيويورك 4 فبراير 2009).

(12) «الغارات على العمال تنسف حقوقنا»، اتحاد عمال الغذاء والتجارة العالمي 2009

www.ufcw.org/docUploads/UFCWICerptFinal150b_061809_130632.pdf?CFID=10424600&CFTOKEN=46213002

- (13) «الغارات على العمال تنسف حقوقنا»، 5.

- (14) مارغريت راميرز، «قانون الهجرة لعام 1996 يسبب ارتفاع الترحيل»، لوس أنجلوس تايمز، 22 سبتمبر 1998.
- (15) «محتجز ومطرد: صراع نساء للحصول على رعاية صحية في مراكز احتجاز المهاجرين في الولايات المتحدة»، منظمة مراقبة حقوق الإنسان، 17 مارس 2009
www.hrw.org/en/reports/2009/03/16/detained-and-dismissed
- (16) دورا شريرو، «احتجاز المهاجرين: نظرة عامة وتوصيات»، وزارة الأمن القومي، تطبيق الهجرة والجمارك، 6 أكتوبر 2009
www.ice.gov/doclib/about/offices/odpp/pdf/ice-detention-rpt.pdf
- «تقرير ينتقد التوسع في احتجاز المهاجرين»، نيويورك تايمز، 6 أكتوبر 2009.
- (17) «المهاجرون يواجهون احتجاجات طويلة لكنهم يملكون حقوقا قليلة لتغيير هذه السياسة»، هيرالد ديلي، 22 مارس 2009.
- (18) انظر «بعالجون كمجرمين: طالبو اللجوء في الولايات المتحدة»، الفصل 5 من «الولايات المتحدة: حقوق للجميع»، منظمة العفو الدولية، أكتوبر 1998
www.amnesty.org/en/library/asset/AMR511998/035/en/fd3dc1e9-sa9811-dd-80bc-797022E51902/amr510351998en.htmlg
- (19) وليام فيشر، «الولايات المتحدة: استمرار الإساءات في احتجاز المهاجرين»، خدمة إنتربرس، 31 مارس 2010.
- (20) فاليريا فرنانديز، «الولايات المتحدة: تقييد امرأة مهاجرة محتجزة أثناء وضعها ولدا»، خدمة إنتر برس، 4 مارس 2010.
- (21) آدم نوسيتي، «امرأة أركنساس تترك في الحجز وتمضي 4 أيام من دون غذاء ولا ماء»، نيويورك تايمز 12 مارس 2008.
- (22) آمي غولدشتاين ودانا بريست، «تخدير بعض المحتجزين قبل ترحيلهم»، واشنطن بوست 14 مايو 2008.
- (23) توم باري، «موت في تكساس: أرباح وفقير وتغطية هجرة»، بوسطن ريفيو (نوفمبر - ديسمبر 2009).
- (24) باري، «موت في تكساس».
- (25) «محتجز بعيدا: نقل المهاجرين إلى مراكز احتجاز بعيدة في الولايات المتحدة»، منظمة حقوق الإنسان 2 ديسمبر 2009
www.hrw.org/en/node/86789
- (26) ألكسس دي توكوفيل، «الديموقراطية في أمريكا» (1835 نيويورك: هاربر بيرينال 1966) 237.
- (27) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثير تغير المناخ العالمي في السياسة الخارجية والأمن القومي» (واشنطن: مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية ومركز الأمن القومي الجديد 2007) 85 و86.
- (28) كامبل وآخرون، «عصر العواقب: 85-86»؛ «دعت برندا ووكر ضيفة بويلز المكسيك» إحدى أسوأ الدول في العالم؛ وقالت إن «المكسيكيين جيدون في... تأسيس تهريب البنى التحتية ويمكنهم النفاذ... بأسلحة الدمار الشامل»، قضايا إعلامية في كولورادو، 20 أكتوبر 2006.

www.colorado.medismatters.org/item200610200003

وللمزيد عن برندا ووكر انظر:

www.adl.org/immigration/blogosphere/brenda_walker.asp

(29) دعت غين ضيفة بويلز المكسيكيين الذين يقولون إن العنصرية وراء مناقشة الهجرة في الولايات المتحدة بالـ «نازيين ذوي القمصان البنية»، قضايا إعلامية في كولورادو، 9 أكتوبر 2007.

(30) ديفيد أيل، «إيقاف سيفرين بسبب تعليقاته على المهاجرين المكسيكيين»، بوسطن، 1 مايو 2009

www.boston.com/news/local/massachusetts/articles/2009/05/01/severin_suspended_for_comments_about_mexican_immigrants

(31) أيل «سيفرين» سافيج «احرقوا العلم المكسيكي!»، قضايا إعلامية لأمريكا، 31 مارس 2006

<http://mediamatters.org/research/200603310008>

(32) ماديسون غرانت، «مرور العرق العظيم أو الأساس العنصري للتاريخ الأوروبي» (نيويورك: تشارلز سكرينر ساندز، 1916). هذا الكتاب شكل آراء أناس مثل ثيودور روزفلت ووليام راندولف هيرست حول العالم وساعد في تيرير التوسع الإمبريالي للولايات المتحدة، وخصص الهجرة المبنية على أساس عنصري في العام 1924.

(33) «اقترح بورتز القبة العظيمة كمكان لاحتجاز 11 مليون هسباني ينتظرون شحنهم للعودة إلى نيكاراغوا وكولومبيا وكوستاريكا والمكسيك»، 29 مارس 2006 قضايا إعلامية لأمريكا،

<http://mediamatters.org/research/200603290004>

(34) «بورتز حول المهاجرين غير الشرعيين: أعطهم كلهم بعض الفضلات النووية ودعهم يأخذونها معهم إلى المكسيك»، قضايا إعلامية لأمريكا، 22 يونيو 2007،

<http://mediamatters.org/mmtv/200706220005>

(35) «منظر المؤامرة في CNN لو دويس يشوه سمعة شبكته - ادعاء كبير كل مرة»، 23 يوليو 2009.

<http://mediamatters.org/mobile/research/200907230035>

(36) لو دويس، «عدم الأمان على الحدود: أجناب مجرمون غير شرعيين ومستوردات مميتة وعفو عن الأجناب غير الشرعيين»، 14 CNN أبريل 2005.

<http://edition.cnn.com/TRANSCRIPTS/05041/14/1dt/01.html>

(37) نص من بيك متوافر عند «حذر بيك مرة أخرى من أن المسلمين إذا لم يتصرفوا الآن بالدخول في حقل التنديد بالإرهاب فإنهم سينظرون من خلال سياج من الأسلاك الشائكة نحو الغرب»، قضايا إعلامية لأمريكا، 7 سبتمبر 2006

<http://mediamatters.org/mmtv/200609070002>

- (38) من 1 مايو 2006 إذاعة ويستوود وان «عامل الراديو، مع بيل أو رايلي»، متوافر في: «ادعى أو رايلي بأن منظمي الاحتجاجات حول الهجرة يخفون خطة عسكرية سرية لاسترداد الجنوب الغربي من الولايات المتحدة»، قضايا إعلامية لأمريكا، 3 مايو 2006 <http://mediamatters.org/mmtv/200605030009>
- (39) اقتبس أو رايلي في «هاجمت أرقام الإعلام المكسيكيين الملوحن بالأعلام، لكن ليس أولئك الملوحن بالأعلام الإيرلندية أو الإيطالية أو الإسرائيلية»، قضايا إعلامية لأمريكا، 3 أبريل 2006، www.mediamatters.org/research/200604030012
- (40) الديمقراطية الآن، عناوين رئيسية، 11 مايو 2010، كين سيلفرشتاين، «حزب الشاي في سونورا»، هاربر (يوليو 2010).
- (41) جوناثان كوبر، «أريزونا الحاكم يوقع قانونا يمنع الدراسات العرقية»، أسوشيتد برس، 12 مايو 2010.
- (42) بيل أو رايلي، «الحقيقة حول أريزونا والأجانب غير الشرعيين»، أخبار فوكس، 4 مايو 2010 www.foxnews.com/story/0,2933,592129,00.html
- (43) بول روبن، «زمن واحد على واحد مع نائب رئيس شرطة مقاطعة - ادعاؤه بأنه أصيب بالرصاص من مهرب مخدرات مملوء بالثغرات - ينتج نتائج غريبة»، نيوتايمز (فينيكس) 25 نوفمبر 2010.
- (44) قال ماثيو إن «للجمهوريين الحق بالخوف من رؤية أغلبية من السكان اللاتينيين»، وتحدي غودمان «هل عشت في حي مكسيكي؟»، 31 مارس 2006.
- (45) في دعاية على الـ NBC لكتاب بوكانان ضد الهجرة، صرح ماثيو بأنه «بفضل هذا العرض، يمكن لهذا الكتاب أن يبقى رقم 1 في أمريكا»، 25 أغسطس 2006.
- (46) باتريك بوكانان، «حالة طوارئ: اجتياح العالم الثالث وغزو أمريكا» (نيويورك: كتب ثوماس دون 2006) 1-2.
- (47) بوكانان، «حالة طوارئ»، 6، 12، 28.
- (48) ريتشارد هوفشتادتر، «أعماط الرهاب في السياسة الأمريكية»، مجلة هاربر، نوفمبر 1964، 77 - 86.
- (49) «موافقة واسعة على قانون الهجرة الجديد في أريزونا: الديمقراطيون منقسمون، لكنهم يؤيدون النقاط الرئيسية»، مركز بحوث بو للناس والصحافة، 12 مايو 2010.
- (50) جين ماير، «عاملون سريون»، نيويورك ركر 30 أغسطس 2010: جورج مونبيوت، «حركة حزب الشاي: مخدوعة وملهمة من مليارديرات»، الغارديان، 25 أكتوبر 2010.
- (51) إيان ترينار، «السويد تشارك في الحملة الأوروبية الواسعة ضد الهجرة»، الغارديان 24 سبتمبر 2010.
- (52) أنتوني فيولا، «المشاعر ضد المسلمين تدفع الجناح اليميني»، واشنطن بوست 26 أكتوبر 2010.

- (53) كيت كونيلي، «غجر محصورون خلف جدار أوروبي مشين»، غارديان، 24 أكتوبر 1999.
 (54) بيل ماكيبين، «الأرض: صنع حياة على كوكب جديد قاس» (نيويورك: هتري هولت وشركته، 2010)، 145 - 146.

الفصل السادس عشر

- (1) «محطة نووية من جيل قادم: تقرير في الكونغرس» (أُعد من مكتب الطاقة النووية في وزارة الطاقة الأمريكية أبريل 2010) 23، متوافر على

<http://nuclearenergy.gov/geniv/negeniv.html>

- (2) مارك هيرتسغارد، «إعادة الخضار إلى أفريقيا»، الأمة 19 نوفمبر 2009.
 (3) يمكن للمرء أن يجد مراجع حول هذا على موقع خدمة البيئة العالمية في برنامج الأمم المتحدة للتنمية،

www.pnud-energia.org.bo

- (4) من أجل الحصول على المزيد انظر روبرت سكيلديسكي، «كينز: عودة السيد» (لندن: ألين لين 2009)؛ مارك فايزبروت، «الانتخابات البرازيلية مهمة بالنسبة إلى العالم»، فولكا دو سان باولو (البرازيل) 8 أكتوبر 2010؛ مارك فايزبروت، «من سيسمح للبرازيل أن تحقق إمكاناتها الاقتصادية؟»، فولكا دو سان باولو (البرازيل) 27 أغسطس 2010.

- (5) جيا لين يانغ، «الشركات تراكم النقد لكنها تتردد في زيادة فرص العمل»، واشنطن بوست 15 يوليو 2010.

- (6) وليام الدن، «وول ستريت يحقق أفضل سنتين على الإطلاق بفضل عملية الإنقاذ»، هافنغتون بوست، 13 ديسمبر 2010.

- (7) آرون لايكي وستيفان غروسار، «في الشارع: خزائن الدفع تسجل أعلى مستوى لها»، مجلة وول ستريت، 2 فبراير 2011.

- (8) مات تايبلي، «آلة الفقاعات الأمريكية العظيمة»، رولنغ ستون، 5 أبريل 2010.

- (9) انظر مؤشر موندي

www.indexmundi.com/commodities/?commodity=food-price-index&months=60

- (10) المخططات متوافرة في مؤشر موندي:

www.indexmundi.com/commodities/?commodity=wheat

- (11) روكسانا تيرون، «مجلس الشيوخ يوافق على قانون الدفاع، 68-29»، الهيل، 22 أكتوبر 2009؛ روبرت هيغز، «ميزانية الدفاع بتريليون الدولارات أصبحت جاهزة مسبقاً»، معهد إنديبندنت، 15 مارس 2007،

www.independent.org/newsroom/article.asp?id=1941

- ليسي أولسن «الزيادة في الإنفاق على الدفاع منذ العام 2001»، مركز التحكم بالتسلح وعدم انتشار الأسلحة، 11 مارس 2010،

http://armscontrolcenter.org/policy/securityspending/articles/fy11_groeth_since_2001

(12) «ضريبة الدخل الأمريكية على الأفراد: إعفاءات شخصية وأعلى المعدلات الضريبية وخفضها والأساس الضريبي للضريبة العادية»، سنوات ضريبة 1913-2008، الجدول 23. لبيانات أحدث انظر «عوائد ومصاريف وعجز وفوائض ودين على الجمهور، 1971 حتى 2010 مليارات الدولارات»، الموازنة ومستقبل الاقتصاد: بيانات لتاريخ الموازنات، مكتب الموازنة في الكونغرس، يناير 2011 الجدول E-1,1.

(13) «التعامل مع الشك: صناعة إنكار تغير المناخ وعلم المناخ»، (تقرير حركة السلام الأخضر العالمية أُمستردام 24 مارس 2010) 4. أيضا انظر كريس موني، «حرب الجمهوريين على العلم» (نيويورك: كتب بيسك 2005).

(14) «إكسون لا تزال تساعد المتشككين في المناخ»، الأسترالي 20 يوليو 2010.

(15) جين ماير، «عمليات تحويل: الأخوان المليارديرات اللذان يشنان حربا على أوباما»، نيويوركركر 30 أغسطس 2010؛ «صناعات كوخ تمول سرا آلة إنكار تغير المناخ» (تقرير من حركة السلام الأخضر في الولايات المتحدة واشنطن في 30 مارس 2010) «100 مادة سامة ملوثة للهواء»، معهد بحوث الاقتصاد السياسي، مارس 2010

www.peri.umass.edu/toxix_index

(16) كريستان بارينتسي، «ريح حرب الأفكار»، «في هذه الأوقات»، أكتوبر 2003: كيم فيليبس - فين، «أياد خفية: صنع الحركة المحافظة منذ زمن الصفقة الجديدة حتى ريغان» (نيويورك: نورتن 2009).

(17) «عدد أقل من الأمريكيين يجدون دليلا قويا للاحتراز العالمي، وتأييد متواضع لموضوع سياسة التغطية والتجارة»، مركز بحوث بيو للناس والصحافة، 22 أكتوبر 2009

<http://people-press.org/report/669>

(18) أندرو مالوني، «حياتي أثناء الهروب: جاسوس من الشرطة يكشف عن 8 سنوات كمحارب من أجل البيئة»، ديلي ميل (UK) 17 يناير 2011؛ ماثيو تيلر وبول لويس، «ضابط الشرطة السري مارك كينيدي في قلب ضجة عالمية»، الغارديان (UK) 13 يناير 2011. تم هذا الانتهاك الفاضح لسلطات الشرطة تحت سلطة حكومة عمالية يفترض أنها ملتزمة بمعالجة تغير المناخ، وقد ذهبت بعض المعلومات التي جمعت حول الناشطين المتطرفين على مستوى القاعدة مباشرة إلى مكتب رئيس الوزراء طوني بلير.

(19) بريان توكر، «نحو عدالة مناخية: آراء حول أزمة المناخ والتغير الاجتماعي» (غرينمارسفيغن، النرويج: دار نشر كومياناليزم 2010) 13.

(20) سوزان غولدينبرغ، «قانون باراك أوباما حول المناخ يضرب بحملة كلفت 45 مليون دولار»، الغارديان (UK) 12 مايو 2009.

(21) روبرت وايشيلمان، «تخطيط الفحم الحجري الكبير»، الأمة، 3 مايو 2010.

(22) هنري ميللر، «مدار الجدي» 293.

(23) «بوليفيا: الحكومة ستعلن حزمة تشجيع لـ SMEs»، الديبر، 2 سبتمبر 2009.

- (24) جون فيدال وجوناثان واتس، «مؤتمر كوبنهاغن يغلق بصفقة ضعيفة يهدد الفقراء برفضها - اتفاقية غير ملزمة تقيد ارتفاع درجة الحرارة، لكنها لا تتضمن أهدافا للإصدارات»، الغارديان (UK) 19 ديسمبر 2009.
- (25) بابلو سولون «لماذا وقفت بوليفيا وحدها في معارضة اتفاقية كانكون حول تغير المناخ»، الغارديان (UK) 21 ديسمبر 2009.
- (26) داميان كارينغتون، «برقيات ويكيليكس تظهر كيف تحكمت الولايات المتحدة باتفاقية المناخ»، الغارديان (UK) 3 ديسمبر 2010، انظر أيضا البرقية التي أرسلت في 26 فبراير 2010.
- (27) «الميثان»، وكالة حماية البيئة www.epa.gov/methane.
- (28) جينيفر خو، «أكبر تقنية نظيفة VC: الصين»، 26 فبراير 2010؛ انظر أيضا «نحو تعافي الأخضر العالمي: توصيات لإجراء فوري من قبل مؤتمر قمة العشرين G20» (تقرير عرض على قمة G20، في لندن 2 أبريل 2009).
- (29) «رئيس الاتحاد الأوروبي يطلب 1 تريليون يورو لإعادة تأهيل الشبكة»، رويترز، 10 نوفمبر 2010.
- (30) مقتبس في كريستيان بارينتي، «قضية الـ EPA»، الأمة، 15 أبريل 2010.
- (31) حول IBM انظر ليندا فايس واليزاغسطس ثوربون، «مسألة شراء بضائع أمريكية: شراء الدولة كاستراتيجية تجارية في الولايات المتحدة»، ريفيو الاقتصاد السياسي العالمي 13، عدد 5 (ديسمبر 2006) 701-724. لأخذ فكرة عن دور الحكومة الهندية في بناء قطاع تقني بواسطة قدرتها الشرائية، انظر راجيفا سينها، «الشراء الحكومي والقدرة التقنية: حالة صناعة التجهيزات الكهربائية الهندية»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 29، عدد 48 (26 نوفمبر 1994) 142-147.
- (32) من أجل مناقشة نظريات حركات الخضر اليسارية حول الرأسمالية انظر روبين إيكيرسلي، «البيئة والنظرية السياسية: نحو اتجاه متركز بيثيا» (الباني: نشر جامعة الولاية في نيويورك 1992)؛ وتيد بنتون، «علاقة طبيعية: البيئة وحقوق الحيوانات والعدالة الاجتماعية» (لندن: فيرسو 1993).
- (33) جون بيلليمي فوستر، «بيئة ماركس: المادية والطبيعة» (نيويورك: نشر المراجعة الشهرية 2000).
- (34) كارل ماركس، «رأس المال» (نيويورك: كلاسيكيات بنغوين 1976) 1: 637.
- (35) ماري دوغلاس، «النقاء والخطر: تحليل مبادئ التلوث والمحظور» (نيويورك: روتليدج 1966) 41.
- (36) هينر روجرز، «ذهب غدا: الحياة المخفية للفضلات» (نيويورك: نيو برس 2006).

المؤلف في سطور

كريستيان بارينتي

■ صحفي ومؤلف أمريكي.

■ ولد في الولايات المتحدة، وتخرج في مدرسة لندن للعلوم السياسية والاقتصادية.

■ حاز جائزة «إمبي» للصحافة الوثائقية، وأرسل تقارير من أفغانستان والعراق وفنزويلا وبوليفيا وساحل العاج والصين.

■ له عدد من المؤلفات منها: «أمريكا المغلقة: الشرطة والسجون في عصر الأزمة» (2000)، و«القفص الناعم: مسح لأمريكا من عصر الرق إلى الحرب على الإرهاب» (2003)، و«كتاب الحرية: ظلال الأوهام في العراق المحتل» (2004).

المترجم في سطور

د. سعد الدين خرفان

■ من مواليد مدينة حمص / سورية 1946.

■ حصل على البكالوريوس في الهندسة الكيميائية من جامعة ليدز - بريطانيا في العام 1969.

■ حصل على شهادة الماجستير في كيمياء الهيدروكربونات من جامعة مانشستر في العام 1970.

■ حصل على شهادة الدكتوراه في هندسة المفاعلات من جامعة نيوكاستل في بريطانيا العام 1976.

■ أستاذ في كلية الهندسة الكيميائية والبترونية بجامعة البعث.

■ مدير بحوث في هيئة الطاقة الذرية من العام 1986 إلى العام 2001.

■ عضو مكتب المهام التابع للجنة الأمم المتحدة لتغير المناخ IPCC في جنيف بسويسرا منذ العام 2002.

■ عضو اتحاد الكتاب العرب منذ العام 2005.

■ له أكثر من 25 كتابا مؤلفا و مترجما في الهندسة الكيميائية والطاقة والبيئة والمياه.
■ من كتبه المنشورة «رؤى مستقبلية»، «الله والعقل والكون»، «من أجل البقاء أحياء»،
«تغير المناخ ومستقبل الطاقة»، «الجائزة الكونية»، «وجه غايا المتلاشي»، «فيزياء
المستحيل».

■ شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والفكرية في العالم.
■ له عدد كبير من البحوث العلمية والمقالات المنشورة في المجلات العلمية والأدبية العالمية.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978 .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات .

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) . الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر . وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة

هذا الكتاب...

يأتي كتاب «مدار الفوضى: الجغرافيا السياسية لتغير المناخ» ليربط موضوع تغير المناخ بالصراع الاجتماعي والعنف السياسي اللذين يميزان بعض مناطق العالم اليوم. يقصد الكاتب بـ «مدار الفوضى» جغرافيا ذلك الحزام على طرفي خط الاستواء بين مدار السرطان ومدار الجدي، والذي تشهد دوله صراعات عنيفة وحروباً أهلية وجريمة منظمة. وهو المنطقة نفسها التي يضرب فيها تغير المناخ بقوة أشد من خلال دورات الجفاف، وتكرار الفيضانات، وحوادث الطقس العنيف.

يأخذنا الكتاب إلى الدول التي تقع في هذا الحزام عبر القارات الثلاث. يبدأ من كينيا ومنطقة الساحل في شرق أفريقيا حيث يتفاعل الجفاف مع إرث الحرب الباردة، والسياسات الليبرالية الجديدة في تأجيج العنف هناك. ثم يتوجه إلى آسيا الوسطى حيث يبين تأثير الجفاف وأزمة المياه على الحرب في أفغانستان والصراع بين الهند وباكستان والحرب الأهلية في قرغيزستان. وأخيرا يأتي إلى أمريكا اللاتينية ليرز دور تغير المناخ في نشوء الجريمة المنظمة في مدن البرازيل الكبرى، وازدهار تجارة المخدرات والهجرة في المكسيك.

لا يعزو الكاتب هذه المشاكل إلى تغير المناخ وحده، لكنه يرى أنه أصبح عاملاً رئيساً، إضافة إلى العوامل الأخرى الموجودة في هذه الدول مسبقاً مثل إرث الحرب الباردة، وتبني الاقتصاد الليبرالي الجديد، فيما دعاه بثلاثية التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ.

نم احاوة الرفع بواسطه

مكتبة عملك

ask2pdf.blogspot.com